

عدد
جهاز
عليه

لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية

إعداد:

فوز سهيل كامل نزال

(Signature)

المشرف:

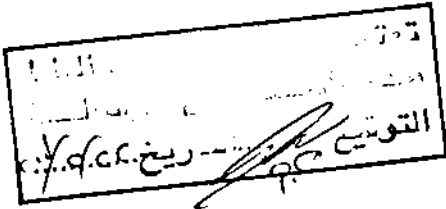
الأستاذ الدكتور محمود داود السمرة

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة في اللغة العربية
وأدائها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

أيار ٢٠٠١



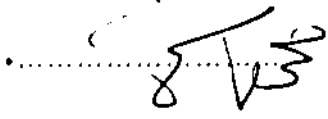
١٢/١٢
١٢/١٢
١٢/١٢

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠٠١/٥/٢١

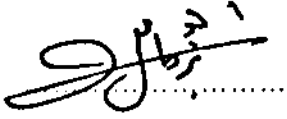
التوقيع

أعضاء اللجنة

- الأستاذ الدكتور محمود داود السمرة، رئيساً
أستاذ شرف/ النقد الأدبي الحديث



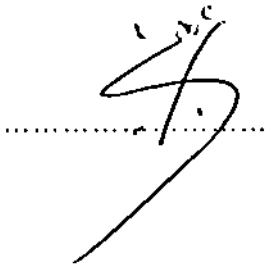
- الأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي، عضواً
أستاذ البلاغة العربية



- الدكتور إبراهيم محمود خليل، عضواً
أستاذ مشارك/ اللسانيات



- الأستاذ الدكتور عبد القادر أحمد الرباعي، عضواً
أستاذ الأدب العربي القديم



❖ الإهداء

إلى من علماني أجدية الحوار مع ذاتي ومع الآخر.....
 إلى أبي وأمي اللذين سطران كتاب أبيي بمداد من حبهما وعطائهما
 وبصيرتهما وصبرهما.....

إلى من حاوروني بصدق وحب..... إلى إخوتي.

إلى من حاوروا تراب فلسطين الحزين فغدا في أيديهم حجارة من
 سجل..... إلى أبطال انتفاضة الأقصى.....

.... أهدي عملي

فوز

❖ الشكر والتقدير

قال ابن سيرين: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)

ينحني الشكر شاكراً أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل.....

أستاذي وملهمي الأستاذ الدكتور محمود السمرة الذي شرفني زمانني بالتلمذ عليه، وتوجني عزاً وفخاراً لما تفضل بقبول الإشراف على أطروحتي. لقد علمني كيف يستمد العالم مداد قلمه من نبع الحرية المسؤولة فيغدو حواراً مع ذاته ومع الآخر صادقاً لا يعرف التدليس، عاشقاً للحقيقة لا يقبل التزييف. وعلمني كيف يكون الحوار مع النصوص الشعرية عشقاً يكشف أسرار الكلمات ويدندن لحن ترابطها.

والشكر لأستاذي الدكتور محمد أبو علي الذي حاورني وزملائي بروح الحب والتواضع، وحقق لعقولنا كرامتها حين سما بها من عالم المنهج البنكي إلى فضاءات المنهج الحوارية، وعلمنا كيف يتجاوز عشقنا لتراثنا البلاغي حدود الكلمة وثنائية الدفاع والهجوم إلى سبر أعماقه وبعثه في حلة جديدة تتداخل فيها خيوط الأجداد والأحفاد برويته اليمامية الصادقة.

والشكر لأستاذي الدكتور إبراهيم خليل الذي رافقني في مسيرتي العلمية وكان مرشدي الأمين، أجد عنده دوماً ضالتي المنشودة، لقد علمني كيف يتعبد العالم في محراب العلم مقدماً جهده وطاقته وسنين عمره قرباناً في سبيله.

والشكر للأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي الذي ينال مريدوه فائدة مزدوجة جمعت العلم وأخلاق العالم في بوتقة واحدة، فقد جسم أمامي أنموذجاً يحتذى لحوار العلم مع المتعلم.

والشكر والتقدير لأستاذنا العلامة الدكتور إحسان عباس الذي حاور تراثنا العربي بحب وصبر فأنتج مكتبة تحكي كتبها للأجيال حكاية قمر أضاء عتمة العقول.

فهرس المحتوى

الموضوع	الصفحة
= قرار لجنة المناقشة.....	ب
= الإهداء.....	ج
= الشكر والتقدير.....	د
= فهرس المحتويات.....	هـ - ك
= ملخص باللغة العربية.....	ل
= المقدمة.....	١
= الفصل الأول:	
(الحوار القرآنى مفهومه، وأنواعه، وأطرافه، ومضامينه وفاعليته، وأطواله)	٥-٧١
❖ تمذلول اللغوي للحوار.....	٥
❖ الحوار القرآنى.....	٧
❖ أنواع الحوار القرآنى:.....	٩
- حوار قصصى.....	
- حوار غير قصصى.....	
❖ مضامين الحوار القرآنى.....	١٠
❖ أطراف الحوار القرآنى:.....	١٢-٤٧
أ - الحوار بين الله و:.....	
١. الملائكة.....	١٤
٢. إبليس.....	١٥
٣. الأنبياء والرسل.....	١٦
٤. أهل النار وأهل الجنة.....	١٩
٥. البشر غير الأنبياء.....	٢٠
٦. مالا يتوقع نطقه (جهنم، والسماء والأرض).....	٢٠

٢١	ب- الحوار بين الملائكة و:.....
٢١	١. الرسل.....
٢٣	٢. الكافرين الذين حقّ عليه العذاب.....
٢٤	ج- الحوارات بين الرسل وأقوامهم.....
٣١	د- الحوار بين نماذج بشرية خارج إطار النبوة:.....
٣٢	- الحوار بين ابني آدم (قابيل وهابيل).....
٣٣	- الحوار بين صاحب الجنيتين وصاحبه المؤمن.....
٣٣	- الحوار بين الشاب الكافر ووالديه المؤمنين.....
٣٤	هـ - حوارات النساء:.....
٣٤	- حوار المرأة المؤمنة العابدة.....
٣٥	- حوار المرأة الأم.....
٣٦	- حوار المرأة الطاهرة الشريفة.....
٣٧	- حوار المرأة العاشقة.....
٤٠	- حوار المرأة الملكة أو صاحبة السيادة.....
٤١	و - حوارات أهل الجنة وأهل النار:.....
٤٢	١. بين الكافرين المعذبين (أول الأمم التي دخلت النار وآخرها، الأفواج المتقدمة والأفواج المتأخرة، الأتباع والمتبوعين، الذين أشركوا وشركائهم، الشيطان ومن اتبعوه، الكافرين وأعضائهم).....
٤٤	٢. بين المؤمنين والكافرين.....
٤٥	٣. بين المؤمنين والمنافقين.....
٤٥	٤. حوارات بين أهل الجنة.....
٤٦	ز- الحوار بين البشر وغيرهم:.....
٤٧	- الحوار بين سليمان والهدد.....
٤٧	- الحوار بين سليمان وعفريت من الجن.....
٤٧	ح- حوارات الشخصية الجماعية.....
٤٩	❖ تقسيم الحوار القرآني من حيث عدد المتحاورين إلى:.....
٤٩	أ - الحوار أحادي الطرف.....
٤٩	ب - الحوار بين إثنين.....
٥٠	ج - الحوار بين واحد من جانب وإثنين من الجانب الآخر.....
٥٠	د - الحوار بين واحد وجماعة.....

- هـ - الحوار بين جماعة وجماعة..... ٥٠
- و - حوار أفراد الجماعة الواحدة..... ٥١
- ز - الحوار بين إثنين وجماعة..... ٥١
- ❖ أشكال الحوار القرآني (وضعيات التواصل الحوارية):..... ٥٢
١. الحوار الخارجي (الثاني)..... ٥٢
٢. الحوار الداخلي (المنولوج)..... ٥٢
٣. الحوار التلقيني..... ٥٤
٤. المناجاة (الدعاء)..... ٥٨
٥. الحوار بالإشارة..... ٥٨
- ❖ فاعلية الحوار القرآني (علة الاختيار، والوظائف المؤداة)..... ٦٠
- ❖ أطوال الحوار القرآني..... ٦٩

= الفصل الثاني:

- (مكونات لغة الحوار القرآني)..... ١٩٧-٢٢
- المكون الأول: (السؤال)..... ٧٢
- ❖ فاعلية السؤال في إنتاج الدلالات وتجسيمها:..... ٧٥
- ❖ طاقة السؤال وأسلوبية في تجسيم دلالة الإنكار..... ٨٢
- ❖ تجسيم السؤال لدلالة التعجب..... ١٠٨
- ❖ طاقة السؤال وأسلوبية في تجسيم دلالة التقرير..... ١١١
- ❖ ظواهر أسلوبية في بنية السؤال الحوارية..... ١٣٠
- ❖ أسلوبية الجواب..... ١٣٥
- المكون الثاني: (الأمر)..... ١٥١
- ❖ فاعلية الأمر في إنتاج الدلالات وتجسيمها..... ١٥١
- ❖ أسلوبية تركيب (الأمر) في لغة الحوار القرآني..... ١٦٢
- ❖ أسلوبية رد المأمور على أمر أمره..... ١٦٩
- المكون الثالث: (النهي)..... ١٧٦
- ❖ فاعلية تركيب النهي في إنتاج الدلالات وتجسيمها..... ١٧٦
- ❖ ردود المتلقي على نهْي الناهي..... ١٨٢

١٨٤	المكون الرابع: (النداء)
	❖ فاعلية النداء في إنتاج الدلالات وأسلوبيته في لغة الحوار القرآني والأدوار التي أداها.....
١٩٧-١٨٤	

= الفصل الثالث:

٣٥٢-١٩٨	(ملاح أسلوبية في لغة الحوار القرآني)
١٩٨	❖ التقديم والتأخير (ترتيب ودلالات):
٢٠١	أولاً: ما قدم والمعنى عليه
٢٠١	- تقديم الذات على الآخر
٣٠٢	- ترتيب الكلمات زمنياً
٣٠٢	- ترتيب الكلمات وفق الأولوية
	- ترتيب الكلمات المعنوية على الكلمات الدالة على مضمون مادي أو العكس
٢٠٤	
٢٠٥	- ترتيب الكلمات وتصاعد الصراع في نفس المتكلم
٢٠٦	- تقديم السبب على النتيجة أو العكس في الدعاء
٢٠٦	- ترتيب الكلمات والدلالة على أدب المتكلم مع المخاطب
٢٠٧	- تقديم تركيب السؤال على تركيب النداء
٢٠٨	- تقديم تركيب الأمر على تركيب النداء
٢٠٩	- تقديم تركيب الأمر على تركيب النهي أو العكس
٢١١	- تقديم تركيب الأمر على السبب
٢١٢	- تقديم الجملة الخبرية على التركيب الندائي
٢١٢	- تقديم النعت بالمفرد على النعت بالجملة
٢١٢	ثانياً: ما قدم والنية به التأخير
	أنماطه:
٢١٣	أ - التقديم والتأخير في الجملة الفعلية:
٢١٣	١. تقديم الفاعل على الفعل
٢١٨	٢. تقديم المفعول به
٢٢١	٣. تقديم المفعول لأجله
٢٢١	٤. تقديم الجار والمجرور والظرف

٢٣٣	ب - التقديم والتأخير في الجملتين الإسمية والشرطية:.....
٢٣٣	أولاً: التقديم والتأخير في الجملة الإسمية:.....
٢٣٣	١. تقديم خبر المبتدأ عليه.....
٢٣٥	٢. الترتيب في جملة كان وأخواتها.....
٢٣٨	٣. الترتيب في جملة إن وأخواتها.....
٢٣٩	ثانياً: التقديم والتأخير في الجملة الشرطية.....
٢٤٣	ثالثاً: ما قدم في آية وأخر في أخرى.....
٢٤٨	رابعاً: ما قدم وأخر في آية واحدة.....
٢٥٠	❖ التكرار (دلالة التواجد المهيمن):.....
٢٥٠	- المفهوم.....
٢٥٢	- أنماط التكرار في الحوار القرآني:.....
٢٥٢	النمط الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في السورة الواحدة:.....
٢٥٣	١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار.....
٢٥٩	٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار:.....
٢٦٠	- تكرار المنادى.....
٢٦٥	- تكرار الأدوات المخصصة.....
٢٦٩	- تكرار الدال وترديده مع متعلقات مختلفة.....
	النمط الثاني: تكرار عناصر من حوار الشخصية ذاتها في غير سورة تكراراً تاماً أو منقوصاً:.....
٢٧٧	أ - التكرار اللفظي التام:.....
٢٧٨	١. التكرار اللفظي التام في حوار الأنبياء مع أقوامهم.....
٢٨٠	٢. التكرار اللفظي التام في ردود المعاندين الكافرين.....
٢٨١	٣. التكرار اللفظي التام في حوار أحد الأطراف مع الله أو العكس.....
٢٨١	ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير.....
٢٨٢	ج - التكرار اللفظي مع الإبدال.....
٢٨٣	أنماطه:
٢٨٣	أولاً: إبدال الحرف بحرف آخر.....
٢٨٥	ثانياً: إبدال كلمة بكلمة أخرى.....
٢٨٧	ثالثاً: إبدال الكلمة بضمير.....
٢٨٨	رابعاً: إبدال الجملة بجملة أخرى.....

٢٨٩	 خامسا: إبدال الصيغة الصرفية للكلمة بصيغة صرفية أخرى
٢٩١	 سادسا: إبدال ضمير بضمير آخر
٢٩٢	 د - التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان
٢٩٣	 - تكامل المحاوراة الواحدة المكررة (محاوراة هود مع قومه أنموذجا)
٣٠١	 النط الثالث: تكرار المحاوراة وتعدد المرسل:
٣٠١	 أ- التكرار اللفظي التام
٣٠٢	 ب- التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير
٣٠٤	 ج- التكرار اللفظي مع الإبدال
٣٠٧	 د- التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان
٣٠٩	 ❖ الحذف (بتر ودلالات)
٣٠٩	 - المفهوم
٣١٢	 - أسلوبية الحذف الحوارات القرآنية (نماذج ودلالات):
٣١٢	 ١. الحذف في بنية السؤال:
٣١٢	 أ - حذف أداة السؤال
٣١٩	 ب - حذف تركيب السؤال
٣٢٠	 ج - حذف الجملة الفعلية التالية لأداة السؤال
٣٢٢	 د - الحذف في جواب السؤال
٣٢٤	 هـ - حذف السؤال
٣٢٥	 و - حذف السؤال بعد (أرأيت و أرأيتم)
٣٢٥	 ٢. الحذف في تركيب الشرطي:
٣٢٥	 أ - حذف جواب الشرط
٣٢٨	 ب - حذف جملة الشرط
٣٢٨	 ٣. حذف الفعل
٣٢٩	 ٤. حذف المفعول به
٣٣١	 ٥. حذف الجملة بعد حروف الجواب
٣٣٣	 ٦. حذف الصفة
٣٣٤	 ٧. الحذف في بنية النداء:
٣٣٤	 أ - حذف أداة النداء
٣٣٧	 ب - حذف أداة النداء والمنادى
٣٣٨	 ج - حذف المنادى

٣٣٨	 د - الترخيم
٣٣٩	 ٨. حذف حرف من حروف الكلمة
٣٤١	 ❖ الالتفات (أسلوبية التحول):
٣٤١	 - المفهوم
٣٤٢	 - الالتفات في الحوار القرآني (نماذج ودلالات):
٣٤٢	 ١- التحول عن خطاب الواحد إلى خطاب الإثنين
٣٤٢	 ٢- التحول عن خطاب الإثنين إلى خطاب الواحد
	 ٣- التحول عن خطاب الإثنين إلى خطاب الجمع، ومن الجمع
٣٤٣	 إلى المفرد
٣٤٣	 ٤- التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع
٣٤٣	 ٥- التحول عن خطاب الجمع إلى خطاب المفرد
٣٤٤	 ٦- التعبير عن المثني بالمفرد
٣٤٤	 ٧- الانتقال من الغيبة للخطاب
٣٤٦	 ٨- الانتقال من الخطاب إلى المتكلم إلى الخطاب إلى الغيبة
٣٤٦	 ٩- الانتقال من الخطاب إلى التكلم
٣٤٦	 ١٠- الانتقال من التكلم إلى الخطاب
٣٤٧	 ١١- الانتقال من زمن الحضور إلى زمن الآتي
٣٤٧	 ١٢- الالتفات في السرد الحوارية
٣٥٣	 = الخاتمة
٣٥٧	 = المصادر والمراجع
٣٦٦	 = الملحق
٣٧١	 ABSTRACT =

ملخص

لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية

إعداد

فوز سهيل كامل نزال

المشرف

الأستاذ الدكتور محمود داود السبعرة

تعنى هذه الدراسة بعرض طبيعة التشكل اللغوي في النص الحواري القرآني من وجهة أسلوبية تربط الصياغة اللغوية بقيمتها التعبيرية منصبة على المستوى التركيبي فيها وما يؤديه ترابط عناصره من دلالات.

وتنظر الدراسة إلى الحوار بوصفه نمطاً من أنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني، يمتاز بتشكله الأدائي الخاص لتحقيق أقصى درجات التفاعل مع المتلقي؛ ولهذا فقد حاولت الكشف عن علة اختياره وبيان فاعليته، كما حاولت ربط أسلوبية المقولة الحوارية بالطرف الذي نقلت على لسانه مبيّنة تجسيمها اللغوي لانفعالاته وهمومه المختلفة، دون أن تفرض على النص شيئاً خارج حدوده.

وجاءت الدراسة في ثلاثة فصول؛ تناولت في الفصل الأول مفهوم الحوار القرآني، وأنواعه، وأطرافه، ومضامينه، وأشكاله، وفاعليته. وتناولت في الفصل الثاني أكثر التراكيب اللغوية حضوراً في النصوص الحوارية مبرزة علة رسوخها، وتعرضت الدراسة في الفصل الثالث لأبرز آثار التواصل الحوارية على الصياغة اللغوية للمقولة الحوارية.

وخرجت الدراسة بمجموعة من النتائج أفضى إليها رصد الظواهر الأسلوبية في النصوص الحوارية القرآنية، ووصفها، وتعليلها.

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ليقوم تواصلًا حوارياً مع عناصر الكون الواسع يفضي به إلى اليقين بوجود إله واحد أوجد. والصلاة والسلام على ناقل الحوار الإلهي إلى البشر، سيدنا محمد الذي أدى الرسالة، وبلغ الأمانة متبعاً أحسن القول، وبعد:

تناولت هذه الدراسة طبيعة التشكل اللغوي في الحوار القرآني تناولاً أسلوبياً ينصب على البنية اللغوية وصولاً إلى الكشف عن انفعالات أطراف الحوار ومشاعرها واستحضاراً لها بتأمل طريقتها في الصياغة والتعبير والاختيار المؤدي للغرض.

ولما كانت لغة الحوار القرآني هي لغة القرآن ذاتها، بأسلوبها الرفيع، فقد ظهرت على تأمل تفرداتها الأسلوبية، فالمقولات الحوارية التي حكاها الله على لسان الشخصيات تقولت بطريقة خاصة تعكس أمزجتهم الانفعالية والفكرية وطابعهم ومكونات أنفسهم.

ويعود اختيار الباحثة للغة الحوار القرآني مادة للبحث إلى رغبته في البدء بالخطوة الأولى في درب تأمل لغة النص القرآني تأملاً أسلوبياً؛ هذا التأمل الذي يفضي إلى الإحساس بالتوائم والالتحام بين القالب اللغوي والمضمون المسكوب فيه، فأعجاز القرآن إعجاز أسلوبية قائم على الكيفية التي جسّمت فيها الصياغة اللغوية المعنى تجسّماً تحدّى الله به الإنس والجن على أن يأتوا بمثله.

الإهداء

سبب آخر يعزى إليه الختيار يتمثل في رسوخ هذا النمط من أنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني وتنوع أساليبه وتعدد أشكاله، إنه عالم من التشكلات الأدائية النابضة بالحياة التي تغري الناظر بتأمل كيفية البعث اللغوي للموقف الحوارية وتشخيصه تشخيصاً يملأ الأسماع والأبصار بكل خلجة من خلجات أطراف الحوار وبكل نفثة من نفثات صدورهم، فقد أمسك القرآن بزمام الموقف الحوارية وأداره بأسلوب معجز، وذهب فيه كل مذهب ولونه ألوان مختلفة حسب مقتضى الحال وداعية المقام.

وقد زاد من رغبة الباحث في طرق هذا الموضوع ملاحظتها أن جل الدراسات التي تناولت الحوار القرآني انبرت لعرض ما يحويه من مضامين، دون أن تبرز أدوار التوظيفات اللغوية الخاصة في إثراء هذه المضامين إيحائياً إبرازاً مطّرداً، فقد تعرض عددٌ منها للقالب اللغوي الذي سكبت فيه المقولة الحوارية، لكنه تعرض عابراً وسريعاً، يسلط الضوء على مجموعة من الانزياحات اللغوية أو على الاختيار ثم يعود القهقري شارحاً المضامين، أو مكتفياً بعرض عناصر المحاورة دون الربط بين الرسالة وأطراف التواصل. هذا هو الحال في دراسة عبد المرضي زكريا (الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني)، ودراسة تمام حسان (البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)، ودراسة خليل عبد المجيد (الحوار والمناظرة في القرآن الكريم)، ودراسة عبد الحليم حنفي (أسلوب المحاورة في القرآن الكريم).

وتناولت دراسات عديدة الحوار في حديثها عن القصة القرآنية بوصفه عنصر الحركة الذي يساند السرد ويتبادل معه أدوار نقل المغزى وتصعيد الأحداث، نذكر منها، دراسة عبد الكريم الخطيب (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه)، ودراسة علي أحمد علي (الإعجاز والبيان في قصص القرآن)، ودراسة سليمان الطراونة (دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية).

واقترنت مجموعة من الدراسات على مضامين الحوار القرآني مستخلصة آداب الحوار والسلوكيات التي ينبغي على المحاور أن يتحلى بها، نذكر منها: دراسة إدريس حمادي (الخطاب الشرعي وطرق استثماره)، ودراسة محمد حسين فضل الله (الحوار في القرآن، قواعده، أساليبه، معانيه)، ودراسة أحمد الصويان (الحوار: أصوله المنهجية وآدابه السلوكية).

وقد أفادت الدراسة من هذه المؤلفات وما فيها من ومضات أسلوبية متفرقة هنا وهناك، وخطت لنفسها طريقاً جديدة في ولوج عالم النص الحواري القرآني، تعدّ قراءة مخصصة للغة الحوار، منصبة عليها بوصفها غاية بذاتها لا مجرد وسيلة للوصول إلى غايات أخرى.

وسبق للباحثة أن تعاملت مع القالب الأدائي ذاته بركائز المنهج الأسلوبى ودعائمه، وذلك في أطروحة الماجستير المعنونة بـ (مقامات الحريري: دراسة أسلوبية) حيث تناولت في أحد فصولها مكونات لغة الحوار في المقامات وخصائصها، فزات في الحوار قالباً حيويّاً يبرز اللغة موظفة في حدث كلامي قائم على التجابه التواصلّي بين طرفين، تتأثر صياغة مقولة كل منهما بالمقام، والعلاقة الرابطة بينهما، والانفعال الذي يريد كل طرف إيصاله للآخر.

ولهذا رأت الباحثة مواصلة تأمل هذا النمط الأدائي في نصوص أدبية أخرى فهداها الله للحوار القار في كتابه العزيز، هذا الحوار الذي يدعو إلى الإبحار في عوالم النص وطرفي الحوار.

واستعانت الباحثة بمجموعة من المصادر والمراجع، نذكر من الأولى أمهات كتب التفسير مثل: (الكشاف)، و (تفسير التحرير والتوير)، و (البحر المحيط). وأمهات كتب العلوم القرآنية مثل: (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، و (الإتقان)، و (البرهان) وغيرها.

كما استعانت بعدد من الدراسات القرآنية التي ولجت لغة النص القرآني، مثل: دراسة كاظم الطواهري (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، ودراسة عبد الله إبراهيم (أسرار ترتيب القرآن)، ودراسة حميد العامري (التقديم والتأخير في القرآن الكريم)، ودراسة خلود العموش (الخطاب القرآني: دراسة في علاقة النص والسياق)، ودراسة خالد قاسم بني دومي (التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني: دراسة لغوية أسلوبية) وغيرها.

وانتظمت الدراسة في هيكل تنظيمي قائم على ثلاثة فصول، تناولت في الفصل الأول مفهوم الحوار لغة واصطلاحاً، ومفهوم الحوار القرآني، وأنواعه، والأطراف التي شكلته، ومضامين الحوار، وأشكاله التي أمكن حصرها في وضعيات التواصل الآتية: الحوار الخارجي (الثاني)، والحوار الداخلي، والحوار التلقيني، والمناجاة (الدعاء)، والحوار بالإشارة.

كما تناولت فاعلية الحوار بوصفه اختياراً من بين بدائل خطابية متعددة، وبوصفه قالباً يؤدي وظائف وأدواراً مخصوصة في النص القرآني، وأتبعته هذه الفاعلية ببيان أطوال الحوارات القرآنية، وربط طول المقولة الحوارية خاصة والتراجع الحوارية عامة بظروف المقلم وانفعالات الشخصية وغاياتها التي تريد إيصالها إلى الطرف المقابل.

٥٤٣٣٥٥

وتناولت في الفصل الثاني أكثر التراكيب اللغوية حضوراً في النصوص الحوارية مبرزة علة رسوخها، وطاقتها في إنتاج الدلالات، وكيفية تواجدها في النص وتألفها مع بقية عناصره، وتمثلت هذه التراكيب بـ: (السؤال، الأمر، النهي، والنداء).

كما تعرضت الدراسة لأسلوبية رد المتلقي (الطرف الآخر في التواصل الحوارية) على الدلالات القارة في التراكيب السابقة.

وفي الفصل الثالث تناولت الدراسة أبرز آثار التواصل الحوارية على الصياغة اللغوية للمقولة الحوارية، فعرضت لأسلوبية التقديم والتأخير، والتكرار، والحذف، والالتفات.

وختمت الدراسة بمجموعة من النتائج التي أفضى إليها رصد الظواهر الأسلوبية في النصوص الحوارية القرآنية، ووصفها، وتعليلها.

وأخيراً، فإن هذه الدراسة خطوة طفلة قد تفتح للباحثة آفاقاً في المستقبل للسير في درب مكابدة النص القرآني بخطى أكثر نضجاً ووثوقاً. وهي بداية لمسؤولية صعبة ولكنها تنطوي على لذة غير محدودة، فتأمل النص القرآني وعد دائم بانفتاح على آفاق واسعة، إنه النص الذي يحاور عقل الإنسان وقلبه وروحه مغرقاً إياه في بحر لغته وصولاً إلى أعماق الحقيقة.

والله أسأل أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأعتذر عن أي تقصير يشفع له قصور طاقتي وجهدي، كما أعتذر عن أي سهو أو خطأ أو نسيان فيما يتعلق بجلال النص القرآني من حيث الفهم أو الضبط.

وأردد ما قاله الحافظ ابن عساكر: "فمن وقف فيه على تقصير أو خلل، أو عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه في ذلك متطولاً، وليصلح فيه ما يحتاج إلى الإصلاح متفضلاً، فالتقصير من الأوصاف البشرية، وليست الإحاطة بالعلم إلا لباريء البرية، والله من وراء القصد".

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين).

فوزنزال

الفصل الأول

الحوار القرآني

- ✠ الحوار (لغة واصطلاحاً)
- ✠ الحوار القرآني
- ✠ أنواع الحوار القرآني (حوارات قصصية وحوارات غير قصصية)
- ✠ مضامين الحوار القرآني
- ✠ أطراف الحوار القرآني
- ✠ أشكال الحوار القرآني (وضعية التواصل الحوارية):
 - الحوار الخارجي الثنائي
 - الحوار الداخلي (المنولوج)
 - الحوار التلقيني
 - المناجاة (الدعاء)
 - الحوار بالإشارة
- ✠ فاعلية الحوار القرآني:
 - الحوار بوصفه اختياراً
 - وظائف الحوار في النص القرآني وأدواره.
- ✠ أطوال الحوار القرآني.

الحوار

➤ المدلول اللغوي:

جاء في لسان العرب تحت مادة (حور): " الحُورُ: الرجوع عن الشيء والى الشيء، وحر إلى الشيء وعنه حورا ومحارا ومحارة وحوارا: رجع عنه وإليه...، ويقال كذلك: الباطل في حور؛ أي في نقص ورجوع. وأحار عليه جوابه: ردّة. وأحرت له جوابا، وما أحار بكلمة. والاسم من المحاورة الحُوَيْر، تقول: سمعت حُوَيْرَهما وحوارَهما. والمُحَاوَرَة: المجاوبة. والتحاوَر: التّجاوَب، وتقول: كلمته فما أحار إليّ جوابا وما رجع إليّ حَوِيرا ولا حُويرة ولا مُحَورة ولا حوارا؛ أي ماردّ جوابا. واستحاره أي: استنطقه.

وفي حديث علي - كرم الله وجهه -: يرجع إليكما ابناكما بحُورٍ ما بعثما به، أي: بجواب ذلك، يقال: كلمته فما ردّ إلي حوارا، أي: جوابا، وقيل: أراد به الخيبة والإخفاق. وأصل الحُور: الرجوع إلى النقص، ومنه حديث عبادة: يوشك أن يرى الرجل من ثبج المسلمين قراء القرآن على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - فأعاده وأبداه لا يحور فيكم إلا كما يحور صاحب الحمار الميت؛ أي: لا يرجع فيكم بخير ولا ينتفع بما حفظه من القرآن كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه. وفي حديث سطيح: فلم يحر جوابا أي لم يرجع ولم يرد. وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد حاوره. والمُحَورة: من المحاورة مصدر، كالمشورة من المشاورة كالمحورة، وأنشد:

كفى رُجْعُها من قصة المتكلم

لحاجة ذي بثٍّ ومُحَورة له

وما جاءتني عنه مُحَورة، أي: ما رجع إليّ عنه خبر. وإنه لضعيف الحُور، أي: المحاورة، وقوله:

على النار واستودعته كفّ مُجْمِدٍ

وأصفرُ مضبوحٍ نظرت حوارَه

ويروى: حويره، وإنما يعني بحواره وحويره خروج القدح من النار، أي: نظرات الفلج والفوز. واستحار الدار: استنطقها، من الحوار الذي هو الرجوع^(١).

وخلاصة هذا التعريف أن: المحاوره هي: المجاوبة. والتحاوور هو التجاوب. والحوار هو مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

ومن المصطلحات القريبة من مصطلح الحوار: الجدال أو الجدل. جاء في اللسان مادة (جَدَل) أن "الجدل: شدة القتال، يقال: جدلت الحبل أجذله جدلاً إذا شددت قتله، وفتلته فتلاً محكماً. والجدل بمعنى الصرع، يقال: طعنه فجذله؛ أي رماه فانجدل أي سقط.

والجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالاً. ورجل جدل ومُجدل ومجدال: شديد الجدل، يقال: جادلت الرجل فجذلته جدلاً أي: غلبته. ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام. وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا)، والمراد به الجدل بالباطل^(٢).

كما وجدت هذه التفرقة بين مدلول المادتين في استعمال القرآن لهما، حيث جاءت مادة (جدل) في تسعة وعشرين موضعاً دل عليها على الحديث غير المجدي (يجادلنا في قوم لوط)^(٣) أو الحديث المنموم: (ولا جدال في الحج)^(٤) ولم يلجأ القرآن إلى الجدال إلا في حالات الضرورة، وهي حالات رد الخصم وإلزامه وإظهار الحجة^(٥)، وقد حرص على أن يكون محموداً يقصد به الحق، مع الالتزام بأداب الحديث: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)^(٦) وأما المحاوره فقد وردت مادتها في القرآن في ثلاثة مواضع؛ اثنان منها في قصة صاحب الجنين، حيث استهلت مقولته الحوارية بـ: (فقال لصاحبه وهو يحاوره)^(٧)، كما استهلت مقولة صاحبه المؤمن بـ: (قال له صاحبه وهو يحاوره)^(٨) مثبتة أن المقولتين جزء

^(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (حور).

^(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (جدل).

^(٣) هود/٧٤.

^(٤) البقرة/١٩٧.

^(٥) محمد علي قزجيل، أصول الجدل وآداب المناجاة في القرآن الكريم، ص ٤٣.

^(٦) العنكبوت/٤٦.

^(٧) الكهف/٣٤.

^(٨) الكهف/٣٧.

فتح الله أمام الملائكة والشيطان لما أراد خلق آدم، مروراً بحوارات رسله مع أقوامهم، وانتهاءً بحواره مع خلقه يوم القيامة.

وتوزع الحوار القرآني على مكي القرآن ومدنيّه، حصل القسم المكي منه على نصيب الأسد، فقد جاء الحوار في ألف وثلاثمائة وست وتسعين آية مكية مقابل مائة وسبع وتسعين آية مدنية. ويمكن تحليل هذا التفاوت في التوزيع بسببين:

الأول: ضخامة حجم القرآن المكي مقارنة بحجم القرآن المدني^(١).

الثاني: ارتباط الحوار بالقصص القرآني الموزع على مساحة في القرآن المكي أوسع منها في القرآن المدني، لأسباب ترتبط بالدعوة تجعل من هذه القصص أداة تأثير فاعلة في توجيه الرسول وأتباعه.

وقد استقرأت هذه الدراسة نصيب سور القرآن من الحوار بعد أن رتبّت حسب النزول، فوجدت أن القرآن بدأ بسورة خلاجلها من الحوار، ثم بدأ الحوار يفرض وجوده في بنى السور الواقعة بين سورتي (ص) و(الحاقة)، وبعدها أخذ غياب الحوار يطغى على حضوره^(٢).

إنه التواجد بما يقتضيه الحال والمقام، والدور الذي يؤديه هذا النمط الخطابى مرتبطاً بالمرحلة التي عايشها متلقوه؛ فقد دار جل أوائل السور في فلك قدرة الله وآياته المعجزة، لإثارة تأمل المتلقي وتحديه وصولاً إلى إقراره واستسلامه لهذه القدرة. كما عرضت طبيعة الدور الذي يجب على متلقي الوحي الأول (محمد صلى الله عليه وسلم) أن يؤديه لينطلق بدعوة الله.

وتشير هذه الرسالة المخاطبين فينقسمون إلى فريقين؛ فريق آمن واستسلم، وفريق كفر وتمرد. وبُين ثنائية الكفر والإيمان تبرز شرارة المواجهة وتستعر متجسمة في حوارات يسعى كل طرف من أطرافها إلى دحض الآخر. ويحاكي القرآن هذه المرحلة التي تأزم فيها الحوار بين أنصار الحق وأنصار الباطل، يبعث حوارات مماثلة جرت بين أنصار الفريقين وعاقبة تلك الحوارات لتثبيت الرسول وأتباعه، وتحذير خصومه من المشركين وأهل الكتاب. كما قفزت مجموعة من هذه الحوارات إلى عالم الغيب؛ لتوضيح عاقبة كلا الفريقين ترغيباً وترهيباً.

(١): نسبة حجم القرآن المكي ٧٥,٤%، ونسبة حجم القرآن المدني ٢٤,٥%.

(٢): ينظر الملحق التفصيلي، ص (٣٦٦-٣٧٠) من هذه الدراسة.

وبعد أن تأسست الدولة الإسلامية واستقرت دعائمها، خفت صوت خصومها، فلم يعودوا قادرين على المواجهة الصريحة مع المسلمين، ولهذا تقلص ظهور الحوار، القالب الذي جسم هذه الخصومة والخصومات المماثلة لها، في جل السور المدنية، وأخذ ينقل مضامين جديدة ويتقلب بما يناسبها، حتى كاد الصوتان المتعارضان يختفيان؛ لأن جل هذه الحوارات دارت بين الأنبياء وأتباعهم، أو بين طرفين أحدهما مقهور لا يقوى على النقاش أو التحدي، ولبروز الحوار التلقيني الذي يتولاه طرف واحد حاملاً أحكاماً وتشريعات تتعلق بمعاملات المسلمين.

وظهرت هذه الحوارات ظهوراً خاطفاً، فهي لا تمتد في بنية السور امتداد الحوارات في السور المكية، إنها تحول مفاجئ لنمط الخطاب يثير تأمل المتلقي لما يحويه من مضمون ثم يغيب تاركاً النمط الخطابي الذي احتضنه يواصل مسيرته في عالم السورة.

➤ والحوار في القرآن الكريم نوعان: حوار قصصي وحوار غير قصصي*

الحوار القصصي هو الذي حاكه الله على لسان أطراف شكل تقاطعها أحداثاً مضت وصراعات تازمت يندرج جلها بين عناصر الخير والشر وذلك في إطار الرسائل السماوية وما يدور في فلكها، كالحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم، والحوارات التي دارت بين غير الأنبياء كالحوار في قصة أصحاب الجنة، وقصة صاحب الجنتين، وقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين.

أما الحوار غير القصصي فيشمل المقولات التي لقنها الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم - ليقوم بتبليغها إلى أتباعه أو إلى خصومه من المشركين وأهل الكتاب. كما يشمل المقولات التي حكاها الله على ألسنة البشر وغير البشر يوم القيامة؛ كحوارات أهل النار مع بعضهم، وحوارهم مع خزنة جهنم، وحوارات أهل الجنة، وحوارات أهل الأعراف.

وهذا يعني أن تخلل الحوار غير القصصي للأحداث الواقعة في محيط الدائرة الإسلامية والأحداث المستقبلية، "وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصاً، لأن القصص تتبع للآثار الماضية، والتفات إلى الوراء"^(١).

* للغة القرآنية مفهومها الخاص المحدد "بإعادة عرض الأبناء والأحداث التاريخية التي نسيها الناس أو غفلوا عنها، لتذكيرهم بها، وإلغائهم إليها، ليكون لهم منها عبرة وموعظة. وهي أنباء وأحداث حقيقية، لم تلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع. قال تعالى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) يوسف/ ١١١" ينظر عبد الكريم الخطيب، القصة القرآن، ص ٤٨-٤٩.

^(١) عبد الكريم الخطيب، القصة القرآن، ص ٤٧.

• مضامين الحوار القرآني:

لم يقتصر الحوار القرآني على موضوع معين، بل شمل موضوعات القرآن على تنوعها، وهي موضوعات شاملة أسس فيها القرآن منهاج حياة يهدي للتي هي أقوم: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾^(١)، فالحوار لم يأت في القرآن عرضاً، ولم يستدعه سياق أو غرض بعينه، إنه نمط من أنماط الخطاب القرآني يتضافر معها في تحقيق أغراضه الشاملة لأمر الدنيا والآخرة. وهو أسلوب من أساليب عرض الدعوة له وقعه الخاص في نفس المتلقي قد ينقله من دائرة التظهير إلى دائرة التنفيذ.

دارت مضامين كثير من الحوارات القرآنية في فلك الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهذا مل حكنه حوارات الأنبياء مع أقوامهم وما اشتملت عليه من سلوكيات تتناسب مع العقيدة الصحيحة: ﴿وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار﴾^(٢).

وأتبع شعيب أمر الدعوة إلى الله بإرشادات وإصلاحات إقتصادية واجتماعية: ﴿يا قوم، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾^(٣).

وعالجت مجموعة من الحوارات عددا من أمراض النفس البشرية كالحقد والحسد الذي تمثل في شخص أحد ابني آدم^(٤)، والغرور والتكبر المتمثلين في شخص صاحب الجنيتين^(٥)، والشنوذ الجنسي الذي مثله قوم لوط^(٦).

^(١): الكهف/٥٤.

^(٢): المائدة/٧٢.

^(٣): الأعراف/٨٥.

^(٤): ينظر الحوار في المائدة/ (٢٧-٣٢).

^(٥): ينظر الحوار في سورة الكهف/ (٣٤-٤٢).

^(٦): ينظر حوار قوم لوط مع قومهم في: الأعراف/ (٨٠-٨٢)، هود/ (٧٨-٧٩)، الحجر/ ٧٠.

وعالج حوار موسى مع الخضر، عليهما السلام، أخلاقيات المتعلم والعالم^(١). ودار مضمون الحوار بين بلقيس وسليمان في فلك السياسة^(٢). ومثل حوار السحرة مع فرعون كيفية مواجهة القوى الطاغية علنا^(٣)، بينما حكى حوار أهل الكهف موقف التقية^(٤). ومثل حوار يوسف مع السجينين جانبا من عالم الحلم وتأويلاته^(٥). وقفزت بنا حوارات يوم القيامة إلى عالم الغيب وتفرقت في خطين؛ الأول خط المعذبين في نار جهنم وما دار بينهم من خصام وتلاعن وتكذيب، والخط الثاني خط الفائزين بجنة الخلد وما في كلامهم من حمد وإحساس بالنعيم وذكريات من عالمهم الأرضي.

هذا جزء من كل لا يحده تصنيف، ونظرة إلى المضمون الرئيس في هذه الحوارات الذي يتفرع إلى مضامين عديدة.

وقد تتقارب الملامح الأسلوبية في الحوارات التي تدور في فلك مضموني واحد، فردود الكافرين على أنبيائهم، مثلا، تقول كثير منها في قالب السؤال، من تنعيم صاعد يتناسب مع عنقهم وغضبهم وحقدهم، ولقدرته على استيعاب الدلالات المتعددة التي يريدون إحاطة الرسل وأولياء الله بظلالها؛ كالسخرية والإتكار والتوبيخ والتهديد وغيرها^(٦).

وبرز تركيب الأمر وتوالى في كثير من مقولات الأنبياء الموجهة لأقوامهم، لما فيها من طلب الامتثال لتعاليم الدعوة الإلهية وتنفيذ السلوكيات التي تتبثق عنها^(٧). كما أثرت مضامين الحوار على مكونات الجملة الحوارية وخصائصها وحركتها وطولها، وهذا ما ستحاول الدراسة بيانه.

^(١) ينظر الحوار في سورة الكهف/ (٦٦-٨٢).

^(٢) ينظر الحوار في سورة النمل/ (٢٨-٤٤).

^(٣) ينظر الحوار في سورة طه/ (٦٥-٧٣)، والأعراف/ (١٠٣-١٢٦).

^(٤) ينظر الحوار في سورة الكهف/ (١٤-١٦).

^(٥) ينظر الحوار في سورة يوسف/ (٣٦-٤١).

^(٦) نذكر من هذه الأسئلة ما جاء في: طه/ ٤٩، ٥١، ٥٧، الشعراء/ ٤٩، ١١١، المؤمنون/ ٤٧، الأعراف/ ٧٠، الأحقاف/ ٢٢، هود/ ٦٢.

^(٧) نذكر من هذه الأوامر ما جاء في: الشعراء/ ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤.

• أطراف الحوار:

تتازعت الجمل الحوارية أطراف متعددة، تنوعت في جنسها وعددها وصفاتها مثبتة أن باب الحوار في القرآن مفتوح للجميع، وأن التفاعل مع الآخر - أيا كان نوع هذا التفاعل - غاية في ذاتها. واتسع مفهوم هذا "الآخر"؛ فقد يكون من جنس المحاور، وقد يكون من جنس آخر، وقد يكون خصما لدودا لمن يحاوره، وقد يكون محبا ودودا. وقد يكون أعلى مرتبة ممن يحاوره، وقد يكون دونه، أو معه في منزلة واحدة. وقد يكون فردا، وقد يكون إثنين، وقد يكون جماعة... إلى آخر هذه التصنيفات

ولعل في هذا دعوة إلهية إلى فتح آفاق الحوار مع الآخر أيا كان جنسه أو توجهه ومذهبه أو مكانته. وفيه أيضا دليل على شمول الخطاب الإلهي واتساعه واستيعابه لما في الكون الواسع من تلون وتعدد واختلاف وتناقض، ومحاكاته لكل هذا وكشفه عنه وصولا إلى الحقيقة المطلقة.

والله عز وجل هو الطرب الأعلى المحرك للحوارات القرآنية المهيمن عليها، إنه يحمل أطراف الحوار كلامها بلسان عربي مبين تاركا لها فرصة الترجمة عن ذاتها وبسط انفعالاتها، دون أن نشعر بأن ملقنا من ورائها يلقنها الكلمات التي تلقينا في المشهد، أو يحركها الحركة التي تؤديها فيه.

ويشارك الله (الراوي العليم)، في عدد من النصوص الأطراف الأخرى في حواراتها، فيقوم بدور الراوي للحدث الكلامي المشارك في إنتاجه، ويحكي كلامه كما يحكي أقوال الأطراف الأخرى مصدرا إياها بـ (قال أو إحدى أخواتها)، ومثاله ما جاء في الحوار الآتي بينه وبين إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ، أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟﴾

قال: أولم تؤمن؟

قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي.

قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم^(١).

إنه عز وجل ينقل كلامه بأسلوب الغائب (قال) مثل نقله لكلام إبراهيم-عليه السلام-، ويتكلم في الجملة الحوارية الأخيرة عن ذاته بأسلوب الغائب أيضاً فقد قال: (واعلم أن الله عزيز حكيم) ولم يقل: (واعلم بأنني عزيز حكيم).

وهذا الأسلوب هو الغالب في جل المشاهد الحوارية التي شارك الله فيها، إنه عز وجل يشعرنا باستقلال هذا النمط من الخطاب وتميزه عن الأنماط الأخرى، فيدخلنا في بؤرة النص بحيادية تبعدنا عن المباشرة أو المواجهة التي قد يوحى بها أسلوب المتكلم. ويظهر صوته عز وجل مندمجاً مع أصوات المتحاورين في البنية الحوارية لعدد من النصوص، وهذا ما سنوضحه في حديثاً عن الالتفات في الحوارات القرآنية.

وغالباً ما يعلق الله عز وجل على مقولات المتحاورين أو على ما يدور في دواخلهم من صراعات وهواجس، ويبدو هذا في بنى السرد التي تتخلل الحوار.

ويمكن تصنيف الطرق التي وجه الله بها خطابه إلى خلقه في أشكال ثلاث:

(١) الوحي أو الإلهام، وهو الكلام الخفي الذي يدور في نفس الموحى إليه ويتفاعل مع هواجسه ومشاعره حافظاً إياه إلى التصرف والتنفيذ الفعلي أو القول، وليس هو وحي الأنبياء^(٢). ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأوحينا إلى أم موسى أن: أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾^(٣) وقوله: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا: لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾^(٤).

(٢) خطاب الأنبياء وغيرهم من وراء حجاب، حيث يوجه الله خطابه مباشرة ودون وساطة إلى من يريد من خلقه، ويجاذبه أطراف الحديث.

^(١) البقرة/٢٦٠.

^(٢) فضل عاش، قصص القرآن الكريم، ص ٤٧٦.

^(٣) القصص/٧.

^(٤) طه/٦٧-٦٩.

٣) توجيه الخطاب الإلهي بواسطة الملائكة الذين يتمثلون بهيئة البشر ليتقبلهم المتلقي؛ فمنطق الحوار أو التواصل الكلامي يقتضي وحدة النوع بين الفريقين ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾^(١). وقد يسمع المتلقي صوت الملائكة دون أن يراها، ومثاله الطريقة التي حاورت بها الملائكة زكريا ومريم عليهما السلام^(٢).

ووجه الله خطابه لرسوله محمد (ص) بواسطة الوحي جبريل، عليه السلام، الذي كان يتمثل له بصورة بشرية حيناً وبصورته الملائكية حيناً آخر. ولا يظهر الوسيط في النص القرآني، فيبدو الخطاب الإلهي موجهاً إلى الرسول توجيهاً مباشراً. وعلى الرسول أن يوصل هذا الخطاب إلى الناس: ﴿قل: أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرءاناً عجبا﴾^(٣).

❖ ويمكن أن نصف الحوارات في القرآن الكريم وفقاً للأطراف التي شكلتها إلى:

(أ) الحوار بين الله - تبارك وتعالى - و:

١- الملائكة: وهم عباده المخلصون الذين يفعلون ما يؤمرون. وحاوهم الله في موطنين؛ الأول: حين أراد الله خلق آدم، فأخبر ملائكته بتلك الإرادة: ﴿واذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة.

قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟! قال: إني أعلم ما لا تعلمون.

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم،

فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون؟!﴾^(٤)

^(١) الأنعام/٩.

^(٢) تنظر الحوارات في: آل عمران/ (٣٩، ٤٣-٤٦).

^(٣) الجن/١.

^(٤) البقرة/ (٣٠-٣٣).

والموطن الثاني: حين يحاورهم الله يوم القيامة على مسمع من المشركين:
﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك،
أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾^(١).

ووجه الله خطابه للملائكة أمراً إياهم بتنفيذ أوامر معينة في أربسة مواطن كان رد
الملائكة فيها فعلياً لا قولياً^(٢)، كقوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من
دون الله، فاهدوهم إلى صراط الجحيم، وقفوهم إنهم مسؤولون﴾^(٣). ولعل في حوار الله
للملائكة دعوة إلى استشارة الأتباع والأعوان الذين يغلب عليهم طابع الاستسلام والإذعان
والخوف من إبداء الرأي أو المشاركة فيه.

٢- إبليس: حاور وَعَنَى إبليس لما رفض الإمتثال لأمره بالسجود لآدم، سامحاً له بالتصريح
بأهوائه ومشاعره، بالرغم من علمه المحيط بها ومعرفته المسبقة بنهاية هذا الحوار، وكأنه وَعَنَى
يعلم الناس أن يلجؤوا إلى الحوار قبل لجوئهم إلى القوة، مهما ملكوا من وسائل القوة، ومهما كلن
خلاف مخالفهم.

وجاء حوار الله مع إبليس هذا الحوار في خمسة مواطن^(٤)، نذكر منها ما جاء في
الحوار الآتي في سورة الأعراف:

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس لم يكن
من الساجدين.

قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟!

قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين.

قال: فاهبط منها، فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين.

قال: أنظرني إلى يوم يبعثون.

قال: إنك من المنظرين.

^(١) ساء/ (٤٠-٤١).

^(٢) تنظر هذه المواطن في: ساء/ (٤٠-٤١)، والصفات/ (٢٢-٢٣)، والحقائق/ (٣٠-٣٢)، غافر/ ٤٦.

^(٣) الصفات/ (٢٢-٢٣).

^(٤) تنظر هذه المواطن في: الأعراف/ (١١-١٨)، الإسراء/ (٦١-٦٥)، والنساء/ (١١٨-١١٩)، وص/ (٧١-٨٥).

قال: فيما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين.
قال: أخرج منها مدووما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين^(١).

٣- الأنبياء والرسل: ويعكس هذا الحوار العلاقة المباشرة بين الله وأصفيائه من الخلق، وتواصله معهم، ودعمه الدؤوب لهم، وإطلاعه على أحوالهم.

والأنبياء والرسل الذين حاورهم الله حوارا مباشرا دون وسيط (ملك الوحي) هم:
- آدم عليه السلام، في قوله: ﴿يا آدم، أنبئهم بأسمائهم﴾^(٢). وقوله: ﴿يا آدم، اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلام منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾^(٣). يحوي الخطابان أمرا على المخاطب أن ينفذه، ولهذا كان رد آدم عليها فعليا لا قوليا^(٤)، ولكننا نسمع رد آدم وحواء على تساؤل ربهما الإنكاري التوبيخي في الحوار الآتي: ﴿وناداهما ربهما: ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدو مبين؟! قالوا: ربنا، ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾^(٥).

- ونوح عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ربه فقال: رب، إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. قال: يا نوح، إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إنّني أعظك أن تكون من الجاهلين. قال: رب، إنّني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمن أكن من الخاسرين. قيل: يا نوح، اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾^(٦)، ولعل استخدام صيغة المبني للمجهول (قيل) يوحي بخطاب إلهي غير مباشر أو منقول بحرفيته بوساطة ملك. أو لعله يوحي بإسْدال الستارة على المشهد الحوارية السابق، والبدء بخطاب إلهي يحوي مضمونا جديدا.

^(١) الأعراف/ (١١-١٨).

^(٢) البقرة/ ٣٣.

^(٣) البقرة/ ٣٥، وتكرر هذا الحوار في: الأعراف/ ١٩.

^(٤) ينظر أيضا الخطاب الذي وجهه الله لآدم في: طه/ (١١٧-١١٩).

^(٥) الأعراف/ (٢٢-٢٣).

^(٦) هود/ (٤٥-٤٨).

- وهوود عليه السلام في قوله: ﴿قال: رب، انصرنى بما كذبون. قال: عما قليل ليصبحن نادمين﴾^(١).

- وصالح عليه السلام في قوله: ﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم، فارتقبهم واصطبر، ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾^(٢).

- وإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن، قال: إني جاعلك للناس إماما. قال: ومن ذريتى؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾^(٣). وقوله: ﴿إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين﴾^(٤)، وقوله: ﴿وإذ قال إبراهيم: رب، أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن؟! قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي. قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا، ثم ادعهن يأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم﴾^(٥).

ويرجع التعدد السابق في الحوارات إلى كون إبراهيم خليل الله، فهو يسأل ويسأل، وينفذ الأمر الموجه إليه مباشرة من الأمر مستشعرا هذا التخصيص والتكريم اللذين تجسما في توجيه الخطاب الإلهي إليه أكثر من مرة.

- وموسى، عليه السلام، الذي قال له الله: ﴿يا موسى، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾^(٦) فقد حاوره الله مرات عديدة^(٧)، وكلمه بأسلوب خاص يوحى بالاصطفاء والتكريم، واستمع إليه وحقق دعاءه، وشد عزمه، وكرّر تطمينه، ليحاور فرعون الطاغية، مع علمه عز وجل أن فرعون لن يستجيب لدعوته. وهذا يؤكد ما ذكرناه من الدعوة إلى فتح باب الحوار مع الخصم وعدم اليأس منه — ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾^(٨).

^(١) المؤمنون/ (٣٩-٤٠).

^(٢) القمر/ ٢٨.

^(٣) البقرة/ ١٢٤.

^(٤) البقرة/ ١٣١.

^(٥) البقرة/ ٢٦٠.

^(٦) الأعراف/ ١٤٤.

^(٧) تنظر هذه المواطن في: الأعراف/ (١٤٢-١٤٥) (١٥٥-١٥٦)، طه- (١١-٤٨) (٦٨-٦٩) (٨٣-٨٥)، الشعراء/ (١٠-١٧)،

النمل/ (٨-١٢)، القصص/ (٣٠-٣٥)، يونس/ (٨٧-٨٩)، المائدة/ (٢٥-٢٦).

^(٨) طه/ ٤٤.

وقد تكرر حضور الحوار المتضمن أول خطاب إلهي وجهه الله إلى موسى، ومنحه معجزة (العصا) و (اليد البيضاء)، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، وطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، يشد به أزره، ويشركه في أمره، واستجابة الله لطلبه، مع فروق بسيطة يقتضيها سياق السورة، تكرر في سورة طه، والنمل، والقصاص.

وظهر في حوار غير مباشر في سورة البقرة^(١) حيث حاور موسى ربه بالحاح من بني إسرائيل، ونقل إليهم كلامه دون أن يسمع الحضور صوته عز وجل - لأن الخطاب الإلهي المباشر نعمة يختص بها الله من يشاء من عباده، نذكر من هذا الحوار المقطع الآتي: ﴿قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي. قال: إنه يقول: إنها بقرة لا فارض ولا بكر عاون بين ذلك، فافعلوا ما تؤمرون﴾^(٢) إنه عليه السلام ينقل طلب قومه إلى الله، وربما كان يصرح بطلبهم على مسمع منهم، ولكنه وحده من يسمع الرد، ثم يقوم بمهمة إيصاله إلى بني إسرائيل.

- وعيسى عليه السلام، في موطنين: الأول: في سورة آل عمران ﴿إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك، ورافعك إلي، ومطهرتك من الدين كفرًا، وجاعل الدين اتبعوك فوق الدين كفرًا إلى يوم القيامة، ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون؛ فأما الدين كفرًا فاعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم، والله لا يحب الظالمين﴾^(٣).

والثاني: في سورة المائدة، وقد اخترنا من هذا الحوار^(٤) المقطع الآتي: ﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟! قال: سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب﴾^(٥).

^(١) البقرة/ (٦١-٧١).

^(٢) البقرة/ ٦٨.

^(٣) آل عمران/ (٥٥-٥٧).

^(٤) ينظر الحوار الكامل بين الله وعيسى في سورة المائدة/ (١١٠-١١٨).

^(٥) المائدة/ ١١٦.

- وحاوّر الله رسله أجمعين يوم القيامة: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتكم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾^(١).

٤- أهل النار وأهل الجنة:

حاوّر الله أهل النار في ستة عشر مشهداً حوارياً^(٢)، حكى جلّها أمل المعذّبين بأن يخرجهم الله من جهنم ورجاءهم بعد أن أقروا بذنوبهم مظهرين ندمهم، وكيف وبخهم الله مقرّعين ومنكراً طلبهم وقد عصوه من قبل، وكانوا بآياته كافرين:

﴿قالوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالّين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال: اخشَوْا فيها ولا تكلمون، إنه كان فريق من عبادي يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾^(٣).

ولا نجد مثل هذه المراجعة الكلامية في المشاهد التي حاوّر فيها الله أصحاب الجنة، فهم يكتفون بتلقي الخطاب الإلهي وتنفيذ ما فيه من أوامر يجني مأمورها خير الأمر وعطاءه. وكلّ حالة الانبهار بنعم الله ونعيمه الذي لم تره عين، ولم يخطر على بال أحد من خلقه قد ألجمت ألسنتهم: ﴿يا عباد، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يظاف عليهم بصحاف من ذهب، وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون، وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنت تعملون، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون﴾^(٤).

^(١) المائدة/١٠٩.

^(٢) ينظر حوار الله مع أهل جهنم في المواضع التالية: الأنعام/٢٣، ٣٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، الأعراف/٣٨، إبراهيم/٤٤-٤٥، طه/١٢٥-١٢٦، المؤمنون/٦٥-٦٧، (١٠٥-١١٥)، الفرقان/١٧-١٩، النمل/٨٤، القصص/٦٢-٧٥، السجدة/١٢، (٢٠، ١٤)، فاطر/٣٧، يس/٥٩-٦٤، الصافات/٢٠-٢٥، الخالية/٣١-٣٤، الأحقاف/٣٤، ق/٢٧-٢٩.

^(٣) المؤمنون/١٠٦-١١١.

^(٤) الأعراف/٦٨-٧٣. وينظر أيضاً: الأعراف/٤٣، ق/٣٢-٣٤، الحديد/١٢، الحاقة/٢٤.

٥- حوار الله مع بشر غير الأنبياء. وجاء هذا الحوار في موضعين:

الأول: في سورة البقرة ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟! فأما الله مائة عام ثم بعثه، قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم.﴾

قال: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك، ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما. فلما تبين له، قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير^(١).

فالتقرآن لا يصرح بهوية هذا الرجل المار على القرية الخاوية، فقد يكون رسولا أو رجلا صالحا أو كافرا منكرا. ولعل عدم التحديد يفيد أن التساؤل أو الحيرة التي لفت مشاعر الرجل إزاء هذا المشهد المغرق في النمار والخراب قد تطرأ على بال أي انسان، بدليل إدراجها مع المشهد الحوارى الذي طلب فيه إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى^(٢).

الثاني: في سورة الأعراف ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا.﴾

: أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون^(٣).

٦- حوار الله مع مالا يتوقع نطقه:

كحواره مع جهنم: ﴿يوم نقول لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد^(٤).﴾

وحواره مع السماء والأرض: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: اتبيا طوعا أو كرها. قالتا: أنتينا طائعين^(٥).﴾

وتثبت هذه الحوارات قدرة الله المطلقة، فهو إذا أراد أن ينطق ما لم يجعله ناطقا فعل، فكل شيء ملك يمينه، وكيفه كيفما أراد.

^(١) البقرة/٢٥٩.

^(٢) ينظر هذا الحوار في: البقرة/٢٦٠.

^(٣) الأعراف/(١٧٢-١٧٣).

^(٤) ق/٣٠.

^(٥) فصلت/١١.

(ب) حوارات الملائكة :

١- بين الملائكة والرسل:

ذكرنا أن الملائكة هم الوسطاء بين الله ورسله؛ ينقلون إليهم خطابه، ويبلغونهم أوامره. وفي القرآن الكريم أربعة نماذج من هذا الحوار:

الأول: الحوار بين لوط، عليه السلام، والملائكة:

وتكرر هذا الحوار ثلاث مرات^(١)، وهو يحكي قصة مجيء الملائكة إلى لوط، عليه السلام، بهيئة رجال حسان. وكيف هرع قوم لوط إليه، طالبين منه أن يخلّي بينهم وبين ضيفه ليمارسوا عليهم شذوذهم، وطلب لوط منهم أن يتقوا الله في ضيفه، وأن يقضوا حاجتهم مع النساء بما يناسب الفطرة السليمة، ثم حصول الفرج من الله بأن يصرح الضيف بهويتهم، فهم رسل من عند الله، جاءوا لإيقاع العذاب بقومه الشاذين، وأمره بأن يسري بأهله إلى حيث يؤمرون، ولا ينظر إلى الخلف؛ لنلا يرى عذاب قومه.

الثاني: الحوار بين إبراهيم، عليه السلام، والملائكة:

تكرر هذا الحوار ثلاث مرات^(٢)، وهو يحكي قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم بهيئة رجال غرباء، فيلقون عليه السلام، ويرد تحيتهم بأحسن منها، ثم يجيء بعجل سمين، ويدعوهم للطعام، ولكنهم لا يأكلون، فيوجس في نفسه خيفة منهم، فيخبرونه بأنهم رسل من رب العالمين، وقد بعثهم ليبشروه بأنه سينجب غلاما عقيما، فيتعجب من هذه البشارة هو وزوجه كونهما عجوزين، ولكون زوجه عقيما، فتخبرهما الملائكة بأن هذا أمر الله، الذي إذا أراد شيئا فعله. كما تخبره الملائكة بأنهم ذاهبون إلى قوم لوط لإيقاع عذاب الله عليهم.

الثالث: الحوار بين داود، عليه السلام، والملكين:

جاء هذا الحوار في سورة (ص)^(٣)، وفيه خبر الملكين اللذين بعثهما الله إلى داود في صورة رجلين تسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان، ففزع منهما. فأمراه ألا يفزع، فهما لا يريدان به سوءا، وطلبا منه أن يحكم بينهما، فهما خصمان، قد بغى أحدهما على الآخر. ويعرض أحدهما المسألة، ويحكم له داود، ثم يدرك فجأة أن فسي المسألة التي عرضت عليه تعريضا بفعل قام به أو هم بالقيام به، وأن عتاب الله وتوبيهه جاء ممثلا بهذه المسألة دون التصريح أو المجاهرة، فخرّ داود راکعا طالبا من الله الغفران.

^(١) الأولى في: هود/ (٧٧-٨٣)، والثانية في: الحجر/ (٦١-٧٧)، والثالثة في: العنكبوت/ (٣٣-٣٥).

^(٢) الأولى في سورة هود/ (٦٩-٧٦)، والثانية في الحجر/ (٤٩-٦٠)، والثالثة في: الذاريات/ (٢٤-٣٧).

^(٣) الآيات/ (٢٢-٢٥).

٢- الحوار بين الملائكة والكافرين الذين حق عليهم العذاب:

حاور الملائكة الكافرين في موقنين؛ الأول: وقت قبض أرواحهم، وجاء هذا في خمسة مواطن^(١)، نذكر منها: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟! قالوا: ضلّوا عنا. وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾^(٢).

وقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، فآلقوا السلم: ما كنا نعمل من سوء. : بلى، إن الله عليم بما كنتم تعملون، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فلبس مثوى المتكبرين﴾^(٣).

وتشكل هذه الحوارات بداية سلسلة لا تنتهي من العذاب، وهي نتيجة لحوارات خاضها أولئك المعذبين مع أطراف الحق والإيمان، ونتيجة لأعمالهم السيئة في دنياهم، وهذا يؤكد أن الحوارات في القرآن تدور في فلك واحد، وتسير سيرا منطقيا، فالحوار اللاحق نتيجة حتمية لحوار سابق.

ويحكي القرآن الحوارات التي ستدور بين الملائكة (خزنة جهنم) والمعذبين الذين سبق حوارهم يوم القيامة، ودارت هذه الحوارات في أربعة مواطن^(٤)، نذكر منها:

الحوار الذي دار بين مالك (خازن جهنم) والمجرمين الذي استحقوا الخلود في نار جهنم: ﴿ونادوا: يا مالك ليقض علينا ربك.

قال: إنكم ماكثون، لقد جئناكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون﴾^(٥).

والحوار الذي دار بين الذين في النار وخزنة جهنم:

﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم: ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب:

قالوا: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟! قالوا: بلى. قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾^(٦).

^(١) الأنعام/٩٣، الأعراف/٣٧، الأنفال/٥٠-٥١، النحل/٢٨-٢٩، يونس/٩٠-٩١.

^(٢) الأعراف/٧٣.

^(٣) النحل/٢٨-٢٩.

^(٤) هي: الزمر/٧٤-٧٨، المائدة/٨-١٠، ص/٥٩، غافر/٤٩-٥٠.

^(٥) الزمر/٧٧-٧٨.

^(٦) غافر/٤٩-٥٠.

(ج) الحوارات بين الرسل وأقوامهم*:

وهي الحوارات الأكثر حضوراً في القصص القرآني، والأكثر ثلونا وتحدياً، فحوار أحد الرسل، عليهم السلام، لقومه قد يتكرر في سور عدة، مع اختصاص كل سورة بإبراز جانب من جوانب هذا الحوار.

وتدور حوارات الرسل وأقوامهم في فلك الدعوة إلى توحيد الله، فمن المعروف أن كل رسول أرسل إلى قومه قد دعاهم إلى كلمة التوحيد. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١)؛ فعبادة الله وَعَلَىٰ وحده لا شريك له هو دعوة جميع رسله من عهد نوح إلى عهد محمد، وكثيراً ما وردت حوارات عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة، وقد تركزت في حيز مخصوص من بنية النص، أو رتبت فيها بتناسق وتسلسل يؤكد هذه الحقيقة ويؤيدها.

١- الحوار بين نوح، عليه السلام، وقومه:

ورد هذا الحوار في ست سور، اختص كل منها بإبراز جانب من جوانب الحوار، وإن تكررت عباراته وكلماته في أكثر من موضع. وهذه السور ومواضع الحوار فيها، وقد رتبناها حسب ترتيب النزول:

الأعراف: (٥٩-٦٤)، الشعراء: (١٠٥-١٢٢)، يونس: (٧١-٧٢)، هود: (٢٥-٤٣)، نوح: (٤، ٣، ١٠-٢٠، ٢٣)، المؤمنون: (٢٣-٣٠).

ويحوي هذا الحوار تفصيلات دعوته، عليه السلام، لقومه، وتعنّتهم واستكبارهم وسخريتهم منه، ثم تقييس الله له من عدم إيمانهم، وأمره بصنع السفينة، ثم حصول الطوفان، وغرق الذين ظلموا ومنهم ابن نوح، الذي لم يستجب لتوسلات أبيه إليه بركوب السفينة.

* قمنا بترتيب حوارات الأنبياء ترتيباً زمنياً؛ ابتداءً بحوارات نوح، عليه السلام، وانتهاءً بحوارات عيسى عليه السلام. ثم رتبنا حوارات كل نبي مع قومه حسب ترتيب نزول السورة التي جاء فيها أحاديث بنصحه د. فضل عباس الذي يرى أن الدراسة الموضوعية للقصة القرآنية لا تتم إلا إذا كانت ركيزتها الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول، لعرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك. كما يرى أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لا بد منها في دراسة أي موضوع من موضوعات القرآن، وقد جاء هذا في حديثه عن كيفية تناول موضوع التكرار في القصة القرآنية الذي أثار زوبعة من الجدل أسالت مداد أعلام الباحثين بين مدافع ومضكك. (ينظر: فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص ٧) وقد قام د. فضل عباس في كتابه المذكور بتتبع قصص الأنبياء من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد ميباً اختصاص كل سورة بما ينسق مع موضوعها، وشخصيتها. وهذا ما جعلنا نوجز في بيان هذا اللون من التكرار.

^(١) الأنبياء/٢٥.

٢- الحوار بين هود، عليه السلام، وقومه:

ورد هذا الحوار في خمس سور هي: الأعراف: (٢٥-٧٢)، والشعراء: (١٢٤-١٣٦)، وهود (٥٠-٥٧)، والأحقاف: (٢١-٢٣)، والمؤمنون: (٣٢-٣٨). ويحكي هذا الحوار دعوة هود لقومه، واستكبارهم واتهامهم له بأن آليتهم قد مسته بسوء فيعلن لهم أنه قد بلغ رسالته، ويتوعدهم أن الله سيستخلف قوما غيرهم. ويأتي أمر الله فينجي هودا والذين آمنوا معه، ويهلك الكافرين.

٣- الحوار بين صالح، عليه السلام، وقومه:

وجاء في خمس سور أيضا هي: القمر: (٢٣-٢٦)، والأعراف: (٧٣-٧٩)، والنمل: (٤٥-٤٩)، وهود: (٦١-٦٥)، والشعراء: (١٤٢-١٥٦). ويحكي الحوار دعوة صالح لقومه، وتذكيره لهم بما جاءهم من ربه من معجزة بينة تمثلت في الناقة، وتمكينها، وتحذيرهم من أن يمسوها بسوء، حتى لا يمسخهم عذاب الله، كما ذكرهم بنعم الله عليهم. ولكنهم سخروا منه، وتجاهلوا تحذيره، وعقروا الناقة، فأخذتهم الرجفة.

٤- الحوار بين إبراهيم، عليه السلام، وأبيه وقومه:

جاء حوار، عليه السلام، لأبيه وقومه في ست سور هي: مريم: (٤٢-٤٨)، والأنعام: (٧٤-٨٢)، والصفات: (٨٥-٩٧)، والأنبياء: (٥٢-٦٩)، والشعراء: (٧٠-٨٩)، والعنكبوت: (١٦-٢٦).

ويحكي هذا الحوار دعوة إبراهيم لأبيه وقومه إلى الهداية مشيرا إلى ما يعبدونه من أصنام لا تسمع ولا تبصر شيئا، واستخدامه للحجج والبراهين المفحمة. ولكنهم أصروا على التمسك بآلهتهم، وهددوا إبراهيم وبخوه على كلامه، فحطم أصنامهم، فألقوه في النار التي جعلها الله بردا وسلاما. وهاور إبراهيم النمرود الذي حاجه في ربه وأفحمه بالحجة الساطعة^(١).

٥- الحوار بين لوط، عليه السلام، وقومه:

وجاء في ست سور هي: الأعراف: (٨٠-٨٢)، والنمل: (٥٤-٥٦)، وهود: (٧٨-٧٩)، والحجر: (٦٨-٧١)، والشعراء: (١٦١-١٦٨)، والعنكبوت: (٢٨-٢٩). ويحكي الحوار إنكار لوط على قومه إتيان الفاحشة الشنيعة التي لم يأتها أحد قبلهم، وتجاوزهم لحدود العقل والذوق والفترة. ولكن القوم كانوا غير مباليين بكلامه؛ فقد كانت

^(١) ينظر هذا الحوار في سورة البقرة/٢٥٨.

شهوتهم مسيطرة على عقولهم ومشاعرهم، فلم يزدوا على قولهم: أخرجوا آل لوط من قريبتكم، إنهم أناس يتطهرون.

ويقصر حوار لوط، عليه السلام، لقومه على نهيم عن الفاحشة وتقيحها في كل المواطن التي أتى فيها، باستثناء الحوار المذكور في سورة الشعراء فقد بدأه بإخبارهم عن رسالته وأمانته، وأمرهم بتقوى الله وطاعته موضحاً أنه لا يريد على ذلك أجراً منهم، فأجره على الله^(١)، ثم أخذ بتوبيخهم على فعلتهم القبيحة. وذلك لمجاعة حوارات الأنبياء القارة في سورة الشعراء، والتي استهلّت كلها بتلك العبارة مؤكدة وحدة الرسالة التي جاء بها رسل الله إلى أقوامهم.

وتكرر نصح لوط لقومه وتقيحه لفعلهم حين زارته الملائكة بهينة رجال حسان، فجاء قومه مسرعين وأمره أن يخلي بينهم وبين ضيفه. ولعل في تكرار حوار لوط مع قومه وإبواز العقوبة التي حاقت بهم دعوة إلى العبرة والتأمل، فمساكن قوم لوط لم تكن بعيدة عن العرب الذي نزل فيهم القرآن أول ما نزل، فهم يمرون عليها في طريقهم إلى الشام^(٢). ولا شك أن مشاهدة آثارهم أبلغ تأثيراً في الاعتاظ بهم، والاعتبار بمصرعهم، فإن في أطلال قريتهم الخالصة حجة شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم^(٣).

٦- الحوار بين شعيب، عليه السلام، وقومه:

وذلك في أربع سور هي: الأعراف: (٨٥-٩٣) والشعراء: (١٧٧-١٨٨)، وهود (٨٤-٩٣)، والعنكبوت: (٣٦-٣٧)، وقد وجه شعيب خطابه في سورة الأعراف وهود والعنكبوت إلى (أهل مدين)، بينما وجه، عليه السلام، خطابه في سورة الشعراء إلى أصحاب الأيكة. ورافق هذا الاختلاف في المتلقي اختلاف في بنية الاستهلال الحوارية؛ فالحديث عن خطاب شعيب لأهل مدين يستهل بقوله تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيب)، بينما تختفي هذه العلاقة في سورة الشعراء ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب: ألا تتقون؟!﴾^(٤) مظهرة تمايزها عن بنى الاستهلال الأخرى الموطنة لحوارات الأنبياء مع أقوامهم في السورة ذاتها. فهل أصحاب الأيكة قوم غير أهل مدين؟ يرى ابن كثير أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وعلل عدم قوله ﷺ في سورة الشعراء: أخوهم شعيب

^(١) كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط: ألا تتقون؟! إن لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من

أجر، إن أجرين إلا على رب العالمين. الشعراء/ (١٦١-١٦٤).

^(٢) النهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١٢٣. وفصل عباس، قصص القرآن الكريم، ص ٣٤٥.

^(٣) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٨.

^(٤) الشعراء/ (١٧٦-١٧٧).

بأنهم "نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لمّا قال: (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبه إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً، عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال ثلاث أُمم^(١).

ويحكي حوار شعيب مع قومه دعوته لهم إلى توحيد الله وعبادته، ثم أمره لهم بإيفاء الكيل والوزن بالتقسط والعدل، ونهيه عن بخر الناس حقوقهم، والإفساد في الأرض، والصد عن الحق، وذكرهم بنعم الله عليهم، ولكنهم قابلوا نصحه بالاستهزاء والتّهديد، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

٧- حوار موسى، عليه السلام، مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل:

احتلت الحوارات التي شارك فيها موسى، عليه السلام، المساحة الكبرى من حوارات الأنبياء، وتعددت الأطراف التي جاذبت موسى الحديث، واختلفت اتجاهاتها ومواقفها. واتخذت هذه الحوارات طابع الجدل والمماحكة، سواء أدارت بين موسى وخصومه أم بينه وبين أتباعه، فقد أرسل إلى فئتين كانت كل منهما على جانب من العناد والقسوة والكفر: فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)، وأخرى استمرأت الذل والتبعية والنقاش العقيم (بنو إسرائيل). وليس غريباً أن تتكرر هذه الحوارات، مسلطة الضوء في كل مرة على بؤرة جديدة، ملاحقة المسلمين دافعة إياهم إلى تأملها وتدبرها، فصراعهم مع بني إسرائيل بدأ منذ فجر الرسالة المحمدية، وهو مستمر إلى يومنا هذا.

أ- الحوار بين موسى، عليه السلام، وفرعون:

وفيه يبين لفرعون أنه رسول من رب العالمين، لا يقول إلا الحق، ويطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، موضحاً له طريق الهداية التي توجب الرحمة والنجاة، وطريق الضلالة المؤدية إلى العذاب، ويطلب فرعون منه معجزة يثبت بها صدق دعوته، ويتحداه ساخرًا منه، متهما إياه بالسحر وبالجنون.

هذا هو لب الحديث الذي دار بين موسى وفرعون، وقد تكرر بأساليب مختلفة، وتتوالت المضامين التي اختلطت بما يناسب موضوع السورة التي جاء فيها، وترتيب نزولها، فما ذكر

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٣٤.

في سورة بتفصيل وإسهاب، قد يذكر في السورة التي تليها باختصار وإيجاز، وقد يكشف جانباً من جوانب المحاور لم يذكر سابقاً^(١).

جاء حوار موسى مع فرعون وملئه بما في ذلك سحرته موزعاً في عشر سور هي: الأعراف: (١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٥، ١١٦، ١٣٢، ١٣٤)، وطه: (٤٧-٦١، ٦٥-٦٦)، الشعراء: (١٦-٣١، ٤٣، ٤٤)، القصص: (٣٦-٣٨)، والإسراء: (١٠١-١٠٢)، يونس: (٧٦-٨١)، غافر: (٢٤-٢٧)، الزخرف: (٤٦، ٤٩، ٥٣)، الدخان: (١٨-٢١)، النازعات: (١٨-١٩).

ب- حوار موسى، عليه السلام، مع بني إسرائيل:

جاء حوار موسى مع بني إسرائيل في السور التالية: الأعراف: (١٣٨-١٤١، ١٥٠)، طه: (٨٦-٨٧، ٩٢-٩٨)، الشعراء: (٦١-٦٢)، القصص: (١٨-١٩)، يونس: (٨٤-٨٦)، إبراهيم: (٦-١٥)، البقرة: (٥٤-٧١)، الصف: (٥)، المائدة: (٢٠-٢٤).

والحديث عن حوار موسى مع بني إسرائيل له جوانب متعددة، ففيه يبين موسى نعم الله عليهم، وجحودهم بها وما استحقوه من عقاب. وقد يكون في هذا درس للمسلمين فيما يكلفون به حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل. وليتبنوا أخلاقهم المتأصلة فيهم فيحذروهم. ولئن اقتصر الحديث عن فرعون على السور المكية، فقد تجاوز الحديث عن بني إسرائيل ذلك إلى السور المدنية، وهذا ما تقتضيه ظروف متلقي الحوار القرآني، فالمسلمون كانوا يعايشون اليهود في المدينة ويتعاملون معهم.

وحكى الحوار في سورة الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى، وقد مروا على قوم عاكفين على أصنامهم، أن يجعل لهم آلهة، وإنكار موسى لطلبهم وتبكيهم مستهجن أن يعيشتهم على الشرك، ومنكراً إياهم بنعم الله عليهم: ﴿أَغَيْرُ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

^(١) لتوضيح جوانب القصة التي اختصت بها كل سورة تنظر الدارسة القيمة التي قام بها د. فضل عباس في كتابه قصص القرآن الكريم

ص ٤٦٦-٦١٧.

^(٢) الأعراف/١٤٠.

ويحكي غضب موسى على بني إسرائيل لاتخاذهم العجل إلها في غيبته، وعكوفهم على عبادته، وإنكاره عليهم أشد الإنكار، فاشتد ندمهم، وتيقنوا ضلالهم، فأعلنوا توبتهم: ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾^(١)، وانضوى تحت حوار هارون لبني إسرائيل حوار أخيه هارون، الذي صب عليه جام غضبه منكرًا تقصيره في تحمل مسؤوليتهم، فيطلب منه أخوه هارون أن لا يثبت به الأعداء، فقد استضعفوه وكادوا يقتلونه.

وفي سورة طه، يبين بنو إسرائيل سبب عبادتهم للعجل مشيرين إلى السامري الذي صنعه لهم. وظهر حوار هارون معهم، الذي لم يذكر في سورة الأعراف: ﴿يا قوم، إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾^(٢) وردهم عليه: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾^(٣)، كما ظهر في سورة طه تعليل هارون لأخيه وفيه يبين مانعه من اللحاق به: ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾^(٤)، وفيها أيضًا مشهد لم يذكر كذلك في سورة الأعراف وهو الحوار الذي دار بين موسى والسامري وفيه يفصل السامري لموسى سر ما صنعه، فيواجهه موسى بجزائيه العاجل والآجل.

ويبين الاستعراض السابق لحوار موسى مع بني إسرائيل في سورة طه والحوار المماثل في سورة الأعراف انتقاء التكرار التام للحوار؛ فلكل سورة زاويتها الخاصة التي تناولت منها الحوار.

وفي سورة إبراهيم، يذكر موسى بني إسرائيل بنعم الله عليهم، التي من أعظمها نعمة الحرية ورفع نير الاستعباد، ومبينًا لهم عاقبة الشكر والكفران، ومحذرا من عاقبة تماثل عاقبة ما حل بالأقوام السابقة التي كذبت رسلها، وكفرت بأنعم الله. وبهذا ينتهي حوار هارون، عليه السلام، مع قومه في السور المكية.

ننتقل بعدها إلى حوار هارون معهم الوارد في سورة البقرة، وفيها يذكر الله اليهود بما كان بين نبيهم موسى وأجدادهم من حوارات، ويوجه إليه الكلام بضمير المخاطب موحدا بينهم وبين أجدادهم، لأنهم يسيرون على نهجهم ولو كانوا في زمانهم لفعلوا مثل فعلهم. وتحكي هذه

^(١) الأعراف/١٤٩.

^(٢) طه/٩٠.

^(٣) طه/٩١.

^(٤) طه/٩٤.

الحوارات لوم موسى لبني إسرائيل لاتخاذهم العجل، وطلبه منهم قتل أنفسهم ليتوب الله عليهم، وقول بني إسرائيل موسى: أرنا الله جهرة. وكيف أخذتهم الصاعقة، وطلبهم منه موسى أن يستبدل المن والسلوى بالثوم والعسل والبصل، واستهجانهم لهذا الطلب.

ثم يحكي الله الحوار الذي دار بين موسى وبني إسرائيل حول ذبح البقرة، وكيف تطاولوا على أمر الله وتماطلوا في تنفيذه، فكانت المراجعة بينهم وبين موسى والله ليبين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها، ولم يذبحوها إلا بعد هذا الجدل العقيم. ويحكي الحوار في سورة الصف إنكار موسى على قومه ومساعدته منهم؛ إنه ينكر عليهم إيذاءه وهم مستيقنون أنه رسول الله إليهم.

ثم تأتي آخر حلقات حوار موسى مع بني إسرائيل في سورة المائدة، وفيها ينكر موسى قومه بالنعم التي أنعمها الله عليهم؛ فقد كان منهم الأنبياء، وجعل منهم الملوك بعد أن كانوا مستبدين أرقاء، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين. ثم يأمر موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، فيرفض بنو إسرائيل الامتثال لأمر نبيهم مظهرين جبنهم ونلهم، ويطلبون بوقاحة الجبان أن يتولى موسى أمر القتال بمعونة ربه، وأن يتركهم وشأنهم. ويحوي هذا الحوار مقولة رجلين من بني إسرائيل أنعم الله عليهما، وفيها يطلبان من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، فالنصر سيكون حليفهم.

وتضمنت قصة موسى، عليه السلام حوارات أخرى شاركته في تشكيلها أطراف خرجت من دائرة فرعون وملأيه، ومن دائرة بني إسرائيل، وتشمل: حواراه مع الفتاتين اللتين كانتا تذودان غنمهما عن الماء في مدين، ومع أبيهما الشيخ الكبير^(١). وحواره مع فتاه (خادمه) ومع الخضر عليه السلام^(٢).

٨- الحوار بين عيسى، عليه السلام، وقومه:

ورد حوار عيسى مع قومه في خمس سور هي: مريم (٣٠-٣٦)، والزخرف: (٦٣-٦٤)، وآل عمران: (٤٩-٥٣)، والصف: (١٤، ٦)، والمائدة: (٧٢، ١١٢، ١١٣).

ولحوار عيسى في سورة مريم ميزة خاصة، فهو معجزة خارقة في حد ذاته؛ لصدوره عن طفل ولید، وتم هذا النطق بإرادة الله لتبرئة مريم، عليها السلام، من تهمة الزنا التي أوشتك

^(١) ينظر الحوار في: سورة القصص (٢٣-٢٩).

^(٢) ينظر الحوارين في: سورة الكهف (٦٠-٨٢).

قومها أن يلصقوها بها، لما رأوها تحمل عيسى بين ذراعيها. ويبين حوارها في سورة الزخرف أصل دعوته وهدفها.

وفي سورة آل عمران يفصل المعجزات التي جاء بها عيسى إلى قومه، والتي تستدعي منهم تقوى الله وطاعة رسوله. ثم يصور الحوار إيمان الحواريين. وفي سورة الصف يحكي تفاصيل دعوة عيسى وتبشيره برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد)، والصاق الذين كفروا من بني إسرائيل تهمة السحر بعيسى عليه السلام. ويتكرر ظهور حوار الحواريين مع عيسى، عليه السلام. وقد أضيف إلى تلك الحوارات نبا المائدة التي أنزلها الله على الحواريين استجابة لدعاء نبيهم.

(د) الحوار بين نماذج بشرية خارج إطار النبوة:

حكى القرآن الكريم حوارات دارت بين البشر، وتأرجح جل هذه الحوارات بين حدي الخير والشر؛ فأحد الأطراف يمثل النموذج الذي يحتذى به لأنه يجسد الخير بأبعاده، والآخر يمثل النموذج الذي يرفض لأنه يعكس الشر بألوانه.

ويضع الحوار هذين النموذجين في تقابل معبرا عن موقف كل منهما إزاء الآخر، وما يعترك بهذا الموقف من مشاعر وانفعالات. وينتهي هذا الحوار بانتصار الخير على الشر، ولا نحصر الانتصار بالقضاء المادي الملموس كالقتل مثلا، لأن الطرف الشرير قد يقتل طرف الخير، ومع هذا يكون القاتل هو المغلوب، والمقتول هو الغالب، فالانتصار الحقيقي هو انتصار الفكرة والمبدأ، لا انتصار القوة المادية.

وقد يسقط أصحاب هذه المفكرة مضرجين بدمائهم دفاعا عنها وإعلاء لكلمتها، كما حدث لهابيل بن آدم، عليه السلام، وسحرة فرعون بعد أن آمنوا، ومؤمن آل فرعون، وغيرهم. وقد تتكرر هذه النماذج البشرية في كل زمان ومكان، فهي ليس مقتصرة على أشخاص بأعيانهم. ولعل عزوف القرآن عن تسمية هذه النماذج يؤكد هذا التعميم. ومثالها:

❖ الحوار بين ابني آدم (قابيل وهابيل) ^(١):

يحكي هذا الحوار صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، ذلك الصراع الذي يكشف عن طبيعة النفس البشرية، وما تحويه من نزعات ورغبات. ويمتد هذا الصراع الأول فيظل لون العلاقة الرابطة بين أبناء آدم إلى قيام الساعة.

وكشف الحوار بين ابني آدم الستار عن الانفعالات النفسية والخلقية القارة في الشخصيتين؛ ففي الجملة الحوارية التي توجه بها قابيل إلى أخيه هابيل (لأقتلنك) قسم وتأكيد يوحيان بالجزم على القتل والاندفاع العنيف نحو الشر. بينما توحى المفردات المكونة لقولة هابيل بالوداعة والطيبة والمسالمة: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين، لنن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾^(٢) إنه ينفي مؤكدا عدم رده على اعتداء أخيه بالمثل، فهذا العمل يجعله في زمرة الظالمين الذين لا يخشون الله، وقد جاء الشرط في مقولته بلفظ الفعل (لنن بسطت)، وجاء الجزاء باسم الفاعل منفيا بما والباء للتأكيد (ما أنا بباسط).

ونفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، لما يوحى به الفعل من تقلب وحركة، وما توحى به الصفة من ثبات وديمومة.

وفي هذا استعطاف لأخيه وتقييح للفعل الذي سيقدم عليه، وتأكيد بأنه نزوة غضب عارضة، تزول بزوال أسبابها المتمثلة في الأنانية والحسد وحب الذات والحقد.

وينتهي الحوار بين الشقيقين بالقتل (فطوعت له نفسه قتل أخيه فأصبح من الخاسرين) لقد استجاب قابيل لهواجس الشر في داخله فقتل أخاه. وبهذا القتل ينتهي الصراع الخارجي بين أطراف الحوار، وتتطفي شرارة الغضب والحقد التي حرقت عنصر الخير في نفس قابيل، فيعود له وعيه الذي كان مغيبا وقد رأى أخاه جثة هامدة، ويبدأ صراعه الداخلي العنيف: ﴿قال: يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاواري سوءة أخي. فأصبح من النادمين﴾^(٣).

^(١) ينظر هذا الحوار في: المائدة/ (٢٧-٣٢).

^(٢) المائدة/ ٣١.

❖ الحوار بين صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن^(١):

التقط القرآن الموقف المتوتر من الحوار الذي دار بين صاحب الجنتين وصاحبه، وقد بدأ صاحب الجنتين هذا الموقف باستفزاز صاحبه واحتقاره مبرزاً تميزه عليه بالمال والأهل (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً). وكان صاحبه قد كبت غيظه فلم يرد على مقولته، لكنه انفجر كالبركان الثائر، حين يسمع تنمة مقولة صاحب الجنتين، ففيها أضفى على جنته صفة الخلود (ما أظن أن تبید هذه أبداً)، وشكك في قيام الساعة (وما أظن الساعة قائمة)، وأكد ضمن تشكيكه وافتراضه غير المؤكد أنه لو ردّ إلى الله ليجد خيراً من جنتيه؛ إنه يستشعر فوقيته واستحقاقه للخير. وتكشف قوله لصاحبه في نهاية وعظة له (إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً) التي أتبعها بالدعاء عليه (فعمى ربى أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً) مقدار الألم وعمق الجرح الذي سببته عبارات صاحب الجنتين المنتفخة غروراً وقوة وغطرسة.

وفي هذا تجسيد واقعي للمشاعر الإنسانية التي تحركها الكلمات الجارحة فالقرآن يجسد هنا بشرية أطراف الحوار لا صفاتهم المثالية؛ وهذا ما أكدته الله في بيان صفات رسوله: ﴿قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾^(٢) فكيف بالبشر العاديين؟! وينتصر الخير في النهاية بتحقيق دعاء المؤمن، وندم صاحب الجنتين وإعلان توبته.

❖ الحوار بين الشاب الكافر ووالديه المؤمنين:

﴿والذي قال لوالديه: أفّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي. وهما يستغيثان الله: ويلك آمن، إن وعد الله حق. فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين﴾^(٣)، إنه حوار عام لا يختص بأشخاص معينين، فقد يحدث بين أطراف بين الخير وأطراف الشرّ الذين تربطهم علاقة القربى في كل زمان ومكان، وتبدو مشاعر الطرفين أكثر وضوحاً وصدقاً، وتحمل مقولات أطراف الخير جرعة انفعالية أكبر من تلك المحمولة في مقولات أطراف الخير الذين لا تربطهم بالأطراف المقابلة علاقة مماثلة. وتمتاز هذه الجرعة بالخوف على الطرف

^(١) الكهف/ (٣٢-٤٢).

^(٢) الإسراء/ ٩٣.

^(٣) الإسراء/ ٩٣.

الضال والحرص عليه والتعطش لهديته، في الوقت الذي تنسم فيه مشاعر أطراف الخير والحق في المشهد السابق بنبرة الحيادية. ولعل هذا يعلل السرّ الكامن وراء بعث كل رسول إلى قومه خاصة.

هـ - حوارات النساء:

شاركت المرأة مشاركة محدودة في تكوين الحوارات مقارنة بمشاركة الرجل، ولعل هذا الحضور المحدود كان المميز لتلك الحوارات التي بدت نغمة لها إيقاعها الخاص في لحن طويل ذكوري النغمات. وعكست هذه الحوارات نماذج نسائية متعددة منها:

❖ حوار المرأة المؤمنة العابدة:

وقد حكته امرأة عمران في قولها مناجية ربها: ﴿رَبِّ، إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بطني محرراً، فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلما أنجبت أنثى قالت ﴿رَبِّ، إِنِّي وَضَعْتُهَا أنثى، واللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى، وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذَرِيتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) لقد رسمت مناجاتها صوره المرأة الداعية المبتهلة التي تتوجه إلى ربها بأعز ما عندها ليرضى عنها، فقد نذرت ما في بطنها ليكون في خدمة بيت الله، فلما أنجبت أنثى توجهت إلى ربها معتذرة أسفة؛ لأن الذكر أقدّر على خدمة بيت الله وملازمته من الأنثى. ثم طلبت من الله أن يجنب ابنتها وما سيكون من ذريتها من وساوس الشيطان. ويستجيب الله لدعاء امرأة عمران، فتشأ مريم نشأة بر وتقوى، وتلازم بيت الله تخدمه وتتعبّد فيه.

ورسم حوارها مع زكريا شخصية الفتاة العابدة المؤمنة المستشعرة وجود الله معها ورعايته لها:

﴿وَكَلَّمَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ: يَا مَرْيَمُ، أَنَّى لَكَ هَذَا؟! قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ، إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

وحكت مناجاة امرأة فرعون قوة إيمانها وتعلقها بالعتاء الإلهي رغم وجودها في بيئة ملوثة بالغرور والتسلط والطغيان والمراء العقيم:

^(١) آل عمران/ (٣٥-٣٦).

^(٢) آل عمران/ ٣٧.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ: رَبِّ، ابْنُ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

إنها مؤمنة ترفض الظلم الأرضي، وتتشد العدل الإلهي. لم يخف عليها بطش زوجها وطغيانه، فثارت عليه، ودعت الله أن ينجيها منه ومن ظلمه، وبدا في دعائها إيمانها المطلق بالغيبات، فهي تؤمن باليوم الآخر، وما فيه من عقاب وثواب، وتأمل أن تكون من الفائزين طالبة من الله أن يبني لها بيتًا في الجنة.

✧ حوار المرأة الأم:

وهو حوار يفيض بعاطفة الأمومة وما تحمله من حب وحنان، ومثاله قول امرأة فرعون وقد هم جنوده بقتل الطفل الرضيع موسى: ﴿قَرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾^(٢)، إنها تصرخ مشقة على الطفل الصغير (لا تقتلوه) ثم تعلق نهيها محاولة إغراء فرعون بالإبقاء عليه: (عسى أن ينفعنا أو نتخذ ولدًا) إنها تقدم المنفعة، وهي مؤخرة في نفسها، على اتخاذ ولدًا، وهو الأمر المقدم الذي تريده وتتمناه، لإقناع فرعون وجنوده بعدم قتله، ففرعون قد يبقيه ليصبح خادما من خدمه المطيعين أو حارسا من حراسه، ولكنه قد يرفض أن يتبناه.

وجسم الحذف الواضح في مقولتها لهفتها على هذا الطفل وحرصها على المحافظة على حياته، فقد حذفت المبتدأ الدال عليه مبرزة الخبر (قَرَّةَ عَيْنٍ لِي) فيه ستقر عينها. ويبدو أنها من الذكاء والحكمة بحيث لا تجعل الطفل قرة عين لفرعون أيضا، فقد يرفض كبرياؤه واستعلاؤه أن يكون هذا الطفل اللقبط قرة عينه، ولهذا أرجح أن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، وأن يكون في الجملة بتر بتركيب النهي (لا تقتلوه) الذي برز في ثايات خطابها لفرعون، وقد رأت جنوده يهيمون بقتل موسى فقطعت حديثها متوجهة إلى الجنود ناهية إياهم عن قتله، ثم تابعت حديثها مع فرعون.

^(١) الشرح/١١.

^(٢) النقص/٩.

وحكى القرآن مقولة امرأة متلهفة على الإتيان وممارسة دور الأمومة بأبعاده الواسعة وهذه المرأة هي زوج إبراهيم التي بشرتها الملائكة بأنها ستجيب غلاما وهي عجوز عقيم، فصرخت متسائلة قالت: ﴿يا ويلتا، أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا؟! إن هذا لشيء عجيب﴾^(١)، إنه تساؤل المتعجب المندم لا تساؤل المنكر الراض، ففي صرختها (يا ويلتا) تفاجؤ فرح أتبع بتساؤل يوحى مضمونه بخوف عدم تحقق البشارة لانعدام أسبابها في الواقع.

❖ حوار المرأة الطاهرة الشريفة، ذات النشأة الطيبة:

وتمثل هذا الحوار في قول مريم بنت عمران للرجل الذي اقتحم محرابها فجاء مبشرا إياها بأنها ستجيب غلاما زكيا: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت: أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا؟!﴾^(٢).

لقد جسمت مقولتا مريم انتفاضة الفتاة الشريفة المدافعة عن عرضها وطهرها، واستوعب تساؤلها تعبيرات انفعالها المتمثلة بالإنكار والغضب والتوبيخ والخوف والرفض، لما فيه من تنعيم صاعد.

وقد مثل هذا النمط من النساء ابنتا شعيب، حيث جسمت طريقة حوارهما مع موسى طهرهما ونشأتهما الطيبة: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان. قال: ما خطبكما؟! قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾^(٣)، إنه رد مختصر دال على تأدب الفتاتين وتحفظهما في مخاطبة رجل غريب، فهما لم تطيلا الحديث معه، فقد أجابتا إجابة بليغة دلالتها أكبر من حجم المفردات التي احتضنتها، استهلتاها ببيان ما يدل على حسن أخلاقهما وطهر صفاتهما؛ (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) إنهما تأنفان من الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم على الماء؛ ولهذا تنتظر الفتاتان مغادرة السقا ثم تقومان بسقي أغنامهما.

^(١) هود/٧٢.

^(٢) مريم/١٦-٢٠.

^(٣) القصص/٢٣.

وقد أتبعنا هذا البيان بتعليل يجيب عن تساؤل يدور في ذهن موسى وهو السبب الذي يدفع هاتين الفتاتين إلى القيام بهذا العمل الشاق الذي ينوء بحمله الرجال: (وأبونا شيخ كبير) إنهما مجبرتان على القيام به إذا.

وتلا الحوار السابق حوار أحادي الطرف وجهته إحدى الفتاتين إلى موسى، إنه يومئ بما أوما إليه الحوار الأول، ولكنه يسبق بجملة توضح الكيفية التي ألقت بها الفتاة مقولتها: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾^(١) إنها تمشي إلى موسى على خفر واستحياء، ووشت هذه المشية بالتحول الطارئ على شخصية الفتاة، ففي اللقاء الأول كانت مشاعرها حيادية اتجاه موسى، ولكنها وقد رأت نبيل أخلاقه ونجدته للغير، وقوته أخذت تميل إليه، وترغب في الزواج منه.

لقد أومات برغبتها إيماء مثله الحياء، إنها لا تمشي على الأرض ولكنها تمشي على حياء تتعثر فيه قدماءها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيائها".^(٢) فالحياء حركة إيمانية توحى بمشاعر هذه الفتاة الصالحة العفيفة التي تستجيب لطبيعتها في طلب الزواج دون التصريح الذي قد يخدش الحشمة، فهي تختصر في مقولتها فلا تفضح عباراتها مشاعرها، وتظهر احتراسا يحول دون تشكل أي ظن سيئ تجاهها؛ فهي تؤكد له أن أباه هو من يدعو، لا هي ولا أختها، وتبين سبب هذه الدعوة (ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

❖ حوار المرأة العاشقة:

وحكى الحوار القرآني نمطين من أنماط النساء العاشقات؛ النمط الأول: المرأة التي تسعى للحصول على الرجل الذي تريد بالتلميح الحريص لا بالتصريح مبقية على حيائها وحشمتها ووقارها، وقد مثلت ابنة شعيب، التي سبق الحديث عنها، هذا النمط، إنها تلك التي مشت إلى موسى على استحياء، ودخلت به بيت أبيها، وأغرت أباه بالاستمساك به والحرص عليه (يا أبت أستاذجرك) كاشفة عن صفتين في موسى تزيدان الرغبة فيه، وتوثقان الصلة بينه وبين أبيها، عله يبقيه قريبا منها ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾^(٣)، لقد أخذت مكانها في هذا المشهد الحوارى، وأدلت برأيها بذكاء وتخطيط وتدبير، ويثمر هذا التدبير اللطيف،

^(١) القصص/٢٥.

^(٢) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١٠٨.

^(٣) القصص/٢٦.

ويؤتي أكله، فيستجيب الشيخ لمقترح ابنته، وقد أحس بما يدور في داخلها: ﴿قال: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج﴾^(١).

أما النمط الثاني من النساء العاشقات فقد مثلته امرأة العزيز التي استبدت بها شهوتها وغلبها الهوى فتتبعته داعيه، ومالت معه مندفة بكل عاطفتها، مستخدمة كل ما أوتيت من دهاء ومكر، فجعلت تطارد فتاها دون حياء مصرحة برغبتها فيه: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك. قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون﴾^(٢)؛ إنها تراوده، وتغلق الأبواب، وتعرض ذاتها أمامه بصراحة وإلحاح، ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر﴾^(٣) لقد كشف هذا السرد الإصرار على وقوع ما ترغب فيه، وعندما تفاجأ بزوجها لدى الباب، وهي في تلك الحالة المريبة يبلغ قلبها حنجرتها، فتبادر مدافعة عن ذاتها نافية عنها أي اتهام بقولها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً؟﴾ إنها تلصق التهمة بمعشوقها، لتحول نظرات زوجها إليه. لكنها لا تلبث أن تشير إلى العقوبة محددة إياها بالسجن أو العذاب الأليم: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾^(٤)، وتبرز هذه العقوبة مقدار عشقها ليوסף، فهي لا تحكم عليه بالقتل أو النفي، لأنها حريصة على حياته. وسرعان ما ينتشر الخبر، وتلوكه الأكسنة، فتستل امرأة العزيز سيف مكرها ودهائها للدفاع عن نفسها، وإفحام بنات جنسها:

﴿وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا إنا كنا نراها في ضلال مبين.

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن، وأعتدت لهن متكاً، وآتت كل واحدة منهن سكينة، وقالت: اخرج عليهن.

فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن، وقلن: حاشى لله، ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم!!
قالت: فذلكن الذي لمتني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما أمره
ليسجنن وليكونن من الصاغر﴾^(٥).

^(١) القصص/٢٧.

^(٢) يوسف/٢٣.

^(٣) يوسف/٢٥.

^(٤) يوسف/٢٥.

^(٥) يوسف/٣١-٣٢.

ومما لا شك فيه أن امرأة العزيز قد حققت هدفها من هذا اللقاء مثبتة لهؤلاء النسوة أن لومها على مراودة هذا الشاب الجميل لغو لا فائدة منه، فاي امرأة ستراه ستهيم فيه وتستهيه، وهل أدل على ذلك من تقطيعين أيديهن لما رأينه، ووصفين ليوسف بأنه ليس من البشر، وأنه ملك كريم. ولهذا تعلن بوضوح وتصميم وصراحة أنها راودته عن نفسه واستعصم، وتهدهد أمامهن جميعاً بأنه سيسجن ويكون من الصاغرين إن لم يفعل ما تأمره به، يؤكد هذا توالي لام القسم ونون التوكيد.

كما يحكي المشهد عادة النساء في نقل الأخبار وأسلوبهن في ترتيب عناصر الجملة بما يشوق في سماع الخبر ويثير المتلقي إلى متابعتها، فقد بدأت بذكر من سيدور محور الحديث عنها، وهي (امرأة العزيز)، إنها امرأة عالية المكانة، أخبارها تهم الآخرين وتثير فضولهم، فكيف إذا ألصقت بها فضيحة؟! سيكون الإنكار أعظم، والتعطش لمعرفة تفاصيلها أكبر؛ لهذا نراهن يتبعن الخبر (تراود فتاها عن نفسه) بتعليقين يمثلان موقفهن من هذه المراودة: (قد شغفها حبا، إنا لنراها في ضلال مبين).

كما حكى الحوار عاطفة النساء وانفعالهن الذي يطغى على إحساسهن في مواقف الدهشة؛ فقد فقدن السيطرة على السكاكين التي يحملنها فجرحن أيديهن حين رأين يوسف، ووصفنه بانفعال وانبهار وجردنه من صفاته البشرية (ما هذا إلا ملك كريم؟!).

ثم يحكي القرآن حواراً شاركت فيه امرأة العزيز يبرز التغير الذي جدّ على شخصيتها بعد بضع سنين من هذه الحادثة، فقد بدت تائبة نادمة معترفة بذنبها حين أجرى الملك تحقيقاً مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن بطلب من يوسف:

﴿قال: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟﴾

قلن: حاشى لله، ما علمنا عليه من سوء.

قالت امرأة العزيز: الآن حصح الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم^(١).

^(١) يوسف/ (٥١-٥٣).

❖ حوار المرأة الملكة أو صاحبة السلطة والسيادة:

ومثاله ما حكاه القرآن على لسان ملكة سبا ببراعة جسمت اختلاط عواطف السيطرة والسلطان في نفس الملكة مع عواطف الخضوع الأنثوية^(١).

وصف القرآن ملكة سبا على لسان الهمدد بأنها: ﴿أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾^(٢) فهي محاطة بكل أسباب الترف والنعيم. وإضافة أجواء السيادة والسلطان صنعت لها عرشاً عظيماً يلبي ما أرادته من عظمة وأبهة حكم.

هذه الملكة العظيمة نجدها تفرع فجأة إلى قومها طالبة منهم المشورة عندما تصلها رسالة سليمان: ﴿ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾^(٣) فتقول: ﴿يا أيها الملأ، أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾^(٤)، إنها خائفة من القوة المهددة التي تنتظر ردها، ولكن هذا الملأ كان دائماً طوع أمرها، فهي التي تحركه، وتصدر القرارات، وهو يشهد وينفذ ما تأمر به. وهذا ما وشت به مقولتها: (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)، فهي ثم تقل حتى تشيرون علي، فقد كانت مفتونة بقدرتها على تسيير حاشيتها بإشارة منها، فغيب انبهارها بأناسها (الآخر) جاعلاً منه أداة تنفيذ فحسب. إنها تحاول استشارة حاشيتها بإظهار أهمية رأيهم وكلمتهم، وكان الخوف أفقدها القدرة على إطلاق حكم قاطع، إنه موقف يحير الرجال ويثير مخاوفهم فكيف يكون وقع الأمر على امرأة مجبولة بطبيعتها على الخوف والوجل؟!!

ونجد ملمحاً آخر من ملامح سياسة الأنثى وتفضيلها للحلول السلمية على المواجهة العسكرية في ردها على تلميح حاشيتها بميلهم للحرب:

﴿قالوا: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين.

قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾^(٥).

^(١) سليمان الطروانة، دراسة نصية في القصة القرآنية، ص ٢٢١.

^(٢) النمل/٢٣.

^(٣) النمل/٣١.

^(٤) النمل/٣٢.

^(٥) النمل/٣٤-٣٥.

إنها تمارس سياسة الاسترضاء، وكسر حدة الآخر باللفظ واللين. وتبدو متلهفة لمعرفة نتيجة هذا المكر الأنثوي؛ لقد قدرت ملكة سبأ أنها إن استطاعت أن تغري سليمان بالهدية فإنها ستستطيع أن تحاربه وتقاومه وتتغلب عليه، وإلا فليس بها قدرة عليه.

وحين يبوء مكرها بالفشل ترحل إلى سليمان لمقابلته، ويظهر كلامها معه لباقة وذكاء وحكمة، فحين وصلت إلى قصر سليمان، سئلت عن عرشها: (أهكذا عرشك؟!) قالت: (كأنه هو)؛ إنها لم تجب بالنفي ولا بالإثبات؛ فلو نفت أن يكون المشار إليه عرشها لخالفت حقيقة ساطعة أمامها، فهو يشبه حد التطابق. ولو أجابت بالإثبات لخالفت حدود المعقول والممكن، فكيف سينتقل عرشها العظيم المحاط بالحرس بهذه السهولة والسرعة؟! وربما حالت لباقتها وتأديها دون التصريح، فقولها بأنه هو يعني إتهام سليمان بسرقة والتعدي عليه. وبهذا أظهرت إجابتها: (كأنه هو) ^(١) حصافة وحكمة، إنها إجابة حيادية تبتعد عن أي تحديد ملزم.

وتدرك الملكة أن ما أعطيه سليمان، عليه السلام، ليس مما يعطاه ملوك الدنيا، إنه رجل يجمع إلى الملك النبوة، فتعلن إسلامها ﴿رب، إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ ^(٢)، لقد أبرزت مقولتها "عواطف الخضوع الأنثوية؛ فكانت استجابتها لسليمان أقرب للاستسلام للذكر الأقوى" ^(٣)؛ فهي تؤكد تبعيتها له بقولها: (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

هذه هي أبرز الأنماط النسائية المشاركة في الحوار القرآني وقد مثلت المرأة بطبيعتها وما تخضع له هذه الطبيعة من ميول وانفعالات وغرائز، وبإنسانيتها التي تتساوى بها مع الرجل، فالمرأة تماثل الرجل وتخالفه في الوقت ذاته، وهذا ما يمثله الحوار.

و - حوارات أهل النار وأهل الجنة:

تقاسمت حوارات يوم القيامة مجموعة من الأطراف ذكرنا منهم الله عز وجل في حوارهم مع الملائكة، والأنبياء، والمعذبين في نار جهنم، والفائزين بجنة الخلد، وحوارهم مع جهنم. والملائكة في حوارهم مع أهل النار وأهل الجنة، وحوارهم مع الله. ونذكر هنا:

^(١) النمل/٤٢.

^(٢) النمل/٤٤.

^(٣) سليمان الطراونة، دراسة نصية للنقطة القرآنية، ص ٢٢٣.

(١) حوارات بين الكافرين المعذبين:

دارت في النار خصومات عنيفة وصراعات بين المعذبين فيها، وأبرزت الحوارات الدائرة بينهم العلاقة العدائية المشحونة عنفاً وغيظاً وحقدًا ولوماً وتقريعا، وهي لون من ألوان العذاب في نار جهنم. وجاءت هذه الحوارات نتيجة حتمية لممارسات أصحابها الفعلية والقولية في حياتهم الدنيا منها:

❖ الحوار بين أول الأمم التي دخلت النار وآخرها: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا أداركوا فيها جميعا، قالت أخراهم لأولاهم: ربنا، هؤلاء أضلونا فآتاهم عذابا ضعفا من النار. قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل فدوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾^(١).

❖ الحوار بين الأقواج المتكئة والأقواج المتأخرة: ﴿هذا فوج مقتحم معكم. : لا مرحبا بهم، إنهم صالوا النار. قالوا: بل أنتم لا مرحبا بكم، أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار. قالوا: ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار. وقالوا: ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار؟! اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار﴾^(٢).

❖ حوارات بين الأتباع والمتبعين : ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾^(٣).

❖ حوارات بين الذين أشركوا وشركائهم: ﴿وإذ رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا: ربنا، هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك. فآلقوا إليهم القول: إنكم لكاذبون﴾^(٤).

^(١) الأعراف/ (٣٨-٣٩).^(٢) ص/ (٥٩-٦٣).^(٣) سبأ/ (٣١-٣٣).^(٤) النحل/ ٨٦.

﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم. فزِيلنا بينهم، وقال شركاؤهم: ما كنتم إيانا تعبدون، فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنا كنا عن عبادتكم لغافلين﴾^(١).

❖ بين الشيطان ومن اتبعوه: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي، إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾^(٢).

ويوبخ الكافر الشيطان الذي فتنه ثم تبرأ منه، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وإنهـم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ ويرد قرينه موجهـا خطابه إلى الله: ﴿قال قرينه: ربنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد. قال: لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾^(٣).

❖ حوار بين الكافرين وبعض أعضائهم: ﴿حتى إذا جاؤوها شهد عليه سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟! قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾^(٤). إن نطق مالا يتوقع نطقه يخلق مفاجأة تهز المتلقي، فيكون المتكلم مثار دهشة أكثر من الرسالة التي ينقلها إليه، ويفسر التساؤل الذي وجهه المعذبون لأعضائهم من الإجابة؛ فقولهم: لم شهدتم علينا؟ يعني: كيف نطقتم، بدليل إجابة أعضائهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

^(١) بونس/ (٢٨-٢٩).

^(٢) إبراهيم/ ٢٢.

^(٣) الزخرف/ ٣٨.

^(٤) نعلت/ (١٩-٢٣).

(٢) حوارات بين المؤمنين والكافرين:

وفي هذه الحوارات تبرز المغايرة وتحول أوضاع المتحاورين؛ فالمؤمنون قد فازوا برضا الله وجنته، إنهم في موضع القوة إذًا، بينما تخيم الذلة والمسكنة على الكافرين، الذين سخط الله عليهم وأدخلهم النار، فأصبحوا غير ما كانوا عليه في الدنيا.

وجاءت هذه الحوارات في ثلاثة مواطن؛ الأول في سورة المدثر: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمَجْرُمِينَ: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ، وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾^(١).

والثاني في سورة الأعراف:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟! قَالُوا: نَعَمْ. فَاذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢).

ويظهر في السورة ذاتها حوار آخر بين الفريقين يستهله أصحاب النار:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ: أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا: إِنْ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

والثالث في سورة الصافات:

ويحوي الخطاب الذي وجهه قائل من أهل الجنة إلى قرينه الكافر الذي كان يحاول إغواءه في الدنيا، وقد رآه في وسط الجحيم ﴿فَاطْلِعْ فَرَأَاهُ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ، قَالَ: تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(٤).

^(١) الآيات (٣٩-٤٧).

^(٢) الآيات (٤٤-٤٥).

^(٣) الآية ٥٠.

^(٤) الصافات/ (٥٥-٥٧).

(٣) حوار بين المؤمنين والمنافقين:

وهو حوار مميز لشائبة النور والظلام التي يمثلها الفريقان؛ فالنور الذي أشرق في أرواح المؤمنين في الدنيا مخرجا إياهم من ظلمة الكفر أخذ، يوم القيامة، يشع منهم ويفيض بين أيديهم. بينما لف المنافقين ظلام يمثل ضميرهم وظلمات الخفاء المستور؛ لأنهم رفضوا النور في حياتهم فكان جزاؤهم الحرمان من النور يوم القيامة، فأخذوا يستجدون النور من المؤمنين:

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظرونا نقتبس من نوركم.

قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا. فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

ينادونهم: ألم نكن معكم؟!﴾

قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله، وغرتكم بالله الغرور. فالיום لا يؤخذكم منكم فدية ولا من الذين كفروا، مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾^(١).

(٤) حوارات بين أهل الجنة:

وهي حوارات هادئة مسالمة أنتجتها أطراف تربطها علاقة المودة التي لا يشوبها غل ولا حقد، فحوارهم سمر ونجوى لا تخاصم وجدال: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾^(٢).

وجاءت هذه الحوارات في موطنين فقط، الأول في سورة الصافات: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتسألون، قال قائل منهم: إني كان لي قرين، يقول: أإنك لمن المصدقين؟! إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمدينون؟! قال: هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال: تالله إن كدت لتردين، لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين. أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين، إن هذا لهو الفوز العظيم﴾^(٣).

^(١) الحديد/ (١٣-١٥).

^(٢) الحجر/ ٤٧.

^(٣) الصافات/ (٥٠-٦٠).

والثاني في سورة الطور: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالُوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فَمَنْ آتَاهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾^(١). لقد استهل الحواران بما يجسم علاقة الألفة الرابطة بين الأطراف فهم يقبلون على بعضهم ثم يتجادبون أطراف الحديث: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)، كما لا يظهر الصوتان المتقابلان في حوارهم، فحديثهم محمول بصوت واحد يجسم وحدتهم وتآلفهم.

ولعل انعدام الصراع بين المؤمنين الفائزين بجنة الخلد كان وراء قلة المشاهد الحوارية المصورة لحالتهم التي جسّمها الخطاب الإلهي أحسن تجسيم بأسلوب الإخبار الذي يستوعب الوصف والتفصيل، وهذا ملا يطيقه الحوار ولا يتناسب معه.

ز- الحوار بين البشر وغير البشر:

ذكرنا الحوارات التي تقاسمتها الملائكة مع البشر في الدنيا والآخرة، ونذكر هنا الحوارات التي اختص بها نبي من أنبياء الله وهو سليمان، عليه السلام، مع النملة والهدد والجن. وهي حوارات حقيقة حكاها الله على السنة هؤلاء ليرز عظم النعمة التي أسبغها على سليمان، فقد سخر له ما في الكون لخدمته، ومكنه من التواصل اللغوي معها، فكل ما في الكون ينطق، ولكن إدراك مدلولات هذه المنطوقات يكاد ينحصر فيمن ينتمي مع الناطق إلى مجموعة أو تصنيف نوعي معين. فإذا أدرك من لا ينتمي إلى هذا التصنيف منطوقات أعضائه فإن إدراكه يكون خارجا عن المألوف في عملية التواصل. ولهذا كسرت حوارات سليمان مع المخلوقات غير البشرية توقع المتلقي، وأثارت دهشته، وجسمت له عظم نعمته - عز وجل - على عبده سليمان.

وماثلت مقولات هذه المخلوقات مقولات الأطراف الأخرى في الحوارات القرآنية، فلم تظهر تميزا في أسلوبيتها يجعلها تفارق المقولات الأخرى، فالواقعية في لغة الحوار واقعية نفسية لا لغوية.

^(١) الطور/ (٢٦-٢٨).

❖ الحوار بين سليمان والبهدهد:

﴿فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بنباً يقيناً؛ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾^(١).

❖ الحوار بين سليمان وعفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب:

﴿قال: يا أيها الملأ، أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. فلما رآه مستقراً عنده، قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشرك أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾^(٢).

❖ حوار النملة مع النمل وإدراك سليمان لقولها وإشارتها لجنسها:

﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة: يا أيها النمل، ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال: رب، أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾^(٣).

ح - حوارات الشخصية الجماعية (اتحاد المخاطبين الذي صدر عنهم الحوار):

برز الصوت الجماعي في الحوارات القرآنية بروزا لافتاً، ودل على رأي أو موقف جمعي توحدت فيه ومن أجله مجموعة من الأفراد. ويؤكد هذا التعميم في طرح الشخصية تمثيل القرآن لنماذج قد تكرر في كل زمان ومكان، ولأراء قد يجتمع على كل منها مجموعة تتبناها وتدافع عنها.

^(١) النمل/ (٢٢-٢٨).

^(٢) النمل/ (٣٨-٤٠).

^(٣) النمل/ (١٨-١٩).

ويفتح الصوت الجمعي الباب للاحتتمالات والتوقعات التي تبين كيفية صدور المقولة أو القالب التركيبي الذي تقولت فيه، فالصوت الجمعي مزيج من الأصوات وحدتها المقولة ولكنها غير موحدة النغمات، فصوت ينغم المقولة تنعيم السؤال الإنكاري، وصوت ينغمها تنعيم السؤال التعجبي، وصوت ينغمها تنعيم الخبر، إلى آخر هذه التنغيمات التي يكشفها السياق وقرائن الحال والقرائن اللفظية. ويفيد هذا في التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية؛ فكل قراءة تصور موقفاً لبعض من كل صوتي، مبينة ما لطرائق أداء المقولة من أثر في المعنى واختلافه.

ومن الأصوات الجماعية ما جاء في حوارات أهل الكهف: ﴿قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيها أركى طعاماً فليأتكم برزق منه، وليتلطف ولا يُشعَرَنَّ بكم أحداً﴾^(١).

وما جاء في حوارات الإخوة أصحاب الجنة (البستان): ﴿فتنادوا مصبحين أن: اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. وغدوا على حرد قادرين، فلما رأوها قالوا: إنا لضالون، بل نحن محرومون﴾^(٢).

وما جاء في حوارات أقوام الأنبياء مع بعضهم:

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟!﴾

قالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون.

قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾^(٣).

وفي حواراتهم لأنبيائهم: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا﴾^(٤).

^(١) الكهف/١٩.

^(٢) البقرة/٢١-٢٧.

^(٣) الأعراف/٧٥-٧٦.

^(٤) الأعراف/٨٨.

وما جاء في جل حوارات يوم القيامة:

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قالوا: إن الله حرمهما على الكافرين﴾^(١).

واختلف عدد الأطراف الذين تبادلوا الحوارات القرآنية، ويمكن أن نقسم الحوار من حيث عدد المتحاورين إلى:

(أ) الحوار أحادي الطرف، وفيه ينتج طرف واحد الرسالة الكلامية، ويكتفي الطرف الآخر بدور المتلقي أو السامع، ومثاله ما جاء في حوار الله - عز وجل - للمؤمنين الفاسقين بالجنة: ﴿يا عباد، لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾^(٢). وحواره مع الذين حق عليهم العذاب: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون. حتى إذا جاؤوا قال: أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾^(٣)، ولعل شدة انفعال المتلقي في المشهدين حالت دون قدرته على المحاوره.

(ب) الحوار بين اثنين، كالحوار بين موسى وأخيه هارون في المشهد الآتي: ﴿قال: يا هارون، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن؟ أف عصيت أمري؟ قال: يا ابن أم، لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾^(٤).

^(١) الأعراف/٥٠.

^(٢) الزمر/٦٨-٧٠.

^(٣) النمل/٨٣-٨٥.

^(٤) طه/٩٢-٩٤.

والحوار بين موسى وفرعون: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فساءل بني إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحورا. قال: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر، وإني لأظنك يا فرعون مثيرا﴾^(١). وتبدو العلاقة والتلاحم بين الطرفين قوية، فكل طرف يوجه حديثه لطرف واحد فقط وهذا يحول دون تشتت المرسل والمستقبل.

(ج) الحوار بين واحد من جانب واثنين من الجانب الآخر، كالحوار بين فرعون من طرف وموسى وهارون من الطرف الآخر: ﴿قال: فمن ربكما يا موسى؟ قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾^(٢) والحوار بين موسى من طرف وابنتي شعيب من الطرف الآخر: ﴿قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾^(٣).

(د) الحوار بين واحد وجماعة، وهو النمط الغالب في الحوارات القرآنية، وساد بشكل خاص في حوارات الأنبياء مع أقوامهم: (نوح مع قومه، وهود مع قومه، وصالح مع قومه، وشعيب مع قومه، ولوط مع قومه، وإبراهيم مع أبيه وقومه، وموسى مع بني إسرائيل والملأ من قوم فرعون، وعيسى مع بني إسرائيل والحواريين). وظهر في حوارات الملوك لأقوامهم، كحوار فرعون مع حاشيته، وحوار ملكة سبا مع حاشيتها.

(هـ) الحوار بين جماعة وجماعة، كحوارات أهل الجنة مع أهل النار: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قالوا: إن الله حرمهما على الكافرين﴾^(٤). وحوارات أهل جهنم الذين تفرقوا أحزابا وفرقا متخاصمة: ﴿فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعا، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟ قالوا: لو هذان الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾^(٥).

^(١) الإسراء/ (١٠١-١٠٢).

^(٢) طه/ (٤٩-٥٠).

^(٣) القصص/ ٢٣.

^(٤) الأعراف/ ٥٠.

^(٥) إبراهيم/ ٢١.

• أشكال الحوار القرآني (وضعيات التواصل الحوارية)

لم يلتزم القرآن الكريم بأسلوب محدد في تشكيل البنية الحوارية، فقد تقولبت حكاية القائلين في أشكال عدة، أكثرها حضوراً الأشكال التالية:

١- الحوار الخارجي (الثاني):

وهو النمط الحواري السائد في القصص القرآني خاصة، فقد جسم الثنائيات التي ظللت جل الحوارات القرآنية، وأهمها ثنائية الحق والباطل. وتنازعت أطراف الحوار المتعددة التي فصلت في الموضع السابق من هذه الدراسة، وقد لاحظنا تصوير الحوار لهذه الأطراف وكشفه عن همومها المختلفة، فأسلوبية المقولة الحوارية تتناسب مع الطرف المحاور وتصدر عنه صدوراً، ولكل طرف معجمه اللغوي الخاص "الذي قد يبرز جلياً أو يختفي اختفاء كاملاً حسب السياق"^(١)، وتضفي هذه الخصوصية ظلالها على تركيب الجملة الحوارية أيضاً، وعلى طول المقولة الحوارية وحركتها.

٢- الحوار الداخلي (المنولوج):

وهو الحوار الذي يدور بين الشخص وذاته، فيكون مرسلًا ومستقبلًا في الوقت ذاته، إنها مقولة غير معلنة، ويرجح حصولها داخل النفس. وقد جاء هذا النمط من الحوار في عدد من المواطن، وتضافر مع الحوار الخارجي في تحريك الحدث وتآزم الموقف مطالعاً قارئ النص الحوارية أو سامعه على باطن الشخصية وما يعتملها من صراعات. ويميز الحوار الداخلي بالقرائن المصاحبة للموقف الكلامي، فهو يحتاج إلى دراسة سياقية نصية شاملة، وقد يؤدي إدراج عدد من المقولات تحته إلى حل إشكالية التناقض التي دفعت عدداً من المفسرين إلى تبريرات وتعليقات غير مقنعة.^(٢) ومن الحوار الداخلي مقولة إبراهيم، عليه السلام، التي امتزجت فجأة مع ردة المعلن على قومه في الحوار الآتي: ﴿قالوا: أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟! قال: بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾^(٣) فلا يمكن أن يتصور نطق

^(١) سليمان الطراونة، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١٧٢.

^(٢) ينظر تعليق الزمخشري على مقولة إبراهيم لضيفه (فرم منكرون)، الكشف، ج ٤، ص ٣٩١.

^(٣) الأنبياء/ (٥٥-٥٧).

إبراهيم بجملة (وتالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) على مسمع قومه، لقد أسرها في نفسه مضمرًا مكيدته. ولو أعلنها لبطشوا به، فالمساس بأصنامهم أو التهديد بتدميرها جريمة لا تغتفر. ويثبت تساؤل قومه حين رأوا ما حل بأصنامهم سرية مقولته: ﴿قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه من الظالمين﴾^(١) فلو كان قد قال مقولته علنا لما ذهب قومه يلتمسون الفاعل. ومثلها الحوار الذي حصل في نفس يوسف، عليه السلام، في المشهد الحوارى الذي دار بينه وبين إخوته: ﴿قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. فأسرهما يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال: أنتم شرمكانا والله أعلم بما تصفون. قالوا: يا أيها العزيز، إن له أبا شيخا كبيرا، فخذ أحدهما مكانه، إنا نراك من المحسنين﴾^(٢)، فجملة (أنتم شرمكانا والله أعلم بما تصفون) مقولة داخلية، حددت الجملة السردية السابقة لها نوعها (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم)، وهي جملة تعج بما يوحى بالسرية فبعد أن قال (فأسرها يوسف في نفسه) أتبعها بما يؤكد المعنى (ولم يبدها لهم).

والمتتبع لسير الأحداث في القصة يلاحظ حرص يوسف على إخفاء شخصه وهويته عن إخوته، وقد أدى هذا إلى تكثيم مشاعره وعدم تقييم كلام إخوته الجارح بالكذب أو التوبيخ. كما أكدت مقولة إخوته التي لحقت مقولته مباشرة أنهم لم يتعرضوا لتوبيخ أو إنكار، ففيهما محاولة لإقناعه بأن يترك أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه، فلو سمعوا توبيخه لما توجهوا له بهذا الطلب.

ونظير ذلك مقالة إبليس بين يدي رب العزة، عندما أمره أن يسجد لآدم: ﴿قال: أأسجد لمن خلقت طينا. قال: أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لنن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلا﴾^(٣)، فمقولة إبليس التي جاءت بعد فعل القول المكرر توحى بـالمكر وحوك الدسائس لآدم وبنيه. لقد قالها سرا، بعد أن رد على استفسار الله منه عن سر امتناعه عن السجود لآدم: (قال: أأسجد لمن خلقت طينا؟!) ثم انتقل من الجهر إلى السر ليقول: (أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لنن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلا) تماما كما فعل إبراهيم مع قومه، ولكن مع فارق يكشف عن روعة النظم القرآني ودقته؛ فقوم إبراهيم لا يملكون قدرة الاطلاع على ما في نفسه، أما رب العزة فهو مطلع على الجهر والسر وأخفى، لقد علم وعجل ما دار في نفس إبليس فحكى مقولته السرية كما لو كان قالها جهرا، ورد عليها مواجهها إبليس بما في داخله من هواجس وأفكار: ﴿قال: اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء

^(١) الأنبياء/٥٩.

^(٢) يوسف/ (٧٧-٧٨).

^(٣) الإسراء/ (٦١-٦٢).

موفورا، واستفزز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا^(١)، ولعل تكرار فعل القول (قال) يوحي بالفصل بين مقالتي إبليس الجهرية والسرية.

وفي سورة الذاريات عندما دخلت الملائكة بهيئة رجال غرباء على سيدنا إبراهيم، امتزجت في رده العلني عليهم مقولة لا يمكن أن تصنف إلا ضمن الحوار الداخلي، لما عرف من خلق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: سَلَامًا. قَالَ: سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ﴾^(٢) فأبراهيم، عليه السلام، لا يمكن أن ينكر ضيوفه مواجهها إياهم بموقفه منهم، إنه يرد على تحيتهم بأحسن منها قائلا لهم: (سلام) للدلالة على ثبات السلام وتحقيقه أخذاً بأدب الله مكرماً إياهم، فهل يعقل أن يستهل حوارهم معهم بالإنكار الذي يتنافى مع كرم أخلاقه؟!.

٣- الحوار التلقيني:

وهو الحوار الذي وجهه الله (الطرف المحرك للنصوص الحوارية) إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (متلقي الوحي) ليقوم بتوجيهه إلى الطرف المقصود بصيغة الأمر (قل) الموحية بتوجيه الله لرسوله، وباهمية المقولة التي عليه أن ينقلها إلى الآخرين، وبالكيفية التي يجب أن تنقل فيها.

والحوار التلقيني حوار خاص برسول الله، إنه الخطاب المميز بين الذات المحمدية والوحي القرآني. وجاء هذا النمط من الحوار في مائتين وعشرة مواضع، توزعت على السور المكية والمدينة، مع استثناء السور المكية بالنصيب الأكبر منها^(٣).

واختلفت المضامين التي حوّاها الحوار التلقيني المكي عن تلك الموجودة في نظيره المدني، لاختلاف المتلقي (مسبب الحوار)؛ فقد أمر الرسول بتوجيه مقولات الله إلى الكافرين والمشركين في العهد المكي رداً على حججهم وسخريتهم من الرسول وإنكارهم لدعوته، ولذا حوت مقولات الله الموجهة إليهم وعيذاً، أو إنذاراً، أو سخرية، أو تكذيباً، أو تعليقاً على أقوالهم، أو إنكاراً لها، أو تقريراً لهم. أما وقد قامت الدولة الإسلامية، واستقرت أمورها، وأفحم أعداؤها فلم يعدوا قادرين على الجهر بعداوتهم للرسول وأتباعه، فتحولوا من المواجهة المباشرة إلى المواجهة السرية غير المعلنة المتمثلة في الدسائس والنفاق والمكر وإثارة الشبهات وتثبيط

^(١) الإسراء/ (٦٣-٦٤).

^(٢) الذاريات/ ٢٦.

^(٣) جاء الحوار التلقيني في السور المكية في مائتين واثنتين وعشرين موضعاً، وفي ثمانية وثمانين موضعاً في السور المدنية.

العزائم، فأدى الحوار التلقيني دور الكاشف الذي أزال الستار عن تلك الخصومات والدسائس التي أبرمت في الخفاء. فكثيراً ما نقل الله لرسوله مقولات أعدائه من المنافقين المتخاذلين والمشركين من أهل الكتاب، وأمره بالرد عليهم وفضحهم أمام أنفسهم، وفي هذا إثبات لهم وللجميع بصدق الرسول فهو متصل بالقدرة الإلهية المطلقة عليهم والمطلعة إياه على خفاياهم. كما تضمن الحوار التلقيني عرضاً لتساؤلات المسلمين واستفساراتهم المتعلقة بأمور دينهم وديناهم وإجابة الله عنها.

• ومن الأشكال التجريدية التي تقوّل فيها الحوار التلقيني:

- (قالوا: ----- قل: -----).

كما في قوله تعالى: ﴿وقال الدين كفروا: لا تأتينا الساعة. قل: بلى وربّي لتأتينكم، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾^(١).

فمقولة الكافرين قد صدرت ونقلها الله على لسان أصحابها، وأمر رسوله بالرد عليهم، فتشكل حوار مسبق صدرت مقولة أحد أطرافه، وتنتظر مقولة الطرف الآخر التنفيذ.

- (يقولون: ----- قل: -----).

كما في قوله تعالى: ﴿يقولون: هل لنا من الأمر من شيء؟! قل: إن الأمر كله لله. يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك؛ يقولون: لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا. قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليه القتال إلى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمتحن ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾^(٢).

إن استهلال مقولة المنافقين بفعل الكلام (يقولون) وهو بصيغة المضارع يوحي بنقل حي ومباشر لما يدور في مجلس أولئك المنافقين إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، ويؤمر الرسول بالرد عليهم مواجهها إياهم بما يدور بينهم من حوارات. ثم يوجه الله خطاباً خاصاً لرسوله (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) ثم ينقل له مقولة أخرى تبدو مكملّة للمقولة الأولى، ويأمره بالرد عليهم، فيتشكل حوار ينتظر التنفيذ.

^(١) ٣/ب.

^(٢) آل عمران/١٥٤.

وما كان هذا الحوار ليتشكل لولا أمر الله، فالمناقشون لم يواجهوا الرسول بمقولتهم، والرسول لا يعلم ما في الصدور ولا ما يجري في الخفاء إلا إذا أخبره الله.

- (قل: -----؟ سيقولون: ----- قل: -----).

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قل: لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون!!﴾ سيقولون: لله. قل: أفلا تذكرون!!^(١) إنه وَجَلَّ يَطْلُع ان رسول على الحوار الذي سيكون بينه وبين الكافرين، محددًا له إجاباتهم الحتمية، وملتقنا إياه الرد عليها. وهذا يعني أن مقولات الأطراف تنتظر إشارة البدء (قل) ليكون ما أراده الله وأطلع عليه رسوله.

- (قل: -----؟ قل: -----).

وفي هذا النمط من التشكيل يلقي الله رسوله السؤال والإجابة عنه، فيكون الحوار أحاديًا، ليواجه الرسول متلقيه بالسؤال والجواب مجردا إياه من المشاركة، موحيا بهذا أن القضية المطروحة لا تحتاج إلى نقاش، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قل: من يرزقكم من السماوات والأرض؟ قل: الله، وأنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾^(٢).

- (قل: -----).

وفي هذا النمط أمر بطرح المقولة الإلهية على المتلقي دون استتطاق إجابته، ودون أن تكون المقولة ردا كلاميا على مقولة ما، ومثاله قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قل: يا أيها الناس، إنما أنا لكم نذير مبين﴾^(٣)، وقوله: ﴿قل: أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾^(٤).

وقد يكون الأمر بالقول استجابة لاستفسار أو تساؤل لما لم يطرحه الله بلسان قائله ربما لكون المستفسر عنه لا يشكل قضية تثير تحديا أو خصومة يحتاجان إلى نسبة المقولة إلى قائلها؛ لإقامة الحجة له أو عليه.

^(١) المؤمنون/ (٨٤-٨٥).

^(٢) ل/ ٢٤.

^(٣) الحج/ ٤٩.

^(٤) الجن/ ١.

وظهر هذا النمط من الحوار في استفسارات المسلمين عن أمور دينهم ودنياهم، ومن ذلك: ﴿يسألونك ماذا ينفقون، قل: ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾^(١).

وتتوعد الردود التي لقنها الله لرسوله في مواجهة خصومهم، وفيما يلي طائفة بأنواع من هذه الردود المصنفة بحسب أغراضها:

- ١- قلب الدعوى: ﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل: لا تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾^(٢).
- ٢- السخرية: ﴿وقالوا: إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا؟! قل: كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾^(٣).
- ٣- الوعيد: ﴿قالوا: لا تنفروا في الحر. قل: نار جهنم أشد حرا﴾^(٤).
- ٤- التعجيز: ﴿وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾^(٥).
- ٥- الإنكار: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمنوا بالذي أنزل على الدين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. قل: إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم؟!﴾^(٦).
- ٦- التوبيخ: ﴿قل: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟! يقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟!﴾^(٧).

^(١) البقرة/٢١٥.

^(٢) الأعراس/١٧.

^(٣) الإسراء/٤٩-٥٠.

^(٤) التوبة/٨١-٨٢.

^(٥) البقرة/١١١.

^(٦) آل عمران/٧٢-٧٣.

^(٧) المؤمنون/٨٦-٨٧.

٤) المناجاة (الدعاء):

وهي شكل من أشكال الحوار الأحادي في القرآن الكريم، يتوجه فيها المخلوق برسائلته الكلامية المتضمنة همومه المختلفة إلى خالقه، وهو متيقن بأن الله يسمعه ويبصره، متأملاً أن يستجيب لدعائه. وتتمثل هذه الاستجابة بتنفيذ الطلب وتحقيقه لا في الرد الكلامي، فإن حصل رد كلامي فهذه خصوصية يمن بها الله على من يشاء من عباده.

وقد تكون المناجاة سرية وقد تكون علنية ونمثل عليها بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رب، هب لي حكماً وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين، واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾^(١).

٥) الحوار بالإشارة:

وهو شكل من أشكال التواصل اللاكلامي، يستعاض فيه عن الكلام بإشارات إيحائية مترجمة لما في نفس المشير. استخدم هذا الشكل الخطابي شخصان في موقفين متقاربين؛ الأول زكريا، عليه السلام، حين بشرته الملائكة ببيحيى، فطلب من ربه أية فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام: ﴿قال: رب اجعل لي آية. قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾^(٢). فخرج على قومه من المحراب ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾^(٣).

ومريم، عليها السلام، التي وجهها الله إلى كيفية مواجهة قومها بابنها عيسى الذي أنجبته دون أب: ﴿فإما ترين من البشر أحداً فقولي: إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً. فأنت به قومها تحمله قالوا: يا مريم، لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كنت أمك بغيا. فأشارت إليه قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيا؟﴾^(٤)

^(١) الشعراء/٨٣-٨٥.

^(٢) آل عمران/٤١.

^(٣) مريم/١١.

^(٤) مريم/٢٦-٢٩.

وهنا يفاجأ المتلقون بطفل وليد يتكلم: ﴿قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا، وجعلني مباركا أين ما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا، والسلام عليّ يوم ولدت، ويوم أموت، ويوم أبعث حيا﴾^(١).

إن هذا الخطاب يشكل كسرا للقوانين البشرية فهو معجزة لم تتكرر، جاءت لإثبات معجزة أخرى هي إنجاب عيسى دون أب. ويمكن أن نعلل أمر الله لذكرها ومريم بالصيام عن الكلام، بكون معجزة إنجاب يحيى وعيسى أمرا واقعا بوضوح يرفض الجدل والنقاش البشري، لأنه يفوق قدرة البشر وقوانينهم ولا شك في أن إنجاب عيسى معجزة تفوق معجزة إنجاب يحيى، ولهذا جعله الله ينطق دفاعا عن أمه التي تعرضت لهجوم كلامي عنيف من قومها حين اتهم به.

^(١) مريم/ (٣٠-٣٣).

• فاعلية الحوار القرآني:

الحوار أسلوب من أساليب نقل مضامين الرسالة الإلهية إلى البشر، والأسلوب هو الطريقة المختارة للتعبير عن المضمون، واختيار هذه الطريقة دون غيرها من طرق إيصال المعنى مقصد معين يقصده صاحب الأسلوب.

ويمكن إدراك جزء من هذا المقصد بالنظر إلى الوظائف التي أداها هذا الأسلوب في النص، فقد حقق الحوار القرآني أبعاداً عميقة وأدواراً هامة في النص القرآني عامة، وفي القصة القرآنية خاصة، وبالوقوف على فاعليات الحوار نقف على علة الاختيار، وبمعرفة علة الاختيار نضع أيدينا على فاعلية الحوار.

وسنعرض لعدد من الوظائف التي أداها الحوار بعد أن نلقي الضوء على البعد التأثيري له بوصفه حواراً فحسب لا بوصفه حواراً عن كذا أو يفيد كذا، فلكل أسلوب من أساليب القرآن تأثيره الخاص.

فما هو البعد التأثيري للحوار بوصفه أسلوباً من أساليب الدعوة الإلهية في القرآن؟
أجاب عن هذا التساؤل الدكتور عبد الحليم حفني مبيناً تأثير المحاورة في ثلاث نقاط هي:

١) مخاطبة المحاورة للجانب العقلي للإنسان من جهتين إحداهما عرض الحقيقة نفسها، وهو موضوع المحاورة، وهذا قدر يتساوى فيه أسلوب المحاورة مع كل الأساليب، حيث إن لكل أسلوب موضوعاً أو فكرة وعندئذ يتاح لعقل المتلقي أن يفكر في هذه الحقيقة. والجهة الأخرى هي المباراة بين المتحاورين والصراع الفكري الذي يدور بينهما وكل ذلك يستدعي من المتلقي أن يشحذ عقله وينشط ذهنه، إما متقمصاً شخصية الحكم، وإما منحاذاً إلى أحد الطرفين، واستخدام العقل وتحريك التأمل من أهم أهداف القرآن في كل أساليبه.

٢) مخاطبة المحاور للفرانز، حيث تخاطب غريزة من أسمى غرائز الإنسان، لقربها من العقل، ولصوقها بالمعرفة، وهي غريزة حب الاستطلاع؛ فأما لصوقها بالمعرفة، فلأن كل ما يستطلع الإنسان ويقف على حقيقته إضافة جديدة إلى معرفته، مهما صغرت هذه الإضافة. وأما مخاطبة أسلوب المحاور لحب الاستطلاع في الإنسان فلاشتمالها على طابع القصة في أقوى حالاتها إثارة، وهي حالة الصراع بين قوتين، فهذا أقوى جوانب القصة إثارة لحب الاستطلاع، ومتابعة ما ينتهي إليه صراع هاتين القوتين، فالمتابع لصراع قوتين في أي قصة يكون، غالباً، منحازاً بعواطفه من حيث لا يقصد مع القوة الأساسية في القصة، وهو ما يعبر عنه في اصطلاحات القصة بالبطل، والمؤمن أو المصلح هو دائماً بطل المحاور في القوان، ولهذا سيكسب مشاعر المتلقي، وإن كان مخالفاً له بعقله أو بمنطقه، وهو كسب غير يسير، فالدين لا يقوم على العقل وحده، وإنما يقوم على المشاعر والعواطف.

٣) يثير أسلوب المحاور مشاعر الإنسان وانفعالاته المختلفة لما تشتمله من أحداث، لأنها بذاتها مباراة وتنافس بين طرفين، وهذا التباري من شأنه أن يثير لذاته انفعال المشاهدين له، وهذا شيء في طبيعة النفس البشرية التي يثيرها الصراع بين قوتين، يؤكد هذا عمد الناس في كل زمان ومكان إلى اختلاق صنوف شتى من الصراع، سواء أكان صراعاً قتالياً كـمبارزات السيوف، أم صراعاً رياضياً كـمباريات الكرة والملاكمة والمصارعة، أم صراعاً كلامياً كـأشعار النقائض والمناظرات الأدبية^(١).

وبهذا يبدو لنا البعد التأثيري للحوار الذي أبان عن علل من علل الاختيار. ننتقل الآن إلى الكشف عن علل أخرى تتمثل في الوظائف أو الأبعاد التي حققها هذا الأسلوب.

^(١) عبد الخليم حفي، أسلوب المحاور في القرآن، ص (٥٠-٥٥) بتصرف.

• من وظائف الحوار في النص القرآني:

مثل الحوار القرآني القوة الدافعة للحركات الداخلية (النفسية) والخارجية؛ ففيه إخراج لخبائيا النفوس، وكشف عن طوايا الصدور، ثم أخذ الأحداث بها، وإجراؤها على حسابها، فيكون التلازم بين المواقف والأحداث.

فالتبادل الكلامي بين موسى، عليه السلام، وفرعون مثلا يوجب انفعال الغضب والتحدي عند الأخير متمثلا في سؤاله الإنكاري: ﴿أَجْتِنَّا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى؟﴾^(١)، ويدفعه صراعه الداخلي إلى التحرك السريع المتمثل بحشد السحرة للتصدي لموسى والسخرية منه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾^(٢)، وتحدث المفارقة التي صغقت فرعون وأثارت جنونه، فقد آمن سحرته بدعوة موسى بعد أن رأوا معجزته البينة: ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سَجْدًا قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ: آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ!! إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(٣).

لقد كشفت مقولته (آمنتم له قبل أن آذن لكم!!) الغطاء عن أهم ما يعني فرعون، وهو الدفاع عن سلطانه، فليس يهمه الإيمان أو عدمه في هذا الموقف الذي يمس سلطانه، فيحرك قوة لطشه لشل حركتهم المتمردة: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَلَا صُلْبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ، وَلَتَعْلَمُنَ أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾^(٤)، لقد جسمت مقولته بما فيها من تأكيدات (فلاقطعن، ولاصلبنكم، ولتعلمن) شدة غيظه من سحرته الذين خرجوا عن طاعته أمام الجموع الغفيرة، كما دلت بوضوح على شدة خوفه من زعزعة سلطانه، فلو كان واثقا من نفوذه لما احتاج إلى حشد كل هذه التأكيدات، ولما كانت عقوبته بمثل هذه البشاعة إنه يهدد كل من تسول له نفسه باتخاذ موقف مماثل.

^(١) طه/٥٧.

^(٢) طه/٥٨.

^(٣) طه/٧١.

^(٤) طه/٧١.

ولم تغب أهداف فرعون من كلامه وسلوكه عن السحرة، فردوا عليه مخاطبين أعماق نفسه ﴿قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى﴾^(١).

لقد استهلوا مقولتهم بالاستهانة بطاعته وسلطانه مقدمين الحق عليه، وقدموا ظهور الحق على ذات الله سبحانه قصدا (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا)؛ وفي هذا التقديم ثلاث مع الترتيب الزمني والعقلي لمعرفة الله والإيمان به، فظهور الحق سابق في الترتيب الزمني على معرفة الله والإيمان به. ثم أعلن السحرة تحدي فرعون (فاقض ما أنت قاض) ساخرين منه، مستخفين بتهديده كاسرين توقعه، فقد أثبت ردهم فشل فرعون في أن يبلغ من نفوسهم ما يريد. وألحقوا مقولتهم بما يعمق سخريتهم من فرعون، فقد عللوا سبب إيمانهم برغبتهم في تطهير أنفسهم من الجريمة التي أجرمها فيهم، وهي الإكراه على السحر (إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر). وأنهوا مقولتهم برد على مقولة فرعون لهم: (ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى) فقالوا: (والله خير وأبقى) وهذه المفاضلة ضربية قاسمة لملك فرعون وجبروته.

لقد مثلت المحاوراة السابقة الصراع بين الباطل والحق تمثيلا حاضرا يملأ الأسماع والأبصار بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه. إننا في هذا الحوار نتلقى الكلمات من فم أصحابها حية نابضة بالمشاعر والأحاسيس، وقد بدت الكلمات متلاحقة متدفقة تحري في خفة واندفاع وترشق أشبه الرمي بالسهام.

وقفز الحوار في كثير من المواطن بالمتلقي من مشهد إلى آخر طاويا بقفزته الزمان أو المكان أو كليهما، متجاوزا التفاصيل، ليضعه في مواجهة الحدث. إنه الحضور الفوري المفاجيء، الذي ينقلك من موقف إلى موقف في لحظة خاطفة، فتري نفسك في مسرح الحادثة، تشهد ما وقع وما جرى في هذا الموقف وكأنك واحد ممن حضروه أو شاركوا فيه^(٢).

^(١) طه/٧٢-٧٣

^(٢) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآن، ص ١٣٢.

ففي سورة طه وجه الله خطابه لموسى وأخيه أمراً إياهما بالذهاب إلى فرعون: ﴿فَاتِّبَاهِ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا أَنْ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(١). هذه المقولة التي تلقاها الأخوان من ربهما نجدها تصل إلى سمع فرعون فور تلقيهما لها، ونجد فرعون يلقاها بالرد، دون أن يجري ذكر اللقاء بينهما وبين فرعون، أو كيف تمكن أو غيرها من الأمور التي قد يتضمنها الموقف: ﴿قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟﴾^(٢) إن هذا الانتقال طوى سرداً وحوارات قد ينسجها خيال المتلقي ويعيد خلقها.

ومثله ما جاء في سورة يوسف حيث نقلنا الحوار المتصل الذي وجهه أحد أبناء يعقوب إلى إخوته من مصر إلى أرض كنعان، فإذا به يصل مباشرة إلى يعقوب طارياً المسافات، والكيفية التي ألقى فيها أبناء يعقوب الخبر وصولاً إلى رد يعقوب: ﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا: يَا أَبَانَا، إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. قَالَ: بَلْ سَوَّيْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(٣).

وفي سورة آل عمران نقلنا الحوار مباشرة من المشهد الذي جمع مريم بالملك المبشر بميلاد عيسى، عليه السلام، إلى المشهد الذي جمع عيسى ببني إسرائيل بعد أن كلفه الله بتبليغ دعوته، فدخل حديث عيسى في كلام الملك بطريق الحكاية: ﴿قَالَتْ: رَبِّ، أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ؟ قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَأُحْيِي الْمَوْتَى، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤)؛ لقد نقلنا الحوار من قصة مريم المحترارة الخائفة من الملك المبشر إلى ذروة

^(١) طه/ (٤٧-٤٨).

^(٢) طه/ ٤٩.

^(٣) يوسف/ (٨١-٨٣).

^(٤) آل عمران/ (٤٧-٤٩).

المواجهة بين عيسى وقومه، وقد أوحى هذا القفز بين المشهدين بتحقيق البشارة والسرعة في إطلاع المتلقي على ما كان من المبشر به.

وينقلنا الحوار من عالم الشهادة إلى عالم الغيب في قوله تعالى حاكيا ما جاء على لسان الرجل المؤمن: ﴿أَتُخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرَدَّنَ الرَّحْمَنُ بَصُرًا لَا تَغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَدُونَ، إِنْ لِي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِنْ أَمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ. قِيلَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(١) فليس بين المشهدين سرد يهيء لهذه النقلة؛ فالرجل المؤمن كأن يوجه كلامه إلى قومه منكرا شركهم ثم وجه كلامه إلى الرسل معلنا إيمانه، وكان المتلقي يتوقع ردا من قومه أو من الرسل فإذا به يأتي من عالم الغيب مستهلا بصيغة المبني للمجهول (قيل).

وهذا يعني أن الرجل قد قتل وبعث وأدخل الجنة، ولعل في هذه النقلة إبرازا للمتلقي لحسن عاقبة الرجل المؤمن، وسرعة مكافأته بتحويله من دار البلاء إلى دار الجزاء.

إنها تقنية أسلوبية قارة في الحوار القرآني حركت أحداث القصة تحريكا تجاوز الحدود المتوقعة، فاثارت تأويلات المتلقي الذي شحذ انتباهه لتعليل هذه النقلات الحوارية، واستشفاف ما طوته من سرد أو حوار.

✓ كما حقق الحوار القرآني حضورا في العرض، إنه يجعل المشهد صورة مسموعة ومرئية دون تدخل ملازم بالسرد أو الوصف، فيشعر المتلقي بأنه قد صار في بؤرة المشهد، يسمع الشخصيات تتكلم عن نواتها دون وسيط؛ ففي الحوار بعث للمشهد وإخراج له إلى حيز الوجود.

ولعل حذف فعل القول في كثير من المحاورات كان الأداة الفعالة في تحقيق هذا الحضور، لما في وجوده من تذكير بانفصال المشهد عن عالم المتلقي، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ قَالُوا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢)، إن قائل مقولة (أهذا الذي يذكر آلهتكم؟) وهم بذكر الرحمن هم كفرون^(٣)، إن قائل مقولة (أهذا الذي يذكر آلهتكم) هم الكافرون، وقد أحدث حذف القوم مع الضمير الدال على الفاعل تغيرا في نمط الأداء، من الحديث عن الكافرين، إلى

^(١) يس/ (٢٣-٢٧).

^(٢) الأنبياء/ ٣٦.

الحديث منهم، معطياً المتلقي إichاء بأنه يسمع المقولة من القائل الحقيقي. ثم نفاجأ بعودة السرد من جديد في قوله تعالى: (وهم يذكر الرحمن هم كافرون).

وقوله في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١) إنه أسلوب دقيق في الوصف، لكونه بلسان الموصوف، فمقولة المنافقين فضحت أخلاقهم وجسمتها.

ونظير ذلك وصف الله ﷻ للكافرين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ: هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا: مُعَلِّمٌ مَجْنُونٌ﴾^(٢)، إن تصوير هذا المشهد الغيبي بلسان من وقع عليهم يمثله في الأذهان بالصورة والصوت، فكان قائله ماثلون أمامنا في حالة الضراعة لربهم.

وكما أدى حذف فعل القول إلى تحقق الحضور بإخلاء ساحة العرض للحوار، فإن تكرار لفظ القول بين جزئي المقولة يحقق الحضور أيضاً؛ فبه يستغنى عن السرد الذي كان سيقطع الحوار ليصف حالة أو تغيراً ما. ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا: لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينَا مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قَالُوا: يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ نَاصِحُونَ؟! أَرْسَلْنَا مِنْهُ غَدَاً يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

إنه مشهد واحد يتكون من محاورتين بينهما فاصل؛ محاورة بين أبناء يعقوب في غيبة أبيهم، ومحاورتهم مع أبيهم، إذ لا يعقل أن تتم المؤامرة لقتل يوسف في حضرة الأب. فأين كلن الأب وقتها؟ إنه إما أن يكون غائباً ثم حضر فيكون المشهد واحداً طراً في أثائه دخول يعقوب على أبنائه فبادروه بقولهم: (يا أبانا ملك لا تأمنا .. الخ)، وإما أن يكونوا قد غادروا مكان المؤامرة متوجهين إلى أبيهم لتنفيذ المؤامرة فيكون الموقف قد وقع في مكانين وانقسم إلى مشهدين.

^(١) التوبة/١٢٧.

^(٢) الدخان/(١٠-١٤).

^(٣) يوسف/(٨-١١).

كل هذا دل عليه دخول كلمة (قالوا) التي جاءت فاصلاً بين المشهدين أو دالة على دخول الأب موحية بالتغير الذي طرأ دون اللجوء إلى قطع الحوار بسرد التغير الطارئ، فهي بديل عما حذف من السرد ودليل عليه. وهذا يؤكد الحرص على روح العرض التي يبعثها الحوار وعدم قطعها، حيث يؤدي المضمون المراد في قالب الحوار مع أقل إشارة ممكنة في السرد أو بدون إشارة وقد تحقق لهذا بإحدى وسيلتين؛ حذف لفظ القول وتكراره.

ويعصور الحوار القرآني الشخصيات التي أنتجت بأسلوب القرآن ذاته الذي يعلو ولا يسف، حتى مع تغير الشخصيات، فكل شخصية معجمها الحوارية الخاص الذي يبرز جلياً ويختفي اختفاء كاملاً حسب السياق^(١). وتضفي هذه الخصوصية ظلالها على تركيب الجملة الحوارية أيضاً.

ونمثل هنا على تنوع الحوار حسب تنوع المعجم الحوارية باللقطات الحوارية الآتية التي أنتجت مجموعة من الشخصيات المختلفة صفاتها وتنوعت طبائعها:

ونبدأ بعدد من مقولات خصوم الأنبياء التي توحى مفرداتها بالغضب والتهديد والضيق، فها هو أزر يهدد ابنه إبراهيم قائلاً: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لنن لم تنته لأرجمك وأهجرني ملياً﴾^(٢). ويبرز هذا العنف في مقولة الملائكة الذي استكبروا من قوم شعيب: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾^(٣).

وها هو فرعون يهدد السحرة ويتوعدهم بعد أن أعلنوا إيمانهم: ﴿آآمنتكم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين﴾^(٤)، فالملمح اللغوي البارز في مقولة هؤلاء استخدام أسلوب التوكيد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ويوحى هذا الأسلوب بعنفهم وغضبهم الشديدين، وضعفهم الداخلي الذي يدفعهم إلى إسكات الطرف الآخر بالقوة.

^(١) مريم/٤٦.

^(٢) الأعراف/٨٨.

^(٣) الأعراف/٨٨.

^(٤) الشعراء/٤٩.

وترددت في حوارات المعذنين في جنهم مفردات عكست انفعالاتهم وصراعاتهم الداخلية والخارجية، أبرزتها المفردات الدالة على التخاصم وتشمل: السب واللعن والتكذيب والبراءة والاثام والنفي. ومن هذه المفردات ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿قالوا: ربنا، هؤلاء شركاؤنا الذين كذا ندعوا من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾^(١).

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾^(٢).

﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار. قالوا: بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قد متموه لنا فبنس القرار﴾^(٣).

ولللأنبياء والصالحين في الحوار القرآني مفرداتهم المميزة، وعباراتهم الخاصة منها: (يا قوم، اعبدوا الله، اتقوا الله، لا أسألكم عليه من أجر، ربنا، أطيعون، إني أكم رسول أمين، ألا تتقون) إنهم يدورون في محور الدعوة إلى الله، ولهذه الدعوة مفرداتها التي يتنازعها أفرادها في كل زمان ومكان.

كما عكس الحوار انفعالات أطرافه وتفاوتها، واستوعب أسلوبه آثارها. فالناظر إلى أسلوب الجمل الحوارية يدرك انفعال أصحابها، وهذا ما ستحاول الدراسة إيضاحه في حديثها عن أسلوبية مكونات الحوار وخصائصه، فالمثيرات التي يتعرض لها الإنسان كالخوف والغضب والتحدي والسخرية والفرح وغيرها تنعكس في عبارته فيلجأ إلى الحذف أو التكرار أو التقديم والتأخير أو التأكيد أو غيرها من التشكلات الأدائية.

وبهذا يكون الحوار القرآني قد حقق أبعاداً عميقة وأنواراً هامة في النص القرآني عامة، وفي القصة القرآنية خاصة؛ فهو باعث الحياة والحركة في الحدث، وهو مؤدي الهدف، ومظهر المغزى، وكاشف الصراع، وترجمان الشخصية، ومحقق الحضور.

(١) البقره/٨٦.

(٢) البقره/٣٢.

(٣) ص/٥٩-٦٠.

❖ أطوال الحوارات القرآنية:

طالت الحوارات في عدد من المواطن، وجاءت مجملتها قصيرة في مواطن أخرى. ونحدد مفهوم طول الحوار بركيزتين؛ الأولى: امتداد المشهد الحواري؛ فقد يمتد تردد الكلام ومواجهته بين أطراف الحوار، فلا يقتصر على مقولة المرسل ورد المستقبل عليها، وإنما يتبع الرد رد وهكذا وصولاً إلى مقولة تحسم القضية (مثار الحوار). وقد يتكون المشهد الحواري من مراجعة واحدة فيبدو مجملها قصيراً.

أما الركيزة الثانية المعتمدة في تحديد طول الحوار فتتمثل في طول المقولة الحوارية؛ فقد تكون المقولة الحوارية الصادرة عن أحد الأطراف طويلة فيهما تفصيل وتوضيح يستلزمها السياق. وقد تكون قصيرة خاطفة قليلة العناصر.

من المشاهد الحوارية الممتدة، الحوار بين الله وموسى عليه السلام في سورة طه^(١)، ففيه تفصيلات الدعوة التي حملها الله لموسى وتعدد النعم التي منحها عليه. وحوار موسى مع الخضر في سورة الكهف^(٢) وفيه يظهر انفعالات موسى وردود الخضر عليه، وحوار موسى مع بني إسرائيل في سورة البقرة^(٣) وقد جسمت المراجعة فيه طبيعة بني إسرائيل الجدلية، والحوار بين الله وإبليس في سورة الأعراف^(٤) الذي امتد كاشفاً حقد إبليس على آدم وبنيه وتصاعد هذا الحقد. والحوار بين نوح وقومه في سورة هود^(٥) وفي امتداده تصوير لمقدار الجهد الذي بذله نوح في الدعوة وإلحاحه على قومه الذين أصروا على الكفر.

^(١) امتد الحوار بين الآيتين (١١-٤٨).

^(٢) امتد الحوار بين الآيتين (٦٦-٨٢).

^(٣) امتد الحوار بين الآيتين (٦٧-٧١).

^(٤) امتد الحوار بين الآيتين (١٢-١٩).

^(٥) امتد الحوار بين الآيتين (٢٥-٣٤).

ومن المشاهد الحوارية المقتصرة على مراجعة واحدة للحوار بين مالك والمعذبين في نار جهنم^(١)، والحوار بين الله والذي حشره أعمى يوم القيامة^(٢)، ولعل صدور الكلمة الفصل حال دون الإطالة، فلا مجال للمفاوضة أو المساومة.

وقد يكون انعدام الصراع بين طرفي الحوار سببا في قصر المشهد الحواري، فالصراع - غالبا - ما يؤدي إلى تناوب الكلام بين الفريقين، ومن الحوارات التي اختفى فيها الصراع لإنحسام القضية وعدم الخوض فيها، ما جاء في حوار زكريا مع مريم: ﴿قال: يا مريم، أنى لك هذا؟! قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾^(٣).

وحوار عيسى مع الحواريين: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله﴾^(٤).

ومن الحوارات المكررة ما يكون ممتدا في موطن وقصيرا مجملا في موطن آخر، فحوار موسى مع فرعون في سورة الشعراء جاء ممتدا مفصلا^(٥)، بينما جاء الحوار ذاته في سورة النازعات قصيرا موجزا^(٦)، ويمكن تعليل هذا بترتيب النزول، فسورة الشعراء نزلت قبل سورة النازعات، وقد فصل فيها الحوار بين موسى وفرعون فاستغني عن ذكر هذه التفصيلات في سورة النازعات.

وقد يحدث عكس ذلك، فيأتي الحوار الأول مجملا، ويأتي الحوار المكرر مفصلا ممتدا، ومثاله مجيء حوار إبراهيم مع قومه في سورة الصافات مجملا مختصرا^(٧)، بينما جاء مفصلا ومضيفا ما هو جديد في الموضوع والمفردات في سورة الأنبياء^(٨).

^(١) ينظر الحوار في: الزخرف / (٧٧-٧٨).

^(٢) ينظر الحوار في: طه / (١٢٥-١٢٦).

^(٣) آل عمران / ٣٧.

^(٤) الصف / ١٤.

^(٥) امتد الحوار بين الآيتين (١٦-٣١).

^(٦) ينظر الحوار في سورة النازعات (١٨-١٩).

^(٧) امتد الحوار بين الآيتين (٨٥-٩٧).

^(٨) امتد الحوار بين الآيتين (٥٢-٦٩).

وكذلك الأمر بالنسبة للمقولات الحوارية؛ فمن المقولات الحوارية القصيرة رد أهل النار على سؤال أهل الجنة في الجوار الآتي: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم﴾^(١). ولعل حالة الأثم والحسرة واليأس حالت دون امتداد مقولة أهل النار فتمثلت في حرف الجواب (نعم) وقد يدل قصر المقولة على الإقرار والإذعان، ومثالها رد إبراهيم على مقولة ربه في الحوار الآتي: ﴿إذ قال له ربه: أسلم قال: أسلمت لرب العالمين﴾^(٢).

وتطول المقولات الحوارية متسعة للتفصيلات والتوضيحات، ومثالها مقولة الله لعيسى، عليه السلام، في سورة المائدة^(٣)، ففيها تفصيل يتناول النعم التي أسبغها الله على عيسى رداً على الشبهات والإفتراءات التي أحيطت به. كما تضمنت المقولة الحوار التي دار بين عيسى والحواريين، والحوار الذي دار بين عيسى والله عز وجل.

ومن المقولات الحوارية المكررة ما تطول في موطن، وتختصر في موطن آخر وتكمل، ومثالها مجيء مقولة هود، عليه السلام، لقومه في سورة الشعراء^(٤) طويلة استوعبت تفصيلات دعوته وتعداد نعم الله عليهم التي تستوجب منهم عبادته وحده. بينما اختصرت مقولة هود في سورة (المؤمنون)^(٥) مقتصرة على طلبه من قومه أن يعبدوا الله ويتقوه.

^(١) الأعراف/٤٤.

^(٢) البقرة/١٣١.

^(٣) امتد الحوار بين الآيتين (١٠٩-١١٦).

^(٤) امتد الحوار بين الآيتين (١٢٤-١٣٥).

^(٥) تنظر المقولة في الآية (٣٢).

الفصل الثاني

مكونات لغة الحوار القرآني

❖ فاعلية مكونات لغة الحوار وأسلوبيتها في إنتاج الدلالات وتجسيمها

❖ السؤال

❖ الأمر

❖ النهي

❖ النداء

السؤال

يشكل السؤال* ظاهرة أسلوبية مهيمنة في لغة الحوار القرآني، فقد جاء في أربعمئة وأربعة عشر موضعاً، أي ما يعادل نصف التراكيب المكونة للغة الحوار في القرآن الكريم. حظيت الحوارات المكية بثلاثمائة وسبعة وثلاثين موضعاً مقابل سبعة وسبعين تركيباً في الحوارات المدنية، وذلك يرجع إلى احتلال الحوار في القسم المكي مساحة واسعة تفوق تلك التي يحتلها في القسم المدني.

• لو كانت مساحة الحوار المدني توازي المساحة التي يحتلها الحوار المكي لتضاعفت نسبة تواجد السؤال في الحوار المدني لارتباط السؤال بالحوار، فقد بلغ عدد الآيات المكية التي ورد فيها الحوار ألفاً وثلاثمائة وستاً وتسعين آية، نسبة السؤال في بنيتها (٢٤%)، وبلغ عدد الآيات المدنية التي ورد فيها الحوار مائة وسبعاً وتسعين آية، نسبة السؤال فيها (٣٩%).

وساير السؤال مضامين الحوارات المكية والمدنية، واستوعب تفجرات الدلالة المنبثقة من شحنات التفاعل الحوارية الذي قام جله بين أطراف متصارعة وأقطاب متنافرة. ولا تخفى الطاقة الإثارية والتأثيرية التي يفجرها السؤال، فهو وعاء لغوي تفرغ فيه الأطراف المتحاوره مشاعرها وانفعالاتها مبرزاً حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النص وتقديم حيثيات المضامين الحوارية.

وتنوع الوجود الفعلي لتركيب السؤال في النصوص الحوارية خارجاً من دائرة المفهوم الحقيقي للاستفهام إلى دلالات أخرى باستثناء نماذج محدودة. والذي يعني هنا هو هذا الخروج؛ لأنه مناط تألق التركيب وجماليته وسبيله إلى ولوج عالم الأساليب الانفعالية والتعبيرية

* فرق أبو هلال العسكري بين السؤال والاستفهام، إذ ذهب إلى "أن الاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه، وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم، ويجوز أن يكون السائل سائلاً عما يعلم وعما لا يعلم، فالفرق بينهما ظاهر". (العسكري، الفروق في اللغة، ص ٢٨). وقد انطلقنا في نسبتنا لهذا التركيب من التعريف السابق، مؤثرين استخدام مصطلح (السؤال) على مصطلح (الاستفهام)؛ لأن حل ما قيل عنه استفهام لا يدخل في دائرة مفهوم الاستفهام لغة واصطلاحاً؛ فالاستفهام يعني طلب الفهم، وهو لا يدخل في البلاغة إلا حيث لا يرد به هذا الطلب. ولنا رأينا أن إدراج هذه التراكيب تحت مصطلح السؤال يعطي أفاقاً رحبة تستوعب تنوع دلالات التركيب وتشعبها دون اللجوء إلى تبرير وتعليل يرضخنا لمعنٍ قاصر. خاصة حين تصدر التسؤلات من سائل عليم، فالسؤال تركيب لغوي تستعمل فيه أدوات مخصوصة يسأل به عن شيء طلب له جواب أو لم يطلب.

والوجدانية، وهذا ما تعنى الدراسة الأسلوبية به، فهي تعالج السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل من تراكيب نحوية عديدة.

وقد أثبت التوظيف الفعلي لهذا الاختيار هيمنته على سائر التراكيب النحوية الداخلة في مباحث علم المعاني، فكثيراً ما ترد هذه التراكيب في تركيب السؤال، كأن يأتي الأمر أو النهي أو التمني في صورة هذا التركيب، ولا يحدث أن يرد تركيب السؤال في صورة من صور التراكيب السابقة.

ولنا أن نتساءل عن علة اختيار السؤال من بين التراكيب اللغوية الأخرى ليكون القلب الذي تتقلب فيه معظم الدلالات التعبيرية؟!.

لقد التفت عدد من الدارسين قديماً وحديثاً إلى ميزة جوهرية من ميزات السؤال يمكن أن تعد إحدى علل ذلك الاختيار تتمثل في البعد النفسي المكتنز في السؤال، والمتشكل في مستويين؛ مستوى المرسل ودلالة اختيار السؤال من بين البنى التركيبية الأخرى، ومستوى المتلقي ومدى فاعلية السؤال دون ما عداه من هذه البدائل^(١). وهذا يعني أن إلتجاء أحد أطراف الحوار إلى السؤال لتفريغ شحنته الانفعالية أو لإنتاج شحنات انفعالية في نفس المتلقي ليس مجرد صدفة عشوائية، حتى وإن تغيب الوعي الكامل في عملية الاختيار، فالسؤال يكتنز بوسائل تأثيرية تجسم انفعالات السائل أو توتراته وتمارس فاعليتها في المخاطب، لا لكونه سؤالاً عن شيء بعينه أو دالاً على غرض معين ولكن لكونه سؤالاً فحسب، فالسؤال يتفاعل مع نفس المخاطب قاطعاً رتبة تلقيه للتراكيب الجاهزة، ومثيراً دهشة لتتشأ أقصى درجات التواصل بين أطراف المشهد الحوارية.

ويكون السؤال أحادي الدلالة في سياق حوارى ومتشعب الدلالة في سياق آخر. ويحتلج الكشف عن دلالات السؤال إلى وقفة تأملية تحيط بأبعاد الموقف الحوارى، فقد يخبىء السؤال الواحد في حناياه دلالات وإيهامات تستعصى على التحديد لغزارتها وتشابكها. هذا بالإضافة إلى الخصوصية التي يتمتع بها كل سؤال في سياقه، وتميزه في موضعه عن سؤال آخر قابع في سياق مشابه، الأمر الذي يعني ضرورة الاحتراز من التعميم في معالجة دلالة التركيب، فليس

(١) نذكر منهم أبا هلال العسكري الذي أشار إلى دلالة التلطف بين السائل والمسؤول المنبثقة من بعض استعمالات السؤال لإثبات السؤال على آخر الصريح في الدلالة على الخير. (ينظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصنائع، ص ٤٤٥). وعبد الفاهر الخرجاني في حديثه عن أثر السؤال الذي لا يتوفر للتراكيب الأخرى في دلالة الإنكار، وإشارته إلى البعد النفسي في كيفية تفاعله مع نفس المتلقي (ينظر: الخرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١١٩). وأحمد ماهر البكري الذي أشار إلى البعد النفسي بوصفه إحدى خصوصيات السؤال التي تميزه عن المألوف من أساليب النفي، فهو أقوى في دلالة النفسية من النفي الخبري (أحمد البكري، أساليب النفي في القرآن، ص ٢٨٧) وعبد العبد في إشارته إلى القيم التأثيرية للسؤال في شعر السياب (عبد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، ص ٧٠).

كل سؤال دل على الإنكار، مثلا، سواء فالدلالة الواحدة قد تنشعب إلى مجموعة من الدلالات الفرعية التي تتبدل بتبدل السياقات مثبتة استعصاء السؤال على التحديد والانحصار في دلالات بعينها، وهذا مظهر من مظاهر الانحراف في أسلوبية السؤال حري بالتأمل.

التفت عبد القاهر الجرجاني إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة في بعض استعمالاته، مؤسسا أرضية انطلاق تدعونا للوقوف على أقصى إمكانات تراكيب السؤال في توليد الدلالات، ففي تعليقه على قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم في حوارهم معه: ﴿أَأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!﴾^(١) قال: "واعلم أن الهمزة فيها ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه"^(٢).

استثارت العبارة السابقة تأمل الدكتور عيد بلبع فكشف عن دلالات أخرى أفادها التركيب مبينا أن ما ذكره عبد القاهر لا يفي دلالات السؤال حقها، "بقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضا، لوضعهم المخاطب إبراهيم، عليه السلام، موضع مقارنة مع آلهتهم التي يجلونها ويقصدونها تحقيرا لم يطبقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه (فعلت هذا). والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يفعل هذا الفعل بالآلهة، على زعمهم، وأن يفعل منه هو هذا الفعل، فالسؤال يضع المخاطب دون الجراءة على القيام بهذا الفعل، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثله.

والسؤال يشير، إلى جانب ذلك، إلى نبرة تهديد غير خافية، فما يسألونه ليكافئوه أو يميلوه أو يتركوه، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك، وتستطيع أن تلمس التهديد في السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه، فمع أن إبراهيم، عليه السلام، كان من الجراءة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل، إلا أنه لم يقر بالفعل إقرارا صريحا. نعم، إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدتهم، ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر، وفيها محاولة لإثباتهم عن أن يحلوا به عقابا على فعله"^(٣).

^(١) الأنبياء / ٦٢.

^(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١١٤.

^(٣) عيد بلبع، نقض البلاغة/أسلوبية السؤال، ص(٦٣-٦٤).

وبمثل الكيفية السابقة سنحاول تبين بعض دلالات التركيب في معالجة التطبيقية المنصبة على عدد من المشاهد الحوارية، مع إقرارنا المسبق بعجزنا عن حصر الدلالات المتنوعة التي تشربها التركيب في السياقات المختلفة الوارد فيها أو الإحاطة بها. وستسلمنا المحاولة إلى الحديث عن الأبعاد النفسية المكتشفة من دلالات التركيب المرتبطة بالسياق وطرفي الخطاب، ليتأكد أثر السؤال الذي لا يتوفر للتركييب اللغوية الأخرى.

وبالوقوف على فاعليات السؤال في إنتاج الدلالة نكون قد وضعنا أيدينا على علة الاختيار وطاقات السؤال الإبداعية وقيمه الأسلوبية التأثيرية الموجهة إلى التركيب (من المرسل) أو الناتجة عن التركيب في المتلقي. مع بيان أثر الدلالات المتقولة في السؤال في كيفية وروده في النص الحوارية، فالسؤال حين يوجد على درجة من الهيمنة في النص يتوزع وقفا لخصوصية النص الحوارية التي تميزه وتشكل وجوده الخاص، ولذا سنتأمل أيضا عددا من النصوص الحوارية التي يشكل السؤال سمة مهيمنة في بنيتها اللغوية.

• فاعلية السؤال وأسلوبية في إنتاج الدلالات وتجسيمها:

لعلي لا أبالغ إذا قلت إن لكل سؤال خصوصية في سياقه لا تكون لسؤال غيره، صحيح أن الأسئلة قد تتشابه كما تتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال جاعلة منه وجودا قائما بذاته لا تحده مقولات ولا تحصره تصانيف.

وسنحصر دراستنا لفاعلية السؤال وأسلوبية في إنتاج دلالتين هما: دلالة الإنكار ودلالة التقرير؛ لأنهما أكثر الدلالات تقوليا في أسئلة الحوار القرآني، كما أن للأسئلة التي حوتها طابعها الخاص في النص الحوارية، هذا بالإضافة إلى انطواء كثير من الدلالات تحت مظلة هاتين الدلالتين.

ونبدأ بدلالة الإنكار التي تجسدت في مائتي سؤال، وهذا يعادل ما نسبته (٤٨,٣%) من الدلالات المكتنزة في أسئلة الحوار القرآني. جاء في اللسان أن إنكار الأمر إظهار النفور منه، والرغبة عنه، واستهجان وقوعه سواء أوقع هذا الأمر أم لم يقع^(١).

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (نكر).

❖ ظواهر في الإنكار:

قد يوجه الإنكار إلى فعل واقع يريد المرسل بيان أنه ما كان ينبغي أن يقع، فيبجح فاعله أو يوبخه أو يتهم عليه أو غيرها من الدلالات التي يكشف عنها السياق واعتبار طرفي الخطاب، ومن ذلك ما حكاه الله على لسان لوط في خطابه لقومه: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين؟!﴾^(١) وقوله على لسان موسى في حوارهِ مع الخضر: ﴿أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا؟!﴾^(٢)، وقوله: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرأ﴾^(٣)، فإتيان الفاحشة وقتل النفس وخرق السفينة أفعال واقعة من المخاطب.

وينكر الفعل الواقع بأسلوب النفي، ومنه ما حكاه الله على لسان هود في حوارهِ مع قومه قال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون؟!﴾^(٤) وقوله على لسان أهل الكتاب في حوارهم السوي: ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟!﴾^(٥)، ومنه ما حكاه على لسان إبراهيم في حوارهِ مع قومه: ﴿أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون؟!﴾^(٦) فالإنكار قد وجه للمخاطبين لأنهم لم يتقوا ولم يتعقلوا ولم يتذكروا، وهم موبخون على هذا الترك مطالبون بالتقوى والتعقل والتذكر. وجاء هذا الأسلوب الإنكاري في ختام الجمل مشكلا نهاية متوترة تستفز المتلقي، وقد صدر أكثره على ألسنة الأنبياء في حوارهم مع أقوامهم، واتصلت الأفعال في جميع مواطنها بواو الجماعة.

* وجه الإنكار إلى الأفعال الواقعة في سنة أو أربعين موقعا وهنا ما يعادل ٢٣% من نسبة الأسئلة الإنكارية.

(١) الأعراف/٨٠.

(٢) الكهف/٧٤.

(٣) الكهف/٧١.

(٤) الأعراف/٦٥.

(٥) النور/٧٦.

(٦) الأنعام/٨٠.

كما وتكرر الأفعال غير الواقعة، ويراد بإنكارها نفي وقوعها واستبعادها، كقوله تعالى على لسان كفار مكة: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟﴾^(١)، أي لن نؤمن وقوله تعالى على لسان إبليس: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾^(٢) أي لن أسجد.

وفي عدد من المواطن أنكرت أفعال لم تقع كأنها واقعة (إنكار الواقع في المستقبل) لتحقيقها ضرورة، كقول مؤمن آل فرعون لهم وقد تأمروا على قتل موسى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾^(٣) فالقتل لم يقع، ولكنه أنكر كأنه واقع؛ لظهور إمارات تحققه وهي قول فرعون لحاشيته: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾^(٤)، وقول الملائكة لله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٥) فقد أنكر الملائكة الجعل ولم يكن قد وقع؛ لأنه جاء في وعد الصادق الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وقد يقع الإنكار على متعلق الفعل المقدم عليه، فيفيد قصر إنكار الفعل بحال تعلقه بمعموله السابق: ﴿قُلْ: أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٦)، فالمنكر إتخاذ رب غير الله، لا إتخاذ الرب. وقوله: ﴿قُلْ أَلَذَكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٧)، فالمراد إنكار التحريم أصلاً بإنكار وقوعه على جميع متعلقاته التي ارتبط بها.

قال السبكي: " ويلزم من إنكار تعلق الفعل بما اتحصر فيه إنكار أصله؛ لأن الفعل لا بد له من محل يتعلق به، فإذا نفي محله لزم نفيه، وبهذا الاعتبار صار إنكار التعلق كناية على إنكار أصل التحريم، وقد أخرج هذا في قالب طلب التعيين"^(٨).

والغالب أن يوجه المتكلم إنكاره إلى من يخاطبه، ولكنه قد يوجهه إلى نفسه وهو يريد غيره تلطفاً منه في النصيح بالبعد عن المجاهرة بالنكير، وعن نسبة المخاطب إلى قبيح، كقول

^(١) الأنعام/ ٨٠.

^(٢) الإسراء/ ٦١.

^(٣) البقرة/ ١٣.

^(٤) غافر/ ٢٦.

^(٥) البقرة/ ٣٠.

^(٦) الأنعام/ ١٦٤.

^(٧) الأنعام/ ١٤٣.

^(٨) هاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ج ٢، ص ٢٩٨.

الرجل المؤمن لقومه الكافرين: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون؟ أأخذ من دونه آلهة؟!﴾^(١) فكانه قال: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون؟ أأخذون من دونه آلهة؟) وقد يريد المتكلم الإنكار على ذاته فعلا وذلك في حوارهِ مع ذاته مقرّعا إياها نادما على ما وقع منها، كقول ابن آدم وقد قتل أخاه فأصبح من النادمين: ﴿يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاواري سوءة أخي؟!﴾^(٢).

وقد يؤكد المتكلم نسبة الفعل المنكر إلى فاعله بزيادة الضمير المنفصل العائد عليه؛ واضعا المخاطب في مواجهة مع ذاته ملاحقا إياه؛ ليرغمه على الاعتراف بالحقيقة، كقول قوم إبراهيم له: ﴿أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم؟!﴾^(٣) فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (أفعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم؟)، لكن تلك الزيادة جاءت لمحاصرة إبراهيم، وإدانتته بتأكيد نسبة الفعل المنكر إليه، وأكد التأكيد بمناداته أيضا: (يا إبراهيم).

وقد يؤكد المتكلم نسبة الفعل المنكر إلى فاعله ليبرئ ذاته من هذا الفعل: ﴿قال الدين استكبروا للدين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟! بل كنتم مجرمين﴾^(٤) فقد كان من الممكن الاكتفاء بقولهم: (أصددناكم عن الهدى). ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا إنكارهم وقوع هذا الفعل منهم فأبرزوا الضمير المتصل محاصرين الفعل (صد) بضميرين يعودان على ذات المتكلم.

كما قدم الفاعل على فعله في عدة مواطن لتأكيد إنكار نسبة الفعل إلى فاعله المقدم كقوله تعالى في حوارهِ التلقيني للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿قل أالله أذن لكم أم على الله تفترون﴾^(٥) فقد قدم الفاعل (الله) على فعله (أذن) لتأكيد إنكار صدور الإذن من الله ومجابهة المتلقي بافتراءه، ولذا أتبع السؤال بسؤال آخر وطلب من المتلقي التعيين ظاهرا، أي أن السؤال الثاني إجابة تزييت بزي السؤال: (أم على الله تفترون؟) ويعني إنما أنتم تفترون على الله، وقدمت شبه الجملة المعلقة بالفعل (تفترون) لتحذير المتلقي من المتقدم وتخويفه.

^(١) يس/٢٢-٢٣.

^(٢) المائدة/٣١.

^(٣) الأبياء/٦٢.

^(٤) سبأ/٢٣.

^(٥) يونس/٩٥.

وقد يراد إنكار نسبة الخبر إلى المبتدأ فيقدم الخبر: ﴿ويستنبؤونك: أحق هو؟! قل: أي وربي إنه لحق﴾^(١) فالمشركون يسألون الرسول منكبين مستهزئين أن يكون ما خبرهم به من العذاب الموعود حقا، ولذا قدموا (الحق) على المبتدأ (هو) العائد على العذاب؛ لتسليط إنكارهم وسخريتهم على هذا الخبر. قال الزمخشري: "وقرأ الأعمش: ألحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل"^(٢).

ومثله قول موسى، عليه السلام، لفرعون وحاشيته: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم: أسحر هذا؟! ولا يفلح الساحرون﴾^(٣) فجملة: (أسحر هذا؟! (أسحر هذا؟! حكاية لكلامهم، وقد بدؤوا سؤالهم بالخبر (سحر) لإنكار الحق الذي جاء به موسى، وبت القول في أنه سحر على سبيل السخرية والاستهتار. فما كان منه، عليه السلام، إلا أن أنكر إنكارهم مؤكدا أن ما جاء به ليس سحرا وإنما حقيقة نفحهم إنكارهم.

ويحذف الفعل الواقع ليلسط الإنكار على وقت وقوعه كما في قول الملك الموكل بإغراق فرعون: ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾^(٤)، وقول الملائكة للكافرين وقد آمنوا حين وقع عليهم العذاب: ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون﴾^(٥) أي آلآن تؤمنون؟! فإنكار الفعل مقيد بهذا الوقت الذي لا ينفع فيه الإيمان.

❖ مؤكدات الإنكار:

تؤكد دلالة الإنكار التي يحويها السؤال بمراجعة السياق واعتبار طرفي الحوار وطبيعة العلاقة الرابطة بينهما، وهذا يعني تجاوز النظرة الجزئية الضيقة التي تبتتر التركيب من سياقه فتحول دون استشفاف طبيعة الإنكار المكتتزة فيه، فليس كل سؤال خرج إلى دلالة الإنكار سواء.

وتعد القراءة الارتدادية للسياق الذي جاء فيه السؤال تأكيدا معنويا لدلالة الإنكار التي يحويها، ولكن قد تؤكد هذه الدلالة أيضا بمؤكدات لفظية مذكورة في بيئة النص، كأن تسبق

^(١) يونس/٥٣.

^(٢) الزمخشري، ج ٢، ص ٣٣٩.

^(٣) يونس/٧٧.

^(٤) يونس/٩١.

^(٥) يونس/٥١.

السؤال الإنكاري جملة تقوي الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال: بنسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم؟! وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾^(١)، فقد سبقت جملة القول عبارة تبين الحال التي كان عليها موسى لما رجع إلى قومه، فقد كان غضبان أسفا، وهذا يجسم صورة مرئية للامح وجهه وصورة سمعية لتتبع ما سيقوله. وحين تكلم استهل كلامه بجملة: (بنسما خلفتموني من بعدي) التي ذم فيها فعلتهم وأكد إنكاره لها، وانتهت هذه الجملة بصرخة إنكار تكاثفت كل العناصر السابقة في تقويتها: (أعجلتم أمر ربكم؟!) ويبدو أن الإنكار كان أكبر من الكلام، فتحول إلى فعل ينبض عنفا وغضبا: (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه). وهكذا فقد أحيط السؤال الإنكاري بجمال تقوي دلالاته وتجسمها.

وقد تلحق السؤال الإنكاري جمل تقوي دلالاته وذلك في عدة صور منها: أن تكون الجملة حالا كقوله تعالى على لسان لوط في حوار مع قومه: ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟!﴾^(٢) فإنكار إثبات الفاحشة يزداد حدة في حال إبصارهم إياها.

وقوله على لسان موسى في حوار مع قومه: ﴿يا قوم، لم تؤذونني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم؟!﴾^(٣) فإيقاع الأذى به في حال علمهم علما يقينا أنه رسول الله إليهم يقوي دلالة الإنكار في تساؤله، ويبرز المفارقة بين علمهم وتصرفهم؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ووقره.

وقد تكون الجملة التالية للسؤال الإنكاري جملة استئناف، كقوله تعالى على لسان موسى في حوار مع الخضر وقد خرق السفينة: ﴿قال أخرجتها لتفرق أهلها؟ لقد جنت شيئا إمرأ﴾^(٤) وقوله له وقد قتل الغلام: ﴿أقتلت نفسا زكية بغير نفس؟! لقد جنت شيئا نكرا﴾^(٥) فقد سأل سؤالا إنكاريا وعلق على الفعل في السؤال بأنه شيء (إمر) في السؤال الأول، وشيء (نكر) في

^(١) الأعراف/١٥٠.

^(٢) النمل/٥٤.

^(٣) العنكبوت/٥.

^(٤) الكهف/٧١.

^(٥) الكهف/٧٤.

السؤال الثاني. والإمر والنكر يدلان على فعل منكر مستهجن فاعله، وهكذا يؤكد درجة الإنكار التي يحويها السؤالان.

وقد تكون الجملة المؤكدة للإنكار إضراباً ببل، كقوله تعالى على لسان كفار قريش المنكرين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلْقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا! بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ﴾^(١) وقول الذين استكبروا للذين استضعفوا وهم يختصمون في نار جهنم: ﴿أَنحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟! بَلْ كُنتُمْ مَجْرِمِينَ﴾^(٢).

كما تأتي جملة شرط بعد السؤال الإنكاري مؤكدة دلالاته كقول قوم عاد لنبيهم: ﴿اجْتَنَّا لَتَأْفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا؟! فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣) فقد أنكروا مجيئه بدعوة جديدة تصرفهم عن آلهتهم، وأكدوا إنكارهم وسخريتهم بأن أمره أن يأتيهم بما وعدهم، وأتوا بالشرط الذي يؤكد إنكارهم (إن كنت من الصادقين)، ولا يخفى ما لتقديم جواب الشرط (فاتننا بما تعدنا) على جملة الشرط (إن كنت من الصادقين) من تأكيد إنكار وقوع العذاب واستبعاده واستخفافهم بتحذير الرسول، فهم يطالبونه بالفعل والتففيذ.

وقد يؤكد الإنكار بتلاحق الأسئلة وتواليها على لسان المتكلم، كقول ملائكة العذاب للكافرين الذين أعلنوا إيمانهم حين وقع عليهم العذاب: ﴿أَنُتِمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ؟! أَلَا بَانَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ؟!﴾^(٤) فقد أنكروا إنكار إيمانهم بعد فوات الأوان بتكرار أداة السؤال، وتوجيه الإنكار إلى كلمة (الآن) الدالة على الوقت الحاضر المؤكدة لمدلول كلمة (ثم).

ومن تكرار الهمزة لتأكيد الإنكار ما جاء في أسلوب إذا وأين، كما في قوله تعالى حكاية عن المنكرين للبعث: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟! أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟!﴾^(٥) إن مجيء السؤال جواباً للشرط أكد الإنكار؛ فالمتحقق ما جاء بعد أداة الشرط (إذا) وهو كون المتحدثين تراباً في المستقبل وهذا مبرر إنكارهم وعلمته. ولا يخفى أن مجيء السؤال مكرراً في جملة الشرط وجوابه تأكيد للإنكار، كما لا يخفى أن العطف على فعل

^(١) القمر/٢٥.

^(٢) سبأ/٣٢.

^(٣) الأحقاف/٢٢.

^(٤) يونس/٥١.

^(٥) الواقعة/٤٧-٤٨.

لنتأمل السؤال الذي وجهه نوح، عليه السلام، لقومه في حوارهم معهم وقد امتزجت فيه دلالة الإنكار بمشاعر الحرص على هدايتهم، والخوف عليهم من سوء العاقبة التي ستحقق بهم، والتفريع والتوبيخ واللوم، يقول:

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا؟!﴾^(١)

لقد جسم هذا السؤال بتتبعه الصاعد تأزم مشاعره، عليه السلام، فظهر صرخة إنكار متألّمة تفرع المخاطبين على استكبارهم وعنادهم وعدم استجابتهم لدعوته التي طالّت وامتدّ زمانها. وظهر كأنه وشاية تصور رد فعل المخاطبين على كلامه الذي استهله بهدوء الناصح المذكر أمرا إياهم باستغفار ربهم مبيّنا نعمة الله عليهم، ولكن رسالته لا تلقى أذنا صاغية ولا قلوبا واعية، وعندها تعلو نبرة الخطاب لتشد انتباههم منفسّة عن ضيق المتكلم وتذمّره.

وشكل السؤال سمة مهيمنة لها وضعية خاصة في الخطاب الذي وجهه موسى، عليه السلام، إلى قومه وأخيه مجسما صدمة المرسل بالواقع وتوتره وغضبه، الذي وصل به حد الانهيار، وهذا يثبت خصوصية السؤال وثقوقه على التراكيب الأخرى في استيعاب الشحنات الانفعالية الوجدانية التي تموج في نفس المتكلم، وإيصال نبضها وحرقتها إلى المتلقي وتطويقها بها: ﴿قال: يا قوم، ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا؟! أفظال عليكم العهد؟! أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟!﴾^(٢)، وبعد أن يجيبه قومه ميررين تصرفهم، يلتفت موسى إلى أخيه هارون ويسأله بالأسلوب ذاته قائلا: ﴿يا هارون، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تبعن؟! أفقصيت أمري؟!﴾^(٣) إنه لا يابه بإجابة المتلقي بل لا يريد لها؛ لأنها مرفوضة مستكرة، ولذلك نجده، عليه السلام، يجيب عن المتلقي المسؤول موجهًا له الخطاب في قالب السؤال الذي يستوعب تجسيم مشاعره، وبهذا يكون قد صفع مخاطبه بالسؤال الإنكاري والإجابة المنقولة في تركيب السؤال الإنكاري مدخلا إياه في مواجهة مع نفسه تشعره بقبح فعله وسوء عاقبته.

^(١) سورة نوح/(١٠-١٤).

^(٢) طه/٨٦.

^(٣) طه/٩٢-٩٣.

وبدا موسى خطابه لقومه بندايمهم (يا قوم)؛ إنها صرخة غضب وأسف يريد بها المرسل الإحاطة بمخاطبة ومحاصرته بخطابه، وقد بين الله الحال التي كان عليها موسى حين رجع إلى قومه بعد أن أخبره ^(١) **وَجَلَّ أَنْ قَوْمَهُ قَدْ عَبْدُوا الْعَجَلَ فِي غَيْبَتِهِ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾** ^(٢)، وهذا يعلل سبب الإتكاء على الأسئلة في مواجهة المتلقي؛ فمشاعر الغضب والأسف التي كانت تموج في نفس موسى دفعته إلى السؤال دفعا لا إراديا: (ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا؟!) يذكر موسى بهذا السؤال قومه بوعدهم لهم مقررًا إياهم بأسلوب السلب الذي يفيد الإثبات، والتوكيد منكرا تجاهلهم هذا الوعد موبخا لانما. ولا تخفى دلالة التحسير والأسف المكتنزة في السؤال، فهو يتحسر عليهم ويحسرهم على أنفسهم.

ويتبع التساؤل الإنكاري التقريري تساؤل آخر يحوي تفسيرًا لدافع قد يكون وراء تصرفهم المنكر: (أفطال عليكم العهد؟!) وفيه يبرز ما يمكن أن يكون دافعهم في قالب السؤال ليواجهه متلقيه بكل ما يحويه السؤال من دلالات الإنكار والاستخفاف بقدرتهم على الصبر.

ويتصاعد الغضب في نفس المتكلم متجسما في سؤال ثالث يحوي دافعا آخر وجه إليه سيدنا موسى إنكار: (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟!) وفيه قدم النتيجة على السبب؛ ليجابه المتلقي بسوء العاقبة المترتبة على إخلالهم الموعد، فهو يجعل من حلول غضب الله غاية سعوا إليها وأرادوها، ولذا فهو ينكر ما وقع من إرادتهم حلول الغضب (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم).

ويلتفت موسى إلى أخيه موجهًا إليه سؤالا ينكر فيه مانعه الذي حال دون اللحاق به: **﴿قال: يا هارون، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني؟!﴾** ^(٣) ويتبع سؤاله سؤال يحوي إجابته التعليلية لما يرجح أن يكون سببا وراء فعله المستنكر: **﴿أف عصيت أم ري؟!﴾** ^(٤).

ولا تخفى قدرة السؤال وطاقته على المواجهة الكلامية الصادرة من فرد إلى جمع غفير؛ إنه سلاح قوي المفعول، يلجم الألسنة موقفا المتلقي على رسالة المرسل الكلامية، وكأنني بهذه الأسئلة المتوالية لكلمات يوجهها موسى إلى قومه، فهو لا يريد بها استثارة تأملهم ولكنه يريد أن

^(١) طه/٨٦.

^(٢) طه/٩٢-٩٣.

^(٣) طه/٩٣.

يصرخ بهم ويعاقبهم محرقاً إياهم بالنار المتأججة فيه، فلو استطاع أن يضربهم لفعل، ويؤكد هذا التوقع التجسيم الفعلي للغضب الذي تملك موسى؛ فقد ألقى الألواح التي كتبت عليها تعاليم دينهم، وأخذ برأس أخيه يجره من شعره، وتشير آية سورة الأعراف^(١) إلى أن إلقاء الألواح جاء بعد الأسئلة التي خاطب بها قومه، أي أن التجسيم الفعلي للغضب جاء بعد التجسيم الكلامي.

لكنه يفعل العكس مع أخيه هارون، فقد بدأ بجر شعر لحيته ورأسه، ثم وجه له سؤالين إنكاريين^(٢). الأمر الذي يثبت أن ترجيح الفعل على القول أو العكس يخضع لطبيعة العلاقة بين طرفي الحوار؛ فعلاقة الأخوة التي تربط بين موسى وهارون جعلت موسى يجسم انفعالاته فعلياً قبل تجسيمها كلامياً، بينما تحول العلاقة مع الطرف الأول دون ذلك.

وقد تتوالى الأسئلة الإنكارية على لسان الرسل في حوارهم مع أقوامهم حين يواجهون بوابل كلامي ينكر دعوتهم، أو يسخف أفكارهم، أو يهدد وجودهم، فيشبهون السؤال سلاحاً في تلك المبارزة الكلامية، ومن ذلك الأسئلة الإنكارية المتتابعة التي وجهها إبراهيم، عليه السلام، إلى قومه حين حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه، فقال لهم:

﴿أتحاجوني في الله وقد هداني؟! ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي، وسع ربي كل شيء علماً، أفلا تتذكرون؟! وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؟! فأي الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟!﴾^(٣)، لقد بدأ بسؤال تمتاز فيه دلالة الإنكار بالتينيس وإحباط أية محاولة تضليل يقوم بها الخصم المخاطب، وفيه إحياء وتجسيم لنبرة المتكلم الواصل من سلامة العقيدة التي يعتقها وينادي بها. وقد لحقت بالسؤال جملة حال تقوي الإنكار المتقوّل فيه: (وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي وسع ربي كل شيء علماً) فهو، وحاله هذه، فوق أية محاولة تضليل يقوم بها مخاطبه. ويتصاعد انفعال إبراهيم متبلوراً في سؤال إنكاري ثانٍ تمتاز فيه نكهة الأمر والتوبيخ بدلالة الإنكار: (أفلا تتذكرون؟!؛ فترك التذكر والتأمل واقع من المخاطبين، وقد أنكر هذا الترك، وطلب منهم أن يتذكروا بأسلوب النفي مع إفادة التوبيخ بسبب إصرارهم على عدم التذكر. ولا يراد النفي في الحال فقط، بل في الماضي كذلك، فهم لم يتذكروا في الماضي ولا في الحاضر.

^(١) تنظر الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

^(٢) قال: يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبع؟! أنعمت أمري؟! قال: ينزّم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي... (طه/٩٢-٩٤).

^(٣) سورة الأنعام/ (٨٠-٨١).

ويتلو هذا السؤال سؤال آخر يعمق الدلالات السابقة ويرسخها معيدا إشعالها من جديد: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا) إنه يؤدي الإنكار بالأداة (كيف)، مؤكدا إنكار وقوع فعل الخوف متعجبا من علة وقوعه، ومسخفا طلبهم ومقرعا إياهم. وينتهي خطابه معهم بسؤال إنكاري جاعلا له نهاية مفتوحة تستفز تأمل المخاطب، وتحثه على الإجابة التي لا يملك منها فرارا طالبا من المخاطب التحديد والتعيين: (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟!)، إنها إجابة ترتدي زي السؤال مشكلة نتيجة حتمية للتساؤلات التي سبقتها، لتثير انتباه المخاطب وترغمه على الاعتراف، ولو في نفسه، بأن الفريق الأحق بالأمن هو الفريق المؤمن بالله وحده.

كما توالى الأسئلة الإنكارية في الخطاب الذي وجهه لوط إلى قومه: ﴿ولوطا إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟! أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء؟! بل أنتم قوم تجهلون﴾^(١)، إنه ينكر ما وقع ويقع من قومه في التساؤل الإنكاري الأول، ويفصل سبب إنكاره الممزوج بالاستهجان والتقرز والتوبيخ في السؤال الإنكاري الثاني. ولا تخفى قدرة السؤال في تجسيم انفعال لوط، عليه السلام، وتوصيل صرخته للمتلقي لردعه وتقبيح فعله.

وقد يفصل بين الأسئلة الإنكارية فاصل يقوي دلالة الإنكار في السؤال الأول، ويؤجج الانفعال ويبرزه في السؤال الثاني، ومن ذلك ما حكاه الله على لسان إبراهيم، عليه السلام، في حوار مع قومه المصريين على تقديس الأصنام وعبادتها وإيقاع أقسى ألوان العقوبة على من يتعرض لها بسوء مع علمهم بسليبتها الدائمة؛ فهي لا تضر ولا تنفع: ﴿قال: أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم؟! أف لكم ولما تعبدون من دون الله. أفلا تعقلون؟!﴾^(٢)، فقد استهل خطابه بسؤال ينكر عبادتهم لغير الله، ويوبخهم متعجبا من عنادهم واصرلهم، ويحقر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، وتؤكد دلالات السؤال بزفرة التنمر والتفجر المتمثلة بكلمة (أف) التي وجهها لهم ولما يعبدون دون خوف منهم أو احتراس، ويتصاعد انفعاله متقوليا بسؤال ثان يختتم به خطابه جاعلا منه نهاية مفتوحة يتردد صداها في سمع المتلقي كاسرة جمود تفكيره: (أفلا تعقلون؟!).

^(١) النمل / ٥٤-٥٥.

^(٢) الأنبياء / ٦٦-٦٧.

وتثير دعوة الرسل إنكار أقوامهم فيجسمون هذا الإنكار في تراكيب سؤال متواليّة: ﴿وكانوا يقولون: إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون؟! أو آباؤنا الأولون؟!﴾^(١) فقد أنكر المشركون أن يبعثوا، وانصب الإنكار على جملة (أإنا لمبعوثون) وجملة (أو آباؤنا الأولون)، والإنكار فيهما إنكار وقوع ينفي ويستبعد نسبة الخبر إلى المبتدأ.

والخبر في الأولى مذكور (مبعوثون)، وقد حذف في الجملة الثانية لأنه مفهوم من السياق والتقديم والتأخير، (أو آباؤنا الأولون مبعوثون أيضا)، وقد جسم هذا الحذف إنكارهم الساخر نعم تجسيم، فلعلهم كانوا يتناولون مادة هذا الحديث أضحوكة في مجالسهم، وكانوا يستغرقون في السخرية إلى درجة عدم القدرة على إتمام عباراتهم.

وقد يتبادل الفريقان المتحاوران الأسئلة الإنكارية، فيأتي السؤال الإنكاري ردة فعل كلامية على سؤال إنكاري صدر عن أحد الأطراف. نمثل على ذلك بأسئلة الإنكار المتبادلة بين نوح وقومه في الحوار الآتي الذي دار بينهما:

﴿كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح: ألا تتقون؟! إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعون.

قالوا: أنؤمن لك واتبعك الأولون؟!﴾

قال: وما علمي بما كانوا يعلمون؟! إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون، وما أنا بطارد المؤمنين، إن أنا إلا نذير مبين﴾^(٢).

لو استفتح نوح حوارَه بسؤال إنكاري يمتزج بدلالة الأمر والحث على فعل التقوى، ثم قولب الفكرة في قالب الأمر ليؤكد بها بتتبع آخر : (فاتقوا الله وأطيعون)، وينتهي خطابه بتكرار العبارة السابقة إلحاحا على مضمونها. (فاتقوا الله وأطيعون) ورد قومه على تساؤله الإنكاري بتساؤل إنكاري يؤكد نفي وقوع إيمانهم به وتبينه من استجابتهم لدعوته، فقولهم: (أنؤمن لك)، يعني لن نؤمن، وأتبع قوم نوح تساؤلهم بجملة الحال (واتبعك الأولون) التي أكدت الإنكار وما ارتبط به من دلالات السخرية والتحقير.

^(١) الواقعة (٤٧-٤٨).

^(٢) الشعراء (١٠٦-١١٥).

ويتصدى نوح لتساؤلهم بتساؤل مماثل، يقول فيه دلالة النفي وما ارتبط بها من تعجب ودهشة، وهذا يختلف في تأثيره عن النفي المحض؛ فالأخير يوصل المعلومة مجردة من مشاعر المرسل و انفعالاته: (لا علم لي بما كانوا يعملون) بينما تنفجر المشاعر في قوله: (وما علمي بما كانوا يعملون!) ملاحقة المتلقي، كاشفة عن حرارة الصراع بين الفريقين. كما ويخلق السؤال إجابة خفية في نفس المخاطب تسلم بما يقوله الرسول، وبذلك يكون السؤال تمهيدا إقناعيا يعبر فيه المتكلم عن تأثره ويؤثر في الوقت ذاته على متلقيه، تعقبه إجابة عن تساؤلهم تفسر وتعلل وتوضح.

ويمتد السؤال ليشكل رؤية كاملة للنص الحوارية الذي دار بين موسى، عليه السلام، والخضر^(١)، فقد اشترط الخضر على موسى أن لا يوجه إليه أي سؤال ينكر فعله، أو يطلب تعليلا له إن أراد أن يرافقه في رحلته. أي أن استمرار العلاقة بين الطرفين مرهون بعدم طوح الطرف المشارك أية أسئلة: ﴿فإن إبتعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾^(٢).

ولكن الخضر كان على يقين بأن سيدنا موسى لن يتحمل ما سوف يراه وسيدفعه انفعاله إلى السؤال دفعا فلما قال له موسى: ﴿هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا؟﴾ قال الخضر: ﴿إنك لن تستطيع معي صبرا؛ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا؟﴾^(٣).

وقبل أن نتعرض لدلالة السؤال الإنكاري الذي وجهه الخضر لموسى، عليه السلام، دعونا نتأمل دلالات السؤال الذي استهل به موسى حوارهم مع الخضر.

لقد قلب موسى طلبه بقلب السؤال تأديبا في العرض، فهو لا يفرض صحبته على الخضر حتى وإن تماناها وتلف على حصولها، وإنما نراه ينتظر بسؤاله الإذن من المخاطب؛ ففي السؤال تخفيف من حدة الطلب فلو قال: (اجعلني تابعا لك على أن تعلمني مما علمت رشدا) مستخدما تركيب الأمر لا ننفي عن التركيب دلالة إحساس موسى عليه السلام بالحاجز النفسي الذي يولده اللقاء الأول مع شخص غريب، هذا الإحساس الذي يحول دون أن يستهل المتكلم

^(١) ينظر الحوار كاملا في سورة الكهف/ (٦٦-٧٧).

^(٢) الكهف/ ٧٠.

^(٣) الكهف/ (٦٦-٦٨).

خطابه بأسلوب الفرض الذي نستشفه من فعل الأمر، فقد يكون طلب الشيء بصيغة الأمر أمرا مقبولا بين طرفين بينهما معرفة سابقة، ولكنه ليس بالأمر اللائق مع مخاطب لم تتجاوز معرفته بضع دقائق.

كما يوحى السؤال برغبة موسى، عليه السلام، بفتح آفاق الحوار مع الخضر والتفاعل معه، لأن السؤال يتطلب من المسؤول إجابة، وبذلك ستنشأ علاقة جدلية حيوية بين المرسل والمستقبل تنتهك حاجز الإحساس بالغربة خالقة بداية التواصل.

وتأتي إجابة الخضر مشفوعة بسؤال يعللها ويخفف من وقعها على نفس المتلقي، فحين قال: (إنك لن تستطيع معي صبرا)، قد يتوهم المتلقي أن المرسل يقلل من قدرته على الصبر والاحتمال معليا من قدرته هو على ذلك، ولذا أتبع ما أكدته في بداية إجابته بسؤال جاعلا، بتلويحه الصوتي، عدم القدرة على الصبر أمرا لا يلام عليه المخاطب؛ لأنه يجهل الحكمة المرادة من هذه الأفعال. وقد صيغ هذا التوبيخ بقلب السؤال؛ لدفعه إلى التدبر والتفكير الذي يسلم إلى محاولة التصبر؛ فما سيشاهده سيكون أمرا يتفهمه عنده الصبر. كما يخلق السؤال لدى المتلقي توقعا وترقيا يخففان من وقع الفعل الغريبة في نفسه.

ولا ينعقد تساؤل الخضر من دلالة استفزاز الفضول في نفس المخاطب؛ فإنكار الخضر لعدم وقوع الصبر، والتعجب من إمكانية هذا الوقوع، أثار رغبة موسى وتشوقه لمشاركة الخضر في رحلته: ﴿قال: ستجدني، إن شاء الله، صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾^(١).

وتبدأ الرحلة فيأخذ الخضر بممارسة أفعال هي في ظاهرها مناكير، فلا يتمالك موسى، عليه السلام، أن يشمز ويمتعض ويجزع إذ رأى ذلك، ويأخذ في قولبة مشاعر الإنكار والاستهجان والتوبيخ في قالب السؤال الذي استوعب أقصى درجات التوتر والانفعال التي وصلت به حد الإنهيار:

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها. قال: أخرجتها لتغرق أهلها؟! لقد جئت شيئا إمرأ. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا؟! قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا﴾^(٢).

^(١) الكهف/٦٩.

^(٢) الكهف/(٧٠-٧٣).

أثار خرق السفينة إنكار موسى وفزعه واستهجانه فاندفع بالإنكار والفزع والاستهجان إلى السؤال دفعا ناسيا شرط إتباعه للخضر. وتؤكد الدلالات النابعة من سؤاله بالتعليق على فعله بأنه فعل عظيم القبح: (لقد جئت شيئا إمرأ)، ولا تخفى قدرة السؤال، بتتبعه الصاعد، على تجسيم صرخة الانفعال التي أطلقها موسى عليه السلام.

وكانني بالسؤال يجسم ثورة المتكلم وتوتره أكثر من طلبه إجابة من المخاطب تعلل أو تقسّر سرّ تصرفه. ويواجه الخضر هذا السؤال بسؤال ينكر طرح السؤال، ويقرر المخاطب بأسلوب النفي (ألم أقل لك) مذكرا ومعاتبا ومؤكدا توقعه الذي صرح المخاطب به في مستهل حوارهما: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(١)، فيفتنر موسى للخضر مبينا أن ما حدث أنساه الشرط الذي بينهما.

ولكن غصة الحيرة والفزع والإنكار وغيرها من المشاعر المضطربة ما زالت متأججة في نفس موسى، ولذا لم تلبث إلا وقد طفت متقوية في تساؤل آخر: ﴿فَانْطَلِقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ: أَقْتَلْتَنِي زَكِيًّا بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟! قَالَ: إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾^(٢).

خلق تساؤل موسى كمّا من الإنكار يفوق ذلك القار في التساؤل الأول، ويمكن أن نعلل السبب بالنظر إلى نتيجة الأفعال التي قام بها الخضر، فخرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك. وربما يؤكد ما ذهبنا إليه استخدام كلمة (إمرأ) في وصف (شيئا) في الجملة التي تلت التساؤل المنكر فعل الخرق: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(٣). واستخدام كلمة (نكرا) في الجملة التالية للسؤال الذي ينكر فعل القتل: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا﴾^(٤). وللسائل أن يسأل عن الأمر والنكر وهل يصلح أحدهما في موضع الآخر أم لكل واحد معنى يخصه بمكانه؟!

^(١) الكهف/٦٧.

^(٢) الكهف/٧٤-٧٦.

^(٣) الكهف/٧١.

^(٤) الكهف/٧٤.

أجاب الخطيب الإسكافي على هذا التساؤل قال: " قيل الإمر: الداهية، وقيل: إنه العجب. والنكر: ما تنكره العقول ولا تعرفه ولا تجوزّه، وروي عن قتادة أنه قال: (النكر أعظم من الإمر؛ لأن الإمر حمل على الداهية، فهي التي تدهي الإنسان مما لم يخشه، فيحترز من وقوعه)، والعجب قد يكون غير منكر، والنكر لا يستعمل إلا في المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقل أو الدين. فاختص الأول بالإمر؛ لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك. وقيل الإمر أعظم من النكر؛ لأن تغريق أهل السفينة أنكر من قتل نفس واحدة. وليس الأمر كذلك لأن الغرق لم يقع والقتل قد حصل"^(١).

وجاء في الكشاف: "وقيل: معناه، ويقصد نكرا، جئت شيئا أنكر من الأول؛ لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسد، وهذا، وقصد القتل، لا سبيل إلى تداركه"^(٢).

ويجيب الخضر عن التساؤل بتساؤل سبق أن طرحه في مواجه السؤال الإنكاري الأول، ولكنه اكتنز بجرعات إضافية من الدلالات ذاتها؛ ليناسب الزيادة في شحنة الإنكار التي ظهرت في سؤال موسى. فعتاب الخضر في سؤاله الثاني قد ازداد حدة وعنفًا وصل به حد الإنكار الممزوج بالتوبيخ؛ لكونها المرة الثانية التي يخترق فيها موسى، عليه السلام، شرط إتباعه. ولعل زيادة (لك) في السؤال الثاني وإخلاء السؤال الأول منها يبرهن صحة ما ذهبنا إليه.

يقول الزمخشري: "قأن قلت: ما معنى زيادة (لك)؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"^(٣).

ويعلل الخطيب الإسكافي هذا بقوله: "والجواب أن يقال: إنه في الأولى لما قرر موسى صلى الله عليه وسلم - وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يتقل عليه فقال: (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا)، وهذا معناه، في غالب ظني، إنك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر إلى الإنكار. فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار، أكد التقرير الثاني بقوله: (لك)، كما يقول القائل: لك أقول، وإياك أعني، فيقدم لك وإياك. ولو قال: أقول لك وأعنيك بكلامي لاستويا في المعنى إلا في تأكيد الخطاب بالتقديم. فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك

^(١) الخطيب الإسكافي، درة التوفيل وغرة التأويل، ص (٢٨٣-٢٨٤).

^(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٧٠٧.

^(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٧٠٧.

دون سواك، وهذا وجب في الثاني لا في الأول الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه، عليه السلام، كتأكدها في الثانية^(١).

ويشعر سيدنا موسى بالخجل من انفعاله المتكرر الذي يدفعه دفعا إلى خرق شرط إتباعه للخضر بطرح الأسئلة الإنكارية، فيضع شرطا على نفسه مجتبا الخضر الحرج الناتج عن تذكيره المستمر لشرط الإتيان: ﴿قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا﴾^(٢)، لقد جعل مواصلة رحلته من الخضر مرهونا بعدم طرح أي تساؤل.

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه، قال: لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾^(٣) لم يتمالك موسى لما رأى الحرمان ومساس الحاجة أن قال ما قال طالبا من الخضر أن يأخذ أجرا على بنائه الجدار؛ ليستدفع به الضرورة. لقد حمل قوله بين طياته سؤالا خفيا بل مجموعة أسئلة يمكننا أن نقدرها بـ:

- لم بنيت الجدار الأيل للسقوط في هذه القرية التي أبى أهلها أن يضيفونا؟!

- لماذا أقمت هذا الجدار؟!

- ألا تتخذ على إقامته أجرا؟!

٥٤٢٣٥٥

ولنا أن نتساءل عن علة تخفي تلك الأسئلة في قناع الجملة الخبرية؛ أهى تعبير عن مرحلة استطاع فيها موسى أن يضبط انفعالاته، فلم تعد صرخات الإنكار تتفلق منه متقلبة في تركيب السؤال؟ أو أن بناء الجدار لم يثر انفعالات سيدنا موسى، وإن أثار فضوله، كما فعل خرق السفينة وقتل الغلام؟! ولست أدري أكانت هذه محاولة ذكية أخفى فيها موسى سؤاله في قالب خبري كي يشفي غليل فضوله دون أن يستفز عتاب الخضر وإنكاره؟! ربما أومات هذه التساؤلات إلى محاولة تعليل. ومهما يكن من أمر، فقد كشفت إجابة الخضر عن مقولة سيدنا موسى كشفت السؤال المخبوء فيها: ﴿هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾^(٤) لقد استشف الخضر السؤال الكامن في مقولة موسى، فأشار إليه بقوله: (هذا) وجعله مبتدأ وأخبر عنه: (فراق بين وبينك)، فالسؤال الثالث سبب الفراق وفقا لطلب موسى عليه السلام: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني).

^(١) الخطيب الإسكاني، درة التزبل وغرة التأويل، ص ٢٨٥.

^(٢) الكهف/٧٦.

^(٣) الكهف/٧٧.

^(٤) الكهف/٧٨.

ويأخذ الخضر بتفسير الحكمة الكامنة وراء أفعاله مراعيًا الترتيب في التعليل، مَرُوسًا كل إجابة بالكلمة المحور التي وقع عليها الفعل مثار السؤال^(١).

كما برزت الأسئلة المكتنزة بدلالة الإنكار في الخطاب الإلهي الموجه للكافرين أو العصاة توجيهها غير مباشر (بواسطة متلق وسيط بين المنكر والمنكر منه) أو مباشر (دون واسطة).

وتوالى الأسئلة وتلاحقت في جُل أمثلة النمط الأول من الخطاب مشكلة سمة أسلوبية مهيمنة، في حين أنها لم تتلاحق التلاحق ذاته في الخطاب الإلهي المباشر ولعل السبب في هذا يستشف من البحث عن فاعلية السؤال في تلك السياقات، فالأسئلة الإنكارية تتوالى في النمط الأول لتتطارد فكر المخاطب وتحاصره ممارسة فعلها الإقناعي الذي يدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكير.

إنها وسيلة مختارة لقنها الله لرسوله؛ ليجابه بما تحويه من دلالات إنكار الكفار وسخريتهم وعنادهم، وتفحم بتواليها جدلهم العقيم وتخرسه. وقد جاءت هذه الأسئلة الإنكارية نتيجة منطقية أفضت إليها مجموعة من الأسئلة التقريرية التي تستل الإجابة القاطعة من المخاطب نفسه، أو يتولى المخاطب الوسيط الإجابة عنها، فتكون هذه الإجابة الشرارة المولدة للسؤال الإنكاري.

ويختلف الدور الذي تؤديه الأسئلة الإنكارية في الخطاب الإلهي المباشر الموجه إلى العصاة أو الكافرين، فهي تمارس طاقتها التأثيرية التي تدفع المخاطب إلى الإحساس بالألم والندم والحسرة والخجل. ولا شك في أن الإنكار المباشر أشدّ وقعًا على نفس المتلقي، فغياب العلاقة الندية بين طرفي الحوار، وشعور الطرف المسؤول بالتقهقر أمام قوة السائل عز وجل - يشحن السؤال بطاقة تأثيرية تطوق المسؤول وتلجمه، فالتأثير واقع لا محالة، إنه لا يحتاج إلى سلسلة متوالية من الأسئلة لتؤكد.

من الأمثلة على النمط الأول من الأسئلة، الأسئلة الإنكارية المرتدية ثوب التقرير وقد وجهها الله عز وجل للكافرين المنكرين البعث على لسان رسوله محمد (ص) في الحوار التلقيني الذي يتولى فيه الله طرح الأسئلة وطرح إجابات حتمية ستصدر عن المسؤولين تعقبها أسئلة إنكارية بلسان السائل الوسيط:

﴿قل: لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟!﴾

سيقولون: لله.

قل: أفلا تذكرون؟!﴾

^(١) سورة الكهف/ (٧٩-٨٢). تناول الأسلوب الذي تلورت فيه الإجابة في حديثنا عن أسلوبية الجواب.

قل: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم!!

سيقولون: الله

قل: أفلا تتقون!!

قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون!!

سيقولون: الله

قل: فأنى تسحرون!!^(١)

إنه حوار يعج بالإنكار، فالأسئلة التقريرية التي يأمر الله رسوله بتوجيهها لكفار مكة تحوي إنكاراً يمتزج بالتقريع والتبكيت والتحدي؛ لأن السائل العليم يستطعمهم بالإجابة التي لا يملكون منها فراراً، إنها إجابة تؤكد يقينهم الكامل بنسبة ملكية الأشياء المسؤول عن مالكتها إلى الله وحده لا شريك له: (الله).

وأتبع إجابتهم في كل مرة بتساؤل إنكاري يمتزج بالتقريع والتعجب من إصرارهم على الكفر، كما يمتزج بدلالة الأمر والحث على التذكر والتأمل والتقوى: (أفلا تذكرون!!) أفلا تتقون!! فأنى تسحرون!!) إن ملاحقة المخاطب بالأسئلة يضعه في موضع المواجهة مع ذاته كاشفاً عن تناقضها. إنها مطاردة ومحاصرة عقلية تدفع المسؤول إلى التدبر والتأمل والتفكر وصولاً إلى القناعة التامة. فمساءلة الخصم لانتزاع إجابته وسيلة تكشف الحقائق وترسخها، وتحم المسؤول بإجابته التي لا يملك منها فراراً. ولا تخلق مثل هذه المثيرات في الأسلوب الخبري الذي يقتصر على إيصال المعلومة للمتلقي بدلالاتها الجاهزة أو لنقل المغلفة.

ومن هنا كان صبب الإنكار وما ارتبط به من دلالات في قالب السؤال أسلوب الطرح الأمثل الذي أملاه الله على رسوله لمواجهة كفار مكة، الأمر الذي يثبت فاعلية السؤال في مجال الدعوة والإقناع.

وتتوالى الأسئلة التقريرية المملة على النبي (ص) ليجابه بها الكفار في تكثيف يلاحقهم ويحاصرهم لتحقيق التفكير والتأمل والتدبر الذي يسلم إلى الإقرار والإذعان، تعقبها أسئلة إنكارية تولدها إجابة المخاطب، أو إجابة السائل الوسيط نفسه:

﴿قل: من يرزقكم من السماء والأرض!! أمّن يملك السمع والأبصار!! ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي!! ومن يدبر الأمر!! فسيقولون: الله.

^(١) المزمور (٨٤-٨٩).

فقل: أفلا تتقون؟! فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! فأني تصرفون؟! كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون.

قل: هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟

قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده.

قل: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟

قل: الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدي؟! فما لكم كيف تحكمون؟! ﴿١﴾

إنها مواجهة خطابية يشكل السؤال سمة مهيمنة في بنيتها اللغوية، فيبرز بوصفه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات التي جاءت بمثابة الروافد التي تصب في مجرى دلالي واحد يتمثل في إنكار كفرهم وعنادهم وإصرارهم على السير قدما في طريق الضلال رغم وضوح الأدلة وإقرارهم بها، فقد جاءت الأسئلة الإنكارية نتيجة حتمية أفضت إليها المقدمات المنطقية المتقاربة في الأسئلة التقريرية، وتجسدت في النص الحوارية، نتيجة لذلك، صياغة محكمة في بعدها العقلي، فاعلة في بعدها التأثيري.

لقد أمر الله ﷻ رسوله أن يستهل حوارهِ مع الكفار المعاندين بأربعة أسئلة تقريرية متوالية تستفز تفكيرهم، وتستثير تأملهم، فلا يملكون حيالها إلا الإقرار والإذعان.

إنها أسئلة مكتنزة بدلالات التحدي والتعظيم والتعجيز بنفي إمكانية نسبة هذه الأفعال لأحد من الخلق، ونسبتها لله وحده. كما نستشف منها توبيخا وتقريعا لغفلتهم وتجاهلهم اختصاص الله بهذه الأفعال، وعجزهم وعجز معبوداتهم عن فعلها، وإنكار هذا التجاهل وتلك الغفلة.

إن تجسيم هذه الدلالات في تراكيب السؤال أسلوب حكيم اختاره العليم بخبايا النفس البشرية وما يثيرها ويستفز تأملها وتفكيرها. وتبدو أهمية هذا الأسلوب في طرح الفكرة حين نقارنه بأسلوب آخر، كأن يواجه الرسول (ص) هؤلاء الكفرة بجمل خبرية، غايتها إيصال المعلومة بدلالاتها الجاهزة أو لنقل المغلفة للطرف المتلقي نون أن يشارك هذا الأخير في إنتاجها.

(١) يونس/ (٣١-٣٥).

ومن هنا كان أسلوب طرح الأسئلة أكثر استدعاء لمثيرات المتلقي؛ لئلا تواجه المسؤول بتركيب ذي دلالة ناقصة يستدعي مشاركته في إكمال إنتاجها، فتقوى أو اصرار التواصل بين مرسل السؤال ومستقبله.

كما أن مساءلة الخصم لانتزاع إجابته وسيلة لتكشيف الحقائق وترسيخها وإفحام المسؤول باعترافه الذي لا يملك منه فراراً. وتواجه إجابته بسؤال إنكاري يمتزج بدلالات التوبيخ والتعجب والحث على تقوى الله: (أفلا تتقون؟!) إنه تساؤل ولدته إجابته، التي أكدت ما يحويه من دلالات وأبرزتها، مجسماً صرخة إنكار تجابه تناقضهم وتتعجب منه وتوبخهم عليه.

ويتبع هذا التساؤل تساؤل يبرز في تركيب لافت تبدو غرابته في إثبات السؤال متبوعاً بالإجابة، ويبدو الموقف أمام هذا التركيب أكثر إدهاشاً لكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها، إنها إجابة قاطعة صارمة لا يحتمل السؤال سواها: (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال!؟) إنه يقف على الإجابة ويوقف المتلقي عليها بوضعه وجهها لوجه أمام وسم واقعه بالضلال ليحمله على رفضه.

ويبرز إحكام الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرح في التركيب القصري للسؤال، فدلالة النفي لا تتفصل هنا عن أداة السؤال (ماذا) التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقي سوى هذا الاختيار الوحيد. وهذا يسلمنا إلى الحديث عن علة إثارة النفي بتركيب السؤال على النفي الصريح، فلو استخدم تركيب النفي الصريح: (لا يوجد بعد الحق إلا الضلال) لانتفى عن التركيب دلالة استمرار التفاعل والتوتر بين الفريقين، ولأبان هذا النفي الصريح عن استقرار يقتل إيصال نبض المتكلم إلى المتلقي، أما تركيب السؤال فيحمل بعداً انفعالياً يجمع بين الدلالة والمتلقي في تفاعل لا يهدأ صابغاً النفي بمشاعر المتكلم محطماً برد الاستقرار في نفس المتلقي.

ويأتي بعد السؤال سؤال تعقيبي يكتف دلالته الإنكار وما امتزج بها من تعجب وتوبيخ مبقياً جذوة التوتر مستعرة بين المرسل والمتلقي: (فأني تصرفون؟!)، ويشكل هذا السؤال بداية متاجعة لمجموعة جديدة من الأسئلة التي يقصد منها فتح آفاق الرؤى التي أدرك المتكلم غيابها عن أذهانهم ليثير فيها التأمل الدافع إلى يقين يحارط أن يحملهم عليه وأن يقتنعهم به.

وإزاء هذه التساؤلات يغيب صوت المتلقي فلا نسمع إجابته، ويتولى صانع الأسئلة الإجابة عن التساؤلات التي يطرحها؛ فهو مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين، بل أن جل حرارة الموقف تكمن في هذا اليقين، الذي يؤكد بالإجابة الحقيقية التي طرحها عبر السؤال، فما تلك الإجابة سوى ضرب آخر من الملاحقة والمطاردة على أي محاولة إخفاء أو تردد تنطوي عليها نفس المخاطب، فهي تقتضي أن السائل المجيب يعلم رسوخ هذه الحقيقة في نفس المتلقي مهما حاول إخفاءها وعدم التصريح بها، مؤكدا دلالة التحدي التي يحويها السؤال ونفسي وجود شريك لله تنسب إليه هذه الأفعال، ويؤكد التقديم والتأخير المتجسد في بنية الإجابة الدلالات المكتنزة في السؤال؛ ليلبغ التأثير والإقناع مبلغه في نفس المخاطب، إذ جعل الفاعل (الله) يتقدم على فعله في قوله: (قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده)، وقوله: (قل: الله يهدي للحق). واضعا الحقيقة في بؤرة شعور المخاطب. وأتبع الإجابة في كل مرة بتساؤل إنكاري يعج بالتعجب والتفريع:

﴿قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون؟!﴾^(١)

﴿قل: الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدي؟﴾^(٢)

لقد انتهى هذا الحوار المملئ بتساولين أفضت إليهما التساؤلات السابقة، الأول وضع المخاطب أمام مقارنة بين من يهدي إلى الحق وبين من لا يهدي إلا أن يهدي ممارسا طاقته الإقناعية في انتهاك المساواة بينهما بشكل مطلق.

وتتجه بنية السؤال الأخير: (فما لكم كيف تحكمون؟!) نحو التركيز على الإنكار والتوبيخ والتعجب، فهو يضع المخاطب موضع المواجهة مع ذاته بزيادة (فما لكم؟) فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفى فيه بقوله: (فكيف تحكمون)، لقد زلزلت تلك الزيادة استقرار المخاطب الممكن تولده بعد انتهاء الخطاب المنتهي بجملة خبرية.

ولذا كان الختام بالسؤال تكثيفا لعملية الملاحقة والمطاردة التي يمارسها السائل على المخاطب؛ إنها تتحول إلى طاقة تدمر استقرار المتلقي مثيرة توتره الدائم الباعث على التفكير، فانه ^{عَلَّ} يقلن رسوله السؤال ويأمره أن يجيب عنه منهيًا إجابته بتساؤل إنكاري؛ مجردا المتلقي

^(١): يونس/٣٤.

^(٢): يونس/٣٥.

من المشاركة الحوارية، وكأنني بالإنكار قد وصل حدا فاق فتح باب الحوار معه والاستماع إلى إجابته.

لنتأمل الآن عددا من الأسئلة الإنكارية التي وجهها الله عز وجل - توجيهها مباشرة إلى من عصى أو امره وإلى الكافرين المعذبين في جهنم.

لقد صدرت هذه الأسئلة الإنكارية أو ستصدر في مكان آخر يختلف عن مكان صدور النمط الأول من الأسئلة الإنكارية، ورافق هذا الاختلاف في طريقة الطرح؛ فخطاب الله للبشر العاديين الموجودين على الأرض يتم بواسطة الرسل، أما خطابه لمخلوقاته في السماء فجعله مباشر دون وساطة، ومن ذلك: السؤال الإنكاري الذي وجهه الله لإبليس حين رفض السجود لآدم:

﴿قال: يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين﴾^(١)

إنه سؤال صنعه السائل العليم الخبير بخبايا مخلوقاته ودوافعهم، ينكر فيه المانع الذي حال دون سجود إبليس. ويجيب عن هذا التساؤل بتساؤل آخر يؤكد ما حواه السؤال الأول من دلالات الإنكار والتوبيخ والتهديد: (أستكبرت أم كنت من العالين؟!) مطالباً إبليس بتعيين المانع الذي لا يخرج عما حدده الله في سؤاله وهي موانع مستكبرة مستقبحة، ولا يخفى دور السؤال في إبرازها وتجليتها لفضح نوايا المتلقي وهواجسه الخفية بتتبع السؤال الصاعد:

وتؤكد اجابة إبليس عن تساؤله ^{عز وجل} انحصارها في الدافعين اللذين قوليهما الله في سؤاله: ﴿قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾^(٢) فقد استهل إجابته بالإخبار عن أفضليته الموحية باستكباره: (أنا خير منه) ثم علل حكمه مفصلاً بعقد مقارنة بينه وبين آدم، تؤكد شعوره بفوقيته التي تدفعه إلى تعظيم ذاته واحتقار الآخر: (خلقتني من نار وخلقته من طين).

كما شكلت الأسئلة الإنكارية المباشرة أداة من أدوات التعذيب المعنوي الذي أوقعه الله على المعذبين في جهنم، فقد حاصرتهم الأسئلة ملهية مشاعر الحسرة والندم واليأس في نفوسهم مولدة صراعا داخليا عنيفا قد يؤول إلى صراع خارجي أو إلى صمت مطبق يشوبه صراع داخلي.

^(١) ص/٧٥.

^(٢) ص/٧٦.

ومن ذلك قوله تعالى للمكذبين بآياته قبل أن يكذبوا في النار: ﴿أَكْذَبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) إنه يذكرهم بجريمتهم التي أدت بهم إلى هذا الموقف مقولبا الخبر بتركيب السؤال؛ لأنهم يعلمون ما فعلوا، ولكنه عَلَّلَ يبرز هذه الأفعال بتتبع السؤال إنكارا وتوبيخا وتقريعا يبعث الحسرة في النفوس. ويتبع السؤال الأول سؤال آخر يشحن الخطاب بشحنة إنكار اضافية نابعة من توالي الأسئلة.

يعلق الزمخشري على دلالة السؤال الثاني بقوله: " (أماذا كنتم تعملون) للتبكي لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدر أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك، وقد علمته روعي سوء: أأأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟! فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صح عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبته وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والصلاح؛ لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون غير ذلك؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره^(٢). ويغشاهم الإنكار فيمنعهم من النطق والاعتذار: ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾^(٣).

وقد يوجه الله سؤالا مزدوج الدلالة؛ ظاهرة التقرير وباطنه الإنكار إلى متلق وسيط ليس مقصودا بالإنكار، وإنما هو وسيلة تنقل الإنكار وما ارتبط به من دلالات إلى الذين حق عليهم القول، الذين يؤدون دور المتلقي المهمش المقصود في الفعل الحوار، وهذا يجعل التقرير أشد، والتعبير أبلغ، والخلل أعظم؛ لأن المتلقي المقصود سيفزع بسؤال السائل وبإجابة المتلقي المخاطب.

ومن ذلك السؤال الذي طرحه الله على الملائكة في الحوار الآتي: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: سُبْحَانَكَ، أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

^(١) النمل/٨٤.

^(٢) المزمخشري، الكشاف، (ج ٣، ص ٣٧٣).

^(٣) النمل/٨٥.

^(٤) البقرة/٤٠-٤١.

يقول الزمخشري في تفسيره للآيتين: "هذا الكلام خطاب للملائكة وتثريب للكفار، وارد على المثل السائر: إياك أعني واسمعي يا جاره"^(١). ففي توجيه السؤال للملائكة احتقار وتجاهل للكافرين بحرمانهم حتى من شرف الحوار المباشر مع الله، وهذا يعني أن دلالة الإنكار وما اتصل بها من دلالات أشد تركزا وتأثيرا من تلك التي تحويها الأسئلة الموجهة توجيهها مباشرا إلى الكافرين المعذبين. ويؤيد دلالة الاحتقار الكامنة في السؤال استخدام لفظة (هؤلاء) للإشارة إلى المعذبين، ففيها تنكير مقصود يجرد الكافرين من أية صفة أو لقب فهم لا شيء يذكر.

كما يبرز أسلوب التقديم في بنية السؤال، وذلك بتقديم المفعول به (إياكم) على جملة (كانوا يعبدون)، وكأنني بالله ^{عَلَّاهُ} يريد بهذا التقديم استثارة المتلقي المخاطب بتخصيصه بوقوع فعل العبادة عليه؛ ليقوم المتلقي بإنكار هذه النسبة وتنزيه ذاته منها وإظهار حرصه على نفي مضمون السؤال. وبهذا يحقق السؤال تأثيرا مزدوجا ينصب على فئتين من المخاطبين، ومثاله السؤال الذي سيوجهه الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟! قَالَ: سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

إن الله سائل السؤال سائل عليم، يعلم كون الملائكة وعيسى منزهين من مضمون السؤال الإنكاري المرتدي ثوب التقرير، وغرضه أن يجيب المسؤولان بما أجابا تقريرا لغيرهم وإنكارا. وكأنني به عز وجل - يريد إظهار الحقائق والإخبار عنها بلسان المفترى عليهم ليدافعوا عن أنفسهم، ويقيموا الحجة على المفترى (المتلقي المهمش).

وندرج قيمة هذا الأسلوب في الطرح ومدى تأثيره، لو قارناه بأسلوب آخر تختفي فيه المساعلة، ويكتفي الله بتوجيه الخطاب المباشر و الصريح لهؤلاء المعذبين، ملصقا بهم عبادتهم للجن أو تأليهم لعيسى وأمه مريم، ميرنا الملائكة وعيسى ابن مريم من تضليل أولئك المشوكين

^(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٥٦٩.

^(٢) المائدة/ (١١٦-١١٨).

أو إغوانهم. ولكنه ^{عجل} أراد استفزاز الملائكة وعيسى بالسؤال ليثير إنكارهم لما وجه إليهم، وفي هذا إنكار غير مباشر للمشاركين الذين سيرون حرص الملائكة وعيسى على نفي نسبة تلك الأفعال إلى ذواتهم؛ لأنها أفعال منكرة تورث سوء العاقبة. وعندها سيدب الرعب في قلوب المشاركين، لأن هذه المحاولة الدفاعية الصادرة عن الطرف المسؤول توحى بسوء عاقبة من يقوم بالأفعال المسؤول عنها.

وكان الطرف المسؤول قد أدرك غاية الله من سؤاله، فأراد أن يقرع بدوره من أراد الله إنكار أفعالهم وتقريهم، فأجاب عن التساؤل بأسلوب يثير خوف المتلقي المقصود وإحساسه بقبح ما فعله في الدنيا وسوء عاقبته. ولذا فقد استهل الطرفان المسؤولان إجابتهما بكلمة (سبحان) الدالة على تنزيه الله من أن يكون له شريك، والموحية بتتبع الاستهجان والإنكار.

وتفاوتت دلالات الإنكار وحدته أو طبيعته بتفاوت العلاقة بين أطراف الحوار، ففي عدد من المشاهد الحوارية تواجهنا أسئلة إنكارية خرج فيها الإنكار عن اللون الصارخ الذي صبغه في الأسئلة السابقة، وذلك لغياب العلاقة الضدية السلبية بين المتحاورين، الأمر الذي يجعل للإنكار نكهة أخرى يكشف عنها السياق واعتبار طرفي الخطاب، ومن ذلك:

السؤال الإنكاري الذي وجهه سيدنا إبراهيم، عليه السلام، لضيفه حين بشره بغلام عليم: ﴿قال: أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون؟!﴾^(١) ولنا أن نتخيل وقع هذه البشارة على نفس رجل مسن انقطع أمله بأن ينجب، وزوجته لم تنجب في شبابها فكيف ستتجب وهي عجوز هرمة؟! إنها بشارة تثير إنكار المخاطب وتعجبه ودهشته، فيقولب هذه المشاعر في سؤاليين متوالين يجسمان صرخة داخلية غنية بالأحاسيس المتناقضة، وكأنني بسيدنا إبراهيم يريد بهما التحقق مما سمعه، والتأكد من تخصيصه بهذه البشارة وهو في تلك الحالة، ففي السؤال الأول يتعجب من بشارتهم معللاً سبب إنكاره لها وتعجبه ساخراً من ذاته، ومؤكداً هذه الدلالات بالسؤال الثاني: (فبم تبشرون؟!) إنه يئس الملائكة من حالة ميئنا أن إنجاب الغلام ليس بمقدوره، فليستعبدوا هذا الأمر عنه.

(١) الخمر/٥٤.

لقد خفف التساؤل من وطأة الدهشة التي سيطرت على مشاعر إبراهيم وذلك بمجابهة الطرف المثير بالرفض؛ رفض رسالته وإنكارها، ليثيره فيدفعه إلى تفسيرها وتعليلها أو تأكيد صحتها.

ولنا أن نستشف دلالات الأسئلة من إجابة ضيف إبراهيم المبشرين أيضا: ﴿قالوا: بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾^(١)، إنهم يؤكدون بشراهم ناهين إبراهيم عن القنوط. لقد استشف ضيف إبراهيم ما حوته أسئلته من دلالات اليأس والاستبعاد والاستحالة، فأمروه بالتخلص من تلك المشاعر وهنا يتأكد إبراهيم من صحة وقوع البشارة واختصاصه بها: ﴿قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾^(٢) إنها تركيبة لافتة أتت فيها السؤال متبوعا بالإجابة القاطعة الصارمة التي ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها، إذا استعمل إبراهيم، عليه السلام، في سؤاله (من) التي يطلب بها التصور، ولكنه لا يلبث أن يقوم بتعيين المطلوب: (إلا الضالون) إنه يقف على الإجابة ويوقف ضيفه عليها مؤكدا تصديقه للبشارة منزها ذاته عن القنوط من رحمة الله.

لقد أحكم الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرحه إبراهيم في التركيب القصري للسؤال، فدلالة النفي تنفصل هنا عن أداة السؤال (من) التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب مؤكدة للمتلقى انحصار القنوط بالضالين، وهو ليس منهم وهذا يعني تجرده من القنوط وإيمانه بأن الله على كل شيء قدير.

وجاء النفي مقولبا بتركيب السؤال لا بتركيب النفي الصريح: (لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)، ولاختيار هذا الأسلوب أهميته النفسية أو الانفعالية؛ فتركيب السؤال يجسم نبض المتكلم وانفعاله وثورته الداخلية، ولا يكتفي بالنفي المجرد.

وهكذا فقد أثارت الدلالات المكتنزة في سؤال إبراهيم، عليه السلام، ضيفه الذي تتاول الدلالات السلبية التي تضمنتها أسئلته محاولا تطهيره منها، فقام بدوره بتأكيد تجرده منها بسؤال وجواب مدفوعين بثبات اليقين.

^(١) الخمر/٥٥.

^(٢) الخمر/٦٥.

لنرى الآن كيف تلقت زوج إبراهيم البشري: ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا؟! إن هذا لشيء عجيب﴾^(١)، لا شك أن وقع البشارة عليها كان أشد من وقعها على إبراهيم، فهي لم تنجب في شبابها وقوتها لأنها عقيم، ولنا أن نتصور تعطش العقيم للولد، وها هي تبشر وهي عجوز هرمة بأنها ستلد غلاما وسينجب هذا الغلام غلاما، إنها ستضحى أما وجدة، وهذه بشرى عظيمة تثيرها موجبة انفعالاتها، فهي لم تكد تستوعب أنها ستؤدي دور الأم حتى بشرت بأن ابنها سيكبر وينجب غلاما.

لقد تملكها مشاعر متناقضة؛ سعادة ممزوجة بخوف وتعجب وليفة وخجل عبرت عنها بصرخة الندبة: (يا ويلتا) فهي غير قادرة على استيعاب ما سمعت، فندبت ذاتها، واستخدم هذا الأسلوب معروف عند النساء، فالمرأة حين تملكها مشاعر التعجب والخوف أو الإنكار تعبر عن انفعالاتها بكلمات مخصوصة غالبا ما ترافقها حركات جسمية تعبيرية، كأن تضرب صدرها بيدها، وهذا يعني توترا مضاعفا، وانفعالات متناقضة تبويء سؤالها درجة تفوق درجة سؤالي إبراهيم معا: (أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا؟! وكانها بهذا التساؤل أرادت استفزاز المخاطب ليعيد على سمعها مضمون رسالته أو يؤكد ما أوضحها.

إنها لا تقصد بإنكارها توجيه أية دلالات سلبية إلى المتلقين فهي لا ترمي إلى دحض رسالته، وإنما تعبر عن انفعالاتها، طالبة تعليلا يبين كيفية تحقق مضمون الرسالة وهي بتلك الحالة التي يستحيل فيها التحقيق. وأكدت ما حواه السؤال من إنكار تعجبي أو تعجب إنكاري بقولها: (إن هذا لشيء عجيب!).

وينكر الملائكة إنكارها التعجبي ويتعجبون من عجبها، ولكنه إنكار تطميني، يؤكد البشري وإمكانية تحققها بقدرة الله، فإنكار الإنكار يبطله، معيدا التوازن الانفعالي للمتلقى: ﴿قالوا: أتعجبين من أمر الله؟! رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾^(٢).

^(١) هــد/ (٧١-٧٢).

^(٢) هــد/ ٧٣.

ولذا فإني لا أتفق مع الزمخشري في تفسيره لدلالات السؤال في الآية الكريمة السابقة حيث قال: " وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها فـ (قالوا: أتعجبين من أمر الله) لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب"^(١).

إن هذا التفسير يتجاهل وقع البشارة على زوج إبراهيم، جاعلا من إنكارها توبيخا للملائكة وعتابا لهم وقنوطا من رحمة الله، ولكن استشفاف مشاعر المتكلم يرجح كون تساؤلها صرخة، يؤكد هذا سؤال الملائكة لها (أتعجبين؟!); أي لا تعجبي وقرى عينا وتأكدي من تحقق ما سمعت، حتى وإن دل السؤال على العتاب، فإنه ليس كأي عتاب؛ فلم يقصد به التقرع أو إظهار استياء الملائكة مما سمعوا، وإنما قصد به ردّ التوازن الانفعالي لها وتذكيرها بقدرة الله، فالانفعال يغيب إدراك الفرد.

كما أن الملائكة على يقين بقوة الإيمان في نفس إبراهيم وزوجه، هذا الإيمان الذي يحول دون التشكيك بقدرة الله، ولذا فإنكار الملائكة جاء للتذكير والتأكيد لا للتوبيخ والتقرع والاستهجان، فليس الإنكار في كل النصوص على درجة واحدة أو بطبيعة متماثلة، واستشفاف هذه الطبيعة وتلك الدرجة يحتاج إلى تأمل السياق واعتبار طرفي الخطاب. ويؤكد ما ذهبنا إليه إتباع الملائكة تساؤلهم بجملة دعائية تؤكد حب الملائكة لأهل البيت: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) .

وتختلف الدلالات التي يحويها السؤال ذاته باختلاف المخاطب؛ فدلالة الإنكار التي يصنع بها السائل مخاطبه قد تختفي أو تحول إلى دلالة أخرى حين يوجه السؤال إلى مخاطب آخر.

فمريم، عليها السلام، حين بشرها الروح، الذي تمثل لها بشرا سويا، بأنه سيهب لها غلاما صرخت به متسائلة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غَلامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا؟!﴾^(٢) إنها تنكر البشري التي جاء بها مويخة إياه، فقد تلبسها الخوف من هذا الغريب الذي اقتحم عليها

^(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص (٣٩٥-٣٩٦).

^(٢) مريم/٢٠.

خلوتها وارتابت من نواياه ﴿قالت: إني أعمود بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾^(١)، لقد جسم تساؤلها صرخة دفاع عن شرفها وطهرها. وأكدت إنكارها بجملتين منفيتين توضحان حالها التي يستحيل معها أن يكون لها غلام: (لم يمسنني بشر ولم أك بغيا) وتتأكد البشرية بخطاب الملائكة لها: ﴿إذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾^(٢) فالملائكة تؤكد البشرية، وتوضح لمريم صفات الغلام الذي سيهبه الله لها، بعد أن تسميه، ناسبة إياه لها (عيسى ابن مريم) فهو مخلوق منها وحدها بلا أب، وهذا يكشف هوية الرجل المائل أمامها، إنه ملك أرسله الله لها ليبشرها.

وبهذا تتلاشى مشاعر الخوف والإنكار والاستهجان من نفس مريم وتحل مكانها مشاعر اللهفة والدهشة والترقب الممزوج بالتعجب من كيفية خلق هذا الغلام بلا أب، فتتوجه مريم إلى الله بالسؤال ذاته الذي سبق أن وجهته إلى الملك ولكن بالدلالات الجديدة التي ذكرناها؛ فتغير مشاعر المتكلم واختلاف المتلقي يغير الدلالات التي يحويها السؤال:

﴿قالت: رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر؟﴾^(٣) ويؤكد حذف عبارة (ولم أك بغيا) في هذا السؤال ما ذكرناه من تغير الدلالات؛ فهي تخاطب الله وَجَّهَ الْعَلِيمُ بِهَا لَهَا، فلا تحتاج أمامه أن تدافع عن شرفها أو تنزه ذاتها من الخطيئة.

وتظل دلالة الإنكار بإستحياء من نافذة دلالات أخرى مكتنزة في بنية السؤال حين يكون السائل دون منزلة المسؤول، ويريد أن يوجه إليه خطابا ينكر فعله دون أن يثير غضبه أو استهجانه، مغريا إياه بتنفيذ ما يأمره به أو الابتعاد عما ينهيه عنه، ومن ذلك: قول الملائكة من قوم فرعون له: ﴿أتدري موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويدركو آلتهك؟!﴾ فـ ﴿قال: سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾^(٤) إنه تساؤل مكر يظهر الحرص على فرعون وآلهته؛ ففيه إنكار فعل فرعون إنكار المعظم ذات المنكر منه، المقدس إياه، المشفق عليها، الحريص على مصلحتها، الراض أية إساءة أو تقصير في حقها ولو كان

^(١) مريم/١٨.

^(٢) آل عمران/٤٦.

^(٣) آل عمران/٤٨.

^(٤) الأعراف/١٢٧.

المسؤول هو فرعون ذاته. فالإنكار يحول وسيله يكسب بها المنكر رضا المنكر منه وثقته حين يتقوّل في تركيب السؤال الذي يستوعب تنغيّمات التملّق والتثوير والتعجب والعتاب.

ويؤتي هذا الأسلوب أكله فتثور حمية فرعون، ويغضب لذاته فيعلن أنه سيوقع عقوبة شديدة ببني إسرائيل ولا نتوقع رداً مماثلاً لو اختارت حاشيته في خطابه تركيباً خبرياً أو أمراً ونهياً صريحين، وإن حملت هذه التراكيب الحرص ذاته، كأن يقولوا له: (إننا ننكر تركك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك، فلا تذرهم والحق بهم واقض عليهم)؛ لأن نفس فرعون المتعالية المتعجرفة ترفض الانصياع للأوامر والنواهي وإن كانت لصالحه، كما أنها تكره المعارضة الصريحة، ولذا كان لا بد من تغليف خطابهم له بغلاف السؤال الذي يقدم الأفكار ذاتها، ولكنه يمزجها بانفعالات المتكلم ومشاعره، فيعطي خطابه المشروعية، بل ينال استحسان المخاطب وقبوله.

ومنه قول إبراهيم، عليه السلام، لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾^(١) لقد اختار إبراهيم السؤال بداية يستهل بها خطابه مع أبيه مبتعداً عن التراكيب اللغوية الكاملة الدلالة؛ ليتجنب قسوة المواجهة وعنف الاصطدام، وليلفّ إنكاره لفعل أبيه بمشاعره الخاصة نحوه، فالإنكار المتقوّل في السؤال يختلف في تأثيره عن الإنكار المجرد، إنه يحاصر المتلقّي برفق وعتاب لطيف، داعياً إياه إلى التأمل والتفكير في أمر غاب عن ذهنه، رغم وضوح بطلانه، فعبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عباده شيئاً فعل عبثي منكر فاعله.

وهذا يعني أن السؤال يصل إلى المتلقّي بدلالة ناقصة تنتظر منه أن يكملها بلسانه أو في ذهنه، وبالتالي تقوى اللحمة والتواصل بين المرسل والمتلقّي، وهذه غاية سعى إليها إبراهيم، عليه السلام، إنه يريد أن يفتح باب الحوار المنطقي الهادئ بينه وبين أبيه، ولذا نراه يستهل سؤاله بنداء والده متحبباً متلطفاً: (يا أبتي) مبرزاً العلاقة التي تربطه بمخاطبه فتدفعه إلى الخوف عليه والحرص على هدايته.

وقد استخدم أبناء يعقوب الأسلوب ذاته للتأثير على والدهم وإنزاله على رغبتهم مازجين إنكارهم باللوم والعتاب مظهرين تبرمهم لانعدام ثقة والدهم بهم فـ ﴿قَالُوا: يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ؟﴾^(٢) إنهم يضعون أباهم وجهاً لوجه أمام التناقض الضمني

^(١) مزم/٤٢.

^(٢) يوسف/١١.

الذي حوته بنية السائل (لا تأمنا على يوسف - وإنا له لناصحون) ليسلمه هذا التناقض إلى الشعور بالشفقة عليهم، والندم على سوء الظن بهم، والسعي إلى إرضائهم بتنفيذ طلبهم.

وبهذا يحقق البعد الإنفعالي الذي يجمع بين المرسل والمتلقي بعدا إقناعيا، فاختر السائل وطيد الصلة بمشاعر المرسل؛ لأنه أقوى في دلالاته النفسية من النفي الخبري الذي يكفيه أن يقرر واقعا بعيدا عن نفس طرفي الخطاب، فلو استخدموا في خطابهم أسلوب النفي: (يا أبانا إنك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) لما ظهر تذلهم لأبيهم ولا محاولتهم التأثير عليه، ولبدا خطابهم معه خطاب الند للند.

وقد يدفع التلطف بالنصح وخشية استثارة غضب المخاطب المرسل إلى أن يوجه الإنكار إلى ذاته، ومن ذلك: قول الرجل المؤمن لقومه الذين كذبوا المرسلين: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مَهْتَدُونَ. وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ!! أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً!! إِنْ يَرِدَْنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون، إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١) إنه يوجه بالسؤالين المتلاحقين الإنكار وما ارتبط به من دلالات التوبيخ والاستهجان والنفي والتعجب إلى ذاته وهو يريد مخاطبيته، وهذا انحراف ذو عمق جوهري في تكوين التركيب فيه ينبه المخاطب؛ لأنه كسر توقعه فقد بدأ المرسل خطابه بنداء المتلقي (يا قوم) ثم أمره باتباع المرسلين معللا سبب طلبه (اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) في أثناء ذلك تبدأ خطوات تفاعل المتلقي مع المخاطب، ويتأجج الصراع الداخلي بتوقع إنكار يوجهه المرسل إلى متلقيه، فيستعد الأخير لرد فعل مقاوم لكنه يتفاجأ بالمرسل وقد صب جام إنكاره على ذاته مسائلا إياها. ويقف المتلقي مستمعا إلى هذه المسألة أو لنقل إلى هذا البوح الوجداني دون أن يضيق بما تحويه من دلالات، ودون أن تهيج تأثيرته على المرسل، فتصل إليه دلالات السؤال بل تصفحه دون استفزاز أو تثوير. وهذا يؤكد أن السؤال من أشد الأساليب مراوغة لأنه يحمل من الدلالات الضمنية أضعاف ما تشير إليه دلالاته الظاهرة المباشرة.

^(١) يس/٢٠-٢٤.

• تجسيم السؤال لدلالة التعجب !

ومن الدلالات التي حوتها الأسئلة الحوارية (التعجب)، وهي دلالة تتطوي تحت مظلة الإنكار. جاء في اللسان: العجب والعجب إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده، قال الزجاج: أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: قد عجبت من كذا^(١).

قال أبو حيان: "والتعجب تعظيم أمر في قلوب السامعين، ولا يكون إلا في شيء خارج عن نظرائه وأشكاله"^(٢). وقد قيل إذا ظهر السبب بطل العجب، فالتعجب ينصب على ما خفي أو استبهم سببه، فمن شأن الناس أن يتعجبوا مما لا يعرف سببه^(٣).

وقد اختير السؤال من بين التراكيب النحوية لجسم التعجب الذي انتاب أحد أطراف الحوار، لكون المتعجب يلتبس سر الشيء الذي خرج عن المألوف مسبباً له الانبهار والحيرة، فهو يطلب المعرفة، والسؤال وقود المعرفة، وهو السبيل إلى برد اليقين، يتحول المتعجب بدلالته الناقصة إلى المتلقي ليكملها فيصل السائل إلى الاستقرار.

ومن ذلك السؤال الذي حكاه الله على لسان زوج إبراهيم حين بشرتها الملائكة بأنها ستجبل غلاماً: ﴿قَالَتْ: يَا وَيْلَتَا أأنلد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً؟! إن هذا لشيء عجيب﴾^(٤) تجسم عبارة (يا ويلتا) وقع المفاجأة عليها موضحة درجة الانفعال التي وصلت حداً اختلطت فيها المشاعر؛ فتلقّيتها للبشرى شابه تلقّي مصيبة أو كارثة لأنها تجهل الكيفية، فتحوّلت إلى المبشرين بسؤال تتعجب فيه من التناقض الصارخ بين البشرى وحالها وحال زوجها الذي يحول دون تحقيقها، إنه تعجب يمتزج باستنكار، واستنكار يمتزج بأمر وإلحاح يلاحقان المخاطب ليفك اللغز ويؤكد البشارة.

^(١) أمين منظور، لسان العرب، مادة (عجب) - يعرف -.

^(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر المحیط، ج ٨، ص ٢٦١.

^(٣) السيوطي، الإنفان، ج ٢، ص ٧٦.

^(٤) هـ/٧٢.

وتأكدت دلالة التعجب التي يحويها السؤال بالتعليق الذي ختمت به تساؤلها: (إن هذا شيء عجيب!) لقد صرحت بوصف الإجاب منها ومن زوجها وهما في تلك الحالة بأنه شيء عجيب، أي يدعو إلى العجب.

كما تأكدت دلالة التعجب التي حواها تساؤلها بالرد الذي وجهته الملائكة لها: ﴿قالوا: أتعجبين من أمر الله؟! رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾^(١). لقد أنكر الملائكة تعجبها الواضح، طالبين منها أن لا تتعجب لأنه أمر الله الذي لا تعجزه الأسباب، ثم يردون على تساؤلها التعجبي بتساؤل يحوي تعجبا من تعجبها لإبطاله وتأكيد تحقق ما جازوا به من بشارة.

ومنه قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟!﴾^(٢) إنهم يتعجبون تعجب المستكر الواقف على تناقض ما بين وقوع الجعل من الله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(٣)، وأن المجعل هذا سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فالسؤال ينصب على الصفة المنسوبة للمجعل، وهي الإفساد وسفك الدماء، لا على الجعل ولا على الخليفة في ذاته، لأن المسؤول عنه هو المعرف بمن الموصولة، وبالتالي فإن السؤال يتعدد حول مستتبعات جملة الصلة.

وتمتاز دلالة التعجب بالاستنكار والدهشة والاسترشاد المنبثقة من عدم المعرفة التي دفعت الملائكة إلى السؤال. وهذا الذي بينه رده - عز وجل - على تساؤلهم: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾^(٤)، فالرد يقطع بأن هناك حكمة خافية تتضمن علما لما لا يعلم السائل.

وقد تمتاز دلالة التعجب بالسخرية والتسخيف والتكذيب كقوله تعالى على لسان الكافرين المنكرين نبوة سيدنا محمد: ﴿هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا؟! إن هذا لشيء عجاب!﴾^(٥).

^(١) هود/٧٣.

^(٢) البقرة/٣٠.

^(٣) البقرة/٣٠.

^(٤) البقرة/٣٠.

^(٥) ص/٤-٥.

وتأكدت هذه الدلالات بالتعقيب الذي أنهوا به سؤالهم: (إن هذا شيء عجاب) أي بليغ في العجب، وهذا يؤمىء بدرجة التعجب المكتنزة في السؤال، التي فاقت درجة التعجب القارة في سؤال زوج إبراهيم واختلفت في طبيعتها، فقد وسمت زوج إبراهيم انجابها للطفل وهي عجوز وزوجها شيخ كبير بأنه شيء عجيب ووسم كفار قریش جعل الإله إلها واحدا بأنه شيء عجاب، فما الفرق بين العجيب والعجاب؟!

جاء في اللسان أن هنالك فرقاً بينهما؛ "أما العجيب فالعجب يكون مثله، وأما العجاب فالذي تجاوز حد العجب، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: إن هذا شيء عجاب (بالتشديد) وعجاب، بالتشديد، أكثر من عجاب"^(١).

ولا يخفى أن دلالة التعجب في سؤال زوج إبراهيم ترتبط بأمر مرغوب فيه، فإنجاب الغلام شيء قد تآقت إليه في شبابها، وبات أمنية مكبوتة تحت تراب الزمن كشفتها البشارة ودبت فيها الحياة. أما دلالة التعجب في سؤال كفار قریش فترتبط بأمر مستهجن ومستكر ومرفوض، ولذا كان تساؤلهم أقرب إلى الاستكار منه إلى التعجب، فهم يستكرون استكار المندهش المتعجب المعترض غير الموافق، أو يتعجبون تعجب المستكر.

وهذا يؤكد كون الانحراف خاصية دائمة التجدد مع السؤال في مختلف سياقاته، فلا يمكن أن يكون التحليل الذي يقال في أحد الأسئلة الدالة على التعجب صالحاً لأن يقال في تحليل كل سؤال يحمل دلالة التعجب.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (عجب).

❖ طاقة السؤال وأسلوبه في تجسيم دلالة التقرير:

من الدلالات التي اختارت السؤال قالباً مجسماً في الحوارات القرآنية، فاكتملت أبعاداً تختلف عن تلك المتحققة في الأسلوب التقريري الإخباري؛ لأن هذا الأخير تركيب جاهز، قد يمنح المتلقي شيئاً في بؤرة الخلق، ولكن دون أن يضعه هو بذاته في هذا الشيء أو في مواجهته كما يفعل السؤال.

جاء في اللسان أن القر: ترديد الكلام في أنن الأبيكم أو المخاطب حتى يفهمه، وأقررت الكلام لفلان إقراراً: بينته حتى عرفه، وقر بالكلام والحديث في أذنه: فرغه وصبه فيها. والإقرار والإذعان للحق والاعتراف به، وأقر بالحق: اعترف به، وقد قرره عليه وقرره بالحق غيره حتى أقر^(١).

وجاء في القاموس: الإقرار هو الإذعان للحق، وقر في المكان يقر (بفتح القاف وكسرهما) قراراً: ثبت وسكن، وقر الشيء: جعله في قراره^(٢).

فمن معانيه اللغوية التحقيق والثبوت، وطلب الاعتراف والإذعان. وقد تجسم هذان المعنيان في سبعين سؤالاً حوارياً تنازعتها عدة أطراف ومواطن، وجه الله ستة وأربعين سؤالاً منها إلى خلقه توزعت على النحو الآتي:

- اثنان وعشرون سؤالاً لقنها الله لرسوله محمد (ص) ليوجهها إلى الكفار.
- ثمانية عشر سؤالاً سيوجهها الله يوم القيامة؛ منها خمسة عشر سؤالاً خاطب بها المعذبين في نار جهنم، وثلاثة أسئلة قرر بها المخاطب الوسيط (عيسى، الملائكة، الرسل)، وقصد بها إنكار فعل الذين حق عليهم القول (المخاطب المهمش).
- ستة أسئلة؛ منها ما وجه إلى الأنبياء، ومنها ما وجه إلى آدم وبنيه، ومنها ما وجه إلى الملائكة.

^(١) ابن منظور، اللسان، مادة (قر).

^(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (قر).

وغلبيت قولبة التقرير بأسلوب السؤال المنفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت، فقد ورد في واحد وثلاثين موضعاً، وهذا يعادل ما نسبته ٤٤,٣% من نسبة الأسئلة التقريرية، منها أحد عشر سؤالاً وجهها الله وخزنة جهنم للمعذبين يوم القيامة.

ولنا أن نتساءل: لم قرر الله (السائل العليم) مخاطبيه عامة والكافرين خاصة بالسؤال أمراً رسوله، صلى الله عليه وسلم، بذلك؟! ألا يؤكد هذا كون السؤال أكثر التراكيب اللغوية استدعاءً للمثيرات عند المتلقي؟! وألا يوصىء بالحالة الانفعالية التي يريد الله أن يلف مخاطبيه بها؛ فيسمو به من دور المتلقي السلبي الذي تغيب ذاته الفاعلة إزاء الرسالة الخطابية إلى متلق متفاعل حتى وإن لم ينبس بحرف؟!؟

تفتح الأسئلة التقريرية باب الحوار مع الآخر، فالسائل يسأل ليقوم المسؤول بالإجابة المؤكدة للحقيقة المتبلورة في السؤال، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السؤال من إجابة لا يطلب منه سوى الإقرار بها، أو أمام ما يطرحه السائل من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير بإحتجاجها عنه ولو للحظة خاطفة قد تتحدد بفترة سماع السؤال. فالسؤال يجابه المتلقي بالحقائق مستطفا إياه بإجابة حتمية داخلية كانت أم صريحة؛ لأنه يثير رد فعل تلقائي عنده فسي محاولة الإجابة محققاً أقصى درجات التواصل بين أطراف دائرة الحوار.

❖ تأملات في عدد من الأسئلة التقريرية:

يشكل السؤال التقريري الموجه إلى المعذبين في نار جهنم أداة تعذيب معنوي، يستطيعهم السائل (الله، خزنة جهنم، أصحاب الجنة) به تقريراً أو تحسيراً أو تهكماً أو غيرها من الدلالات التي تصفع المخاطب وتطارده ملجمة إياه عن الكلام، أو تدفع به إلى الإجابة الموجزة المؤكدة المتمثلة بكلمة (بلى) التي تجسم حالة الاستسلام المطلقة المحيطة بالمعذب. وقد يقر المخاطب بما حواه السؤال من مضمون، فيثبت ما جاء فيه بأسلوب التقرير الخبري ممثلاً حالة من حالات البوح الوجداني الذي يمارس فيه المعذب ما يمكن أن يسمى بجلد الذات، ومن ذلك:

قوله تعالى للذين كفروا يوم القيامة: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين، وإذا قيل: إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم: ما ندري ما الساعة؟ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾^(١).

يجابه الله الذي كفروا بما وقع من أفعالهم وجدالهم مع أنبيائهم بسؤال منفي يستوجب الاعتراف بالثبوت، فقوله: (أفلم تكن آياتي تتلى عليكم) يعني: (كانت آياتي تتلى عليكم)، وهذه الحقيقة المؤكدة التي لا يملك المخاطب إنكارها، تؤدي قولبتها في تركيب السؤال إلى ارتداد المخاطب إلى الزمن الذي وقع فيه الفعل وتجسيمه في الذاكرة. وقد أعاد الله كلامهم بصوتهم؛ ليقيم الحجة عليهم، ويزيد إحساسهم بالخجل والندم والحسرة، فيلجم لسانهم الذي تفوه بهذا الجدل العقيم. وقد يقرر الله الذين كفروا بما يرونه من العذاب الذي طالما أنكروه في الدنيا مكذبين رسلهم مستهزئين بهم، فتقلب الأدوار ويضحى المستهزون مستهزاء بهم:

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار: أليس هذا بالحق؟!﴾

قالوا: بلى وربنا.

قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون^(٢).

لقد استطاعهم الله عز وجل بسؤال يفيض تقريرا وتهكما مقررا إياهم بالنار المتأججة التي تنتظر التهامهم، وقد فتحت أبوابها لاستقبالهم؛ إنها الحقيقة الماثلة التي لا يشوبها شك، والتساؤل عنها كشف للمشاعر المتأججة في نفس المسؤول، واستطاع له بالإجابة، لتكون حسرة عليه لوقوعها بعد فوات الأوان: (قالوا: بلى وربنا) إنه إقرار واستسلام يلفهما الفزع والترجي بل التشبث بالسائل، لينقذهم من العذاب المحقق، ولذا أتبع حرف الجواب (بلى) بالقسم بالسائل، عز وجل، وفي هذا أيضا تأكيد لإيمانهم بالله.

ولكن، جاء هذا الإقرار متأخرا ولهذا استحق الكفار العذاب (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهكذا جاء السؤال التقريري أداة كشف عن التحول الجذري في شخوص الكافرين من معاندين مكابرين منكبين في الدنيا إلى مستسلمين أذلاء يوم القيامة.

كما يوجه خزنة جهنم أسئلة تقريرية مماثلة، وكأنني بهم يعيدون صفع المذنبين بما تحويه هذه الأسئلة من دلالات التقرير والتهكم والتحسير التي سبق أن صفعهم الله بها:

^(١) البقرة/٣١-٣٢.

^(٢) الأحقاف/٣٤.

﴿تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها: ألم ياتكم نذير؟!﴾

قالوا: بلى، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا: ما نزل الله من شيء^(١).

استطاع خزنة جهنم بسؤالهم المنفي، الذي يستلزم الاعتراف بالثبوت، المعذيين فأخذ هؤلاء بالاعتراف والإقرار وتأكيد ما أكده السائل، فلم يكتفوا بقولهم: (بلى)، وإنما قولوا الحقيقة القارة في السؤال بأسلوب الخبر التقريري (قد جاءنا نذير فكذبنا) وأكدوا هذا التكذيب بإعادة ما وقع من قولهم: (وقلنا: ما نزل الله من شيء).

وقد يأتي السؤال التقريري بدل النفي في ردّ خزنة جهنم على طلب من طلبات المعذيين فيها، وهذا أبلغ في الرد، وأكثر إذلالاً للمخاطب:

﴿وقال الدين في النار لخزنة جهنم: ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب.

قالوا: أو لم تك تاتيكُم رسلكم بالبينات؟!﴾

قالوا: بلى.

قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال^(٢).

يمثل السؤال رفضاً غير مباشر لطلب الكافرين: (ادعوا ربكم يخفف عنا..). يفوق في قطعته عبارة بديلة كقولهم: (لن نفعل) مثلاً، لأن السؤال يؤرّم الصراع الداخلي في نفس المخاطب، وقد يفتح، بدلالته الناقصة، آفاق توقعه، فتتأرجح مشاعره بين حافتي اليأس والأمل، وتحول دون قدرته على الجدل أو النقاش: (قالوا: بلى) إنها إجابة موجزة تقيض بالترقب مستتظة السائل أن يكمل كلامه عليه يومئذ ببصيص أمل.

وتأتي الصدمة في تلك الواقعة الخاطفة بين الطلب (فادعوا) وبين التعليق على هذا الطلب (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)، إنهم يصعدون بمشاعر الأمل إلى القمة حين يأمرهم المعذيين بالدعاء، ولكنهم لا يلبثون أن يهوا بها إلى قاع سحيق حين يوضحون عاقبة هذا الدعاء.

كما وجه أصحاب الجنة سؤالاً تقريرياً إلى أهل النار يبرز التناقض بين حالتهم، مظهرها سرور السائل وسخريته من المسؤول، رابطاً الحاضر بالماضي الذي أنتجه:

^(١) الملوك/٩.

^(٢) غافر/٤٩-٥٠.

وإيمانهم برسله. بينما كانت العلاقة متبورة بين الكافرين وبين الله لابتعادهم عن تعاليمه وكفرهم برسله، فكان وعد الله لهم بالحساب والعذاب يصل إلى المؤمنين تطميناً وتثبيتاً. والله أعلم.

ويقرر الله الكافرين في الدنيا بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ملقنا إياه السؤال والإجابة القاطعة التي سينطق بها الكافرون والمتمثلة بكلمة (بلى)، أو سيواجههم بها الرسول فيكون سائلاً ومجيباً في الوقت ذاته. وقد طرحت هذه الأسئلة وطرحت إجابتها بأساليب عدة منها:

ما قد جاء فيه السؤال متبوعاً بإجابة على لسان السائل نفسه، أخذاً الشكل التجريدي الآتي: (قل: سؤال تجريدي. قل: جواب)

كقوله تعالى لرسوله: ﴿قل: من يرزقكم من السماوات والأرض؟!﴾^(١) قل: الله. وإنا أو أياكم على هدى أو في ضلال مبين

وقوله: ﴿قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم؟!﴾ قل: الله.

ثم ذرهم في خوضهم يلعبون^(٢).

وقد تتوالى الأسئلة التقريرية وإجاباتها متخذة الشكل التجريدي الآتي: (قل: سؤال تجريدي؟! قل: إجابة. سؤال إنكاري؟! قل: سؤال تجريدي؟! قل: إجابة. سؤال إنكاري؟!)

كقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿قل: هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟!﴾

قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون؟! قل: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟! الحق؟! الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدي؟! فما تكم كيف تحكمون؟!﴾^(٣).

إنها محاصرة المتلقي ومطاردة بحقائق مُسلم بها لكونه يعلمها لكنه يخفيها تحت ثراب الكفر والعناد. وقد اختير السؤال في هذه المجابهة ليقف المخاطب وجهاً لوجه مصطدماً بالحققة

^(١) سبأ/٢٤.

^(٢) الأنعام/٩١.

^(٣) يونس/٣٤-٣٥.

المخباة، مستسلما مبهورا أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة، وأمام ما يطرحه من إجابة تعقب السؤال، فيدخل المسؤول في مواجهتين عنيفتين، يرجع إلى التناقض بين اليقين الكامن في المسؤول وبين تصرفه المناقض لهذا اليقين.

تتجسم المواجهة الأولى في السؤال الذي ينقل للمتلقى دلالات التحدي والتعجيز والتوبيخ؛ ليظل التفاعل بينه وبين الدلالات قائما في جنل لا ينصب؛ يصده ويدخله في مواجهته مع نفسه، دافعا به إلى التأمل في أمور غاب عنها تأمله مستخدما فيه (من) التي يطلب بها التصور.

ولكن السائل لا يلبث أن يقوم بتعيين المطلوب، فتقع المواجهة الثانية المتمثلة في تلك الإجابة القاطعة الوحيدة التي لا يحتمل السؤال سواها (قل: الله).

وهذا أسلوب لافت في الخطاب، تبدو غرابته في كون المرسل سائلا ومجيبا في الوقت ذاته، فهو مدفوع إلى السؤال والجواب بثبات اليقين، بل إن جل حرارة الموقف تكمن في هذا اليقين الذي تنطق به الإجابة.

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن في محاولة تحديد الغرض من السؤال هنا هو القول بأن غرضه التقرير، ولكن هذا القول يستدعي التساؤلات التي سبق أن طرحناها عن إثارة التقرير بتركيب السؤال على التقرير الصريح، فلو استخدم المرسل الأسلوب الأخير (الله يرزقكم من السماوات والأرض) أو (الله أنزل الكتاب..) أو (الله يبدأ الخلق ثم يعيده)، لانتفى عن الخطاب الدلالات التي وضحتها، ولأبان هذا الإخبار عن استقرار من نوع ما، ربما يكون استقرار الاصطدام بالحقيقة، وربما يكون استقرار الرضوخ لهذه الحقيقة، وربما يكون ذلك كله.

أما تركيب السؤال ففيه تأجيج للصراع الذي يحول دون وصول المتلقي إلى برد الاستقرار أيا كان نوعه، لتبقى جذوة السؤال وإجابته القاطعة متقدة في نفسه تثير فيه التأمل الدافع إلى اليقين.

كما أن في تقسيم الحقيقة إلى سؤال وجواب زيادة في التركيز والإبراز، بحيث يختص السؤال بالأفعال المعجزة الخارقة التي تفوق طاقة المخاطب وقدرته، ويختص الجواب بإبراز الفاعل الأوحدها الذي تنسب إليه دون غيره، فيزيد التأمل في الفعل وفاعله.

وجاءت الإجابة مجسمة في كلمة واحدة (الله) أو في عبارة تعاد فيها العناصر الموجودة في السؤال تأكيداً وترسيخاً، وقد قدم الفاعل (الله) على فعله (يبدأ) لإبرازه ومجابهة المخاطب به.

وسبق أن بيّنا دور الأسئلة التقريرية في توليد السؤال الإنكاري أو التمهيد له، فيها يتأزم الصراع، ويستتطق المخاطب ويقرر فيقر مذعناً بإجابة داخلية أو إجابة متفوه بها (صريحة)، تقابل بسؤال ينكر التناقض بين الاعتقاد والممارسة الذي يكشفه السؤال التقريري.

وقد يأمر الله رسوله أن يحاصر خصومه بأسئلة تقريرية متوالية مخبراً إياهم بإجاباتهم، طالباً منه أن يرد عليها بسؤال إنكاري:

﴿قل: من يرزقكم من السماء والأرض؟! أمّن يملك السمع والأبصار؟! ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟! ومن يدبر الأمر؟! فسيقولون: الله. فقل: أفلا تتقون؟!﴾^(١).

لقد جسّمت الأسئلة أداة الكشف التي أمر الله رسوله أن يوجهها للكافرين لينفض تراب كفرهم وعنادهم الذي ترسب على الحقيقة، وهنا يظهر التناقض، فالحقيقة تظهر على لسان المخاطب.

إنه حوار كامل يضعه الله بين يدي رسوله، شكلت الأسئلة التقريرية جل بنيته، وعرفت رد الخصم عليها قبل أن توجه إليه، ولقن السائل الوسيط الرد على تلك الإجابة بسؤال إنكاري جاء حصيلة ونتيجة منطقية للحوار السابق له الذي كشف التناقض بين يمين الكافرين وتصرفاتهم.

لقد أراد الله أن ينكر عدم تقوى الكافرين وإصرارهم على السير قنماً في طريق الضلال، ولكنه لم يوجه هذا الإنكار مباشرة، وإنما خلق حواراً حياً يستتطق به الكافرين بأسئلة تقريرية ليقيم الحجة عليهم، ويلفتهم إلى الحقيقة الراسخة فيهم، متخذاً من إجاباتهم البرهان الذي يوجب صوت السؤال الإنكاري التالي لها. كما جعل الله إجاباتهم واقعة في جواب الشرط مؤكداً لرسوله أنهم لن يتفوهوا إلا بها إن توجه إليهم بالسؤال:

^(١) يونس/٣١.

﴿ولئن سألتهم: من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر، ليقولن: الله. فأنى يؤفكون؟!﴾^(١).

وقوله: ﴿ولئن سألتهم: من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟! ليقولن: الله. قل: الحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون﴾^(٢).

وهكذا أكد يقينهم بثلاثة أساليب:

- **الأول:** أمر الرسول بتوجيه سؤال أو أسئلة تقريرية والإجابة عليها، فيكون سائلا ومجيبا في الوقت ذاته، ويكون صمت المخاطب إقرارا لا يعرف الجدل.

- **الثاني:** أمر الرسول بتوجيه سؤال أو أسئلة تقريرية واستنطاق المخاطب بالإجابة القاطعة التي لا يملك منها فرارا.

- **الثالث:** تأكيد صدور هذه الإجابة إن سألهم الرسول مقررًا إياهم.

هذه هي أهم مواطن توزع الأسئلة التقريرية في الحوار القرآني. أما بقية الأسئلة فقد تنازعها أطراف الحور في مواطن متنوعة، وألصقت بها عدة غايات، منها ما طلب من المسؤول إجابة واضحة ومحددة، ومنها ما أكد مضمونا معيناً دون أن يستنطقه بإجابة. نمثل على الأولى بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا: أَقْرَرْنَا.

قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾^(٣).
إنه السائل العليم بإجابة المسؤول، لكنه يستنطقه بها لتكون حجة عليه، وليترتب عليها تأكيد وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. إنهم يتلفظون بالكلمة الدالة على الإقرار الوارد في السؤال (أقررنا) وفيه تأكيد يفوق دلالة حرف الجواب (نعم).

^(١) العنكبوت/٦١.

^(٢) العنكبوت/٦٣.

^(٣) آل عمران/٨١-٨٢.

ومثله قوله تعالى لبني آدم مشهدا إياهم على أنفسهم:

﴿أأست بربكم؟﴾

قالوا: بلى، شهدنا.

أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آبؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟! ^(١).

إنه يقرهم بأسلوب السؤال المنفي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت مستطفا إياهم بالإجابة. وجاءت إجابتهم موجزة يفسرها السؤال، يدل إيجازها على قمة التسليم والإذعان التي تحول دون النقاش والجدال: (بلى، شهدنا) ويعلل الله عقب إجابتهم سبب هذا الاستطاق، المتمثلة في إقامة الحجة عليهم لئلا تصدر عنهم مبررات كفرهم إن كفروا بعد ذلك. وقد حكى الله بلسانهم ما يمكن أن يتحججوا به، وهذا أبلغ في التحذير، لأنه يضعهم في بؤرة المسؤولية.

وقد يقرر السائل مخاطبه طالبا منه إجابة ليسجلها عليه، كقول السحرة لفرعون: ﴿إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين؟!﴾ ^(٢)، فهم يريدون منه أن يؤكد لهم الأجر الذي ينتظرهم إن كانت لهم الغلبة على موسى، عليه السلام، وفي هذا السؤال دلالات عدة منها: طلب الأجر والجزاء على صنيعهم، واستطاق فرعون بالموافقة على ذلك الطلب، ليقوم بتنفيذه حين يحققون الفوز، وقد ترك أمر تحديد ذلك الأجر ونوعه إليه بدلالة تذكير الكلمة (لأجرا).

كما نستشف من السؤال حرصهم على أن يؤكد لهم فرعون موافقته، فقد أكدوا طلبهم بأن واللام وتقديم شبه الجملة (لنا) على الأجر ليخصوا نواتهم به، كما قدموا جملة جواب الشرط (إن لنا لأجرا) على جملة الشرط (إن كنا نحن الغالبين) مظهرين تشويقهم لتأكيد الجزاء وتحقيقه، وكان التغلب على موسى وقهره أمر مؤكد لا يؤرقهم.

وكان جواب فرعون المتعطش لقهر موسى، المستقل أي أجر يبذل لذلك: ﴿نعم، وإنكم إذا لمن المقربين﴾ ^(٣)، إنه يوافق على طلبهم، ويزيده تأكيدا بأن يعطف عليه القربى عنده والزلقى. وقد أكد رغبته في تحقيق الغلبة بقوله: (إذا) أي سيتحقق ذلك وأكثر إذا غلبتموه، هذا هو الشرط والغاية التي يريد.

^(١) الأعراف/١٧٢-١٧٣.

^(٢) الشعراء/٤١.

^(٣) الشعراء/٤٢.

وقد تفيد قولبة التقرير في السؤال تنبيه المخاطب إلى المقرر لما فيه من توجيه الانتباه وتركيزه كقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى؟﴾^(١).

لفت التساؤل عن العصا انتباه موسى إليها، فأضحت غاية بعد أن كانت وسيلة لا تحظى بالتأمل. لقد سأله الله ليريه عظم ما اخترعه في تلك الخشبة اليابسة من قلبها حية حقيقية تقهر فرعون وسحرته ليقرر في نفسه المباشرة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبئه على قدرته الباهرة^(٢)، فبعد أن أقر موسى بماهية العصا ﴿هي عصاي أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى﴾^(٣) أمره الله أن يلقبها ليحدث التغير الجذري: ﴿قال: ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾^(٤).

كما يستتطق السائل مخاطبه لاختباره كقول سليمان، عليه السلام، لبقيس: ﴿أهكذا عرشك؟!﴾^(٥) ففي سؤاله دعوة إلى التأمل وإمعان النظر في العرش الموجود أمامها، وملاحظة أوجه الشبه بينه وبين عرشها، إنه يوجب الصراع في نفس بليس تأجيها ما كان ليحصل لو أخبرها بأنه عرشها وقد أحضره إلى مجلسه رغم أنها غلقت عليه الأبواب، ونصبت عليه الحراس، أولو وجه إليها السؤال بأسلوب آخر كان يقول: أهذا عرشك؟! لقد سألها: (أهكذا عرشك؟) أي: أمثل هذا عرشك؟ موقعا سؤاله على (هكذا) المكونة من : حرف التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة، ولعل في تقديم هاء التنبيه على كاف التشبيه محاصرة لانتباه المتلقي ومفاجأة له لما في صوت الهاء من مد يعمق الإحساس بالدهشة والمفاجأة، وهذا لا يتحقق في : (أهكذا).

ويوقع السؤال الملكة في حيرة وتساؤل عنيفين، فاستخدام كاف التشبيه جازم بتغاير العرشين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فكانه قال لها: أعرشك مثل عرشنا؟! أيتشابه عرشنا مع عرشك؟! كما رافقت المكر في السؤال مظاهر التكثير والتغيير على العرش، فقد

^(١) طه/١٧.

^(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٥٥.

^(٣) طه/١٨.

^(٤) طه/٩١-٩٢.

^(٥) المل/٤٢.

أمر سليمان حراسه أن يغيروا من هيئة العرش وشكله لإثارة تأملها وتحديها ومعرفة مقدار علمها ورجاحة عقلها من إجابتها التي ستحاول بها الخروج من مأزق السؤال ﴿قال: تكبروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾^(١). وظهر ذكاء الملكة في جوابها: ﴿قالت: كأنه هو!﴾^(٢).

قال الإمام الزمخشري عن جواب الملكة: لم تقل هو هو. ولا ليس هو، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل^(٣). فلو أجابت (هكذا هو) مطابقة السؤال، لدلت إجابتها على وضوح التغاير بين العرشين ووقوع الشبه بينهما لا غير. لكنها لا تكاد تجد ذلك التغاير واضحا، إنه عرشها، ومظاهر التكثير والتغيير عليه لم توقعها في اللبس. ولم تقل (هذا عرشي)، مع أنها كادت أن تصرخ: هو هو؛ لأنها لو أجابت بهذه الإجابة لكانت قد اتهمت رجال سليمان بأخذ العرش من قصرها، وهذا الاتهام سيوقعها في الخطر؛ لأنها في أرض سليمان بعيدة عن وطنها غريبة. كما لا يتفق هذا الاتهام وأصول "الكياسة" الرسمية، فكيف تبدأ الملكة زيارتها باتهام رجال الملك بسرقة عرشها؟! ولم تقل (ليس هو)، وكيف تقول ذلك أمام الشبه الواضح بين هذا العرض وعرشها؟! لقد كان جوابها (كأنه هو) قمة في حسن التخلص الذي يومي بحصافتها وفطنتها ولياقتها؛ فلا هي اعترفت أنه هو، ولا هي نفت أنه هو. لقد أبقت هذه الإجابة الباب مفتوحا لكل الاحتمالات؛ إنها إجابة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس.

وقد يطلب السائل الإجابة من مخاطبه لأن فيها المخرج مما هو فيه، كقول المنافقين منادين أهل الجنة، وقد فصل بينهم حائط: ﴿ألم نكن معكم؟!﴾^(٤)، إنهم يقررونهم بالسؤال طالبين اعترافهم وموافقتهم بأنهم كانوا معهم ومنهم في الدنيا، ليساقوا معهم إلى الجنة.

ولا تخفى دلالة الخوف والدهشة والإحساس بالضيق القارة في السؤال، إنهم يتشبثون بالإجابة التي تؤكد صحتهم للمؤمنين تشبث الغريق بخشبة عائمة، وجاء سؤالهم بأسلوب النفسي الذي يستلزم من المخاطب الاعتراف بالثبوت.

^(١) النمل/٤١.

^(٢) النمل/٤٢.

^(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٣٥٧.

^(٤) الحديد/١٤.

وتأتي الإجابة المرتقبة لكنها تتقلب عليهم ﴿قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم وارتيبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا، ماواكم النار، هي مولاكم وبئس المصير﴾^(١). لقد أتبعنا الإجابة باستدراك (ولكنكم) وهذا يعلل سبب الفصل بينهم، ففيه أربع أفعال وقعت من المخاطب آلت إلى ما هو عليه (فتنتم أنفسكم، وارتيبتم، وغرركم الأماني، وغرركم بالله الغرور)، ثم اتصلت فاء السببية بظرف الزمان الدال على حاضر المخاطب (فاليوم)، أي إن أفعالكم المذكورة آلت إلى حاضركم الأليم.

وقد تقدم الظرف على الحدث لإبرازه، لأنه وقت الكشف والحساب. كما أكد المكان الذي سيخلدون فيه بضمير الشأن (هي) العائد إلى النار (ماواكم النار هي مولاكم) فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يتم دونه (ماواكم النار ومولاكم) أو (النار ماواكم ومولاكم) لكنهم أرادوا بهذا الضمير التأكيد؛ تأكيد استحقاقهم المكوث في النار ومحاصرتهم بالكلمة والضمير العائد إليها تعذيباً وشماتة بهم. ولعل تقديم (ماواكم) على (النار) كان بقصد التجاور؛ تجاور الكلمة وضميرها لتكثيف الدلالة، أو لكون المأوى النهائي هو ما يورق المخاطب، فجاء تقديمه لتأجيج الصراع والترقب في نفس المناققين ثم مواجهتهم بحقيقة هذا المأوى وتأكيد.

ومن الأسئلة التقريرية التي لا يطلب السائل فيها من مسؤوله التفوه بالإجابة، وإن كان صدورها محتملاً، السؤال التقريري الذي وجهه الله لأدم وحواء بعد أن أزلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي حرمها الله عليهما في الجنة: ﴿وناداهما ربهما: ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو مبين﴾^(٢).

أفاد السؤال تذكيراً بتأكيد ما وقع من تحذير بأسلوب النفي، فقله تعالى: (ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما...؟!) إثبات لفعل النهي (نهيتكما) وفعل القول (قلت لكما). وقد امتزجت في السؤال دلالات التقرع واللوم والتخويف من انتهاك المحذور، فالسؤال يوحى بنسبة الوعيد المنذر بأمر لا تحسن عقابه.

^(١) الخبء/١٤-١٥.

^(٢) الأعراف/٢٢.

إنه تساؤل يضع المخاطبين في بؤرة المواجهة محاصرا إياهما بما حوته بنيته من تأكيدات تسلط الإنكار تسلط مباشرا عليهما، وذلك بتكرار (كما)، فالمعنى التوصيلي المباشر كان يمكن أن يكتفى فيه بقوله: (ألم أنهكما عن تلك الشجرة وأقل: إن الشيطان عدو مبين)، ولكنه، عز وجل، أراد تأكيد بتوجيه النهي إليهما، وتوجيه القول إليهما كذلك، وفيه حصر عداوة الشيطان لهما دون غيرهما وذلك باعتراض (لكما) بين اسم ان (الشيطان) وخبرها (عدو مبين) لتخصيص هذه العداوة وتأكيدا، وحتى حين أشار إلى الشجرة استخدم ضمير الإثنين (تلكما).

ولعل في هذا ردا على من يدعي أن حواء هي التي أغوت آدم بالأكل من الشجرة، فالظاهر من بنية النص معاملة المخاطبين بمساواة تجمعها في بوتقة واحدة. وكانت نتيجة السؤال إقرار آدم وحواء بذنبهما تمهيدا لطلب المغفرة والرحمة من الله: ﴿قَالَا: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، ولعل إحساسهما بالخجل والندم الذي زاد في تأجيجه السؤال، جعلهما يتورعان من توجيه طلب مباشر من الله بصيغة الأمر، فقد قالَا: (وإن لم تغفر لنا وترحمنا) ولم يقلَا: (اغفر لنا وارحمنا) جاعلين من المغفرة والرحمة هبة يهبها الله لهما، إن شاء، مبينين عاقبتهم إن لم يغفر الله لهما، وفي ذلك طلب خفي شديد الإلحاح، كشفه التوكيد في كلمة (لنكونن) بلام القسم ونون التوكيد، فتوكيد الخسارة يوحى بتوكيد الاعتذار والرجاء.

ومنها كذلك الأسئلة التقريرية التي يلاحق بها السائل ذاكرة مخاطبه ليستحضر خطابا سبق أن وجهه إليه وذلك لغايات يكشفها السياق. وهذا يعني تمثيل السؤال لرجعة ارتداد إلى الخلف تدب الحياة في أوصال خطاب كان، واضعا إياه في بؤرة حوار حاضر.

ففي السؤال السابق قرر الله آدم وحواء بما وقع من نهي وتحذير موبخا إياهم مقيما عليهما الحجة: ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ إنه يواجه مخاطبيه بخطاب سبق أن وجهه إليهما، ويقولبه في السؤال المنفي الذي يصفع المسؤول بما يعنيه من إثبات، وهذا يوجع مشاعر الندم والحسرة في نفس المسؤول الذي ارتد التساؤل بذاكرته إلى قوله تعالى: ﴿ويا آدم، اسكن أنت وزوجك الجنة، فكلا من حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾^(٢) وهذا ما نقل الله معناه بقوله: (ألم أنهكما عن تلكما

^(١) الأعراف/٢٢.

^(٢) الأعراف/١٩.

الشجرة). وقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ، إِنَّ هَذَا عَدُو لَكَ وَلِزَوْجِكَ، فَلَا يَخْرُجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(١) الذي جاء في مقولة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

كما أعاد التساؤلُ التقريري الذي وجهه الخضر لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٢) قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣) حيا إلى ذاكرة موسى محملا بالعتاب لنسيانه شرط اتباعه القائم على عدم طرح أية أسئلة. وينسى موسى شرط الإتيان في طرح تساؤل إنكاريا ثانيا، فيرد عليه الخضر بالسؤال التقريري السابق ولكنه يزيد في بنيته شبه الجملة (لك) وفيها زيادة في تأكيد مقولته واختصاص موسى بها: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٤) لقد طرحت هذه المقولة مرتين لإقامة الحجة على المتلقي، وحثه على الصبر، ففي كل مرة تخور فيها قدرة موسى على الصبر فيصرخ منكرا، كان سؤال الخضر يعيد إلى ذاكرته توقعه اليقيني بتقهقر قدرته أمام ما سيشاهده من عجائب.

وتقرير الله الملائكة في تساؤله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٥) تقرير من قال شيئا ثم ثبتت صحته لمخاطبه. وممع أن الملائكة لا يطالبون الله بإثبات ما يقوله أو البرهنة على صحته، إلا أنه عز وجل - يقنعهم بالحجة والدليل الموصولين إلى إقرار سليم لا تشويه شائبة شك، فحين سأل الملائكة الله عن حكمه خلق الإنسان، الذي سيكون منه الفساد: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟!﴾^(٦) قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧)، وأثبت لهم مقولته السابقة حين علم آدم الأسماء كلها وأمره أن ينبيء الملائكة بأسمائهم فأنبأهم، وهنا أكد الله علمه الغيب للملائكة بتساؤل جاء بأسلوب النفي الذي يستلزم من الملائكة الإقرار بالثبوت.

^(١) طه/١١٧.

^(٢) الكهف/٧٢.

^(٣) الكهف/٦٧.

^(٤) الكهف/٧٥.

^(٥) البقرة/٣٣.

^(٦) البقرة/٣٠.

^(٧) البقرة/٣٠.

وقد يقرر السائل مخاطبه بخطاب سبق أن طرحه عليه، لكن مخاطبه في وقتها تجاهله أو سخف من كلامه ولم يكثر به. ثم يتأكد فحوى خطابه، فترجح كفته أمام مخاطبه فيذكره بخطابه وقد تملكته مشاعر الغبطة وزهوه الظفر، ومثاله:

قول يعقوب، عليه السلام، لقومه حين جاءه البشير بقميص يوسف وألقاه عليه فارتد بصيرا قال: ﴿ألم أقل لكم: إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾^(١) إن يعقوب، عليه السلام، يرتد بقومه إلى ما سبق أن ذكره لهم: ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾^(٢) وذلك في رده على قولهم: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين﴾^(٣).

ولا يخفى البون الشاسع في مشاعر يعقوب بين القولين، لقد حالت مشاعر الحزن والألم إلى غبطة وزهو جسمتهما بنية السؤال خير تجسيم.

وقد يرد المسؤول على سؤال سائله بسؤال تقريرى، ومن ذلك ما جرى في الحوار الآتي بين يوسف وإخوته:

﴿قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟!﴾

قالوا: أإنك لانت يوسف؟!﴾

قال: أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾^(٤).

مثلت الأسئلة التقريرية التي تبادلها طرفا الحوار لحظة الكشف في قصة سيدنا يوسف، فالسؤال الذي سألته يوسف لإخوته يحمل في طيه خبرا يبين أن المتحدث إليهم إنما هو يوسف، إنه يكشف لهم عن هويته بتساؤل العليم العارف بخبايا مكيدتهم، اللائم إياهم على عداوتهم وتجنيتهم، ولكنه لوم فيه لطف واشفاق، فكأنه يقول لإخوته لم فعلتم ما فعلتم؟! لم ظلمتموني، وظلمتم أبنائنا، وظلمتم أنفسكم؟! فالسؤال يستنطقهم ليقرأوا بذنبهم فيتوبوا.

^(١) يوسف/٩٦.

^(٢) يوسف/٨٦.

^(٣) يوسف/٨٥.

^(٤) يوسف/٨٩-٩٠.

وقولية الإخبار بفعلتهم الشنيعة في قالب السؤال يوحى بحلم يوسف وحرصه على عدم كشف القبيح، وهذا ما يؤديه السؤال الذي يصل المتلقي بدلالة ناقصة يكملها هو دون أن تخرج كلها إلى حيز الوجود، وهذا يعني حرص يوسف على كرامة إخوته في أرض غريبة، وحبه لهم، الذي يحول دون خدشهم أو توبيخهم توبيخاً صريحاً أمام الغرباء، يؤكد هذا تنكيه فعلتهم باستخدام (ما) التي لا يعلم مدلولها سوى إخوته، كذلك تعليقه على فعلتهم بقوله (إذ أنتم جاهلون) يمثل اعتذاراً عنهم؛ لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلقوا عذراً كهذا.

لقد دفع سؤاله، عليه السلام، بذاكرة إخوته إلى أحداث بدأت بتأمرهم على أخيهم وإلقائه في غيابات الجب، وانتهت بقولهم، مجاهرين بعداوته والتجني عليه: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَه مِنْ قَبْلُ﴾^(١). كما فسر السؤال لهم لغز طلب السائل في اللقاء الأول بهم: ﴿أَتُنُونِي بِأَخْ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(٢) وكيف غاب عنهم أن يدركوا أنه هو يوسف على الرغم من هذه الإشارة.

لقد عصفت كل هذه الأحداث التي جرت في أزمان متباعدة بذاكرة إخوة يوسف متركزة في لحظة خاطفة يمكن أن نحددها في بفترة سماعهم السؤال وبعد انتهائه. لقد خاضوا صراعا عنيقا مع السؤال بدأ من كلمة في بنيته هي (يوسف) التي هالتهما بما تثيره من مدلولات، فأنعموا فكرهم في مغزى سؤاله، ودققوا نظرهم في ملامح وجهه، فانتقلوا من دور (الإنكار)؛ أي إنكارهم له وعدم معرفتهم به، إلى دور (الشك)؛ أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو يا ترى يوسف أم لا؟ ثم إلى دور (اليقين)؛ يقينهم بأن الذي يكلمهم هو يوسف، فاندفعوا إلى السؤال: ﴿أَأَنْتَ يَوْسُفُ﴾^(٣) أي سؤال هذا؟! وكيف يمكن أن تحده مقولات البلاغيين أو تصنيفاتهم؟

لقد امتزج في ردهم السؤال والجواب في بوتقة تثير تفسيرات لا حصر لها، إنها تجسيم لغوي ينبض بذهول الموقف ودهشته ومفاجأته، لعلمهم توقفتوا مضربين عن السؤال الذي استهلوا به عبارتهم، لأن شكهم قد انتقل بسرعة إلى يقين تبلور في أكثر من تأكيد (إن واللام وتكرار

^(١) يوسف/٧٧.

^(٢) يوسف/٥٩.

^(٣) يوسف/٩٠.

ضمير المخاطب)، وكأنني بالسؤال صرخة انفعال تحاصر يوسف حامله من هول المفاجأة ما تحمل، مبرزة التأكيد الذي بعدها.

وأكد يوسف تأكيدهم بقوله: (أنا يوسف وهذا أخي..)، فإن قلت: قد سأله عن نفسه فلم أجابه عنها وعن أخيه؟ قلت: من باب تطمين أخيه وتفريجه، فهو يؤكد العلاقة التي تربطه بالمشار إليه، ولعله أراد أن يتمتع سمعه ولسانه برنين هذه اللفظة التي لم يتلفظ بها.

وتبرز تركيبية لافتة في بعض تكوينات السؤال التقريري، يأتي السؤال فيها متبوعاً بالإجابة القاطعة الصارمة التي ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ليقف السائل على الإجابة ويوقف المتلقي عليها مؤكداً إياها حاملاً المتلقي على الإقرار بها، فالسؤال يفتح باب التأمل المفضي لليقين. ومن ذلك:

ما جاء في قوله تعالى على لسان رسوله في الحوار التلقيني الذي سيواجه به الكافرين: ﴿فدلکم الله ربکم الحق: فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنی تصرفون؟!﴾^(١) وقوله: ﴿قل: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين؟!﴾^(٢) حيث يبرز دال القوة في إحكام الصياغة بالسؤال الذي لا جواب له سوى ما طرحه الله في التركيب القصري للسؤال، فدلالة التوكيد لا تنفصل هنا عن أداة السؤال التي تتبعها أداة الاستثناء (إلا) لتسيطر دلالة القصر على التركيب، فلا تدع أمام المتلقي سوى هذا الاختيار الوحيد، وهو في النص الأول لتأكيد حال المخاطب بأنه يقبع في ضلال بجانب الحق، وإبراز تلك الحال يفيد تحذير المخاطب من سوء واقعه وضرورة تغييره قبل فوات الأوان. ويفيد حصر التربص بإحدى الحسنيين مكابدة الكافرين بتأكيد حسن عاقبة المتكلم (المسلمين) في كل الأحوال، فإما النصر أو الشهادة.

ومنه أيضاً قول امرأة العزيز لزوجها وقد ألفتة عند الباب وهي على تلك الحال المريبة: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾^(٣) لقد مثل السؤال ردة فعل دفاعية، تلاحق المتلقي وتلجمه، بسؤال وإجابة محددة ثنائية الدلالة؛ ففيها تهديد ليوسف وتخويف، وفيها إبراز غضبها لزوجها ومحاولة تبرئة ساحتها من أي اتهام أو شبهة، ولهذا

^(١) يونس/٣٢.

^(٢) التوبة/٥٢.

^(٣) يوسف/٢٥.

طالبت زوجها بإيقاع عقوبة من عقوبتين اختارتهما هي مظهرة دور المعتدى عليه المتعطش لعقاب المعتدي.

والمأمل طبيعة هاتين العقوبتين يدرك حب امرأة العزيز ليوسف وحرصها على سلامته وبقائه حيا، فهي التي حددت العقوبة مقررة زوجها بذلك مسئلة منه الاعتراف والتأكيد مخيرة إياه بين هاتين العقوبتين فقط، وكأنها تحاصره بهما.

• ظواهر أسلوبية في بنية السؤال الحوارية:

تألفت العناصر اللغوية المكونة بيئة السؤال الحوارية تآلفاً يجسم الدلالات القارة فيه. وقد تعرضنا لفاعلية السؤال الناجمة عن طبيعة العلاقة بين عناصره اللغوية وعلة اختياره قالباً مناسباً لتجسيم دلالاتي الإنكار والتقرير، وكيف أثرت هاتان الدالتان على بنية السؤال، فلكل دلالة بصماتها الواضحة التي تختلف باختلاف أطراف الحوار ومقاماتها.

ونشير هنا، وباختصار، إلى أهم الظواهر الأسلوبية في بنية السؤال الحوارية، لأننا سنقف وقفات تأملية أمام عدد من الأسئلة في حديثنا عن أهم خصائص لغة الحوار القرآني التي شكل السؤال جزءاً كبيراً من مكوناتها.

ومنها ظاهرة الحذف التي تعني بتر عنصر من عناصر بيئة السؤال اعتماداً على القرائن اللفظية والحالية المرافقة للحدث الكلامي، كقوله تعالى على لسان إبراهيم، عليه السلام: ﴿ومن ذريتي؟﴾^(١) حيث حذف أداة السؤال وما تلاها من جمل تأدياً في خطابه مع الله والإكتفاء بالتنعيم الذي يبرز الطلب على استحياء، فكانه قال: (ومن ذريتي، يارب، ألن تجعل للناس إماماً؟!).

وحذف الهمزة في قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿إِنْ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(٢) التي أثبتت في آية سورة الشعراء: ﴿إِنْ لَنَا أَجْرٌ﴾^(٣) يعطي أبعاداً دلالية أخرى للعبارة؛ منها إثبات الأجر وعظمته لكونهم واثقين من غلبتهم لموسى، ومنها السؤال عن استحقاقهم الأجر والحصول عليه، وقد أغنى التنعيم عن أداة السؤال المحذوفة، وقرينة المقال الظاهرة في قول فرعون: ﴿نعم، وانكم لمن المقربين﴾^(٤).

^(١) البقرة/١٢٤.

^(٢) الأعراف/١١٣.

^(٣) الشعراء/٤١.

^(٤) الأعراف/١١٤.

ولعل حذف أداة السؤال في موضع وإبرازها في موضع آخر يصور لنا الجوانب التعبيرية التي تم بها الحدث أو ألقى بها الكلام، ففي هذا التنوع تصوير لمواقف السحرة الذين صدر عنهم هذا القول؛ فمنهم من كان واثقا من الغلبة همه الحصول على الأجر فقولب مقولته بقلب الإخبار. ومنهم من حالت مهابة فرعون دون إلزامه بدفع الأجر، فقولب طلبه بقلب السؤال ليقرر فرعون باستحقاقهم الحصول على الأجر وتأكيدده هو لهذا الأمر لا هم، فالسؤال يؤمى بالتلطف في الطلب.

ولنا وقفة مع الجانب القرائي (القراءات القرآنية) لعدد من الأسئلة الحوارية التي تغلبرت بين الإخبار والسؤال، مبينين كيف يمكن أن تتعدد رؤى توجيه هذا الجانب القرائي تبعا لتغاير النظرة إلى السياق أو المقام الواردة فيه، وبخاصة إذا ذهبنا إلى القول بإتجاه المخاطبين الذين صدر عنهم هذا القول، حيث تصور كل قراءة من القراءتين موقفا لبعضهم، ومن ذلك قراءتي (أنتك) بهمزتين أو بهمزة واحدة على السؤال والإخبار^(١) في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾^(٢)، إذ وردت حكايته بالإخبار (إنتك لأنت يوسف) ممن عرفوه يقينا قبل غيرهم، ووردت بالسؤال ممن تدرجوا في معرفته من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين (إنتك لأنت يوسف)، وفي هذا محاكاة لواقع المتكلمين، فإخوة يوسف ليسوا على درجة واحدة من الإدراك واستشفاف المقصود من الكلام، كما أن قدرتهم التأملية ليست واحدة.

وقد تحذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال لتتاوب الكلام بين الطرفين، الأمر الذي يجعل من ذكرها أمرا زائدا لا فائدة منه لكونه مدركا عند المخاطب لا محالة، كقوله تعالى على لسان الملك الموكل بإغراق فرعون: ﴿آلآنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣) أي (الآن تؤمن).

ومن الظواهر الأسلوبية القارة في بنية السؤال الحوارية ظاهرة التقديم والتأخير، وتعني التغيير في مواضع عناصر التركيب بحيث يقدم عنصر ويؤخر آخر وفقا لطبيعة التجربة الشورية المحيطة بالمتحاورين، والمعنى المراد نقله، والانفعال الذي يراد إحداثه في نفس

^(١) قرأها الجمهور همزتين على الاستفهام، وقرأها ابن كثير وأبو جعفر بهمزة واحدة، وقرأها أي (إنتك أو أنت) بنظر: الزمخشري،

الكشاف، ج ٢، ص ٥٠٢، وأبو حيان الأندلسي، تفسر البحر المحيط، ج ٥، ص ٣٤٢.

^(٢) يوسف/٩٠.

^(٣) يونس/٩١.

المخاطب، أي أنها تتضافر مع البعد النفعي الانفعالي الذي يفيد السؤال في تجسيم الدلالات، ليبلغ التأثير والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب. ومن ذلك:

تقديم الفاعل على الفعل في قول قوم شعيب له: ﴿يا شعيب، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟! إنك لأنت الحليم الرشيد﴾^(١) حيث قدم الفاعل (صلاتك) على الجملة الفعلية (تأمرك) لتسليط الإنكار والسخرية على ذلك المتقدم ومواجهة شعيب بهذه الدلالات وصفعه بها، لأن إنكار ما تدعو إليه صلاته والسخرية منه يعني توبيخه لتمسكه بها واستهجان هذا الأمر عليه؛ لأنه لا ينبغي له ولا يليق به، ولذا أنهوا سؤالهم الإنكاري بقولهم: (إنك لأنت الحليم الرشيد) إنهم يلاحقونه بصفاته الإيجابية التي تستلزم منه ترك صلاته، وذلك بالضمير المتصل، ولام التوكيد، والضمير المنفصل.

وقد يكون المفعول مثار اهتمام السائل فيقدمه على الفاعل كقول الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها: ﴿أني يحيي هذه الله بعد موتها؟!﴾^(٢) فالصفة التي يتصف بها المفعول (خاوية على عروشها) جعلت المتكلم يتعجب من قدرة الفاعل على إحياء هذه القرية، واستعظام هذه القدرة.

وقد تكون علة حدوث الفعل مثار إنكار المتكلم فيتقدم المفعول لأجله في السؤال لمواجهة المخاطب به، لعل هذه المواجهة تدفعه إلى إنكار تصرفاته وتغييرها، كما في قول إبراهيم لقومه: ﴿إفكا آلهة دون الله تريدون؟!﴾^(٣) لقد تملك مشاعر الغضب والإنكار إبراهيم، عليه السلام، بسبب إصرار قومه على الكفر، فقدم علة أفعالهم (إفكا) والمفعول الذي يقع عليه فعل إرادتهم (آلهة) لكونها سبب إنكاره وغضبه فيصدمهم بغاية يعاندها ويرفضها، ويدخلهم في مواجهة مع أنفسهم.

وبهذا يشكل التقديم تكتيكا لغويا يتضافر مع التكتيكات الأخرى القارة في السؤال لمحاصرة المتلقي وإقناعه.

^(١)هود/٨٧.

^(٢)البقرة/٢٥٩.

^(٣)الصافات/٨٦.

وشكل توالي أدوات السؤال سمة أسلوبية بارزة في عدد من المواطن نذكر منها خطاب الرسل لأقوامهم خاصة، حيث تتوالى الأسئلة في تكثيف يلاحق المتلقي ويحاصره، مولدة دلالات يكشفها السياق تتجه، في مجملها، نحو الغاية الإقناعية. ومن ذلك:

توالى الكافرين الأسئلة في الحوار التلقيني الذي وجهه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ليوجه بدوره للكافرين المعاندين: ﴿قل: من يرزقكم من السماء والأرض؟! أمن يملك السمع والأبصار؟! ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟! ومن يدبر الأمر؟! فسيقولون: الله. فقل: أفلا تتقون؟!﴾^(١) فالأسئلة توالى في تكثيف يحيل المتلقي إلى التفكير والتدبر والتأمل الذي يسلم بالضرورة إلى الإقرار والإذعان.

ومنها أيضاً توالى الأسئلة في خطاب إبراهيم الذي وجهه لقومه وقد حاجوه في الله فلنكر أقوالهم وأفعالهم وجسم إنكاره في هذه الأسئلة الإنكارية المتوالية التي تضعهم في وضع مقارنة؛ إذ وضع ضدين على الإنسان أن يختار بينهما في بنية الأسئلة الإنكارية التي تحول إلى تقرير يحمل المتلقي حملاً على اختيار طريق الهداية الذي يسير عليه المتكلم: ﴿وحاجه قومه قال: أتجاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً؟! وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون؟! وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؟! فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟!﴾^(٢).

كما توالى الأسئلة الإنكارية على لسان الكافرين في عدد من المشاهد الحوارية مجسمة سخرتهم وتكذيبهم، منها:

﴿وكانوا يقولون: إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون؟ أو آباؤنا الأولون؟﴾^(٣) فقد توالى أداة السؤال فاصلة بين أجزاء الجملة، ولعل في هذا تجسيم حي لكيفية نطقهم، وقد لجأوا في السخرية والضحك، فحال هذا دون قدرتهم على التلغظ بعبارتهم تلفظاً متواصلًا دون انقطاع، فكانوا يكررون أداة السؤال وكأنها همزة وصل تربط أجزاء الكلام.

^(١) توبس/٣١.

^(٢) الأنعام/ (٨٠-٨١).

^(٣) الواقعة/ (٤٧-٤٨).

وقد يكون لهذا التكرار دور في إبراز الجزء الذي يلي أداة السؤال بتنظيم السخرية والإنكار الذي يوحى به السؤال.

وتوالت الأسئلة أيضا على لسان الملائكة في عدد من الحوارات التي دارت بينهم وبين المعذبين في نار جهنم، فبرزت كأنها رد مماثل على الكافرين بأسلوبهم الساخر:

﴿وقيل لهم: أين ما كنتم تعبدون من دون الله؟! هل ينصرونكم أو ينتصرون؟!﴾^(١).

هذه هي أهم الانحرافات الأسلوبية القارة في بنية السؤال الحواري في القرآن الكريم وقد تضافرت مع البعد الانفعالي الكامن في السؤال جاعلة منه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات، ليبلغ التأثير والإقناع مبلغهما في نفس المخاطب. كما تؤكد هذه الانحرافات الخارجية في بنية السؤال انحرافا ذا عمق جوهري يتمثل في التجدد الدائم لدلالات السؤال في سياقاته المختلفة.

^(١) الشعراء/ (٩٣-٩٢).

• أسلوبية الجواب :

أثارت الأسئلة في عدد من المشاهد الحوارية ردة فعل كلامية عند الطرف المخاطب، وألجمت في مواضع أخرى لسانه فقبح صامتاً لا ينبس برد^(١).

وجامت الإجابات على لسان المخاطب في جل هذه المواطن، وخرجت عن الأصل في مواطن أخرى فذكرت بلسان السائل نفسه في الحوار التلقيني خاصة، حيث لقن الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، السؤال ولقنه الإجابة أيضاً:

﴿قل: لمن ما في السماوات والأرض؟﴾

قل: لله، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون^(٢).

وقد يلقنه السؤال ويلقنه إجابة المخاطب المحددة التي لا يملك منها فراراً، فيكون صلى الله عليه وسلم على علم مسبق بتلك الإجابة، وقد طلب منه أن يرد عليها بسؤال:

﴿قل: لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟﴾

سيقولون: لله.

قل: أفلا تذكرون؟!^(٣).

إنها إجابة واحدة تتكرر مع كل سؤال، تدل على استسلام المسؤول، وبقينه التام مبرزة التناقض العجيب بين الإقرار الكامن فيها والتصرف الفعلي للمجيب الذي يعاكس إجابته، ولذا أمر الله رسوله أن يرد على هذه الإجابة بسؤال إنكاري يبرز التناقض السابق، ليثير تأمل المجيب، ويحثه على التصالح مع إجابته.

^(١) أنبعت الأسئلة بإجابات في مائة وخمسة وسبعين موضعاً من أصل أربع مائة وأربعة عشر موضعاً.

^(٢) الأنعام/١٢.

^(٣) المؤمنون/(٨٤-٨٩).

وقد ينقل الله مضمون السؤال لرسوله (ص) دون أن يحاكي قول السائل، ويلقنه الإجابة الواضحة المحددة المبيّنة، لكونها أسئلة تشريعية تطلب إجابة لا لبس فيها:

﴿يسألونك عن الخمر والميسر. قل: فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما. ويسألونك ماذا ينفقون. قل: العفو﴾^(١).

وقد تمتاز الإجابة مع السؤال في بوتقة واحدة، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله (ص) في الحوار التلقيني الذي سيواجه به الكافرين: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟!﴾^(٢)، وقوله: ﴿قل: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين؟!﴾^(٣).

وقد يتولى السائل مهمة الإجابة عن تساؤله ليؤكد ما فيه من إنكار مجردا بهذه التركيبية خصمه من مجادلته مغلقا في وجهه باب الحوار، فهو يطرح سؤالا إنكاريا محملا إياه بدلالات الرفض والاستهجان، ويتبعه بإجابة يستهلها بأداة الإضراب (بل)، وكأنه به يرفض أية إجابة محتملة، مركزا يقينه القاطع على الإجابة الواقعة بعد (بل). ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿قل: أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟! بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - و تنسون ما تشركون﴾^(٤).

وقوله على لسان قوم صالح: ﴿أبشرا منا واحدا نتبعه؟! إنا إذا لفي ضلال وسعر أألقي الذكر عليه من بيننا؟! بل هو كذاب أشر﴾^(٥).

وقوله على لسان المستكبرين، الذين حق عليه القول، للمستضعفين في نار جهنم: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟! بل كنتم مجرمين﴾^(٦) فما كان من

^(١) البقرة/٢١٩.

^(٢) يونس/٣٢.

^(٣) الأنوبة/٥٢.

^(٤) الأنعام/٤٠-٤١.

^(٥) القمر/٢٤-٢٥.

^(٦) سبا/٣٢.

المستضعفين إلا أن نقضوا إجابة المستكبرين مؤكدين أنهم السبب في ضلالهم: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾^(١).

لقد شكلت الإجابات السابقة تأكيدا لدلالات الأسئلة السابقة لها، كما تمتعت معناها، وتضافرت معها في تفريغ انفعالات المتكلم والوصول بها إلى نقطة استقرار لما في الإجابة من مواجهة مباشرة حاسمة.

وتراوحت أطوال الإجابة التي ولدها السؤال بين الكلمة والجملة، وذلك وفق الإشارة التي كونها السؤال في نفس المسؤول، أو الغاية التي يريد المجيب أن يوصل إليها سائله؛ فتبلورت الإجابة في كلمة واحدة موحية بالإقرار والاستسلام واليقين التام الذي لا يحتاج جدلا أو توضيحا في موطن، وطالت مستوعبة التوضيح والتفصيل في موطن أخرى.

وظهر هذا اللون الأول من الإجابة في سياقين؛ الأول: في الحوار التلقيني الذي أمر الله رسوله أن يوجه فيه مجموعة من الأسئلة التقريرية المتعلقة بصفات الله وقدراته المتفردة، التي لا يستطيعها أحد إلى الكافرين أمرا إياه بالإجابة عنها في موطن، ومخبرا إياه بإجابة الكافرين وقد اقتضت هذه الإجابة على كلمة واحدة هي (الله) أو (ش) ومثاله ما جاء في قوله تعالى:

﴿قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم؟ قل: الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾^(٢)

إنه أسلوب المواجهة الأمثل الذي اختاره الله ولقنه لرسوله، ففيه تقولبت الحقائق في سؤال وجواب يجذب كلاهما المتلقي لجزء من الحقيقة ويجابهه بها. ويتولى الرسول (ص) مهمة الإجابة عن تساؤله موقفا المتلقي عليها واضعا إياه في بؤرة الحقيقة التي تهرب منها وتجاهلها.

ولعل تكفله، صلى الله عليه وسلم، بالإجابة أمر من الله بمواجهتهم بالحقيقة دون فتح باب الحوار معهم أو السماح لهم بالإجابة التي قد تفضي إلى جدل عقيم، ولذا أمر الله رسوله أن يقول ما أمره به ثم يتركهم في خوضهم يلعبون.

^(١) ل/س: ٣٣.

^(٢) الأنعام/٩١.

وقد يطلب من الرسول أن يستطق خصومه بالإجابة ليقم عليهم الحجة ويبرز لهم التناقض الرهيب بين إجاباتهم وأفعالهم:

﴿قل: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟!﴾

سيقولون: الله

قل: أفلا تتقون؟! ﴿١﴾

ولنا أن نخذل تنعيم الكافرين وقد نطقوا بهذه الإجابة، لا شك أن الدهشة والاستسلام والخلج وغيرها من مشاعر الإقحام التي خيمت عليهم خففت أصواتهم وطاطات رؤوسهم.

وظهر هذا النمط من الإجابة على لسان المعذنين في نار جهنم موحية باليأس والإقحام والاستسلام والألم وغيرها من المشاعر التي تلجم اللسان وتحول دون القدرة على إتمام الكلام أو الإطالة فيه، ومن ذلك إجابتهم الواردة في الحوار الآتي:

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟!﴾

قالوا: نعم ﴿٢﴾

أي نعم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. لقد استخدم المعذبون حرف الجواب (نعم) التي سدت مسد الجواب.

ومثلها اجابتهم بـ (بلى) رداً على السؤال الوارد في الحوار الآتي:

﴿قالوا: أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟!﴾

قالوا: بلى.

قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴿٣﴾

لقد أغنت (بلى) عن جملة الجواب (أنتنا رسل ربنا بالبينات) وأفادت إثبات ما جاء منفياً في السؤال.

﴿١﴾ المؤمنون/ (٨٦-٨٧).

﴿٢﴾ الأعراف/ ٤٤.

﴿٣﴾ غافر/ ٥٠.

ويتجاوز المجيب في عدد من المشاهد حدود الكلمة الواحدة، فيذكر مع حروف الجواب السابقة الجملة التي كان يمكن أن تغني عنها كما جاء في الحوار الآتي:

﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟!﴾^(١)
قالوا: بلى، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء^(٢).

أفاد ذكر جملة (قد جاءنا نذير)، التي يصح حذفها لدلالة (بلى) عليها، زيادة تأكيد وإعتراف وإذعان ليبني عليها ما بعدها (فكذبنا وقلنا)، فقد تلبسهم الإحساس بالندم والشعور بالخسارة، فأخذوا يستذكرون الفرصة التي أتحت لهم وكيف أضاعوها، وكأنهم بهذا يقرعون أنفسهم ويجلدون ذواتهم.

وقد يتلو حرف الجواب القسم، ومنه ما جاء في قوله تعالى:
﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال: أليس هذا بالحق؟! قالوا: بلى وربنا قال: فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾^(٣).

إنهم يريدون إظهار يقينهم التام بحقيقة ما رأوه، لعل هذا ينقذهم من عذاب جهنم، ولكن يجعل الله من إجابتهم سبباً لوقوع العذاب عليهم، لأنها جاءت بعد فوات الوقت. ولنلاحظ كيف ربطت الفاء بين إجابتهم وبين وقوع العذاب (فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون).

ويرجعنا الحوار السابق إلى قوله تعالى :

﴿ويستنبؤونك: أحق هو؟!﴾
قل: أي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين^(٣).

وهذا يعلل سبب استنطاقهم بالإجابة، ويوضح الإنقلاب الجذري في موقف أولئك الكافرين. فقد كانوا يستخبرون رسول الله عن العذاب استخبار المستهزئ الساخر المنكر، ولذا أمر الله رسوله أن يؤكد لهم وقوع هذا العذاب ملقناً إياه الإجابة المفعممة بالتأكيد؛ فقد تلا حرف الجواب (إي) القسم (وربي) وأداة التوكيد (إن) ولام التوكيد.

^(١) الملوك/ (٨-٩).

^(٢) الأنعام/ ٣٠.

^(٣) يونس/ ٥٣.

وفي عدد من الإجابات ارتبطت حروف الجواب بجمل حالية تؤكد وقوع ما جاء في السؤال ببيان حالة السائل وقت الوقوع، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون؟! أو آباؤنا الأولون؟ قل: نعم، وأنتم داخرون﴾^(١).

أي: نعم تبعثون وأنتم داخرون (خاضعون ذلاً وصغاراً) وكأنها مواجهة بالمثل، فالسخرية أو التسخيف التي يعج بها السؤال قابلتها الإجابة بما حوته من حال تجسم انقلاب أوضاعهم يوم القيامة؛ فاستكبارهم وسخريتهم سيفقدان ذلاً وخضوعاً يجعلانهم عرضة للسخرية.

وقوله تعالى على لسان فرعون وقد سأله السحرة: ﴿أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين؟﴾^(٢) فقال لهم: ﴿نعم، وإنكم إذا لمن المقربين﴾^(٣) أي: (نعم لكم أجر إن كنتم الغالبين، وإنكم إذا لمن المقربين)، وفي هذه الإضافة تشجيع للسحرة وتحفيز لهم، فرعون يؤكد الأجر ويزيد عليه وصف حالهم عنده المتمثلة بنيل شرف الخطوة والتقريب من شخصه.

وقد تذكر في الجواب الجملة التي اشتمل عليها السؤال وقد كان يغني عن ذكرها حروف من حروف الجواب تمكينا وتأكيذاً، ومن ذلك ما جاء في الحوار الآتي:

﴿وإذا أخذ الله ميثاق النبي: لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرته. قال: أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري؟ قالوا: أقررنا.

قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾^(٤).

فقد ذكر النبيون جملة (أقررنا) التي حواها السؤال، وقد كان يغني عن ذكرها حروف الجواب (نعم) تمكينا لإقرارهم وتأكيذاً، وهذا يناسب لغة المواثيق والعهود التي تمتاز بوضوح كل لفظة وصراحتها ليكون كل طرف مسؤولاً عما إتفق عليه، ولذا ربط الله شهادتهم بالإجابة التي تفوهوا بها مقيماً الحجة عليهم وذلك بقاء السببية (فاشهدوا).

^(١) المائدة/ (١٦-١٨).

^(٢) الشعراء/ ٤١.

^(٣) الشعراء/ ٤٢.

^(٤) آل عمران/ ٨١.

ومنه أيضا الإجابة التي قابل بها يوسف سؤال إخوته في الحوار الآتي:

﴿قالوا: أإنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾^(١).

فيوسف، عليه السلام، لم يقل (نعم) ليناسب تصريحه لحظة الكشف، وليؤكد اليقين الكامن في سؤال إخوته، ويظهر شخصه الذي غيبوه من حياتهم بحقدهم وغيبتهم، شخصه الذي أخفاه تحت لقب العزيز؛ إنه بوح مظلوم انتصر يطوق إلى كشف الحقائق، حتى إنه تجاوز في إجابته حدود سؤالهم، فقد ذكر أخاه (وهذا أخي) مقرونا باسمه دون سؤال منهم.

ومنها إجابة قوم إبراهيم عن سؤاله في الحوار الآتي:

﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه: ما تعبدون؟ قالوا: نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين﴾^(٢).

لقد سألهم إبراهيم عن معبودهم فحسب، فكان القياس أن يقولوا: أصناما، ولكنهم جاؤوا بقصة أمرهم كاملة، يدفعهم إلى هذا الابتهاج والافتخار بولائهم لأصنامهم، ورغبتهم في إظهار ذلك الولاء.

وإجابة الحوارين عن سؤال عيسى، عليه السلام، في الحوار الآتي:

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بآنا مسلمون، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فكتبنا مع الشاهدين﴾^(٣).

فالحواريون لم يكتفوا بقولهم (نحن) أو (نحن أنصار الله) وإنما زادوا جوابهم تأكيدا وتفصيلا بذكر إيمانهم وإشهادهم عيسى على ذلك تطمينا له. وتذكرنا إجابتهم بإجابة أبناء يعقوب حين سألهم: ﴿ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون﴾^(٤).

^(١) يوسف/٩٠.

^(٢) الشعراء/٦٩-٧١.

^(٣) آل عمران/٥٢-٥٣.

^(٤) البقرة/١٣٣.

لقد عم يعقوب، عليه السلام، سؤاله باستخدام (ما)، ولو قال (من تعبدون) لم يعمم، وكأنه يختبر اختيار ابنائه، فلو قال: (من تعبدون؟) لحدد اختيارهم وفرض عليهم ماهية المعبود. وكان أبناءه أدركوا خوف والدهم عليهم الضلال من بعده، كما أدركوا رغبته الشديدة في معرفة مقدار تمسكهم بشريعة الله التي جاهد هو وأباؤه من قبل في نشرها وتطبيقها، ولهذا لم يكتفوا بقولهم: نعبد الله أو نعبد إلهك، وإنما أخذوا يخصصون ويحصرّون عبادتهم بالإله الواحد الأحد الذي دعا إلى عبادته يعقوب وأباؤه الذين ذكروا أسماءهم مبينين لأبيهم بهذا التسجيل المفصل معرفتهم لدينهم وتذكرهم الدائم له وحرصهم على صيانة تلك الأمانة، بالإضافة إلى التفصيل السابق نجد بنية إجابتهم محملة بتأكيدات أخرى، فقد أكدوا إدراكهم لوحداية الله وتخصيصه وحده بالعبادة بقولهم: (إلهنا واحدا) التي جاءت بدلا من إله آبائك، بتقديم شبه الجملة (له) التي ترجع الهاء فيها إلى الله ﷻ على خبر المبتدأ (مسلمون)، هذا بالإضافة إلى أنهم ينصون نصا صريحا على أنهم مسلمون بجملة الحال المؤكدة المبيّنة: (ونحن لهم مسلمون) أي مخلصون التوحيد ومذعنون.

وهكذا فقد حملت بنية الإجابة من التأكيدات والتفصيلات ما حملت لتطمين المتلقي، والبوح بالقضية التي تشغل باله وكأنها دستور محفوظ بكل تفصيلاته.

وكما يكون الجواب صريحا يكون متخفيا بجملة تتضمنه، ومثاله الجواب الذي قابل به موسى، عليه السلام، سؤال قومه الإنكاري في الحوار الآتي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَدْبَحُوا بَقَرَةً. قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟! قَالَ: أَعوذ بالله أن أكون من الجاهلِينَ﴾^(١).

فقد تضمنت مقولة موسى، عليه السلام، (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلِينَ) الجواب الصريح هو (لا أهرأ بكم) مضفية عليه دلالات ما كنت لتمتّزج به لو جاء صريحا مباشرا؛ فقد أوحى بحلم موسى، عليه السلام، وصبره على سفاهة قومه، وأسلوبه في ردهم إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق برفق، وعن طريق التعريض والتلميح. ولذا استهل إجابته بالاستعانة بالله من هذا الاتهام مبينا لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه.

^(١) الآية/٦٧.

وبدا التداخل واضحاً بين سؤال فرعون (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) وأجابه موسى: (فعلتها إذا وأنا من الضالين..). فموسى، عليه السلام، يتخذ من سؤال فرعون ركيزة يستهل بها دعوته واصلاً كلامه بكلامه بـ (إنّ) التي تفيد الجواب والجزاء، إنه يسلم لقوله مستبدلاً كلمة (الكافرين) بـ (الضالين)، مبرناً ساحته من هذه الصفة التي لا تليق بخصال الأنبياء قبل الرسالة، علماً بأن كلمة (كافرين) في عبارة فرعون تعني الجحود بالنعمة ورفض عبادة آلهة فرعون،^(١) ولكنها اكتسبت دلالة جديدة في قاموس نبي الله، عليه السلام، بعد أن أصبح رسولا، ولهذا دفع تلك الصفة عن نفسه مبيناً أنه كان من الضالين أي الجاهلين السفهاء.

وقد يتبع السؤال جواب مصدر بكلمة (كذلك) التي تغني عن ذكر عناصر جملة السؤال:

﴿قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً!﴾

قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى^(٢).

فكلمة (كذلك) تعني مثل ذلك أي كنت مثل الحالة التي ذكرتها بسؤالك؛ كنت بصيراً ولكنك لم تنظر إلى آيات الله الواضحة بعين المعبر، ولم تتبصر، فكذلك اليوم نتركك على عماك. وتغني (كذلك) الثالثة عن ذكر عقوبتي المعرض عن آيات الله؛ الأولى: المعيشة الضنك في الحياة، والثانية: حشره يوم القيامة أعمى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى)^(٣).

وهذا ما أنته كلمة (كذلك) في الحوارين الآتيين أيضاً:

الأول: حوار زكريا مع الرسل الذين بشروه بالغلام:

﴿قال: رب، أنى يكون لي غلام، وكانت امرأتي عاقراً، وقد بلغت من الكبر عتياً!﴾

قال: كذلك. قال ربك: هو عليّ هين، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً^(٤).

وفيه يشار بـ (كذلك) إلى قول زكريا دون السؤال؛ أي الأمر كما قلت؛ فالولد سيكون منك ومن زوجك وأنتم بتلك الحالة التي ذكرتها في كلامك، ثم واصل كلامه حاكياً ما قاله عز وجل.

^(١) الرعمري، الكشف، ج ٣، ص ٢٩٧.

^(٢) طه/١٢٥-١٢٧.

^(٣) طه/١٢٤.

^(٤) مريم/٩.

والثاني: حوار مريم مع الرسول الذي تمثل لها بشرا سويا وبشرها بأنها ستلد غلاما:

﴿قالت: أتى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا؟!﴾

قال: كذلك. قال ربك: هو عليّ هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا^(١). وفيه يشار بـ(كذلك) إلى قول مريم دون السؤال: يكون لي غلام ولم يمسسني بشر.

وهكذا فقد ادت كلمة (كذلك) دور الرابط الإشاري الذي يدمج الإجابة في السؤال مجسما الاحتكاك اللغوي المباشر في تلك الحوارات.

وقد يبتعد المسؤول بإجابته عن الإجابة التي يطلبها السائل أو يتوقعها، كقول إبراهيم، عليه السلام، وقد سأله قومه: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾^(٢) فهو لم يجب بنعم ولا بلا، وإنما نسب الفعل الذي قام به إلى كبير الأصنام، ولهذه الإجابة دلالات وأبعاد؛ ففيها محاولة لإثاء السائلين عن أن يحلوا به عقابا على تحطيمه لأصنامهم، فمع أن إبراهيم، عليه السلام، كان من الجرأة والشجاعة والثقة واليقين بحيث فعل ما فعل، إلا أنه لم يقر بالفعل إقرار صريحا، وهذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى كبير تأويل وتبرير، فإبراهيم، عليه السلام، بشر يوحى إليه، ينتابه ما ينتاب البشر من مشاعر ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار حين نتأمل كلامه ونفسر تصرفاته؛ لقد وقف فردا أمام جمع غفير، يسأله لا ليمهله أو يتركه، وإنما ليحل به أقصى عقاب ممكن، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك. ولو أجاب عليه السلام بلا لكانت إجابته مناقضة للحقيقة وهذا لا يليق بأخلاق الأنبياء.

لقد أراد بإجابته أن يحقق غاية مزدوجة؛ الأولى: اثناؤهم عن عقابه، والثانية: دفعهم إلى التأمل والتدبر والتفكير؛ لإقامة الحجة عليهم وتبكيتهم مواجها إياهم بحقيقة غابت عنهم. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تتكرون أن يفعله كبيرهم؛ فإن من حق من يعبد أن يقدر على هذا وأشد منه.

(١): مريم/ (٢٠-٢١).

(٢): الأنبياء/ ٦٣.

ومنه تجاهل موسى، عليه السلام، الدلالات التي حوتها أسئلة فرعون، وذلك بربط إجابته بالدلالة السطحية للأسئلة لا بالدلالة العميقة:

﴿قال: فمن ربكما يا موسى؟﴾

قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

قال: فما بال القرون الأولى؟

قال: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. الذي جعل لكم الأرض مهذا وملك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي الأبصار، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى. ولقد أرينا آياتنا كلها فكذب وأبى.

قال: أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟^(١)

لم تكن الغاية من السؤال الأول الذي طرحه فرعون على موسى وهارون طلب المعرفة أو تحديد ماهية الإله الذي يعبدانه، وإنما كان تساؤلا ينكر جرأة موسى وهارون وتصريحهما بعبادة إله غيره، وهذه جريمة في نظر فرعون؛ لأنه كان يدعي الألوهية ويرغم أتباعه على عبادته.

كما امتزج إنكاره بدلالة السخرية والتهكم من دعوة موسى وهارون والاستخفاف بها، ولكنه الخائف الغاضب الذي يغطي خوفه بغطاء التهكم والسخرية. وفي توجيه الخطاب لموسى: (فمن ربكما يا موسى؟) تأكيد لدلالة السخرية التي يحويها السؤال، فرعون ينحي هارون موجهها سؤاله بما يحويه من دلالات إلى موسى؛ لعلمه أن هارون أفصح لسانا من أخيه موسى، وأقدر على ضبط انفعالاته والتحكم بمشاعره. ولذا فقد كان يتوقع اجابة خائفة مهزوزة، حروفها غير واضحة المخارج، تثير سخرية الملأ المستمع وتهكمه، إنه يريد بسؤاله أن يستقوي على الطرف الأضعف.

ولعل فرعون أراد بتخصيص موسى بالسؤال دون أخيه أن يذكره بطبيعة العلاقة التي ربطتهما في الماضي، فقد ربي فرعون موسى وهو طفل رضيع في قصره، وهذا يضيف إلى الدلالات السابقة التي حواها السؤال دلالة الامتتان الممزوجة بالعتاب والتفريع.

(١) طه/٤٩-٥٧.

ويجيب موسى عن هذا التساؤل إجابة تتجاهل دلالاته العميقة عاذا إياه مفتاح بداية تتكشف فيها الحقائق أمام الناس؛ ليعرفوا حقيقة ربهم وصفاته: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) إنها إجابة إنسان واثق مطمئن النفس هادئ الأعصاب، يقدم في كلامه ويؤخر بمنطق يدرك أهمية كل لفظة وأثرها على نفس المخاطب؛ فلقد قدم الفاعل (ربنا) على فعله (أعطى) ليخص المتقدم بهذا الفعل، وليصارع المخاطب، دون خوف، بعبادته لهذا الإله بإضافة لفظ (رب) إلى ضمير المتكلمين. ويقدم المفعول به الثاني (كل شيء) على المفعول الأول (خلقته) لتأكيد نسبة ما وقع عليه الفعل (أعطى) إلى الله وتجريد فرعون من هذا الشيء، فإله أعطى خلقه كل شيء، وفرعون من خلقه فهو معطى وليس معطيا. وعطف الفعل (هدى) على الفعل (أعطى) موحيا بالتراخي وذلك باستخدام حرف العطف (ثم) لبيان أن فعل الهداية يأتي بعد فعل العطاء المادي.

تثير هذه الإجابة زعر فرعون، وتهدم صرح ألوهيته، وتحبط توقعه، فيأخذ بالحيلولة دون أن يتم موسى إجابته خوفا من تأثيره في قلوب أتباعه الذين تآقت نفوسهم لمعرفة صفات هذا الإله، فطرح تساؤلا يحول به مجرى الحديث إلى القرون الأولى: (فما بال القرون الأولى)؟!

ويدرك موسى سر هذا التساؤل، فيجيب عنه بحيادية تامة وباختصار: (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) ويأخذ باكمال إجابته الأولى المتعلقة بصفات الله ونعمه على البشر. ويختفي صوته بعد جملة (وأُنزل من السماء ماء) ويظهر صوت آخر ينسب الأفعال إلى ضمير المتكلم: (فأخرجنا به أزواجا من نبات...)، ويدل هذا الالتفات على تدخل الرواي العليم في نقل الحوار الدائر بين الشخص، فمرة يحكي ما قالت له الشخص بلسانها، ومرة يوقف الحوار منتقلا إلى إنشاء خطاب يسند فيه الضمير إلى ذاته زيادة في تخصيص نسبة الأفعال إليه، عز وجل، فهو الذي يختص بالقدرة على هذه الأفعال التي لا تدخل تحت قدرة أحد.

وترتعد فرانس فرعون خوفا مما جاء به موسى؛ لعلمه أنه على حق، وأنه غالبه لا محالة، فيستخدم السؤال غطاء يستر به خوفه، فتظهر صرخة الخوف برداء الإنكار والتوبيخ والوعيد: (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟!).

يقول الزمخشري معلقاً على قول فرعون: "وقوله: (بسحرك) تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر".^(١)

وقد تتوالى الإجابات مشكلة مجموعة واحدة وهذا ما حدث في الحوار الذي دار بين موسى والخضر عليهما السلام، فالأسئلة الإنكارية التي وجهها موسى للخضر كانت تلاحق الأخير طالبة منه تفسيراً وتعليلاً لتصرفاته العجيبة، ولكنه تجاهلها لأنما موسى على طرحها لمخالفة هذا الطرح لشرط الإتيان، وقد واجه كل سؤال إنكاري بسؤال تقريرى كما سبق أن وضعنا،^(٢) ثم أخذ يجيب عن كل هذه الأسئلة مرة واحدة مستحضراً أسئلة موسى ومراعيها ترتيبها،^(٣) وقد مهد لإجاباته بقوله لموسى: ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾^(٤) ولنا وقفة تأملية في أسلوبية تلك الإجابات:

لقد استهل إجاباته الثلاثة بحرف الشرط والإخبار والتوكيد (أما)، وروّس كل إجابة بالكلمة المحور التي وقع عليها فعله المنكر، ونسب ملكيتها لأشخاص معينين يمتازون بصفات معينة كانوا علة هذه الأفعال:

- (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ... وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا).
- (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ...).
- (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً ...).

كما راعى في ترتيب المعاني داخل بنية الإجابة ما يجعل توصيل ميرر فعله وتوضيحه لموسى، ففي قول: ﴿أما الجدار فكان لغلامين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً﴾^(٥) قدم الإخبار بوجود كنز الغلامين لأنها العلة الأولى في بيان سبب بناء الجدار، فالجدار لم يبن إلا لأن تحته كنزاً ينبغي الحفاظ عليه وحمايته من الآخرين، يأتي بعدها سبب حماية هذا الكنز لهذين الغلامين وهو صلاح أبيهما (وكان أبوهما صالحاً).

^(١) الزمخشري، الكشف، ج ٣، ص ٦٨.

^(٢) ينظر ص ٨٣ - ٩٣ من هذه الدراسة.

^(٣) تنظر هذه الإجابات في الكهف/ ٧٩-٨٢.

^(٤) الكهف/ ٧٨.

^(٥) الكهف/ ٨٢.

وقد يجاب عن السؤال بسؤال، وهذا ما حدث في أربعة عشر موضعاً^(١) سبعة منها جرت بين الأنبياء وأقوامهم، الأمر الذي يثبت فاعلية السؤال في تجسيم انفعال أطراف الحوار واستيعابه للصراعات الكامنة بينها، فالسؤال يولد في نفس المسؤول آفاقاً لا يستوعبه إلا السؤال. ومن ذلك:

-الحوار الذي جرى بين موسى وقومه في قوله تعالى على لسان الطرفين :

﴿قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم : أسحر هذا ولا يفلح الساحرون؟! قالوا: أجهنم لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض؟! وما نحن لكما بمؤمنين﴾^(٢).

-والحوار الذي جرى بين صالح وقومه في قوله تعالى:

﴿قالوا: يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب. قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته؟! فما تزيدونني غير تخسير﴾^(٣).

-والحوار الذي دار بين موسى والخضر في قوله تعالى:

﴿قال: أخرقتها لتغرق أهلها؟! لقد جئت شيئا إمرا. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا؟!﴾^(٤) ويصعق سيدنا موسى بتصرف منكر آخر قام به الخضر، فيصرخ به متسائلاً : ﴿أقتلت نفسا زكية بغير نفسا؟! لقد جئت شيئا نكرا﴾^(٥) فيردد الخضر على سؤاله بسؤال ينكره ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟!﴾^(٦).

^(١) هي: البقرة/٢٤٦، الاعراف/٦٩-٧١، يونس/٧٧-٧٨، هود/٦٢-٦٣، (٧٢-٧٣)، (٨٧-٨٨)، يوسف/٨٩-٩٠، الكهف/٦٦-٦٨، (٧١-٧٢)، (٧٤-٧٥)، النحل/٦٧-٦٩، الشعراء-(١١١-١١٢)، ق/٣٠.

^(٢) يونس/٧٧-٧٨.

^(٣) هود/٦٢-٦٣.

^(٤) الكهف/٧١-٧٢.

^(٥) الكهف/٧٤.

^(٦) الكهف/٧٥.

والملاحظ أن الإجابات المتبلورة في تركيب السؤال تختلف في دلالتها وانفعالات أصحابها باختلاف درجة تأثرهم بسؤال السائل، فتساؤل موسى الإنكاري ولد تساؤلا أكثر حدة وعنفا على لسان أتباعه. أما تساؤل صالح فقد حاول استيعاب الإنكار المتفجر من سؤال قومه والتخفيف من حدته. وقابل الخضر تساؤل موسى الإنكاري بتساؤل تقريرى لا تتصاعد فيه الدلالة إلى درجة الإنكار.

* الأمل *

احتل الأمر مساحة واسعة في الحوارات القرآنية؛ فقد جاء في خمسمائة وأربعة وثلاثين موضعاً، أي ما يعادل ٣٤% من مكونات الحوار، وهذا يتماشى مع طبيعة سير الحدث الحوارى، فكثيراً ما ينشأ حوار بين طرفين لتوجه أحدهما بطلب تنفيذ فعل ما إلى الآخر.

والأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام^(١)، ويقصد بالاستعلاء اختصاص الأمر بالعلو على المأمور. وهذا هو أصل المعنى الذي تنتج بنية التركيب، ولكن كثيراً ما يكسر الوجود الفعلى للتركيب في النصوص قيد المعنى الأصلي منتجا دلالات لا حصر لها^(٢)، تتفاوت بتفاوت العلاقة بين طرفي الحوار، ولذا سيكون استحضار البعد التدوالى الأساس المعول عليه في بيان دلالة التركيب. بيد أن ثمة ملحظاً آخر لأحد مظاهر الانحراف في أسلوبية الأمر حوى بالتأمل يتمثل في التجاوز الدائب للتركيب في النصوص المختلفة، فليس كل أمر خرج عن دلالاته الأصلية إلى دلالة الدعاء، مثلاً، سواء. وحتى حين تلتزم بنية التركيب بدلالاتها الأصلية فلا بد من تمثل أبعاد الموقف الحوارى؛ لاستشفاف الدلالات التي قد تمتزج مع المعنى الأصلي للبنية، فالأمر الذي يوجهه الله لأحد الرسل، مثلاً، ليؤدي مطلوباً ما قد يمتزج بالشفقة والإناس، كقوله لنوح عليه السلام: ﴿اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾^(٣) بينما يمتزج بالغضب والسخط حين يوجه الأمر ذاته إلى الشيطان ﴿قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين﴾^(٤).

بناء على ما سبق فإننا سنقف على تجاوزات التركيب في وجوده الفعلى في النص الحوارى لقيد المعنى الأصلي، وذلك بطرح عدد من النصوص التي تفاوتت فيها دلالات بنية الأمر:

^(١) العلوي، الطراز، ج ٣، ص ٢٨١.

^(٢) تحدث البلاغيون عن خروج بنية الأمر عن أصل المعنى. ينظر: أحمد بن فارس، الصحاح في لغة، ص ٢٢٩ وما بعدها. وسعد الدين الغفراني، المطول على التلخيص، ص (٢٤٠-٢٤١). وهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص، ج ٢، ص ٣٢٤.

^(٣) هود/٤٨.

^(٤) الأعراف/١٣.

ففي قوله، عز وجل، مخاطبا إبليس: ﴿واستفز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾^(١) تولد أفعال الأمر المتوالية دلالة التهديد الممزوجة بغضب المتكلم من المخاطب، وعدم رضائه عن المأمور به، فقوله تعالى يرتد في العمق إلى: (استفز من استطعت منهم بصوتك وسترى نتيجة استفزازك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وسترى عاقبة إجلاك، وشاركهم في الأموال والأولاد وسترى نتيجة مشاركتك، وعدهم وسترى نتيجة وعدك) وتشير إلى هذا العمق التقديرى قرائن الأحوال المصاحبة، فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا فسجدوا إلا إبليس الذي قال: ﴿أأسجد لمن خلقت طينا؟!﴾^(٢)؛ إنه يرفض منكرا وقوع فعل السجود الذي أمره به الله، ويقف متحديا متوعدا ﴿قال: أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لنن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلا﴾^(٣) ويقابل هذا التحدي تحد أعنف، فقد أمره الله أن يفعل ما يريد وينتظر نتيجة أفعاله. وهذا يعني أن العلاقة الرابطة بين النتيجة والأمر علاقة (تضاد).

وفي قوله تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يوجه مقولة القول التي يحوي أمرا إلى الكافرين المكذبين، خرج الأمر إلى دلالة التعجيز والتحدي:

﴿أم يقولون افتراه. قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٤) لقد ادعى الكافرون أن الرسول افترى القرآن واختلقه من عند نفسه وليس من عند الله، فأمره الله أن يسايرهم واضعا إياهم في بؤرة التحدي، وذلك بأن يقول لهم: هبوا أني اختلقته من عند نفسي وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله، فأنتم عرب فصحاء لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام، وادعوا من استطعتم ليعينكم في تنفيذ هذا الأمر. وهذا يعني أن قوله تعالى يرتد في العمق إلى: (فأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن، وهو محال عليكم كما أنه محال علي) وما كانت تلك الإحياءات لتولد لو جاء رده، عليه السلام، مقتصرًا على نفي التهمة عن نفسه بقوله: (لم أفتر القرآن)، لأن هذا الرد لا يعكس طبيعة الاحتكاك والصراع والتحدي المتأججة بين الفريقين كما يعكسها اختيار تركيب الأمر.

^(١) الإسراء/٦٤.

^(٢) الإسراء/٦١.

^(٣) الإسراء/٦٢.

^(٤) هود/١٣.

وهكذا فإن العلاقة التي نتيج (للأمر) إنتاج (التعجيز) هي التضاد ولكن مع مفارقة واضحة بين الأمر والتعجيز، وتتمثل في أن الأمر يتوجه إلى ما هو ممكن، وتوجه التعجيز إلى ما هو مستحيل.

وليس كل أمر خرج إلى دلالة التعجيز والتحدي سواء، فالتعجيز السابق وجه إلى خصم معاند لدعوة الرسول مكذب ومتهم لكلامه، ولذا جاء عنيفا فيه إفحام للخصم ورغبة في إحباطه. ولكن دلالة التعجيز التي ولدها الأمر في قوله تعالى للملائكة:

﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) امتزجت بدلالة مغايرة؛ لاختلاف المخاطب، فالملائكة عباد الله المطيعون الذين يفعلون ما يؤمرون، وما سؤلهم إلا دهشة ممزوجة بتعجب لا يخلو من استنكار، واستنكار لا يخلو من استرشاد، وذلك كله يرجع إلى عدم المعرفة لا إلى التحدي أو الرفض أو الرغبة في الجدل العقيم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.
قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟
قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

تقد كان بالإمكان أن يخلق الله باب الحوار مع الملائكة بتلك العبارة، ويحقق ما أراده أن يكون دون أن يعلل للملائكة سبب جعل الإنسان خليفة في الأرض، ولكنه، عز وجل، أراد أن يثبت للملائكة أحقية الإنسان في الخلافة وتميزه عن سائر مخلوقاته، وذلك باختبار يجريه على الملائكة وعلى آدم، يوجه فيه إليهما سؤالا، ويأمرهما بالإجابة عنه، فيقف الملائكة عاجزين، ويجب آدم فيتضح تميزه للملائكة، فيقررون راضين بخلافة بني آدم، لأنهم اقتنعوا بالتجربة والبرهان لا بالإكراه والإجبار:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ،
فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.
قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.
قَالَ: يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ.

^(١) البقرة/٣١.

^(٢) البقرة/٣٠.

فلما أنبأهم باسمائهم، قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون^(١).

لقد أثبت الأمر العليم أن الأمور الأول (الملائكة) لن يستطيع تحقيق الأمور به، بينما يستطيع الأمور الثاني (آدم) تحقيقه. وهذا يعني أن الأمر الموجه للملائكة يحوي تعجيزاً لكونه يطلب المحال، أما الأمر الموجه لآدم فالتزم بمعناه الأصلي وانتظر تحقيقاً للمحال الذي صار ممكناً بإرادة الله.

وقد يمتزج التعجيز الذي خرج إليه معنى الأمر بدلالة التكذيب والسخرية كقول قوم نوح له: ﴿يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالتنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾^(٢) إنهم يستخفون بتحذيره، عليه السلام، مظهرين عدم المبالاة به، ولذا يطلبون منه تنفيذ وعيده، ليقنهم أن الفعل المأمور به لا يتحقق أصلاً. وهذا يعني أن كلامهم يرتد في العمق إلى: (فأتنا بما تعدنا إن كنت صادقاً، ولكنك لن تستطيع لأنك كاذب فما تتوعدنا به أمر محال).

فما كان من نوح إلا أن أكد وقوع وعيده، ناسباً الفعل إلى من لا يعجزه شيء؛ إلى الله: ﴿إنما ياتيكُم به الله، إن شاء، وما أنتم بمعجزين﴾^(٣) إنه يوافقهم بكون آتيانه بالعذاب الأليم - السذي حذرهم منه - أمراً مستحيل الوقع إن كان هو الفاعل، لكنه أمر غير معجز لمن أمره إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون. وأظهر، عليه السلام، تأدبه مع الله، فحين نسب الفعل إليه عز وجل - أتبعه بالجملة المعترضة (إن شاء) التي تفيد الاحتراس، فتحقيق الوعيد أمر مرتبط بمشيئة الله، فإن شاء حقق مطلبهم الذي عدوه محال التنفيذ، وإن شاء أخر التنفيذ إلى الوقت الذي يريد.

ومن الدلالات التي خرج إليها الأمر (التسوية) حيث يطرح الأمر أمرين فيتوهم المتلقي أن أحدهما أرجح من الآخر، كقوله تعالى: ﴿قل: أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾^(٤) الذي يرتد في العمق إلى: (أنفقوا طوعاً أو كرهاً فهما سواء فسي عدم التقبل).

(١) البقرة/ (٣١-٣٣).

(٢) هود/ ٣٢.

(٣) هود/ ٣٣.

(٤) التوبة/ ٥٣.

ويولد الأمر (التمنى) حين يوجه الأمر إلى المخاطب طلباً لا سبيل إلى تحقيقه، ومع هذا فهو يتوق إلى تحقيقه ليتخلص من واقع أليم يعايشه. ومثاله قول الذين ظلموا لما رأوا العذاب يوم القيامة: ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾^(١)، إنهم يعلمون أن طلبهم لن يتحقق لأن الله قد حكم بين العباد، ولكنهم يحاولون جاهدين الخروج من نار جهنم قاطعين الوعود بأن يسيروا على طريق الهداية، ويمتزج التمني بالرجاء والإلحاح على المخاطب، لكنه، عز وجل، يرفض طلبهم ستخذاً منه سبباً لتحسيرهم وزيادة تعذيبهم: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال؟! وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال؟!﴾^(٢)

ومنه أيضاً ما جاء في خطاب أصحاب النار لأصحاب الجنة:

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قالوا: إن الله حرمهما على الكافرين﴾^(٣)

إن طلب أصحاب النار يناسب قدرة المأمور، فهم لم يطالبوا أهل الجنة بإخراجهم من جهنم، كما طلبوا من الله، ولكنهم تمنوا أن يفيضوا عليهم من ماء الجنة أو مما رزقهم الله من خيراتها.

ولعلكم لا تخالفونني الرأي في أن توقع تحقيق الأمنية في الحوار الثاني وصل إلى حد الممكن، لأنهم خاطبوا بشراً يمكن تحريك مشاعرهم أو تأجيج شفتهم، بينما يحتضر توقعهم وهو يولد حين يتوجهون بطلبهم إلى الله؛ ليقينهم بأنه عز وجل - قال كلمته التي لا تتغير أو تتحور، ومع هذا فقد كرروا طلبهم في مشاهد حوارية كثيرة، مظهرين قمة الخشوع والتذلل والاستسلام^(٤).

^(١) إبراهيم/٤٤.

^(٢) إبراهيم/٤٤-٤٥.

^(٣) الأعراف/٥٠.

^(٤) تنظر هذه المشاهد في: سورة المؤمن/١٠٦-١٠٩، السجدة/١٢-١٤، فاطر/٣٧.

وخرج الأمر في كثير من المواطن إلى (الدعاء)^(١) وفيه يوجه المتكلم الطلب على حال التضرع والخضوع حيث يكون المتلقي هو الأعلى مطلقاً، أو بالنسبة للمتكلم، واقتصر توجيه الدعاء في الحوارات القرآنية إلى الله عز وجل - لأنه القوة المطلقة التي يتشبه بها فريق مسن أطراف الحوار، هو الفريق المؤمن بوجودها، والذي يستعين بها في مواجهة الفريق الآخر، أو في مواجهة هموم الحياة المختلفة.

وليس كل أمر خرج إلى دلالة الدعاء سواء؛ ففرق كبير بين دعاء سليمان عليه السلام: ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه، و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾^(٢) وبين دعاء لوط عليه السلام: ﴿رب انصروني على القوم المفسدين﴾^(٣).

فسليمان توجه إلى ربه بدعائه وهو مسرور ومرتاح من أية صراعات؛ إنه محاط بالنعمة والراحة والسلام.

بينما توجه لوط إلى ربه بالدعاء حزينا خائفا من فحش قومه، ووقوفهم ضده وقفة رجل واحد مطالبينه بأن يخلي بينهم وبين ضيفه. إنه مشهد يتأجج صراعا وعنفا ومواجهة وتوترا.

وفرق كبير بين دعاء الكافرين في الدنيا: ﴿ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب﴾^(٤) ودعائهم يوم القيامة: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾^(٥) لقد كانوا في دعائهم الأول ساخرين يدعون على سبيل الهزاء مظهريين لا مبالاتهم واستهتارهم بالقوة المطلقة التي كان الرسول وأصحابه يتوجهون إليها طالبيين المدد والرحمة والقوة.

ولكن هذه النبرة التهكمية الساخرة تتحول إلى نبرة بكاء وندب وحسرة ورجاء يوم القيامة.

^(١) يطلق ابن فارس على الدعاء لقب (المسألة). ينظر: ابن فارس، الصحاح، ص ٢٩٧.

^(٢) النمل/١٩.

^(٣) النعكوت/٣٠.

^(٤) ص/١٦.

^(٥) المؤمنون/١٠٦-١٠٧.

وقد يوجه أحد أطراف الحوار أمرا إلى طرف آخر يعلو عليه في المكانة^{*}، فيغطي وعيه لهذا الفارق نبرة الاستعلاء الملازمة لبنية الأمر، ويغلفها بالتواضع أو التذلل أو الرجاء أو غيرها من المشاعر التي تجسم استشعار الأمر بعلو مكانة المأمور عليه ومن ذلك:

الأمر الذي وجهه أبناء يعقوب لأخيهم يوسف وقد ظنوه العزيز: ﴿قالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين﴾^(١) إنهم يظهرون حاجتهم وضعفهم مظللين بطلبهم بالبؤس والحرمان اللذين يدفعان إلى الإلحاح، وتؤكد هذه الدلالات العبارة التي ختموا بها طلبهم (إن الله يجزي المتصدقين) فهي تحوي ترغيبا بتحقيق مطالبهم.

والأمر الذي وجهه الفتى الذي نجا من السجن، وكان بصحبة يوسف، إلى يوسف: ﴿يوسف، أيها الصديق، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾^(٢) لقد مكث هذا الرجل مع يوسف في السجن مدة طويلة ذاق فيها أحواله، وتعرف صدقه وحكمته وعلمه وإدراكه لبواطن الأشياء في تأويله رؤياه ورؤيا صاحبه.

إنه يدرك تمام الإدراك تميز يوسف وعلو مكانته بصفاته على غيره، ولهذا كلمه بكلام المحترز؛ فالأمر الذي وجهه إليه (أفتنا) يمتزج بالرجاء والتذلل، يؤكد هذا قرائن الحال التي ذكرناها، وقرائن السياق اللفظية المتمثلة باستهلال خطابه بالنداء (يوسف) الذي أتبع بنداء آخر يحوي وصفا للمنادى (أيها الصديق) أي أيها البليغ في الصدق وبعد أن صرح بطلبه ختم خطابه بما يوحي بالحاجة الملحة التي تستدعي تنفيذ طلبه (لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) إنه يتوق إلى العودة ومعه تأويل الرؤيا التي أرقت الناس وعجز الملاء عن تفسيرها.

ربما كان قوله (لعلهم يعلمون) بدل احتمال من قوله (لعلني أرجع إلى الناس)، وقد تكون جملة مستقلة تفيد معنى إضافيا فسر الزمخشري بوقوع الفعل (يعلمون) على مفعول به تقديره: (يعلمون) فضلك ومكانك في العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك^(٣).

* ونقصد بالمكانة، ما يتفاوت به البشر من مال وعلم ومن ومركز وحكمة... الخ.

(١) يوسف/٨٨.

(٢) يوسف/٤٦.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص (٤٨٧-٤٥٨).

كما توحى عبارته بما فيها من تكرار كلمة (لعل) التي تفيد الترجي برغبته الخاصة في معرفة تأويل الرؤيا، فهو يرغب في نيل الخطوة عند الملك بهذا التأويل الذي عجز الناس عنه، وكأنني به يحرص على أن يسمع الملك التأويل من فمه هو لا من فم يوسف، يؤكد هذا عدم تصريجه بهوية الحالم، فهو لم يقل (لعلني أرجع إلى الملك)، وإنما قال: (لعلني أرجع إلى الناس)، كأنه يخشى من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن، ووقوفه أمام الملك مشترطاً ذلك.

وقد نعزو هذا التذلل في الطلب والرجاء أيضاً إلى إحساس الفتى بالذنب والحرص اتجاه يوسف، لأنه نسي طلبه بأن يذكره عند الملك ليخرجه من السجن إلا بعد مدة طويلة^(١)، فظن أن يوسف غاضب عليه، وقد يحول هذا الغضب دون تنفيذ طلبه.

وقول ابنة شعيب لأبيها: ﴿يا أبت، استاجرته إن خير من استاجرت القوي الأمين﴾^(٢) إنها ترغب في أن ينفذ أبوها طلبها؛ بأن يستاجر مرسى، عليه السلام، ولهذا أتبع طلبها ببيان صفاته التي تبرر طلبها وتغري والدها بالتنفيذ. وقد أطل طلبها باستحياء وحشمة، فهي فتاة عذراء حية، سبق أن وصفها الله، عز وجل، بأنها ﴿تمشي على استحياء﴾^(٣) وطلبها يتعلق ببقاء رجل غريب، وهذا أمر تتحرج منه أمثالها، خاصة إذا كان المطلوب منه والدها، ولذا فإننا نؤكد صدور هذا الطلب بتحفظ يخفي من مشاعر الفتاة أكثر مما يبديه، وبحيادية الحكمة (إن خير من استاجرت القوي الأمين) التي تغلف إلحاح المتكلم ورغبته في أن ينفذ المخاطب طلبه.

وقد يوجه الطرف الأقل مكانة أمرا إلى الطرف الأعلى تغيب فيه دلالات الخضوع والتذلل والتواضع وغيرها من الدلالات الموجبة باستشعار الطرف الأمر لمكانة المأمور، وذلك لسماة في الشخصية يكشفها السياق. ومن ذلك:

الأمر الذي وجهه بنو إسرائيل لموسى في قولهم: ﴿يا موسى، إننا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾^(٤) لقد خاطبوا نبيهم بوقاحة العاجز، لأنه أمرهم بدخول أرض الميعاد وقتال الجبارين فيها، فتجروا عليه، وتوقحوا على

^(١) ينظر الحوار الموضح لما ذكرناه في سورة يوسف الآية (٤٢).

^(٢) القصص/٢٦.

^(٣) القصص/٢٥.

^(٤) المائدة/٢٤.

لأنه أمرهم بدخول أرض الميعاد وقتال الجبارين فيها، فتجروا عليه، وتوقحوا على دعوته التي تكلفهم مالا يريدون، وأمرهم بكل وقاحة وتتصل أن يقاتل هو والله ويذرهم وشأنهم. ويؤكد هذا التتصل عدم اكتفائهم بالضمير المستتر العائد إلى موسى -عليه السلام- في الفعل (اذهب) فقد أضافوا إلى بنية خطابهم اللغوية الضمير المنفصل (أنت)، ونسبوا كلمة (الرب) إلى كاف المخاطب التي تعود إلى موسى لا إلى (نا) المتكلمين، ليؤكدوا تتصلهم من الله وعقيدته إذا كان انضمامهم تحت هذا اللواء سيكلفهم القتال والمواجهة.

وهكذا فقد كشف السياق وما فيه من قرائن لفظية وحالية الدلالات المكتنزة في فعل الأمر (اذهب) التي لا تتناسب أبدا ومكانة المخاطب الذي وجهت إليه عاكسة أخلاق المتكلم السلبية التي دفعته دفعا إلى ذلك؛ لما في مراعاة مكانة المخاطب من التزامات وواجبات لا تروق للمتكلم.

وفي المقابل قد يعكس عدم اكتراث المتكلم بمكانة المخاطب التحول الإيجابي الذي طرأ عليه، ومثاله ما جاء في مقولة سحرة فرعون بعد إيمانهم بدعوة موسى لفرعون وقد هددهم بالقتل:

﴿قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض: إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنة بربنا، ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾^(١) إنهم يتحولون في لحظة من الكفر إلى الإيمان ويرافق هذا التحول تحول في دلالات ألفاظهم التي أرسلوها صاعقة تحرق مكانة فرعون وتهد صرحه، فتتلاشى دلالات التعظيم والتوقير والإجلال والتقديس التي حالت في خطاب من خطاباتهم معه دون الجرأة على مطالبته بالأجر على سحرهم، فأخفوا هذا الطلب في ثوب السؤال: ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين؟﴾^(٢)، وتحل محلها دلالات التحقير والإهانة والاستخفاف التي امتزجت بفعل الأمر (فاقض) مجسمة الإيمان الذي سكن قلوب السحرة الذي كانوا منذ لحظة يقدسون مكانة فرعون، ويعدون القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هم بعد لحظة، قوة تواجهه، تهزأ بمكانته، وترخص ملكه وجاهه وسلطانه.

ومن الدلالات التي خرج إليها فعل الأمر في الحوارات القرآنية أيضا دلالة النصيح أو الإرشاد والتوجيه، وللأمر فيها معرفة أو علم وحكمة غير موجودة عند المخاطب، ومن ذلك:

(١): طه/٧٢.

(٢): الشعراء/٤١.

دلالة أفعال الأمر التي وجهها لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه قال: ﴿يا بني أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وإنه عن المنكر، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾^(١)، إنه الوالد الحكيم الذي يحرص على مصلحة ابنه وسعادته، فيوجه إليه أفعال أمر متواليّة خرجت عن دلالتها الأصليّة إلى دلالات الحث على فعلها دون إجبار، و تحبيب هذا الفعل إلى نفس المخاطب؛ لينفذه برغبة وحرص واعيا نتيجة التنفيذ.

ودلالة أفعال الأمر في معظم خطابات الرسل والصالحين لأقوامهم، حيث يقومون بتبليغهم أوامر الله وتعاليمه، بالقول اللين الذي يبتعد عن الاستعلاء أو الإكراه ممّتزا بحرص المتكلم على مصلحة المخاطب وهدايته، ومثالها دلالة أفعال الأمر الواردة في خطاب شعيب عليه السلام لقومه:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾^(٢).

وتلك الواردة في قول هود لقومه: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تتولوا مجرمين﴾^(٣).

وكثيرا ما ارتبطت دلالة النصح والإرشاد التي خرج معنسى الأمر إليها بالتحذير، لتخويف المتلقي من عواقب عدم تنفيذ الأمر، كقول الرجل، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لسيدنا موسى:

﴿يا موسى، إن الملا يأترون بك ليقتلوك، فاخرج إنني لك من الناصحين﴾^(٤) حيث امتزجت دلالة النصح التي يحويها فعل الأمر (فاخرج) بالتحذير والإلحاح على التنفيذ، والتخويف من البقاء.

وانحصر الفعل بين جملتين تؤكدان تلك الدلالات، ففي قوله: ﴿إن الملا يأترون بك ليقتلوك﴾ إفشاء لمكيدة دبّرت في الخفاء، يستدعي العلم بها من المخاطب سرعة التحرك والهروب مخافة أن يقع فريسة لتلك المؤامرات.

^(١) لقمان/١٧.

^(٢) الأعراف/٨٥.

^(٣) هود/٥٢.

^(٤) انفص/٢٠.

وفي قوله : (إني لك من الناصحين) إبراز لحقيقة موقف المتكلم تجاه المخاطب، فهو حريص على سلامته، ناصح له، صادق فيما يقول.

وتتضاعف حدة التحذير والإلحاح على تنفيذ الأمر إلى درجة الرجاء في قول نوح لابنه: ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن من الكافرين﴾^(١) فمهما كان حرص الرجل الذي خاطب موسى في الخطاب السابق، كبيراً وصادقاً، فإنه لا يعادل جزءاً بسيطاً من الحرص واللفتة والخوف والإلحاح وغيرها من المشاعر الكافية في خطاب أب أدرك أن ابنه غارق لا محال إن لم ينفذ ما يأمره به، وهل هناك ما هو أكثر حرصاً من حرص الآباء على نجات أبنائهم وسلامتهم؟!

وهذا يؤكد أن العلاقة الرابطة بين طرفي الحوار هي المؤشر الحساس والأساس في بيان نوع الدلالة القارة في التركيب، ودرجة تشبع التركيب بها أو مقدار حدتها وماهية الدلالات المتميزة بها.

وهكذا نكون قد توقفنا على جزء من الدلالات المتعددة التي أنتجها تركيب (الأمر) في عدد من النصوص الحوارية في القرآن الكريم مبينين فاعلية التركيب فيها، الناتجة عن التجاوز الدؤوب للتركيب في وجوده الفعلي في النص الحوارية لقيد المعنى الأصلي، وحتى حين يلتزم بدلالته الأصلية فإنه يتشرب دلالات أخرى يكشف عنها استحضار البعد التداولي المحيط بالأمر والمأمور مثبتاً أن كل (أمر) وجود قائم بذاته، قد يتشابه مع نظائره في نصوص أخرى، ولكنه لا يتطابق معها.

ولنا الآن وقفة مع الكيفية التي تشكل بها تركيب (الأمر) في النص لتحقيق الدلالات القارة فيه وتجسيمها.

(١) هود/٤٢.

• أسلوبية (الأمر) في الحوار القرآني:

شكل الأمر سمة أسلوبية مهيمنة في بنية عدد من النصوص الحوارية، فقد توالى أفعال الأمر خارجة من دلالاتها الأصلية إلى الدعاء والتضرع في جل خطابات الرسل، عليهم السلام، مع الله، دالة بهذا التوالي على شمول الدعاء، وتعلق أمل الداعي بالمدعو في تنفيذ طلباته، مؤكدة قدرة المدعو وطاقته على استيعاب كل هذه الطلبات وتنفيذها، ومنها:

أفعال الأمر المتوالية في قول موسى، عليه السلام، مخاطباً الله:

﴿رب، اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني؛ يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً﴾^(١).

لقد أظهر موسى بطلباته المتعددة المتوالية بتنظيم إيقاعي مكنونات نفسه بكل ما فيها من هواجس وضعف وخوف؛ لأنه يخاطب العليم بالخوافي، الذي يملك مخرج كل ضيق وهم، إنسه يشرح ويفصل في دعائه، مبرزاً تعلقه بقدرة الله، ورغبته في مناجاته. بدت أفعال الأمر في خطابه فواصل قسمت الخطاب إلى مجموعة جمل متساوية، انتهى كل منها بالمفعول الذي وقع عليه فعل الأمر، وقد أضيفت ياء المتكلم إلى هذه المفاعيل مؤكدة خصوصية حاجته.

وتوالى أفعال الأمر في وصية لقمان الحكيم لابنه بتكثيف يجعلها شريعة يسهل على المتلقي حفظها وبالتالي تذكرها والعمل بها، وما كان هذا الهدف ليحقق لو كانت الفجوة المكانية بين أفعال الأمر واسعة: ﴿يا بني أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وأنه عن المنكر، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾^(٢).

كما توالى أفعال الأمر في خطاب الله الموجهة إلى إبليس حين رفض السجود لأنم، مشكلة سلسلة من التحديات التي كثفت في جزء من الخطاب صافعة إبليس بما تحويه من تحد ووعيد، ملاحقة إياه كاسرة كبره وغروره:

^(١) الله/ (٢٥-٣٥).

^(٢) لقمان/ ١٧.

﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾^(١).

لقد توالى أفعال الأمر في الخطابات السابقة بوتيرة الأمر الأول فيها، والنمط الذي تقوّل فيها ووجهت إلى مخاطب بعينه، ووقعت على مفاعيل واحدة أو متقاربة تدور في إطار واحد، وهذا يخلق إيقاعاً خارجياً يعكس نبض المتكلم وانفعالاته وموقفه من المخاطب، فالحالة الانفعالية التي تلقى الحدث الكلامي تسير على وتيرة واحدة.

وشكلت أفعال الأمر سمة بارزة في الخطاب الإلهي الموجه إلى أحد من الخلق، والتزمت بدلالاتها الأصلية التي اختلطت بدلالات أخرى توضحها القراءة الارتدادية للنص الواردة فيه ومراعاة المخاطب.

ورتبت هذه الأفعال بترتيب العليم، وهي تستوجب من المخاطب تنفيذاً يراعي الترتيب المذكور، ومن ذلك ما جاء في خطاب الله لإبراهيم في الحوار الآتي:

﴿ وإذ قال إبراهيم: رب، أرني كيف تحيي الموتى.

قال: أولم تؤمن؟!

قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

قال: فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن يأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾^(٢).

لقد رتب الله الأفعال ترتيباً دقيقاً موضحاً الفترة الزمنية التي على المخاطب الالتزام بها بين كل فعل والذي يليه، وذلك بحروف العطف الدالة؛ فالفترة الزمنية بين الفعل (خذ) والفعل (صرهن) قصيرة، إن لم تكن معدومة، ولكنها تمتد بين الفعل (صرهن) والفعل (اجعل)، وقد أوحى (ثم) بهذا الامتداد، لأن تقطيع الطير يحتاج وقتاً أكثر من جمعها. كما فصلت (ثم) بين الفعل (اجعل) والفعل (ادعهن) وفي هذا زيادة إثبات للقدرة الإلهية وبيان، لأن تجميع أجزاء الطير وإحيائه بعد أن لبث مدة مجزأة ومفرقا أزيد للبصيرة واليقين بقدرة الله العزيز الحكيم.

^(١) الإسراء/٦٤.

^(٢) البقرة/٢٦٠.

وقد يتكرر فعل الأمر ذاته على لسان الأمر نفسه، أو على لسان أكثر من أمر، ولهذا التكرار دلالات يكشفها السياق، فمن الأول: تكرر الفعل (اذكروا) على لسان هود في خطابه للذين كذبوه من قومه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾^(١).

إن تكرر الفعل اذكروا يجسم إلحاح هود وحته لقومه على التذكر والتدبر. إنه يلاحقهم بهذا التكرار مستغزاً تفكيرهم وتأملهم، ساعياً بهذه الاستثارة إلى تغيير موقفهم من الكفر إلى الإيمان. والملاحظ أن متعلقات الفعل الأول هي أيضاً متعلقات الفعل المكرر، لكنها جاءت مفصلة مع الأول، ومجملة بكلمة (آلاء الله) مع الثاني.

كما تكرر فعل الأمر في قوله تعالى للملائكة: ﴿إني معكم، فثبتوا الدين آمنوا، سألقى في قلوب الدين كفروا العرب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾^(٢). أفاد تكرر فعل الأمر (اضربوا) حث الملائكة على سرعة التنفيذ وشموله؛ ليحيط الضرب بالكافرين من كل جانب؛ فالدال الأول يقع على مقتل (فوق الأعناق)، والدال المكرر يقع على غير مقتل (كل بنان)، وهذا يعني جمع النوعين معاً في مواجهة الكافرين.

وقد يتكرر الفعل حين يقاطع المتلقي كلام المرسل بتعليق أو تساؤل يدور حول تنفيذ الأمر، فيجيبه المرسل، ثم يرتد إلى الأمر الذي سبق أن طرحه، فيعيد ذكره، ليكون التكرار وصلة تستأنف بها بقية الخطاب. وهذا ما أفاده تكرر الدال في الحوار الذي دار بين الله، عز وجل، وموسى عليه السلام، فحين أمر الله موسى، عليه السلام، أن يذهب بآياته إلى فرعون الطاغية ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾^(٣) تفاجأ موسى بهذا الطلب، وتلبسه الخوف، لضعف قوته وحجته أمام قوة فرعون وبطشه. وقد دفعه هذا الخوف دفعا إلى التوجه إلى الله بالدعاء طالبا النصر والقوة والمعين^(٤)، قبل أن يعرف الرسالة التي يريد الله أن يبلغها لفرعون. ويستجيب الله لدعائه: ﴿قال: قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾^(٥)، ولكنه، عز وجل، لا يذكر

^(١) الأعراف/٦٩.

^(٢) الأنفال/١٢.

^(٣) طه/٢٤.

^(٤) ينظر دعاء موسى لربه في سورة طه/٢٥-٣٢.

^(٥) طه/٣٦.

رسالته، وإنما يواصل تطمين موسى، وبث السكينة في نفسه، ليتلقى الرسالة بنفس هادئة، ويستوعبها بقوة وعزم يدفعان إلى التنفيذ، فيذكره بنعمه المتواصلة عليه، ورعايته له، وكيف ذلّل أمامه كل العقبات التي واجهته، فكان دائما في كنف الله ورعايته^(١)، وهذا يعني أن مواجهة فرعون ستكون تحت هذه الرعاية الإلهية الملازمة لموسى، وسيخرج منها منتصرا.

وبعد هذا الحوار الطويل الذي أثاره الأمر بالذهاب إلى فرعون، يكرر الله الطلب ليكمل خطابه الذي يريد من المتلقي إيصاله إلى فرعون، ولكن يحدث تغيير في بنية فعل الأمر تعكس استجابة الله لدعاء موسى:

﴿ واجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري ﴾^(٢)،
فإنه، عز وجل، وجه أمره إلى موسى وهارون، وذلك بإضافة ألف الإثنين إلى فعل الأمر (اذهب) مبينا موافقته على إشراك هارون في أمر الذهاب إلى فرعون:

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري، اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾^(٣) ويدفع الخوف من جديد بموسى وهارون إلى أن يبوحا بخوفهما من هذا اللقاء، قبل أن يسمعا الرسالة التي كلفهما الله بحملها إلى فرعون:

﴿ قالا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾^(٤) فيرد عز وجل - مخاوفهما مؤكدا نصرتة لهما ثم يعيد طلبه (فقولا) ويطرح رسالته التي تأخر طرحها بسبب مداخلات المتلقي ﴿ فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾^(٥).

وهكذا فقد شكل تكرار فعل الأمر وصلة يرتد بها إلى الدال الأول، ويستأنف بعدها ما توقف من خطاب، فيبدو الحوار متماسكا يدور في بؤرة واحدة.

وقد يدل صدور فعل الأمر ذاته على لسان عدة أشخاص في سياقات متشابهة حد التطابق على وحدة الفكرة أو الدعوة التي جاء بها هؤلاء، وهذا ما برز في حوار الرسل، عليهم السلام، مع أقوامهم، فعقيدة التوحيد التي ينادي بها رسل الله واحدة، لم تتغير بتغير الزمان

(١) ينظر الخطاب الإلهي لموسى في سورة طه/ (٣٧-٤١).

(٢) طه/ (٢٩-٣٢).

(٣) طه/ (٤٢-٤٤).

(٤) طه/ ٤٥.

(٥) طه/ (٤٧-٤٨).

والأقوام. ففي سورة الأعراف جاءت جملة (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) التي تحوي فعل الأمر (اعبدوا) في خطاب نوح^(١)، وهود^(٢)، وصالح^(٣)، وشعيب^(٤)، عليهم السلام، لأقوامهم، وهذا يثبت اجتماعهم على دعوة التوحيد، بعبادة الله وحده وإقراره سبحانه بالألوهية.

وقد يصدر فعل الأمر ذاته على لسان أحد أطراف الحوار مرتين؛ الأولى بالسلب، والثانية بالإيجاب. ومثاله قول يعقوب لبنيه: ﴿يا بني، لا تدخلوا من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة﴾^(٥)، فوقع الدخول وارد وحتمي، ولكن المتكلم يوضح للمتلقى وجهة التنفيذ، لتحقيق غاية يراها في ذلك.

وقول إبليس للمعذنين في نار جهنم: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾^(٦) فقد تجاوز الأمر بعدم القيام بالفعل مع نقيضه ميرزا تتصل المتكلم من أتباعه، وذلك بنهيهم عن إيقاع فعل اللوم عليه، وأمرهم بإيقاع هذا اللوم على أنفسهم.

وغالبا ما يلجأ الطرف الأمر إلى تعليل أمره وبيان سببه للطرف المأمور. وقد يسبق السبب الأمر، وقد يتقدم الأمر عليه لغايات يكشفها السياق وطبيعة العلاقة بين الأمر والمأمور. ومن ذلك:

تقدم السبب على فعل الأمر في قول أبناء يعقوب لأخيهم يوسف - وقد ظنوه العزيز-: ﴿يا أيها العزيز، إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾^(٧) لأنهم أرادوا استعطافه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السن لن يقوى على فراق أخيه هذا بالذات، وسبق استعطافهم مناداته متضرعين متوسلين قوته ومركزه (يا أيها العزيز)، وأتبعوا طلبهم بالثناء على إحسانه إلحاحا منهم عليه لتنفيذ طلبهم.

^(١) الأعراف/٥٩.

^(٢) الأعراف/٦٥.

^(٣) الأعراف/٧٣.

^(٤) الأعراف/٨٥.

^(٥) يوسف/٦٧.

^(٦) إبراهيم/٢٢.

^(٧) يوسف/٧٨.

وقوله تعالى لموسى وهارون بعد أن أمرهم بالذهاب إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَنَا: لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَى﴾^(١).

وقد تتعدد وجوه الخطاب بأسلوب الأمر، ومثاله قول الكافر وقد حضره الموت: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾^(٢) ففيه يخطاب الله خطابه للجماعة، ويمكن تعليل هذا باستحضار مشهد الاحتضار، وقد جاءت الملائكة لقبض روحه بعنف وقسوة وسرعة راغبة بإيصاله إلى العذاب الذي طالما كذب وقوعه، فصرخ مناديا الله، وروحه تسحبها الملائكة، فتوجه إليهم بطلب الإرجاع (أرجعون)، وهذا الإرجاع لن يتم إلا بإرادة الله الذي ناداه.

وتنوعت الضمائر المتصلة بأفعال الأمر الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وقد علل الزمخشري هذا التنوع في الخطاب بقوله: "فإن قلت: كيف نوع الخطاب، فتشى أولا (تبوءا)، ثم جمع (واجعلوا، وأقيموا)، ثم وحد آخر (بشّر). قلت: خوطب موسى وهارون -عليهما السلام- أن يتبوءا لقومهما بيوتا، ويختارها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سبق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض، تعظيما لها وللمبشر بها"^(٤).

وبهذا نكون قد توقفنا على أهم تشكيلات تركيب (الأمر) في الحوار القرآني ولنا الآن وقفة عند أسلوبية ردة فعل المأمور الكلامية في عدد من النصوص.

^(١) طه/٤٤.

^(٢) المؤمنون/٩٩.

^(٣) يونس/٨٧.

^(٤) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٣٥١.

❖ أسلوبية رد المأمور على أمر أمره:

تأرجحت جل ردود المأمور الكلامية بين ثنائية رفض التنفيذ وقبوله عاكسة طبيعة العلاقة بين الأمر والمأمور. فمن الطبيعي أن تسبب نظرة المأمور العدائية إلى أمره رفضاً لقبول الانصياع لأمره وتنفيذه، مهما حاول الأمر إقناعه، وهذا ما نلاحظه في رد الكافرين أو العصاة على الأوامر التي وجهها رسل الله إليهم، ومن ذلك رد بني إسرائيل على موسى في الحوار الآتي:

﴿يا قوم، ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تترددوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا: يا موسى، إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون﴾^(١).

فقد قابل بنو إسرائيل فعل الأمر (ادخلوا) الوارد في خطاب موسى بالرفض المتمثل بنفي الفعل نفسه بلفظه ومعناه (لن ندخلها).

وقد يتجسم الرفض بالأداة (بل) التي تفيد إضراباً عن متعلق الأمر وإثباتاً لمتعلق آخر، ومنه ما جاء في الحوار الآتي:

﴿وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله.

قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾^(٢).

لقد رفض الكافرون وقوع فعل الاتباع على ما حدده لهم رسل الله (ما أنزل الله)، وأكدوا وقوع هذا الفعل على ما ألفوا عليه آباءهم.

وقد يجسم الطرف المأمور رفضه الانصياع لأمر الطرف الآخر بسؤال إنكاري، كما

جاء في الحوار الآتي بين رسل الله والكافرين:

﴿وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن.

قالوا: وما الرحمن؟! أنسجد لما تأمرنا؟! وزادهم نفوراً﴾^(٣).

^(١) المائدة/ (٢١-٢٢).

^(٢) البقرة/ ١٧٠.

^(٣) الفرقان/ ٦٠.

إنهم ينكرون متعلق فعل الأمر (الرحمن) بسؤالين؛ الأول يتعلق بماهية الرحمن كاشفاً عن تجاهلهم وتسخيفهم واستهانتهم بالرحمن (مركز عناية الأمر وبؤرة اهتمامه). ويتعلق السؤال الثاني بإنكار أمر السجود وما يقع عليه (لما تأمرنا).

ويبدو القلب المكاني واضحاً في تساؤلهم، فما تأخر في خطاب الأنبياء تقدم في سؤالهم، وما تقدم عند الأنبياء تأخر عندهم.

ومثاله أيضاً السؤال الإنكاري الذي وجهه الله للمعذبين في نار جهنم رافضاً طلبهم وذلك في الحوار الآتي:

﴿وهم يصطرخون فيها: ربنا، أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل.

: أولهم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير؟! فذوقوا فما للظالمين من نصير^(١) : فسواله يلاحقهم بدلالة التوبيخ مفحماً إياهم بما فيه من استنطاق اعترافهم الذي لا يملكون منه فراراً، وفيه من الرفض ما يلجم لسان الطالب محبطاً أي أمل له في التنفيذ. وقد أتبع السؤال بأمر يؤكد ما فيه من دلالات، ويقابل أو يصد طلبهم.

وقد تحوي جملة الرد خبراً مؤكداً توحى برفض ضمني، وهذا ما نجده في رد مالك على طلب أهل النار:

﴿ونادوا: يا مالك، ليقض علينا ربك.

قال: إنكم ماكثون^(٢)﴾

فقد أكد مالك واقعاً سيلازمهم، وهو المكوث الخالد في نار جهنم، وهذا يعني رفض طلبهم، في أن يقضى الله عليهم.

ونجده أيضاً في رد أصحاب الجنة على طلب أهل النار في الحوار الآتي:

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله

قالوا: إن الله حرمهما على الكافرين^(٣)﴾

^(١) قاطر/٣٧.

^(٢) الزخرف/٧٧.

^(٣) الأعراف/٥٠.

إن تأكيدهم تحريم الله لما في الجنة على الكافرين يعني رفض أصحاب الجنة تنفيذ طلب أصحاب النار وتبئسهم.

كما يبدو الرفض واضحا يعج بالإتكاف والاستهجان والتوبيخ ففي رد موسى، عليه السلام، على طلب بني إسرائيل في الحوار الآتي:

﴿قالوا: يا موسى، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة.
قال: إنكم قوم تجهلون﴾^(١)

وقد يصد المأمور أمر الأمر بأمر يكتنز رفضا، ومثاله ما جاء في قوله تعالى ردا على طلب أهل النار في الحوار الآتي:

﴿ربنا، أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون.
قال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون؛ إنه كان فريق من عبادي يقولون: ربنا، آمنا، فاغفر لنا و
ارحمننا وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري، وكنتم منهم
تضحكون﴾^(٢).

لقد قوبل طلبهم (أخرجنا منها) بأمره عز وجل - الذي يعج انكارا وتوبيخا وغضبا (اخسؤوا فيها)، وفي هذه المواجهة من العنف مالا تولده جملة منفية مثل: (لن تخرجوا)، ففي تركيب الأمر زجر للمتلقى يقطع الأوصال بما يحويه من قطع وبت في التنفيذ، وقد أتبعه عز وجل - بالنهي عن الكلام (ولا تكلمون) وهذا يبرز غضبه من أهل النار، الذي يحول دون إتاحة الفرصة أمامهم لمحاورته، فكل توسلاتهم ووعودهم ستذهب سدى، ولن يتاح لها أي مجال للتنفيذ.

وقد ينفي المأمور إمكانية تنفيذ الأمر بعبارة تدل على النفي وتمتزج بموقف المأمور، كعبارة (معاذ الله) التي جاءت على لسان سيدنا يوسف مرتين؛ الأولى في رده على طلب امرأة العزيز في الحوار الآتي:

^(١) الأعراف/١٣٨.

^(٢) المؤمنون/١٠٧-١١٠.

﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك.

قال: معاذ الله، إنه ربي أحسن مثوأي، إنه لا يفلح الظالمون﴾^(١).

فقوله يوسف هذه تعبير عن بغضه الشديد، ونفيه أن يأتي سلوكا قبيحا، وهي أقوى من (لا) ففيها استعصام بسلطان الله وذلك بإضافة كلمة (معاذ) إلى الله، وهذا يفيد التصاق العائد بالمعوذ به محتميا به من طلب امرأة العزيز، والذي يشكل إغراء عظيما تنهار أمامه إرادة أي شاب، إن اعتمد في صده على أرادته وحسب.

ويعلل يوسف رفضه واستهجانه تنفيذ أمر امرأة العزيز، بكون زوجها من أكرم مثواه ورباه، فكيف يزني مع زوجته؟! (إنه ربي أحسن مثوأي، إنه لا يفلح الظالمون) فالزنا فاحشة كبيرة فكيف إذ ارتبط بالخيانة.

وكذلك قال يوسف العبارة نفسها لإخوته حين طلبوا منه مستعطفين أن يأخذ واحدا منهم بدل أخيه (بنيامن):

﴿قالوا: يا أيها العزيز، إن له أبا شيخا كبيرا، فخذ أحدا مكانه، إنا نراك من المحسنين.

قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، إنا إذا لظالمون﴾^(٢) لقد أظهر يوسف لإخوته أن استبدال بنيامين بغيره فعل منكراً؛ لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم. إن تنفيذ أمر أبناء يعقوب يعني ظلما في الحكم، وهذا ما يرفضه يوسف (إنا إذا لظالمون) أي إنا إن نفذنا ما نطلبونه منا نكون ظالمين.

وقد يستجيب المأمور لأمر الأمر، ويوضح رده هذه الاستجابة، ومثاله رد إبراهيم، عليه السلام، على أمر الله في الحوار الآتي:

﴿إذ قال له ربه: أسلم.

قال: أسلمت لرب العالمين﴾^(٣)

^(١) يوسف/٢٣.

^(٢) يوسف/ (٧٨-٧٩).

^(٣) البقرة/١٣١.

إنه الإذعان والخضوع المطلق لأمره عز وجل-، وقد تمثل بالمطابقة اللفظية لفعل الأمر (أسلم — أسلمت)، مع إتباعه بتخصيص يفيد التأكيد والحصر.

واستجابة قوم موسى لطلبه في الحوار الآتي:

﴿وقال موسى: يا قوم، إن كنتم آمنتم بالله، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا: على الله توكلنا. ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾^(١) لقد نفذ قوم موسى مطلبه، بتأكيد التلطف به، مثبتين له إسلامهم، وقد جسموا هذا التوكل فعلياً بالتوجه إلى الله بالدعاء.

ورد إسماعيل على طلب أبيه إبراهيم في الحوار الآتي:

﴿فلما بلغ معه السعي قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى؟! قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني -إن شاء الله- من الصابرين﴾^(٢)

إنها قمة الاستسلام لأمر الله الذي جاء لإبراهيم في المنام، فإسماعيل يؤكد لوالده الذي بدا حزيناً مثالماً صبره وتقبله تنفيذ الأمر، أمراً إياه البدء بالتنفيذ (افعل ما تؤمر)، إنه أمر يحوي دلالات العزم والحث، يواجه به الأمر الذي وجهه والده له وقد أطل باستحياء وحرص؛ خوفاً على مشاعر ولده، وتهوينا لوقع الأمر على نفسه، فقد أمره أن يبدي رأيه فيما سمع، دون أن يأمره بأن يستسلم مباشرة لسكينه، فقد شاوره في أمر هو حتم من الله بالأمر الذي جاء في تركيب السؤال، ليأتي الأمر على لسان إسماعيل، فيكسب مثوبة الانقياد لأمر الله بإرادته، وهذا ما حدث بالفعل، فقد جاء الأمر الصريح على لسان إسماعيل.

ومنها استجابة السماء والأرض لأمر الله في قوله تعالى :

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: اتبيا طوعاً أو كرها قالتا: أتينا طائعين﴾^(٣)

إن الأمر الذي وجهه الله إلى السماء والأرض منفذ لا محال، منفذ شاء المخاطب أو أبى، ومنفذ أحب أو كره. وجاء الرد على هذا الأمر بإظهار التنفيذ، واختيار طريقة التنفيذ

^(١) يونس/ (٨٤-٨٥).

^(٢) العنكا/ ١٠٢.

^(٣) فصلت/ ١١.

وموقف المأمور مما ينفذ، فقد لبث السماوات والأرض دعوة الله (انتبها — هتنبها)، واختارتنا تنفيذ هذا الأمر بطوعية ورغبة إرضاء للأمر وإظهارا للاستسلام والإذعان.

ذكرنا في حديثنا عن رفض المأمور تنفيذ طلب الأمر، رفضه عز وجل - تحقيق دعاء الكافرين يوم القيامة. ونذكر هنا استجابته - عز وجل - لدعاء عباده؛ إكراما لهم أو تحديا واختبارا. فمن الأول استجابته عز وجل - لدعاء موسى، عليه السلام، في الحوار الآتي:

﴿قال: رب، إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا؛ فأرسله معي ردءا يصدقني؛ إني أخاف أن يكذبون.

قال: سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطانا، فلا يصلون إليكما بآياتنا، أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾^(١).

وقد يستجيب الله لدعاء من يدعوه، فيرد عليه بما يؤكد تحقيق طلبه دون أن يكرر ذكر الطلب، كما في قوله تعالى ردا على دعاء موسى وهارون في الحوار الآتي:

﴿وقال موسى: ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

قال: قد أجيب دعوتكما، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذي لا يعلمون﴾^(٢)

فقوله تعالى (قد أجيب دعوتكما) يعني: سأطمس على أموالهم وأشد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وقد يحقق الله طلب من يدعوه اختبارا وتحديا للداعي أو لغيره، فمن الأول استجابته لطلب إبليس في قوله تعالى :

﴿قال: أنظرني إلى يوم يبعثون.

قال: إنك من المنظرين﴾^(٣)

فإن قلت: لم حقق الله طلب إبليس وهو يعلم أنه استنظره ليفسد عباده ويغويهم؟! قلت: لما في ذلك من تحد لإبليس واستهانة بقدرته على إغواء عباد الله الصالحين.

^(١) القصص/ (٣٣-٣٥).

^(٢) يونس/ (٨٨-٨٩).

^(٣) الأعراف/ (١٤-١٥).

كما يكون التحدي والاختبار لأطراف أخرى غير الداعي، كما في رده تعالى على دعاء عيسى في الحوار الآتي:

﴿قال عيسى ابن مريم: اللهم، ربنا، أنزل علينا مائدة من السماء، تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله: إني منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾^(١)

وقد يبتعد المأمور عن تنفيذ الطلب في إجابته ليحقق هدفاً ما ثم يردد إلى طلب الأمر فينفذه، وهذا ما نلاحظه في الحوار الذي دار بين يوسف عليه السلام - وصاحبيه في السجن: ﴿ودخل معه السجن فتيان، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً. وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه. نبئنا بتأويله، إنا نراك من المحسنين. قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلك مما علمني ربي، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون. واتبع ملة آبائي؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون. يا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟! ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يا صاحبي السجن، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾^(٢)

فما أبعد ما طلبه صاحبا يوسف - عليه السلام - عن رده، لقد كان طلبهما مفتاح باب دعوته، الذي فتح أمامهم الرؤى التي أدرك غيابها عن أذهانهم ليثير فيهم التأمل الدافع إلى يقين يود أن يحملهم عليه وأن ينعهم به. وبعد أن يصدمهما مدخلا إياهما في مواجهة مع ذاتهما، يحقق طلبهما ويفسر حلميهما.

^(١) المائدة/ (١١٤-١١٥).

^(٢) يوسف/ (٤١-٣٦).

* النـهـي

وفيه يطلب أحد أطراف الحوار من الطرف الآخر أن يكف عن الفعل أو يمتنع عنه، وصيغته الوضعية (لا تفعل). والتعامل مع هذه البنية " يستدعي حضور حالة شعورية وذهنية تبدأ فاعليتها من منطقة (الإثبات)، لأن (الكف) فعل يحصل بشغل النفس بضد المنهي عنه، وهو ما يستدعي تقدم الشعور بالمكفوف عنه، لأننا لا نطالب أحدا بعدم الفعل -أي تركه- إلا وعنده عزم على هذا الفعل، أو على الأقل وعي بإمكانية وقوعه، إذ لا يعقل أن يكون هناك إنسان لا يعي شيئا عن فعل ما، ولا يعترم فعله، ثم أمره بتركه"^(١).

جاء تركيب النهي في مائة وستة عشر موضعا حواريا، ورد جلها في خطابات الله ورسله وعباده الصالحين* عاكسة موقف هذه الأطراف من الطرف المقابل، ويتمثل هذا الموقف في الكف عن فعل صدر أو يخشى صدوره لما يترتب على تنفيذه من سوء عاقبة تحقيق بالفاعل.

ولعل اختيار تركيب النهي في طلب الكف والأمر بالترك يحقق مواجهة وتفاعلا مع الطرف الآخر لا يحققهما تركيب بديل، فالنهي عن ممارسة الفعل يستفز تأمل المنهي في حقيقة الفعل الذي كان سيؤديه أو يؤديه، وعاقبة هذا الفعل، فالنفس البشرية تستثيرها صيغة (لا تفعل)، وهل أدل على هذا من استغلال إبليس للنهي الذي وجهه الله لأدم وحواء في إغوائهما وإثارة فضولهما لمعرفة سبب هذا النهي:

﴿وقلنا: يا آدم، اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلامها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾^(٢).

﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوأتها، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا خالدين. وقاسمهما: إني لكما لمن الناصحين.

^(١) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية (قراءة أخرى)، ص ٢٩٧.

* : ورد تركيب النهي في خطابات الكافرين والمعصاة في أربعة مواطن فقط.

^(٢) البقرة/٣٥.

فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو مبين^(١).

والانحراف عن دلالة النهي الأصلية (الاستعلاء)* خاصية تتجدد بتجدد الواقع الفعلي للبيئة في النصوص.

ويحتاج استشفاف الدلالة إلى حضور طرفي الحوار بكل مكوناتها الداخلية والخارجية؛ ففي قوله تعالى على لسان أولى الألباب:

﴿ربنا، وآتينا ما وعدتنا على رسلك، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾^(٢) خرجت بنية النهي إلى الدعاء وما فيه من تضرع ورجاء يتوجه به الداعي إلى الله، وذلك لأن البنية توجهت من الطرف الأدنى إلى الطرف الأعلى.

وامتزج النهي بالرجاء والتلطف في قول إبراهيم لأبيه: ﴿يا أبت، لا تعبد الشيطان؛ إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾^(٣).

وأفادت بنية النهي التهديد والتوبيخ والتحذير في قول موسى عليه السلام - لفرعون وسحرته: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعداب، وقد خاب من افتري﴾^(٤).

وأفادت التحدي وقلة المبالاة بتهديد المتلقي في قول نوح لقومه: ﴿يا قوم، إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت، فاجمعوا أمركم وشركائكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾^(٥).

^(١) الأعراف/ (٢١-٢٢).

* : (النهي: طلب كف عن فعل على جهة الاستعلاء) ينظر: بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، ج ٢، ص ٣٢٤.

^(٢) آل عمران/ ١٩٤.

^(٣) المريم/ ٤٤.

^(٤) طه/ ٦١.

^(٥) يونس/ ٧١.

ويختلط التحدي بالتهديد والإنذار في بنية النهي الوارد في قول سليمان لملكة سبأ وقومها: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(١) فهو الأقوى الذي يأمر وينهي وعلى الجميع الاستسلام لأمره ونهيه.

وأفادت التحذير الممزوج بالحرص على المتلقي والخوف عليه والرحمة به في قول يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَا بَنِي، لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ، فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢). وقوله لأبنائه: ﴿يَا بَنِي، لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾^(٣) وقوله لهم أيضا: ﴿يَا بَنِي، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

وقول لقمان لابنه: ﴿يَا بَنِي، لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) إنهم أباء ينصحون أبناءهم، يختلف تحذيرهم عن التحذير الذي يوجهه الأنبياء أو عباد الله الصالحين لأقوامهم، فالتحذير الكامن في بنى النهي الواردة في قول قوم موسى لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ﴾^(٦) لا يمتزج بمشاعر الحب والشفقة التي امتزج بها في نهى الآباء لأبنائهم، بل لعله يمتزج بالغضب والكراهية من قارون الطاغية المتجبر.

كما اختلفت الدلالات التي حوتها النواهي الإلهية وتعددت باختلاف المخاطبين؛ ففرق كبير بين الدلالة القارة في بنية النهي الواردة في قوله تعالى لأصحاب جهنم: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾^(٧) وبين الدلالة التي أفادتها بيعة النهي الواردة في قوله تعالى لنوح، عليه السلام،:

^(١) النمل/٣١.

^(٢) يوسف/٥.

^(٣) يوسف/٦٧.

^(٤) البقرة/١٣٢.

^(٥) لقمان/١٣.

^(٦) النمل/١٠.

^(٧) المؤمنون/١٠٨.

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الدين ظلموا، إنهم مغرقون﴾^(١)؛ ففي الخطابين نهى عن ممارسة فعل الكلام، ولكنه نهى بمتزج بالتوبيخ والتقريع والإهانة التي تحملها نبرة أو تنعيم صاعد بينها السياق الذي جاءت فيه، فانه غاضب من أهل جهنم، لا يريد سماع توبتهم التي جاءت بعد فوات الوقت، لكن غضبه في نهيه لنوح عن الكلام ليس موجها إليه، وإنما هو موجه إلى قومه الكافرين ولذا تلاشت الدلالات السابقة القارة في بنية النهي الأولى لاختلاف المخاطب، وجاءت في تنعيم جازم لكنه ليس صاعدا، وحوث دلالة التينيس وإفحام أية محاولة شفاعاة أو وساطة يقوم بها نوح، لا لأن شفاعته لا وزن لها عند الله، ولكن لتعلقها بالكافرين الذين وقع عليهم غضب الله وعذابه.

ولنا وقفة نتأمل فيها دلالة التركيب في عدد من الخطابات التي تكرر فيها التركيب مبينين دور هذا التكرار في ترسيخ الدلالة:

ونبدأ بقول شعيب، عليه السلام، لقومه: ﴿يا قوم، اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره، قد جائتكم بينة من ربكم فافوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به، وتبغونها عوجا، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾^(٢).

تقوم بينة الخطاب السابق على مجموعة من الأوامر والنواهي التي انبثقت من قوله: ﴿قد جائتكم بينة من ربكم﴾ أي معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به، والانتهاة عما أنهاكم عنه.

إنه، عليه السلام، يلاحقهم بهذه الأوامر والنواهي، واضعا إياهم في بؤرة الموقف، فهم المطالبون بالتففيذ، وهم المطالبون بالكف عن ممارسة أفعال تبعد عن الصراط المستقيم، أو هم المطالبون بتركها؛ فحقيقة النهي عن ممارسة الفعل تعني الأمر بتركه. ويخلق الأمر بترك الفعل صراعا في نفس المتلقي قد يؤول إلى الرفض، ولذا أحاطه الناهي بحجج ونصائح تقنع المتلقي بضرورة الانتهاة، ترغبه حيناً (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين)، وترهبه حيناً (وانظروا كيف

^(١) هود/٣٧.

^(٢) الأعراف/ (٨٥-٨٦).

كان عاقبة المفسدين)، وأدت أفعال الأمر في النص دور الإقناع محاصرة تراكييب النهي المتلاحقة مبرزة ما فيها من تحذير.

وأرى أن اختيار بنية النهي في المواجهة أسلوب حكيم، ففيه يضع الناهي المتلقي أمام حقيقة فعله القبيح وجها لوجه، ولكن دون أن يلصقه به، فلو اختار في مواجهتهم تراكييب خبرية كان يقول لهم: (إنكم تبخسون الناس أشياءهم، وتفسدون في الأرض بعد إصلاحها، وتعدون بكل صراط توعدون) لآثارهم ضده رافضين منكرين صدور هذه الأفعال عنهم.

بينما تحوي بنية النهي التي وجهها شعيب إليهم معنيين، الأول ظاهري يصطبغ بحيادية الإخبار فقوله (لا تبخسوا الناس) يعني لا تفعلوا هذا الفعل وقع منكم أم لم يقع. أما المعنى العميق المضمّر في نفس الناهي والمقصود إفهامه للمتلقي فيعني توقفوا عن إيهاس الناس أشياءهم، وتوقفوا عن إفساد الأرض بعد إصلاحها، وتوقفوا عن القعود بكل صراط موعدين وصادين عن سبيل الله.

ولا يخفى ما لتجميع النواهي في حيز ما في النص من مواجهة المتلقي وملاحقته بسوء أعماله وإظهارها له، عله يستشعر كثرتها، فيستثير هذا الاستشعار إحساسه بالخجل فيرتدع ويتركها.

وتكررت بنية النهي في قول لوط لقومه وقد أمروه أن يخلي بينهم وبين ضيفه ليفحشوا بهم: ﴿قال: هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تخزون﴾^(١) وجسم تكرارها تكرار محاولة قوم لوط الاعتداء على ضيفه وتكرار صد لوط لهم والتعرض بينهم وبين ضيفه.

ويفيض تركيبا النهي (فلا تفضحون، ولا تخزون) رجاء وخوفا وخجلا، فقد كان لوط يرجو قومه أن لا يفعلوا ما يشين، وكان خائفا من تهتّر قوته أمام قوتهم الزاحفة المسعورة، كما كان يشعر بالخجل من أفعالهم راغبا في إخفائها عن أعين ضيفه.

وكما ذكرنا، فالنهي قد يتطلب التعليل وبيان الأسباب الدافعة إليه، ولذا فقد قدم لوط السبب على النهي في المرتين: (هؤلاء ضيفي فلا تفضحون) لأن من أسىء إلى ضيفه فقد

(١) أخر/ (٦٨-٦٩).

أُسيء إليه. (واتقوا الله ولا تخزون) فتقوى الله تحول دون أن يسببوا له الخزي بإذلال ضيفه والاعتداء عليهم.

وتكررت بنية النهي في الخطاب الذي أوحاه الله إلى أم موسى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني؛ إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين﴾^(١). وأفاد تكرار النهي تطمين أم موسى، وتهذنة هواجسها، وتخفيف صراعها. وبدأ بنهيها عن الخوف (وهو غم يلحق الإنسان لمتوقع)، وأتبعه بنهيها عن الحزن (وهو غم يلحقه لواقع يتمثل في فراق موسى والإخطار به). وقد تجاور التركيبان فلم يفصل بينهما إلا بواو العطف، لتحقيق هذه الغاية.

ومثله قول الملائكة للوط عليه السلام - وقد ضاق بهم ذرعا خوفا عليهم من فحش قومه: ﴿لا تخف ولا تحزن؛ إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾^(٢).

وتكررت بنية النهي في النصيحة التي وجهها لقمان إلى ابنه: ﴿ولا تصغر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحا؛ إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾^(٣).

ولعل حصرها بين مجموعة تراكيب الأمر التي تشكلت فيها نصائح لقمان ووصاياه يثير تأمل المتلقي لما يمارسه من فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع، فتتسأ جدلية حيوية حركية بين الناصح والمنصوح عبر هذا التغير المفاجئ للبنية المستخدمة؛ من طلب وإلحاح على تنفيذ أفعال معينة، إلى نهى وأمر بترك أفعال أخرى، وعودة إلى طلب تنفيذ أفعال جديدة^(٤). ويثير هذا التنوع المتأرجح بين ثنائية الطلب والنهي فاعلية المتلقي فيحقق أقصى درجات التماشج بين الطرفين.

(١) القصص/٧.

(٢) العنكبوت/٣٣.

(٣) لقمان/١٨.

(٤) تنظر وصية لقمان في سورة لقمان/١٣، (١٦-١٩).

تدل جملة (اني أعوذ بك) على نفى ضمنى، فنوح -عليه السلام- ينفي أن يسأل الله ما ليس له به علم، معبرا عن بغضه وتبريء ذاته من هذا الفعل الذي نهاه الله عنه، إنه يرتقى بأسلوبه بالاستعاذة مظهرا استسلامه المطلق لما بلغه من أوامر الله ونواهيه لكي يعصمه من الجهل الذي يقوده إلى الخسران.

وقد يرفض المتلقي الاستجابة لطلب الكف، وتمثل هذا الرفض في ردود الكافرين على النواهي الإلهية التي وجهت إليهم بواسطة الرسل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ

قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١)

حيث تمثل إجابة الكافرين إضرابا ورفضاً لوقوع فعل الإفساد الذي طلب منهم الرسل الكف عن ممارسته، فقد استهلت بـ (إنما) التي توسطت بين كلامين متغايرين نفيًا وإيجابًا، مبجلة ما قبلها (الإفساد في الأرض) مؤكدة ما بعدها (نحن مصلحون).

^(١) البقرة/١١.

✦ النداء

النداء هو طلب الإقبال حساً أو معنى بحرف (مولد) من الفعل (أدعو)، سواء أكان الحرف ملفوظاً على مستوى السطح، أو مضمرأ على مستوى العمق. وتتأني أدبية النداء عند انحرافه عن (أصل المعنى) ليولد إنتاجية بديلة لا تتصل من الدلالة الأصلية في سياقات كثيرة.

وبنية النداء بنية مهيمنة في الحوارات القرآنية، فقد جاءت في مائتين وثمانين موضعاً^{*}، حملت أحوال المنادي وانفعالاته المختلفة إلى المنادي مجسمة سعيه الدؤوب للتواصل مع الآخر، ومحاولته لفت انتباهه، وإثارة اهتمامه لمضمون الرسالة التي يريد إيصالها. فقد شكل النداء في كثير من المشاهد الحوارية ركيزة البدء التي استهل بها كل طرف حديثه مع الطرف الآخر، نذكر من ذلك ما جاء في الحوار الآتي بين يوسف ويعقوب عليهما السلام:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت، إني رأيت أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين.

قال: يا بني، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾^(١).

فكلا الطرفين يستهل خطابه بنداء الطرف الآخر مبرزاً العلاقة الرابطة بينهما وما تومي به من مشاعر؛ فنداء يوسف الصبي الصغير لأبيه وقد أعجبه حلم رآه في منامه فوقف مزهواً سعيداً يخبره بما رآه، يختلف عن نداء أبيه الذي أدرك معنى حلمه فخشي عليه من كيد إخوته. وهذا يعني إمتلاء صوت يوسف الذي حمل لفظة (أبت) دهشة وسعادة، بينما يمتلئ صوت الأب يعقوب فرحة مشوبة بخوف وقلق وحرص فيظهر خافتاً مرتجفاً.

* : أكثر أدوات النداء استخداماً في لغة الحوار القرآن هي الـ (يا)، فقد جاءت في (١٣٨) موضعاً. وحذفت أداة النداء في (٨٨)

موضعاً. وحذفت بنية النداء في ثمانية مواضع.

^(١) يوسف/ (٤-٥).

كما شكل النداء بنية الاستهلال في الحوار الآتي الذي دار بين نوح عليه السلام-

والله:

﴿ونادى نوح ربه فقال: رب، إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين.﴾

قال: يا نوح، إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين.

قال: رب، إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمن أكن من الخاسرين﴾^(١).

وتكشف القراءة الارتدادية والبعدية للأحداث المحيطة بالنص الحوارية السابق الدلالات المكتتزة في بنى النداء؛ ففي قول نوح (رب) التي استهل بها خطابه مع الله يمتزج الرجاء بالحيرة والألم والإلحاح الخجول، فقد كان متلهفا على ولده الذي رفض أن يركب السفينة فأصبح من المغرقين. وكان مهموما محتارا، فقد وعده الله أن ينجي أهله، فما بال ولده؟!.

ويبين الله لنوح -عليه السلام- السبب الذي جعل ابنه من المغرقين مستهلا خطابه بمناداته (يا نوح) التي امتلأت عتابا وتحذيرا نستشفهما من مضمون الخطاب الذي جاء بعدهما، وقد دار حول نفي العلاقة الرابطة بين نوح وابنه بسبب كفر الأخير وعصيانه، واستخدم ضمير الغائب في الحديث عن ابن نوح مبالغة في نبذه وتجاهله، وكأن الله يحث نوحا بهذا التغيب لشخص ابنه والتركيز على صفته أن ينساه ولا يألم لفرقه. وأعقب هذا تحذيرا حملته بنيتا النهي (فلا تسألن) و (إني أعظك أن تكون) أي (لا تكن). فما كان من نوح إلا أن قابل الدلالات المكتتزة في ندائه عز وجل - ببنية نداء مطابقة لندائه الأول (رب) لكنها تخالفه دلالة، فقد حوت اعتذارا وخوفا ورغبة في أن يسامحه المنادي على ما في ندائه الأول من دلالات.

وأدى استشعار المنادي لقرب المنادي المعنوي أو المادي إلى تغيب أداة النداء في عدد من التراكيب، انحصر جلها في مناداة الخلق للخالق، لما فيها من استشعار المنادي حضوره - عز وجل - وسماعه لدعائه دون أي وساطة ومن ذلك ما جاء في دعاء زكريا عليه السلام:

^(١) نمر/ (٤٥-٤٧).

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ: رَبِّ، إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي، وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا، وَلَمْ أَكُنْ بِدَعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾^(١).

إنه ينادي ربه نداء خفياً هامساً كي لا يسمعه أحد مستشعراً قرب الله منه، وسماعه لدعائه الخفي الذي فيه ما فيه من البوح الحزين المغلف بالضعف والشعور بالقلق والخوف. وقد تغيّبت إزاء هذا القرب أداة النداء، وأضيفت ياء المتكلم إلى المنادى موحية بالتعلق والرجاء وقمة الاستسلام والخضوع.

وتكرر ظهور البنية، بما فيها من حذف، في جسم الخطاب دالة على ذلك الإحساس المتعمق في نفس المنادى، ورغبته في التواصل مع المنادى؛ فالمعنى الإيصالي المباشر في قوله: (ولم أكن بدعائك رب شقياً) قد كان يمكن أن يكتفي فيه بقوله: (ولم أكن بدعائك شقياً)، ولكن المنادى يظهر بهذه الزيادة أدبه وتذلل له في خطابه مع الله، لأن في النداء تخفيفاً وتلطيفاً من حدة توجيه الخطاب بضمير المخاطب. ومثله توسطه لبنية النداء بين المفعول الأول لفعل الأمر (اجعل) ومفعوله الثاني رَضِيًّا في قوله: (واجعله رب، رَضِيًّا) إظهاراً للخضوع والرجاء واحتراساً من ظهور أية همسة استعلاء قد يومي بها تركيب الأمر.

ومن المواطن التي غيب المنادى فيها أداة النداء ما جاء في قول العزيز ليوسف، عليه السلام، وقد ظهرت براعته من التهمة التي ألصقتها زوج العزيز به: ﴿يُوسُفُ، أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾^(٢) وفي هذا الحذف تجسيم لموقف العزيز من يوسف، فقد اقترب منه ملاطفاً هامساً له خوفاً من شيوع هذه الفضيحة التي تمس عرضه وشرفه، وطلب منه الإعراض عن هذا الأمر وكتمان به وعدم التحدث به.

وقد يأتي النداء جملة معترضة تتوسط صلب الخطاب وتحقق غايات بكشفها استحضار العلاقة بين المنادي والمنادى، ومن ذلك ما ذكرناه في الحديث عن توسط قوله (رب)، الواردة في دعاء زكريا، بين كان وخبرها (ولم أكن بدعائك رب، شقياً) وبين المفعول به الأول والثاني في قوله (واجعله رب، رَضِيًّا) حيث أفادت تجسيم استشعار المخاطب قرب من يخاطبه وحبسه

^(١) مريم/ (٢-٦).

^(٢) يوسف/ ٢٩.

لاستحضاره ومناجاته موحية بالبعد الانفعالي والعاطفي الذي يعج به الخطاب. كما دل هذا الاعتراض بالنداء على تأدب زكريا في خطابه مع الله.

منه أيضا ما جاء على لسان اهل مدين في خطابهم مع شعيب عليه السلام:
﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ - وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(١).

وما جاء في قول قوم لوط له مهددين متوعدين:
﴿لئن لم تنته - يا لوط - لتكونن من المخرجين﴾^(٢).

وقول قوم نوح: ﴿لئن لم تنته - يا نوح - لتكونن من المرجومين﴾^(٣).

حيث جاءت الخطابات الثلاثة السابقة على لسان الكافرين في مواجهتهم لرسل الله وتحديهم، وأفادت بنى النداء التي حملت أسماء أنبياء الله، وجاءت على شكل جمل معترضة لتبنيه المنادى وتهديده بعد تخصيصه دون غيره بالكلام، فهو مثار اهتمام المنادي لكونه صاحب الدعوة المعترض عليها.

وقابل سيدنا موسى هذا الأسلوب وما يحويه من دلالات بالمثل في الحوار الذي دار بينه وبين فرعون:

﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسأل بني إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون: إني لأظنك - يا موسى - مسحورا.

قال: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر، وإني لأظنك - يا فرعون - مشهورا﴾^(٤) إنه يتحداه بطريقته؛ بالشكل ذاته وبالدلالات ذاتها، فقول فرعون (يا موسى) الذي يكتسز سخرية واستخفافا، يقابله قول موسى (يا فرعون) بما فيه من دلالات مماثلة.

وصاحب النداء بنى الطلب الأخرى وتضافر معها لتحقيق أقصى درجات التفاعل بين أطراف الحوار، وتقدم عليها في مواطن وتقدمت عليه في أخرى. فقد لازم بنية الأمر في مائة

^(١) الأعراف/٨٨.

^(٢) الشعراء/١٦٧.

^(٣) الشعراء/١١٦.

^(٤) الإسراء/١٠١-١٠٢.

موضع، وتقدم عليها في جل هذه المواضع مقتضيا تلبية فعلية أو شعورية من المنادى، نذكر من ذلك قوله تعالى:

﴿وقيل: يا أرض، ابلعي ماءك. ويا سماء، أقلعي﴾^(١)

وقوله على لسان ملك مصر في حوار مع الملأ:

﴿يا أيها الملأ، أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾^(٢).

وقول ابنة شعيب في حوارها مع أبيها:

﴿يا أبت، استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾^(٣).

وقول شعيب لقومه:

﴿يا قوم، اعبدوا الله، وارجوا اليوم الآخر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾^(٤).

أفاد تقديم المنادى على تركيب الأمر في الخطابات السابقة تنبيهه المخاطب وتوجيه اهتمامه للفعل المراد تنفيذه، وحصر هذا التنفيذ به دون غيره.

كما لا يخفى ما لاستهلال بنية الأمر بالنداء من أثر في تخفيف حدة دلالة الاستعلاء الملازمة لها، والتي قد تسبب استنزافا للطرف المأمور، لا لكونها متعلقة بتنفيذ فعل ما، ولكن لكونها أمرا فحسب. يؤكد هذا استهلال أفعال الأمر الواردة في الخطابات الموجهة من الخلق إلى الخالق بندائه عز وجل - وما يحويه هذا النداء من تذلل وخضوع ورجاء:

﴿وإذ قال إبراهيم: رب، اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾^(٥)

وقد يتقدم الأمر على النداء حين يكون هدف المتكلم تنفيذ الفعل دون أن يورقه مقام المنفذ أو مكانته، كقول فرعون لهامان ساعده الأيمن ومعاونه:

﴿يا أيها الملأ، ما علمت لكم من إله غيري، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي

صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾^(٦) فقد كان هم فرعون منصبا على تحدي موسى والسخرية منه، ولذا توجه إلى مساعده هامان بأمر فيه من التحدي وإبراز

^(١) نهر/٤٤.

^(٢) يوسف/٤٣.

^(٣) القصص/٢٦.

^(٤) العنكبوت/٣٦.

^(٥) البقرة/١٢٦.

^(٦) القصص/٣٨.

القدرة ما فيه، وما نداؤه لهامان إلا إسناد ينسب فيه مهمة التنفيذ إليه، دون أن يضع الأخير في بؤرة تفكيره أو اهتمامه.

كما لازم النداء بنية السؤال في ستة وأربعين موضعاً، منها:

قول زكريا، عليه السلام، لمريم وقد وجد عندهما رزقاً: ﴿يا مريم، أنى لك هذا؟!﴾^(١) وقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قل: يا أهل الكتاب، لم تكفرون بآيات الله، والله شهيد على ما تعملون؟! قل: يا أهل الكتاب، لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء؟! وما الله بغافل عما تعملون﴾^(٢).

وقول أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿يا أبانا، مالك لا تأمنا على يوسف، وإنا له لناصحون﴾^(٣) وقول يوسف، عليه السلام، لصاحبيه في السجن: ﴿يا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟!﴾^(٤).

ولا يخفى أثر استهلال السؤال بالنداء، ففيه زيادة لإثارة المتلقي، وأيقاظ اهتمامه، لتخصيصه هو دون غيره بالسؤال وما يحويه من دلالات.

وقد يتقدم النداء على السؤال، كما في الخطابات السابقة، وقد يتأخر حين يكون السؤال هدف المرسل وغايته، ومثاله قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام - في حوار مع السامري: ﴿ما خطبك يا سامري؟!﴾^(٥) فقد كان همه عليه السلام - معرفة السبب الذي جعل السامري يعبد بني إسرائيل العجل، وليس مناداته؛ فما النداء هنا إلا زيادة تخصيص وتوجيه للسؤال وما يحويه من دلالات تقرع وإنكار إلى المتلقي.

ومنه قوله تعالى لموسى، عليه السلام، وقد تقدم على قومه شوقاً للقاء ربه، ففتنهم السامري وعبداهم العجل: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى؟!﴾^(٦) فقدم الله السؤال على النداء، لأهمية الرسالة القارة فيه والتي يريد إيصالها للمتلقي، ولأن بنية السؤال ذاتها تحوي

^(١) آل عمران/٣٧.

^(٢) آل عمران/٩٨-٩٩.

^(٣) يوسف/١١.

^(٤) يوسف/٣٩.

^(٥) ص/٩٥.

^(٦) ص/٨٣.

ضميرا يتوجه فيه الخطاب إلى المتلقي دون حاجة إلى مناداته، فالمعنى التوصيلي المباشر كان من الممكن أن يكتفي به بقوله: (وما أعجلك عن قومك؟)، ولكن إتباع هذا السؤال بتركيب النداء فيه زيادة شحن وتأجيج للدلالات القارة في السؤال.

وقول قوم إبراهيم له: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!﴾^(١)، إنه خطاب رتبته عناصره ترتيبا يحاصر المتلقي ليستل منه الاعتراف، والنداء أحد هذه العناصر، وفيه يوح بهوية المخاطب، التي سبق أن غلفت بضمير منفصل (أنت) وضمير متصل (فعلت)، إنهم يحاصرون إبراهيم بكل ما يمكن أن يعود إليه، متوجين هذا الحصار بندائه، الذي يعجج تهديدا واتهاما.

وبهذا يتضح أن استهلال السؤال ببنية النداء فيه توجيه لاهتمام المنادى وتأمله إلى السؤال، بينما يلاحق السؤال المنادى حين يتقدم عليه.

وتتكرر بنية النداء في دعاء الأنبياء وعباد الله الصالحين مقتصرة على مناداة الله، عز وجل، ويوحى هذا التكرار بتعلق رجاء المنادي بالمنادى، واستشعاره لقربه، ورغبته في تكرار ذكره حبا وأملا وإلحاحا، ومن ذلك:

ما جاء في دعاء إبراهيم، عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنْي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَصْنَعُ مِنَ الذَّرِيتِ بُؤَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَنَ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي سَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا، وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا، اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٢).

^(١) الآيات/٦٢.

^(٢) إبراهيم/ (٣٥-٤١).

لقد كرر إبراهيم، عليه السلام، في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب تركيب النداء (رب) أو (ربنا)، وكأنها همزة وصل يسعى أن يحملها خطابه مستشعرا لذة مناجاته لله، عز وجل، مظهرا رغبته في التواصل المستمر الذي لا يعرف الانقطاع. إنه يكرر ندائه قبل أن ينهي عبارته، فهو يضع تركيب النداء بين الطلب (واجبني وبني أن نعبد الأصنام) وعلته (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس). كما يضعه في قلب جملة الخبرية قبل أن يصرح بطلبه (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليه).

ويعمل سيد قطب سبب اختيار سيدنا إبراهيم صفة الربوبية في دعائه فيقول: "إنه لا يذكر الله سبحانه - بصفة الألوهية، إنما يذكره بصفة الربوبية. فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات، وبخاصة في الجاهلية العربية، إنما الذي كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية، فهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان، وهي مفرق الطريق بين التوحيد والشك في أرض الواقع، فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم، وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غير ربهم، والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم، والتركيز فيه على قضية الربوبية، كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمذلول هذا الدعاء^(١).

كما تكررت بنية النداء في عدد من الخطابات التي وجهها الأنبياء إلى أقوامهم، وتمثلت في قوله (يا قوم) التي تؤكد العلاقة الرابطة بين الرسل وبين من يخاطبونهم بكل ما توحى به من حرص وصدق وولاء، ومن ذلك ما جاء في خطاب هود لقومه:

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم، اعبدوا الله ما لكم من إله غيرِه إن أنتم إلا مفترون. يا قوم، لا أسألكم عليه أجرا؛ إن أجري إلا على الذي فطرني. أفلا تعقلون؟! يا قوم، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تتولوا مجرمين﴾^(٢). إنه يلاحقهم بتكرار مناداتهم ليدفعهم إلى تأمل خطابه وتنفيذ ما فيه، مظهرا بهذا التكرار رغبته في هدايتهم وخوفه عليهم من السير قدما في طريق الضلال.

وقد تتجاوز بني النداء فلا يفصل بينهما فاصل، ويوحى هذا التجاور بزيادة رجاء وتعلق بالمنادى. وجاء هذا الأسلوب في موطنين:

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١١.

(٢) هود/ (٥٠-٥٢).

الأول: في دعاء عيسى، عليه السلام، : ﴿اللهم ربنا، أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾^(١).

إنه، عليه السلام، يتأدب في عرض مسأله أدب العبد الخاضع الراجي مع ربه، فيناديه بما يظهر يقينه: (يا الله، يا ربنا) وكأنني به يتعجل في اظهار اعترافه واقراره خجلاً من الله ووجلاً لما في طلبه -الذي حملة الحواريون ثقله- من تشكيك خفي لا ينبغي أن يكون بعدما رأوا من معجزاته، عليه السلام، ما رأوا، وأسلموا له.

وتكرر هذا الأسلوب في حوار رئيس السقاة مع يوسف عليه السلام: ﴿يوسف، أيها الصديق، أفنتا في سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف﴾^(٢) إنه يستهل خطابه بمناداته باسمه (يوسف)، وتكشف القراءة الارتدادية لحوار سابق دار بين المنادي والمنادى في السجن^(٣) الدلالات القارة في بنية النداء؛ ففي ندائه يمتزج الخجل بالرجاء وطلب الصفيح، لأنه نسي طلب يوسف إليه أن يذكره عند الملك. وكأنني به يقترب من يوسف ممسكاً بيديه طالباً منه السماح وقبول العذر، ولذا غابت أداة النداء، غيبها القرب المادي والمعنوي الذي حققه المنادي.

وأتبع لفظ (العلم) بلفظ اللقب تأدباً معه، عليه السلام، واحترماً له، وكأنه استنقل أن يناديه باسمه فقط وقد خبر علو فضله وسعة علمه وصدق كلامه، فأتبع اسمه بلقب يظهر استشعاره بمكانة يوسف وتميزه (أيها الصديق) مستخدماً صيغة المبالغة في اسمه بهذه الصفة. ولعل رئيس السقاة يباغت يوسف بهذا الاستهلال الذي اختاره لخطابه وقد ذكر فيه اسمه ولقبه؛ لينبّه يوسف، عليه السلام، إلى صحبته له سابقاً، ومعرفته به وبحاله، وليلفت ذاكرته إلى الوراء؛ إلى تأويله لرؤياه، وصدقته فيه، فقد مضى على فراقهما زمن طويل تغيرت فيه الملامح وخيم على أحداثه النسيان.

^(١) المائدة/١١٤.

^(٢) يوسف/٤٦.

^(٣) ينظر هذا الحوار في سورة يوسف/ (٣٦-٤٢).

كما عكس هذا الأسلوب المركز في النداء لهفة المنادي، وحرصه على من يناديه، وتعلقه به، فقد كان رئيس السقاة حريصاً على تأويل رؤيا الملك التي أعجزت الناس، وهو على يقين بأن يوسف، عليه السلام، الوحيد القادر على هذا التأويل، فقد سبق أن فسر له ولصديقه حلميهما، وتحقق ما قاله على أرض الواقع. ولذا نراه يتحدى الملأ بأنه سيأتي لهم بالتأويل اليقين: ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾^(١) فما كان منه إلا أن أسرع إلى يوسف بلهفة وأمل ورجاء جسمها الأسلوب الذي قلوب فيه نداءه.

وتنوعت دلالات الكلمات التي وقع عليها فعل النداء، فقد ينادي أحد الأطراف الطرف الآخر باسمه، ومن ذلك:

مناداة الله عز وجل - الأنبياء بأسمائهم باستثناء محمد صلى الله عليه وسلم - فقد ناداه بقوله: ﴿يا أيها النبي﴾^(٢) ولم يناديه باسمه قط، وفي هذا اعتراف من الله بنبوته وإكرام له أمام معاصريه الذين يتابعون معه نزول الوحي، وإرشاد وتوجيه لهم بكيفية مخاطبته عليه السلام - فقد نهاهم الله أن ينادوه باسمه مجرداً كما ينادون بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾^(٣)

ومن دعاء الله الأنبياء بأسمائهم ما جاء في قوله مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى؟﴾^(٤)، وقوله: ﴿أنقها يا موسى﴾^(٥)، وقوله: ﴿قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾^(٦) إنه عز وجل - ينادي موسى في الخطاب ذاته بعد أن يطرح عليه السؤال، ويناديه بعد أن يأمره بتنفيذ فعل ما، ويناديه بعد أن يبشره بقبول دعائه. وكأنه بهذا النداء يبيث الأمن والطمأنينة في نفس موسى ويؤنسه، فقد كان عليه السلام - خائفاً مضطرباً من هذا الحوار المفاجئ مع الله عز وجل.

^(١) يوسف/٤٥.

^(٢) الأنفال/٧٠.

^(٣) النور/٦٣.

^(٤) مائدة/١٧.

^(٥) طه/١٩.

^(٦) طه/٣٦.

وتشابه إحياءات كلمة (قوم) التي جاءت في خطابات الأنبياء مع أقوامهم الإحياءات السابقة، فاختيارها وتكرار هذا الاختيار يوحى بحرص الأنبياء على التحبيب لأقوامهم وملاطفتهم، وتذكيرهم بطبيعة العلاقة الرابطة بينهم، فهم ينتمون إليهم، ويعيشون معهم، وهذا يعني أنهم حريصون على مصلحتهم ويريدون خيرهم، لعل هذا يدفع أقوامهم إلى تصديق دعوتهم والإيمان بها. نمثل على ذلك بما جاء في خطاب نوح لقومه:

﴿قال: يا قوم، أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده، فعميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟! ويا قوم، لا أسألكم عليه مالا، إن أجري إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم، ولكني أراكم قوما تجهلون. ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم، أفلا تذكرون؟!﴾^(١)

كما خاطب يوسف -عليه السلام- الفتيين السجينين بقوله: ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟!﴾^(٢) إنه لم ينادهما باسميهما، وإنما يناديهما بما يشف عن ارتباطه بهما واحترامه وتنزله لهما، أيناسا لنفسيهما، وتمهدا لوعظهما ودعوتيهما. فقد خاطبهما بأنهما رفيقاه في السجن، أي عشيراه في المحنة والهم.

وقد ينادي أحد الأطراف الطرف الآخر واسما إياه بصفة ما توحى بموقفه تجاهه، كقوله تعالى مخاطبا الكافرين يوم القيامة: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾^(٣) فقد وسمهم بالمجرمين توبيخا لهم على كفرهم وضلالتهم وتقريرا وتعذيبا.

ودعوة قوم فرعون لموسى بـ (أيها الساحر) في قولهم: ﴿يا أيه الساحر، ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون؟!﴾^(٤) وتبرز تناقضهم وإصرارهم على تكذيبه، فكيف تنفق تسميته بالساحر مع قولهم (إننا لمهتدون) إنه وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكثه^(٥).

^(١) هود/ (٢٨-٣٠).

^(٢) يوسف/ ٣٩.

^(٣) يس/ ٥٩.

^(٤) الزخرف/ ٤٩.

^(٥) الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٢٥٠.

وقول الكافرين للرسول -صلى الله عليه وسلم-: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾^(١) انهم يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، ويبرز هذا التناقض الواضح في الدلالات التي يحويها الخطاب استهزاءهم وتهكمهم من الرسول وما جاء به.

وقد يحاصر المنادي متلقيه باسمه وبصفته كما جاء في قول قوم مريم -عليها السلام- حين انتهم تحمل طفلا بين ذراعيها: ﴿قالوا: يا مريم، لقد جئت شيئا فريا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾^(٢) حيث جسم تكرار النداء صراخهم المتعالي على مريم وما فيه من توبيخ واستهجان، فقد حمل التركيب الأول (يا مريم) مشاعرهم المتأججة إليها لصفعها بها، ولحقه تركيب آخر يحيلها إلى علاقتها مع أمّ بني إسرائيل والتي تستوجب منها ألا تلتطخ شرفها، فقولهم (يا أخت هارون) يبرز التضاد الشنيع بين ما يتوقع أن يكون من مريم وما وقع منها.

وجسم النداء في عدد من الخطابات انفعالات المتكلم وأحوال نفسه وعواطفها من حُب وبغض وحسرة وأسف ولذة إلى آخر ما يتصرف فيه اللسان في هذا الباب، دون أن يوجهها إلى أي طرف، فيخرج النداء عن معناه في استطاق التلبية إلى دلالات يكشفها البعد الانفعالي المخيم على الشخصية، الذي نستشفه من السياق. ومن ذلك:

قول الرجل الذي التقط يوسف -عليه السلام- من البئر: ﴿يا بشرى، هذا غلام﴾^(٣) إنه ينادي البشرى، كأنه يقول لها: تعالى، فهذا وقتك، وفيه تعبير عن فرحته الغامرة الممتزجة بالتعجب الناتج من عثوره على غلام جميل بهي الطلعة بحبل الدلو. وهذا يعني رزقا سينا له من بيع الغلام الذي حصل عليه دون مشقة.

ومقابل صيحة الفرح هذه تقف صيحة تتعلّق بالغلام نفسه؛ صيحة أب حزين لفقدان ابنه، فما هو يعقوب -عليه السلام- ينفث تهيدة ألم ولوعة يقولها في تركيب النداء:

^(١) أنحر/٦.

^(٢) مريم/ (٢٧-٢٨).

^(٣) يوسف/١٩.

﴿وتولى عنه وقال: يا أسفا على يوسف. وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾^(١) إنه ينادي الأسف، وهو أشد الحزن والحسرة، مضيئا إياه إلى نفسه؛ فالألف بدل من ياء الإضافة.

ويشير الزمخشري إلى التجانس المطبوع بين كلمتي (يوسف) و (الأسف) فيقول: "والتجانس بين لفظتي (الأسف) و(يوسف) مما يقع مطبوعا غير متعمد فيملح ويبدع"^(٢).

وهكذا فقد أدى تركيب النداء في بنية الحوار القرآني دورين رئيسيين:
الأول: دور لفت انتباه السامع وتأمله إلى الرسالة الكلامية التي يريد إيصالها إليه، ويتم هذا اللفت بمناداته باسمه أو بصفته أو بلقبه.

ويتمثل الدور الثاني: في قولبة أحوال النفس وعواطفها ومشاعرها المتأججة لما في النداء من مد صوتي يستوعب صيحات الانفعال التي يطلقها المتكلم.

^(١) يوسف/٨٤.

^(٢) الكشاف، ج ٢، ص ٤٧٧.

الفصل الثالث

ملامح أسلوبية في لغة الحوار القرآني

❖ انزياحات ودلائل

❖ التقديم والتأخير

❖ التكرار

❖ الحذف

❖ الالتفات

✦ التقديم والتأخير (ترتيب ودلالات)

التقديم والتأخير سمة بارزة في الحوار القرآني، فظروف المقام التي سيق فيها التخطيب فقد تقتضي عدول الألفاظ عن مواقعها ومراتبها الأصلية، فيقدم المتكلم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم.

من المباحث الهامة التي حظيت بعناية النحاة والبلاغيين والمفسرين وعلماء الأسلوب القرآن قديماً وحديثاً. إن النظرة المتشعبة للتقديم والتأخير لغوياً وبلاغياً تظهر أن سببها هو أول من لفت الأنظار إلى معنى التقديم والتأخير وسره البلاغي حين تكلم عن الاهتمام والعناية في المفعول والفاعل [الكتاب ٣٤/١]. ونص الأخفش والقراء في تفسيريهما للقرآن على مواضع التقديم والتأخير فيه [القراء، معاني القرآن، ١/٩٢، ١٨٤، ١٩٥، ٢٣٨، وغيرها، والأخفش، معاني القرآن، ١/٢٤٦، ٢٤٩، ٢٦١، ٤٥٠ وغيرها]. ثم جاء المبرد فوضع قواعد التقديم والتأخير معتمداً على المعنى دون الالتفات إلى الناحية البلاغية غالباً (المنتخب، ٣/٩٥، ٩٦، ٢٠٢، ٢٠٣، ٨٧/٤، ٨٨، ٨٩، وغيرها) ونحى ابن حني التقديم والتأخير ما يجوز منه وما لا يجوز، وما يقبله القياس موافقاً لمنهج النحاة في كتابه الخصائص (٢/٣٨٢-٣٩٠) لكننا نراه ينهج نهج البلاغي الذي يهتم بالمعنى، وبغيره التقديم وبلاغته في كتابه (المحجب) (١/٦٥، ٦٦، ١٣، وغيرها). وبر الجرجاني من سبقه ولحقه في معالجة ظاهرة التقديم والتأخير، فقد فصل حالات التقديم والتأخير في الاستفهام والنفي والاثبات، وقد أخذ على العلماء اكتفائهم بتفسير التقديم للأهمية والاعتناء مبنيًا ضرورة تفسير هذه الأهمية وبيان سببها وذلك في كتابه (دلائل الأعجاز). وعمم الزمخشري في تفسيره حالات التقديم والتأخير في القرآن غرض الاختصاص. وناقش السكاكي هذه الظاهرة معتمداً على هدف المتكلم وحالته النفسية ومدى جمال هذا التركيب لدى المستمع. ولكنه عارض الزمخشري في عرض الاختصاص مرجحاً غرض الاهتمام والعناية. وظهرت العلاقات المنطقية في دراسة ابن الأثير للتقديم والتأخير كتقديم الكثرة على القلة، والعلاقة بين السبب والنسب. وتوج أبو حيان هذه الجهود في تفسيره (البحر المحيط) فقد حلل وجوه التقديم والتأخير، وأكد التقديم للأهمية. ولم يقتصر البحث في هذا الموضوع على النحاة والبلاغيين بل تناولوه المفسرون والمهتمون بعلوم القرآن، فالزركشي عقد فصلاً لأسباب التقديم والتأخير وفصلاً آخر لبيان أنواعه (البرهان في علوم القرآن، ٣/٢٣٣-٢٨٣) وقد اعتمد على السياق في معرفة سبب التقديم والتأخير، في حين لم يعتمد علماء البلاغة على السياق اعتماداً واضحاً ولا يكاد يستثنى من ذلك إلا عبد القاهر الذي أبدع في تحليل الأساليب البلاغية. كما تعرض عدد من الدارسين المحدثين لقضية التقديم والتأخير مزيجاً من آراء القدماء شارحينها ومصنفينها حيناً كما فعل محمود السيد في كتابه (أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم) وحيد أحمد العسامي في كتابه (التقديم والتأخير في القرآن الكريم)، ومنهم من رفض أن يكون هذه المسألة أثر في المعنى حيناً آخر كما فعل إبراهيم أنيس في كتابه (من أسرار اللغة) فقد حمل على سببها والجرجاني رافضاً أن يكون للتقديم أثر في المعنى، فاللجوء إلى التقديم في النشر ليس من الأساليب الصحيحة عنه، وما جاء في القرن إنما هو رعاية للمفاصلة. ومن الدارسين من تعرض لدراسة الأسس النفسية لأسلوب التقديم والتأخير كما فعل محمد ناجي في كتابه (الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص ١١٢-١١٧) ومنهم من حاول دراسة هذا الأسلوب ضمن حلة جديدة كما فعل خليل عماريه في كتابه (في نحو اللغة وتراكيبها، ص ٥٤-٦٠) حيث حاول تفسير هذه الظاهرة بأدوات المدرسة التوليدية التحويلية.

يقوم التقديم والتأخير على أصل مفترض قد يتقدم الكلام عليه وقد يتأخر ويخضع ذلك الأصل لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة، كتقدم المبتدأ على الخبر والفعل على الفاعل والعمدة على الفضلة. ويتم العدول عن هذا الترتيب الأصل لغايات معينة ووفق اعتبارات محددة، فالمواضع التي يجوز فيها العكس تستند إلى ضوابط نحوية بحيث لا يستعمل العكس إلا في المواطن التي يؤمن فيها اللبس.

وتتضح أهمية التقديم والتأخير في لغة الحوار القرآني من حيث إن كل تقديم وتأخير فيه حكمة بالغة وفطنة أسلوبية جاذبة، فكان المعنى يقتضي ما تقدم أو تأخر اقتضاء طبيعياً للتأثير على المخاطب، يقول عبد القاهر الجرجاني: "أعلم أنه إذا كان بينا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه، حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب إلى فكر وروية فلا مزية، ويجب الفصل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسناً، وقبولا تعدهما، إذا أنت تركته إلى الثاني... والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة، ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير"^(١).

لقد نبه الجرجاني على ارتباط التقديم والتأخير بالمزية التي تحدث نتيجة وعي المنشيء وإداركه، كما أنه كشف كيفية حصول المزية في التقديم والتأخير بتحريك بعض الألفاظ عن أماكنها الأصلية إلى أماكن أخرى أضفت على الدلالة بعداً جمالياً نفقده إذا عدنا باللفظة إلى رتبته الأولى. فخير وسيلة أو سبيل لمعرفة قيمة التقديم والتأخير أن نعيد كتابة الجملة بالطريقة المعهودة.

كما نجد الجرجاني يميز بين العكس الاختياري والعكس الإجباري، فبينما يتيح الأول مجالا واسعا لشتى التأثيرات الأسلوبية، نجد الأخير^(٢) لا مزية فيه وبالتالي لا يعني دارس الأسلوب، لأنه جاء على الأصل، والذي يجيء على الأصل لا يسأل عن علته المعنوية؛ لأنه يراد به الإخبار لا غير، دون التركيز على أي جزء من أجزاء الجملة، فغالبه لا أثر له في المعنى؛ لأن التركيب لا يسمح للمتكلم بأن يغير في مواضع الكلم وفقا للمعنى الذي يريد إيادته.

^(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦.

^(٢) ينظر التقديم الراجح في الأصول لابن السراج، ج ٢، ص ٢٣٨.

فالتقديم الواجب لا يعنينا إلا بمقدار، وذلك حين نلمس أثرا لهذا التقديم في المعنى مستأنسين بما قدمه علماء المعاني في هذا المجال، وما بينوا من أثر دلالي في الجملة.

أما التقديم الجائز فهو حر الرتبة، فالمتكلم يقدم ويؤخر ليظهر معنى ما كان له أن يظهره إذا جاء بالتركيب على الأصل، ومن هنا فإن موضع اهتمامنا التقديم الجائز لما له من أثر في المعنى.

يتضمن أسلوب التقديم والتأخير أبعادا نفسية ونكتا ولطائف بلاغية تتبع من طبيعة التجربة الشعورية المحيطة بالمتحاورين، والمعنى المراد نقله، والانفعال الذي يراد إحداثه في نفس المخاطب. وهذا يعني أن ترتيب الكلمات في لغة الحوار لا يرد اعتبارا، إنه ترتيب يعكس ترتيب المعاني في النفس، فالمعنى إذا كان مقدما في النفس تقدم في الجملة، يقول الجرجاني: "فإذا وجب المعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق"^(١)، فالتقديم في اللسان تابع للتقديم في الجنان.^(٢)

ويرى تمام حسان أن التقديم والتأخير يبرز الفرق بين اللغة العاطفية واللغة العقلية^(٣)، ففي اللغة العقلية تأخذ الكلمات هذه المواقع بينما تغادر الكلمات مواقعها الأصلية إلى مواقع جديدة مغيرة بذلك نمط الجملة، ناقلة معناها إلى معنى جديد يعكس انفعال المتكلم وحالته النفسية وموقفه من السامع.

تقوم مسألة التقديم والتأخير في علم النحو العربي وقوانين البلاغة العربية على مبدأ أساسي هو الاهتمام بموضوع القول الرئيس، ففي كل جملة يدور المعنى حول فكرة محددة أو شخص معين أو غرض مقصود يتوجه إليه الكلام ويسبق إليه الاهتمام.

سنحاول الوقوف عند أبرز حالات هذا التكنيك اللغوي في الحوارات القرآنية مبينين دور النسق التركيبي في تقديم المعنى، فقد استطاع التقديم والتأخير أن يكون مؤشرا حساسا سجل في

^(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٣.

^(٢) ابن الزملاكي، البيان في علم البيان، ص ١٤٧.

^(٣) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص ٥٩.

مواقف عديدة المنحني الوجداني والانفعالي لدى أطراف الحوار راسما صورة لغوية لها، مبرزاً أغراضها.

ينقسم البحث في ظواهر التقديم والتأخير في لغة الحوار القرآني إلى أربعة أقسام^(١):

- ❖ أولاً : ما قُدِّم والمعنى عليه.
- ❖ ثانياً : ما قُدِّم والنية به التأخير.
- ❖ ثالثاً : ما قُدِّم في آية وأخر في أخرى.
- ❖ رابعاً : ما قُدِّم وأخر في آية واحدة.

❖ أولاً: ما قُدِّم والمعنى عليه:

هذا النوع من التقديم والتأخير مقدم في الأصل، فهو في موضعه الذي جاء عليه، فالكلمة لم تغادر موقعها الأصل في التركيب إلى موقع جديد (مغيرة بذلك نمط الجملة) ناقلة معناها إلى معنى جديد. ولكن حتى في الموقع الأصل نفسه توجد منازل ودرجات تتبناها الكلمات، فقد تسبق كلمة كلمة أخرى إلى حيز الوجود الكلامي لغايات ترتبط بالسياق.

ذكر الزركشي أسباب هذا النوع من التقديم، جامعاً إياها في خمسة وعشرين غرضاً منها^(٢): السبق، العلة والسببية، المرتبة، الداعية، التعظيم، الشرف، الغلبة، مراعاة اشتقاق اللفظ، الاهتمام عند المخاطب، الترقى، التخدير، التثقل.... الخ.

وقد رصدنا في الحوارات القرآنية كثيراً من الأمثلة على هذا اللون من التقديم، وحاولنا حصرها تحت أغراض تتوعت بتنوع أطراف الحوار، وغايات الحدث الحوارية والمقامات التي جاء فيها نذكر منها:

البدء بتقديم الذات على الآخر لإلزام النفس قبل إلزام الغير، إظهاراً لإنصاف الخصم وتوخياً للموضوعية. وتكرر هذا في حوارات الأنبياء مع أقوامهم أتباعاً كانوا أم معارضين رافضين، ومن ذلك:

^(١) جهد علماء الإعجاز القرآن في حصر التقديم والتأخير في القرآن الكريم تحت أنواع رئيسة تنسب إلى فروع كثيرة. وقد أخذنا هذه التقسيمات في رصدنا أشكال التقديم والتأخير في الحوار القرآن. تنظر هذه الأنواع في (الزركشي، البرهان، ج ٣، ص ٢٣٨-٢٨٩).

^(٢) تنظر هذه الأغراض في البرهان، (ج ٣، ص ٢٣٨).

قول المسيح لبني إسرائيل: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾^(١)، وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾^(٢). وقوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾^(٣).

في الأمثلة السابقة تقدمت الكلمات المضافة إلى ضمير المتكلم العائد إلى الرسول على الكلمات نفسها المضافة إلى ضمير المخاطب؛ وذلك لكون الرسل قدوة عليهم أن يبادروا هم بفعل الشيء الذي يأمرهم الناس بفعله. إلا في المثال الأخير فقد بدأ كالأمثلة السابقة له بتقديم (لي) على (لكم)، ولكن قلب التركيب في نهاية العبارة فقدم (أنتم بريئون) على (أنا بريء) حرصاً على إظهار تخلصهم من تبعية أعماله.

وقد تقدم الذات على الآخر طمعاً في أجر أو مغفرة، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿رب اغفر لي ولاخي﴾^(٤).

وفي مواقف الخوف والرهبة يقدم الآخر وتؤخر الذات، ومثاله:

قول موسى، عليه السلام، مخاطباً ربه: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾^(٥). فهو لم يقل: أهلكتني من قبل وإياهم، رهبة وخوفاً وإيعاداً لهلاك الذات وعقابها.

وظهر تقديم الذات في حوارات غير الأنبياء أيضاً، ومثاله قول زوج فرعون له: ﴿قرة عين لي ولك﴾^(٦) ففي تقديم (لي) على (لك) دلالة على تعلق قلب زوج فرعون بالطفل موسى ورغبتها في بقائه، وتحرزها من نسبه الحاجة العاطفية إلى فرعون أولاً، فهو طاغية عظيم السلطان لا يعبأ بأحد^(٧).

(١) المائدة/٧٢.

(٢) هود/٥٦.

(٣) يونس/٤١.

(٤) الأعراف/١٥١.

(٥) الأعراف/١٥٥.

(٦) القصص/٩.

(٧) يقال إنما أنت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه. (الزعشري، الكشاف، ج ٣، ص ٣٨١).

وقد تترتب الكلمات ترتيباً زمنياً، ومنه قول أبناء يعقوب: ﴿نُعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾^(١). فقد بدؤوا بالجد إبراهيم وتدرجوا وصولاً إلى أبيهم يعقوب.

وقد ترتب الكلمات وفق الأولوية، ومنه قوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل: ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين والأيتام والمساكين وابن السبيل﴾^(٢)، إن ترتيب الكلمات يعكس ترتيب الفئات التي تستحق النفقة حسب سلم الأولوية، حيث يتبوء الوالدان قمة هذا السلم ثم يتدرج نزولاً إلى الأقربين فالأيتام فالمساكين فابن السبيل.

وقوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾^(٣) في الجملة نعتان للرسول المبشر به هما: (يأتي من بعدي) و (اسمه أحمد)، وقد قدم الوصف بالجملة الفعلية للأسبقية، فصفة (يأتي من بعدي) أسبق بالوجود من (اسمه أحمد). وجاءت كل صفة بصيغة تناسب وصفهما، فالأيتان يدل على الحركة فجاء الفعل (يأتي). والاسم يدل على الذات، فجاءت الجملة الاسمية (اسمه أحمد). والعلاقة بين الصفتين علاقة الكل بالجزء، جيء بالكل أولاً (يأتي من بعدي)، والجزء ثانياً (اسمه أحمد).

وتتازع الكلمات الدالة على مضمون معنوي المواطن مع تلك الدالة على مضمون مادي، دالة على احتياجات أطراف الحوار واهتماماتها. ومن الأمثلة على ذلك:

قول النبي يوشع لبني إسرائيل مخبراً إياهم بصفات طالوت: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾^(٤) لقد قدم صفة العلم على القوة الجسدية، وذلك لأهمية اتصاف القائد بصفة العلم، لأن الجاهل غير منتفع به، وإن كان جسمياً يملأ العين جهارة.

^(١) الآية/١٣٣.

^(٢) الآية/٢١٥.

^(٣) الصف/٦.

^(٤) الآية/٢٤٧.

أما ابنة شعيب، عليه السلام، فتقدم القوة الجسمية وترددها بالقوة المعنوية في قولها لأبيها: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾^(١) إن تقديم (القوي) على (الأمين) دليل على ضعفهم وحاجتهم للقوة، وما قدم في الجنان قدم على اللسان، فالأب رجل مسن خارت قواه، فخرجت ابتناه لتسقى أغنامهم، وهذا عمل شاق لا يقوى عليه سوى الرجال، وكانت تكرهان المزاحمة على الماء خشية الاختلاط المباشر مع الرجال. ولهذا حين قدم موسى لهما يد العون وكفاهما أمر السقي بقوة ساعده، رأت فيه الفتاة فيه القوى التي تفقدانها وتحتاجها.

كما يعكس هذا الترتيب لصفات موسى عليه السلام واقعين حياتيين، انبثق عن الأول صفة القوة، وانبثق عن الثاني صفة الأمانة^(٢)، أي أن الموقف الذي برزت فيه صفة القوة سبق الموقف الذي برزت فيه صفة الأمانة.

كما دل هذا الترتيب على أن الخصلتين اللتين ينبغي أن تجتمعا في القائم بأمور الضعفاء خاصة القوة أولا والأمانة ثانيا.

وفي خطاب إبراهيم ربه داعيا قدم طلب الأمن على الرزق، لأنه الأهم، فلو فاضت الأرض بالخيرات وانعدم الأمن وساد الخوف لما تنعم الناس بهذه الخيرات. فالأمن هو البيئة التي يزهر فيها الخير والبركة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾^(٣).

وتتغلب الحاجة للطعام على الحاجة للطمأنينة في تحليل الحواريين طلبهم إنزال مائدة من السماء: ﴿قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا﴾^(٤) ولعل هذا التقديم قد يوحى بتعطشهم الدائم للدلة المادية الملموسة التي تثبت صدق الرسول وما جاء به.

وقدم الأمر بالأكل والشرب على الأمر بالرضا ورفض الهم والغم في قوله تعالى على لسان من نادى مريم عليها السلام من تحتها: ﴿فكلي واشربي وقري عينا﴾^(٥) وذلك مراعاة لحاجة المخاطب، فمريم عليها السلام نفساء، فقدت كثيرا من قوتها أثناء الولادة فكان تقديم

(١) القصص/٢٦.

(٢) عرف إحدى الفتاتين أمانة موسى حين أخبرته أن أباه يدعو له لجزبه أحر ما سقى لهم، فمشى أمامها طالبا منها أن تدله على الطريق، حتى لا تترك الريح ثوبها بعددها فتصفه. (ينظر الزعزعي، الكشف، ج ٣، ص ٣٨٩).

(٣) البقرة/١٢٦.

(٤) المائدة/١١٣.

(٥) مريم/٢٦.

أمرها بالأكل يناسب حالها، فالأكل والشرب ضروريان لاستعادة قوتها وتحقيق الأمر الثالث (قري عينا).

ويعكس ترتيب الكلمات في عدد من السياقات تنامي الصراع وتصاعد شحنة الغضب في نفس المتكلم. ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم وقد أقحمهم وسخف آلهتهم وحطمها: ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾^(١) فقد بدأوا باقتراح القتل رغبة بالتخلص السريع من إبراهيم، ثم تنامي حقدهم عليه فأرادوا أن يلحقوا به عذاباً أشد فأتبعوا الأمر الأول (اقتلوه) بأمر ثان (حرقوه)، وذلك لأن التحريق فيه قتل تدريجي للمعذب وبالتالي ألم أشد، في حين يقضى عليه سريعاً بالقتل.

وقوله تعالى على لسان سليمان وقد غضب لغياب الهدد: ﴿لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾^(٢). فقد بدأ سليمان تهديده بالتأكيد على تعذيب الهدد، والتعذيب: هو التأديب بما يحتمله حال المعذب دون قتله. وتتصاعد نغمة هذا التهديد فتزداد درجة العقوبة فالتذبيح يعني تقطيعه وقتله. وفي هذا تحذير غير مباشر لغيره من الطيور وتأييد. ولكن غضب سليمان لا يتصاعد أبعد من ذلك، لأنه غضب محدد يهدف إلى تحقيق غاية محددة فيها مصلحة ومنفعة. لذا نجده ينفي وقوع العذاب والتذبيح إذا جاءه الهدد بحجة واضحة أو عذر: ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾.

قوله تعالى على لسان زليخة امرأة العزيز: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾^(٣) حيث قدمت امرأة العزيز عقوبة السجن، ثم تنامي الصراع في داخلها فأرادت إظهار غضبها أمام زوجها، وجب التهمة عن نفسها، وتخويف يوسف، فأردفت اقتراح السجن باقتراح أكثر عنفاً هو تعريضه للعذاب الأليم.

كما نستشف من الترتيب السابق لأنواع العقوبة المقترحة حب امرأة العزيز ليوسف، وشغفها به وحرصها على سلامته وبقائه، فهي لم تبدأ باقتراح العقوبة القاسية، فقد قدمت عقوبة السجن، ثم حين خافت اقتضاح مشاعرها اقترحت عقوبة العذاب الأليم.

^(١) المكيوت/٢٤.

^(٢) النمل/٢١.

^(٣) يوسف/٢٥.

ولعل ترتيب العناصر في مقولة امرأة العزيز أثبت التهمة عليها، فلو كانت هي المعتدى عليها لدفعها غضبها لكرامتها وشرفها بتقديم أقسى ألوان العقوبة الذي قد يصل إلى الأمر بالقتل، لا بمجرد تصعيد العقوبة من السجن إلى العذاب الأليم.

وفي مقام الدعاء قد يبدأ الداعي بذكر الأسباب ويؤخر طلب النتيجة لبيان أو لتعليل استحقاقهم إياها. ومنه قول أهل النار لله عز وجل: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون﴾^(١) فهم لم يستهلوا دعاءهم بطلب الرجوع للدنيا، وإنما أخروا طلبهم بتقديم أسبابه ليؤكدوا لله عز وجل أنهم أبصروا صدق وعده ووعدته، وسمعوا منه تصديق رسله، أو أنهم كانوا عميا وصما فأبصروا وسمعوا.

وقوله تعالى على لسان المؤمنين من بني إسرائيل الذين برزوا لجالوت وجنوده: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾^(٢) فقد تأخر طلب النصر، ويقدم طلب أسباب النصر (أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا)، للدلالة على رغبتهم في القتال، وعدم النكوص عنه، إبرازا للفرق بينهم وبين المتقاعسين من بني إسرائيل.

وقد يكون في ترتيب الكلمات دلالة على أدب المتكلم مع المخاطب، كقول سحرة فرعون لموسى عليه السلام: ﴿يا موسى إنا نلقينا وإنا أن نلقينا وإنا أن نكون أول من ألقى﴾^(٣) فقد خيروه أحد الأمرين، أن يبدأ هو بإلقاء ما عنده من السحر، أو أن يكونوا هم أول من يلقي. وفي بدء التخيير بتقديمه عليهم دلالة على استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وتبنيه على إعطاء النصفة من أنفسهم، ولعل الله ألهمهم حسن الخطاب مع موسى.

سليمه وقول لسيما عليه السلام للهدد وقد أخبره عن ملك بلقيس: ﴿سننظر أصدق أم كنت من الكاذبين﴾^(٤) فقد بدأ باحتمال الصدق مؤخرا احتمال الكذب. وقال في موضع

(١) السجدة/١٢.

(٢) البقرة/٢٥٠.

(٣) طه/٦٥.

(٤) النمل/٢٧.

آخر: ﴿نَكْرُوا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾^(١) بتقديم احتمال هدايتها وتأخير احتمال عدم الهداية، لرغبته في حدوث الاحتمال الأول.

تقدم التركيب الاستفهامي على التركيب الندائي في عدد من الحوارات القرآنية منها: قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿فمن ربكما يا موسى؟﴾^(٢) لقد بدأ بسؤال موسى وهارون ووجه النداء إلى موسى وحده ربما لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه. ويحتمل أن يحمله مكره وسخريته على استدعاء كلام موسى دون أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى^(٣)، أو لكون موسى محط إنكار فرعون واستهجانه لأنه تربى في قصره. وقد استهل فرعون خطابه لموسى وهارون بالسؤال لأن المسؤول عنه مثار إنكاره وسخريته وغيظه لإدعائه الألوهية.

ويكرر هذا التقديم في قوله لموسى: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحر يا موسى﴾^(٤) دالا على خوف فرعون مما جاء به موسى عليه السلام، وفاضحا ما يورقه فإنه غالبه على ملكه لا محالة.

وفي تأخير المنادى في المثالين إبراز لكونه آخر ما يسمعه المخاطب، لقد كان من الممكن أن يكتفي فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى دون أن يناديه، لكونهما يتبادلان الحوار وجها لوجه. لكنه أردف سؤاله بنداء موسى لتوجيه اللوم والعتاب والإنكار والتوبيخ إليه، أي أن النداء غاية بذاته لا مجرد وسيلة.

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿فما خطبك يا سامري؟﴾^(٥) فقد تقدم التركيب الاستفهامي (ما خطبك) على التركيب الندائي (يا سامري) لكون السؤال مثار اهتمام موسى، عليه السلام، وإنكاره وغضبه، فالسامري صنع عجلا وأمر بني إسرائيل بعبادته ففعلوا. فتوجه موسى إليه بالسؤال الإنكاري والتوبيخي: ما خطبك؟

^(١) النمل/٤١.

^(٢) صه/٤٩.

^(٣) الرغشري، الكشف، ج ٣، ص ٦٥.

^(٤) صه/٥٧.

^(٥) صه/٩٥.

وقوله تعالى مخاطبا موسى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾^(١) حيث تقدم التركيب الاستفهامي (ما أعجلك عن قومك) على التركيب الندائي (يا موسى) لتبنيه موسى، عليه السلام، على مافي السؤال من دلالات وأبعاد عميقة، فقد أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة أن يعلم موسى أدبا من آداب السفر، وهو وجوب تأخر القائد عن قومه في المسير ليكون نظره محيطا بطائفتهم، وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم.

ومثله قوله تعالى مخاطبا موسى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾^(٢) فقد تقدم الاستفهام لإثارة المخاطب وتبنيه للعصا التي يحملها بيمينه، لما سيكون لا من شأن عظيم في مواجهة فرعون وقومه.

وبهذا يتضافر التقديم والسؤال في إثارة انتباه المتلقي وتامله إلى شيء لم يتبناه إليه من قبل، وقد أضحي غاية في ذاته لا مجرد وسيلة.

وتقدم الأمر على النداء في عدد من المشاهد الحوارية لأهمية تنفيذ الفعل والتعجيل في إيجازه ومن ذلك ما جاء في:

قوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾^(٣) حيث تقدم فعل الأمر (امتازوا) على التركيب الندائي (أيها المجرمون) لتنفيذ الفعل بسرعة تحقيرا وتقريعا.

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا﴾^(٤) فقد تقدم فعل الأمر (اوقد) على التركيب الندائي (يا هامان) عاكسا طريقة كلام الجبابرة والمتسلطين على الحكم، فهم غالبا ما يستهلون كلامهم بإلقاء الأوامر على أتباعهم للإسراع في تنفيذها. كما يدل هذا التقديم على السخرية والاستخفاف بموسى ودعوته والرقعة في تحديه، والتدليل على سهولة تنفيذ أي شيء يريده فرعون، وذلك لإحساسه بالعظمة والجبروت.

^(١) حه/٨٣.

^(٢) حه/١٧.

^(٣) يس/٥٩. (امتازوا) : انفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة منفصلين، وذلك حيث يعثر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة.

^(٤) القصص/٣٨.

وتقدم الأمر على النهي لغايات متنوعة ترتبط بأطراف الحوار، ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

قوله تعالى مخاطبا آدم وزجه ﴿وَبَا آدَمُ اسْكُنْ أَزْوَاجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) فقد تقدم فعل الأمر (اسكن، فكل) على النهي (لا تقربا) تكريما لهما، فالنفس تنفر من استهلال مخاطبتها بالنهي. لقد استهل الله خطابه ببدء آدم، عليه السلام، ممهدا لنقل خطابه، الذي يحوي أمرين، الأول: (اسكن)، والثاني: (فكل) وفي الأمرين مصلحة لآدم وزوجه وتكريما لهما. وأنهى خطابه بنهيهما عن الاقتراب من شجرة معينة. وهذا يوحى بسعة كرمه، عز وجل، الذي يعطي بلا حدود، ويأمر الناس بأخذ هذا العطاء والاستفادة منه، جاعلا النهي عن الأخذ من عطائه في زاوية متحيزة متأخرة في الخطاب.

وقوله تعالى على لسان نوح، عليه السلام، وهو ينادي ابنه من فوق السفينة: ﴿يَا بَنِي

أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) حيث تقدم الأمر بالركوب (اركب) على النهي (لا تكن مع الكافرين) لحرص نوح على إنقاذ ابنه ونجاته من الغرق. ولنا أن نتخيل المشهد المحيط بالحوار، لقد بدأ الطوفان يغمر ما حوله بسرعة وعنف لا يسمحان بحوار طويل، فالحوار لا بد أن يكون موجزا ترتب فيه الكلمات ترتيبا ينقل الرسالة بدءا بأهم أجزائها، وأهم ما يريده نوح ركوب ابنه السفينة، ولذا قدم الأمر (اركب) وتلاه بالنهي حين سمح الوقت المتبقي بهذه الإضافة.

وقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا

بِالْقِسَاسِ الْمُسْتَقِيمَ. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾^(٣) لقد بدأ شعيب، عليه السلام، خطابه بتقديم الأمر بالواجب، وتأخير النهي عن المحرم، لكون تنفيذ الواجب مطلب النبي، فهو يحرص على أن يقوم قومه بتنفيذ الأمر لاحتوائه على النهي عن المحرم.

^(١) الأعراف/١٩.

^(٢) هود/٤٢.

^(٣) الشعراء/١٨١-١٨٣.

وقد يتقدم النهي على الأمر تحذيراً وتحويفاً، منه قوله تعالى على لسان سليمان، عليه السلام، في خطابه لملكة سبأ وقومها: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(١) ففي تقديم النهي (لا تعلموا علي) دلالة على قوة سليمان التي تقهر كل قوة أمامها، ولهذا بدأ خطابه الموجز بنهيهم عن التكبر ومجاوزة الحد معه ممهداً للأمر (وأتوني مسلمين) ليقوموا بتنفيذه بسرعة ودون تردد.

وقول الذين كفروا لبعضهم البعض متناصبين: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٢) في تقديم النهي (لا تسمعوا) على الأمر (الغوا فيه) دليل على خوفهم من تأثير القرآن على سامعه، فالنهي عن سماع القرآن أهم من اللغو فيه، لأن الابتعاد عن المؤثر يسبق التفكير بتدميره، خاصة إذا كان التأثير قوياً لا يمكن تجنبه.

وقد يتقدم النهي على الأمر لإفادة التطمين والتسرية عن قلب المخاطب، كقول الملائكة للمؤمنين حين تحضرهم الوفاة:

﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٣) فقد تقدم النهي عن الخوف والحزن على الأمر بالبشرى تطمينا وتطهيراً للنفوس.

ولنا أن نتساءل لم لم يقدم النهي عن الحزن على النهي عن الخوف؟! لعل في الترتيب السابق دلالة على مراعاة الملائكة لما يختلج نفوس المؤمنين من مشاعر متباينة الاتجاه، بعضها يرتبط بما هو آت، بينما يرتبط الآخر بما قد مضى؛ فالملائكة تسهل مقولتها بالنهي عن الإحساس بالخوف (ألا تخافوا) لكونه الإحساس المسيطر على هؤلاء المؤمنين أولاً، فالإنسان حين ينتقل من المكان الذي ألفه إلى مكان آخر مجهول لا بد أن ينتابه شعور بالخوف، والخوف: غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه، وعندها سيدفعه الخوف إلى الحنين إلى المكان الذي ألفه فيشعر بالحزن على فراقه وفراق ما خلفه فيه.

^(١) النمل/٣١.

^(٢) فصلت/٢٦.

^(٣) فصلت/٣٠.

وتقدم النهي عن الخوف على الجملة الخيرية للتطمين في قول شعيب لموسى عليه السلام: ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾^(١) ويعمل سر التقديم باستحضار الحالة المسيطرة على موسى عليه السلام حين قابل شعيبا لقد كان خائفا مضطربا يترقب لأنه قتل نفسا من قوم فرعون وافتضح أمره، فلحقه جنود فرعون لقتله. وبعد أن أخبر شعيبا قصته، أراد شعيب أن يخفف من خوف موسى فبدأ عبارته بـ (لا تخف) قبل أن يخبره أو يعمل له طلبه بعدم الخوف، لسيطرة الخوف على موسى وشفقة شعيب عليه ورحمته بحالة.

وتقدم الأمر على السبب للدلالة على سرعة تنفيذ الطلب. وظهر هذا في خطاب الله عز وجل، مع موسى، عليه السلام، في موقفين، الأول حين أمره بالذهاب إلى فرعون لهديته: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾^(٢) حيث قدم فعل الأمر (اذهب) على السبب (إنه طغى)، فقد كان من الممكن أن يتقدم السبب على الفعل: (إن فرعون قد طغى فأذهب إليه)، ولكن أراد الله من موسى أن يسرع بتنفيذ الطلب الذي ما كان يجرؤ على فعله من قبل، وفي هذا دليل على ما طرأ على شخصية موسى من تحول، فقد أضحي رسولا يسير بهدي الله ورعايته وحفظه، يستطيع أن يقدم على أفعال لم يكن يستطيعها، وهكذا يتحول هروب موسى من فرعون وجنوده إلى هجوم لا يعرف الفر.

وكل هذه الدلالات ما كانت لتبرز لو تقدمت جملة (إنه طغى) على (اذهب إلى فرعون) لأن طغيان فرعون وجبروته أمر معروف عند المتلقي، لا يثيره ولا يخيفه، أما الذهاب إليه فهو الذي سيخلق الصراع في ذات موسى لجعله يوقن بالتغيير الطارئ على شخصه.

والموقف الثاني الذي تقدم فيه الأمر على بيان السبب جاء في قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ﴾^(٣) فقد تقدم الأمر بالإسراء (أن أسر بعبادي) على بيان السبب (إنكم متبعون) للإسراع في تنفيذ الطلب إنقاذاً لموسى واتباعه، وإهلاكاً لفرعون وجنوده.

(١): القصص/٢٥.

(٢): النازعات/١٧.

(٣): الشعراء/٥٢.

وتتقدم الجملة الخبرية على التركيب الندائي للإسراع في توصيل الخبر للمنادي، مثاله ما جاء في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾^(١) وذلك لتعجيل إيصال المسرة لموسى بعد أن توجه لله داعياً، فجاء تقديم الإخبار باستجابة دعوته دالة على سرعة الإستجابة، ومبرزة نعم الله التي أغدقها على موسى.

وتقديم النعت بالمفرد على النعت بالجملة في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾^(٢) فقد تقدم النعت بالمفرد (صفراء) على النعت بالجملة (تسر الناظرين)، لأن صفة اللون الأصفر الفاقع صفة غريبة، وهي المسببة للسرور.

وفي الآية تقديم علانية التأخير في قوله: (فاقع لونها) فقد قدم الخبر (فاقع) على المبتدأ (لونها) لإبراز صفاتها الغريبة تعجيزاً وتحدياً لبني إسرائيل الذين أكثروا من الأسئلة عن ماهية البقرة وحالها وصفاتها، فأعنتهم الله بصفات غريبة نادرة خارجة عما عليه البقر.

❖ ثانياً: ما قدم والنبة به التأخير:

كان النوع الأول من التقديم والتأخير مقدماً في الأصل، فهو في موضعه الذي جاء عليه، أما النوع الثاني فهو مقدم على نية التأخير، أي أن التقديم ليس أصلاً فيه وإنما أصله التأخير، فهو خارج عن موضعه لتأدية أغراض معنية قصدها المتكلم.

ويتعلق هذا النوع بالمسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل (الظروف، والجار والمجرور، والمفعولات، والحال، والتمييز، والاستثناء).

(١) طه/٣٦.

(٢) البقرة/٦٩.

❖ ومن أنماط هذا النوع:

(أ) التقديم والتأخير في الجملة الفعلية:

١- تقديم الفاعل على الفعل:

اقتضت الظروف المحيطة بعدد من الحوارات القرآنية أن يقدم أحد الأطراف المتحاورة الفاعل في كلامه ليؤكد أهمية الفعل إلى فاعله ويحصره فيه دون أن يشكك في هذه النسبة منكرا صدور الفعل من فاعل بعينه. وكما يؤكد هذا التقديم الفاعل ويبرزه فإنه يثير تطلع الطرف الآخر (السامع) لمعرفة ماذا جرى له أو حدث منه أو ما هو الحكم الذي يريد المتكلم أن يثبتته للفاعل.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذا البعد الدلالي الذي يخلقه تقديم الفاعل قال: "إنه لا يؤتي الاسم معنى من العوامل إلا لحديث قد نوي إسناده إليه، فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت بذلك أنك قد أردت الحديث عنه. فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام، أو قلت: خرج، أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيء له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق. وجملة الأمر: أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والأحكام"^(١).

وتقدم الفاعل على فعله في الحوار القرآني في اثنتين وعشرين موضعاً^(٢)، تقدم لفظ الجلالة (الله) على الفعل في تسعة مواضع^(٣). وجاء هذا التقديم على لسان الأنبياء والرسل في حواراتهم مع المعاندين والمشركين، لإبراز قدرة الله وسيطرته. فتقديم لفظ الجلالة على الأفعال يؤكد إسنادها للفاعل وقصرها عليه دون غيره، فهذه الأفعال مخصصة بالفاعل وحده لا شريك له، بحيث لا يستطيع أن يقوم بها فاعل سواه.

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص (١٠١-١٠٢).

(٢) هذه المواضع هي: البقرة/٢٤٧، آل عمران/٤٧، هود/٨٧، صبا/٣٢، الجن/١٠، الأنعام/٦٤، يونس/٣٤، ٣٥، الفرقان/١٧، يوسف/٣٠، المائدة/١١٦، الأنبياء/٦٢، الصافات/٩٦، المحررات/١٧، الأعراف/١٥٦، النمل/٣٦، ٣٩، ٤٠.

(٣) هذه المواضع هي: البقرة/٢٤٧، آل عمران/٤٧، الأنعام/٦٤، يونس/٣٤، ٣٥، الصافات/٩٦، المحررات/١٧، ١٦.

ومثاله تقديم لفظ الجلالة على الفعل في قول إبراهيم، عليه السلام، لقومه منكرا عليهم عبادة الأصنام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَإِلَهُهُ خَلْقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) وأفاد هذا التقديم تأكيد إسناد الخلق إلى الله، فهو الذي خلقهم وخلق ما يعبدون ولهذا فهو من يستحق العبادة وحده. ولعل إبراهيم عليه السلام بهذا التقديم أراد أن يصفق قومه بالحقيقة الواضحة التي طمست في نفوسهم بتراب كفرهم وتعتهم، فكان التقديم بمثابة القوة التي تعمل على إزاحة تراب الكفر الذي غطى فطرتهم السليمة.

كما يكشف لنا هذا الانزياح في التركيب عن ملمح من ملامح شخصية إبراهيم عليه السلام؛ إنه إنسان مؤمن، لا يخشى في الله لومة لائم، يواجه قومه دون خوف من بطشهم، فجاءت عبارته دليلا على ذلك، لأن في التقديم تصريحاً وإبرازاً، فالفاعل يتقدم واضحا دون أن يتستر هذا الوضوح بغطاء الفعل.

ويتكرر تقديم لفظ الجلالة "الله" في الخطاب الذي لقنه الله لرسوله محمد (ص) ليتحدى به المشركين في ستة مواضع^(٢) منها ما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلْ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلْ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣) فقد لقّن الله رسوله السؤال التقريري الذي يفيد تأكيد نفي وجود الفاعل (الهادي إلى الحق). ويعقب هذا السؤال الجواب الذي يبرز فيه الفاعل ويؤكد تقديمه اختصاصه وحده بالفعل (الله يهدي إلى الحق)، وهذه وسيلة من وسائل إقامة الحجة ودحض الخصم.

وتقدم الفاعل (لفظ الجلالة) في الإجابة عن الأسئلة الإنكارية المتعلقة بكيفية حدوث فعل خارق لحدود القدرة البشرية، وذلك لبيان أن هذه الأفعال لا شأن للبشر فيها، فهي أفعال لا تصدر إلا من الله وحده. وذلك في ردّين:

^(١) العنقايات/ (٩٦، ٩٥).

^(٢) هذه المواضع هي: الأنعام/ ٦٤، يونس/ (٥٩، ٣٥، ٣٤)، الحجر/ (١٧، ١٦).

^(٣) يونس/ ٣٥.

الأول: رد الروح، الذي تمثل لمريم بشرا سويا، على سؤالها الإنكليزي: ﴿أَنْتَى يَكُون لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ؟! قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾^(١)، فخلق غلام دون أب أو رجل أمر خارق لا يكون إلا بقدره فاعل يقول للشيء كن فيكون.

والرد الثاني: جاء على لسان نبي لبني اسرائيل حين سألوهم منكربين أن يكون الملك لطالوت الذي لم يؤت سعة من المال، فأجابهم: ﴿وَاللَّهُ يُوْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ﴾^(٢) فالملك بيد الله وحده يؤتيه من يشاء.

كما يفيد تقديم الفاعل التوكيد في الوعد والضمنان، يقول الجرجاني: "ومما يحسن ذلك فيه ويكثر الوعد والضمنان، كقول الرجل: أنا أعطيك، أنا أكفيك أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك من شأن من تعدده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد، وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التأكيد"^(٣)، ومنه:

قول عفريت من الجن لسليمان عليه السلام: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِينٌ﴾، وقول الذي عنده علم من الكتاب لسليمان: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(٤) وذلك في إجابتهم عن سؤال سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرُشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(٥)، إن هذين المخلوقين اللذين سخرهما الله لخدمة سليمان يعد كل واحد منهما سليمان بأنه هو من سيأتيه بعرش ملكة سبأ، فجاء تقديم الفاعل "أنا" لتوكيد الوعد والضمنان، وإبراز القدرة الخارقة التي يتصف كل واحد منهما بها. كما يدل هذا التقديم على الإعتداد بالنفس فتقديم الذات الفاعلة دليل على القدرة والاعتزاز والرغبة في خدمة سليمان والتسابق في تقديمها.

^(١) آل عمران/٤٧.

^(٢) البقرة/٢٤٧.

^(٣) المرجحان، دلائل الإعجاز، ص ١٠٣.

^(٤) النمل/٣٩-٤٠.

^(٥) النمل/٣٨.

ويفيد تقديم الفاعل تأكيد نسبة الفعل إلى الفاعل المقدم لتوكيد نفي صدور الفعل من المتكلم. ومن ذلك قول يوسف عليه السلام وقد اتهمته امرأة العزيز بأنه هم باغتصابها: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾^(١)، فتكذيب المدعي يحتاج إلى تأكيد، فقدم المتهم الفاعل (هي) الذي يعود على امرأة العزيز ليؤكد نسبة فعل المراودة إليها ونفيه عن نفسه.

ويتقدم الفاعل على فعله في كلام من يريد إثارة انتباه السامع واهتمامه ليستهجن وينكر صدور هذا الفعل من هذا الفاعل، مثاله قول نسوة في المدينة: ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾^(٢) يدل على أن الفعل (تراود) واقع لا جدل فيه، ولكن الجدل في الفاعل الذي أسند إليه الفعل، ولذا قدم الفاعل لتوكيده، ولتوكيد وقوع الفعل منه، فلو تأخر الفاعل: (تراود امرأة العزيز فتاها)، لكان هناك نوع من الشك في نسبة الفعل إليها، أو لدل على أنها تراوده بطريف غير مباشر، بمساعدة وصيفة من وصيفاتها مثلاً. فعندما تقدم الفاعل دل هذا على أن امرأة العزيز هي التي تراود هذا الفتى وليس أحد غيرها.

إن إطلاق لقب امرأة العزيز يثير رغبة المستمع إلى معرفة ماذا حدث منها أو لها، لأن أخبار الطبقة الحاكمة ومن حولها مثار اهتمام الشعب، فإذا صدر فعل غير لائق من أحد أفراد هذه الطبقة تبارت الألسنة في تأكيد نسبة هذا الفعل إلى فاعله، أي أن تقديم الفاعل واقع لغوي يحاكي الواقع الحياتي ويعكسه.

ومن أغراض تقديم الفاعل في لغة الحوار القرآني ضمان سرعة وصول المعنى إلى ذهن السامع لتعجيل إنذاره وتخويفه حيناً، وتطمينه وتبشيريه حيناً آخر، ومن ذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾^(٣).

ويتقدم الفاعل على فعله في الاستفهام إذا كان الشك متعلقاً بالفاعل الذي قام بالفعل لحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف، ومن ذلك قول قوم إبراهيم وقد كسرت أصنامهم: ﴿أأنت

^(١) يوسف/٢٦.

^(٢) يوسف/٣٠.

^(٣) الأعراف/١٥٦.

يقول الزمخشري في تفسيره للآية الأخيرة: "فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل: أضللتكم عبادي هؤلاء، أم ضلوا عن السبيل؟ قلت: ليس السؤال عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام، حتى يعلم أنه المسؤول عنه"^(١).

إن تقديم الفاعل في هذا السؤال طريقة غير مباشرة لنفي إسناد الفعل إلى الفاعل المقدم وتوكيد نسبته إلى فاعل آخر يشهد الحوار دون أن يتوجه إليه الخطاب فيشارك فيه، وذلك لتبكيته وتحقيره. وتكون الإجابة بالإنكار وتوجيه الاتهام بإسناد الفعل للفاعل الحقيقي:

﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ﴾^(٢).

وقد يتقدم نائب الفاعل على الفعل في الاستفهام. من ذلك قول الجن: ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾^(٣) أصل الجملة قبل التقديم: (أأريد شر بمن في الأرض)، ويعكس تقديم نائب الفاعل "شر" على الفعل المبني للمجهول "أريد" حيرة الجن إزاء مصير البشر، وترتبط الحيرة بهواجس الترقب وتوقع الشر والعذاب أكثر من توقع الخير، ولهذا تقدم الشر لأنه الهاجس المسيطر على الجن. وجاء الفعل بصيغة المبني للمجهول نادبا من الجن في عدم نسبة الشر إلى الله، في حين نسبوا الرشد إلى الله.

٢- تقديم المفعول به:

المفعول به اسم وقع عليه فعل الفاعل، يأتي بعد تمام الإسناد. فالأصل فيه أن يتأخر عن الفعل والفاعل، ولكنه قد يتقدم على الفاعل، وعلى الفعل والفاعل معا. ويفيد تقديم المفعول به دلالات عدة منها تأكيد وقوع الفعل عليه دون غيره: ﴿ قل: الله أعبد مخلصا له ديني ﴾^(٤) فتقدم المعبود (الله) على فعل العبادة (أعبد) يدل على اختصاص فعل العبادة بالمتقدم.

^(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٦١.

^(٢) الفرقان/ ١٨.

^(٣) الجن/ ١٠.

^(٤) الزمر/ ١٤.

وبدل هذا التقديم على القصر، وهذا لا يخرج عن التوكيد، فالقصر ليس إلا تأكيداً للحكم على تأكيد^(١)، مثاله قوله تعالى: ﴿قال: الحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾^(٢)، فقد تقدم المفعول به (الحق) على الفعل والفاعل (أقول)، وهذا يعني: لا أقول إلا الحق. وفي الجملة توكيدان: الأول توكيد بالقسم (والحق) والثاني توكيد بتكرار اللفظ نفسه وتقديمه على الفعل، والتقديم نوع من التوكيد. وفي هذا تهديد وتخويف من الله للشيطان وأتباعه، وتأكيد بتحقيق هذا الوعيد.

ومن دلالات تقديم المفعول به على الفعل نفي وقوع الفعل على المفعول لسوء هذا الفعل ومحاولة المتكلم تبريء ذاته من وقوع هذا الفعل عليه، ومن ذلك قول الشياطين أو أئمة الكفر يوم القيامة متبرئين من أتباعهم: ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾^(٣) ولم يقولوا ما كانوا يعبدوننا، لرغبتهم الشديدة في التخلص من هذه التبعة لعل ذلك يخفف جزءاً من عذابهم.

ويتقدم المفعول به على الفاعل حين يكون مثار اهتمام المتكلم ومنه قول الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: ﴿أني يحيي هذه الله بعد موتها﴾^(٤) حيث تقدم المفعول به (هذه) على فاعله (الله) لكونه مثار حيره هذا الرجل واهتمامه، فالصفة التي يتصف بها المفعول (خاوية على عروشها)، جعلت الرجل^(٥) يتعجب من قدره الفاعل وإمكانيته في إحياء هذه القرية، فقلوه: (أني يحيي) اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي.

وقد يوحى تقديم المفعول به على تحقيره: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾. فقد تقدم الفعول به (هؤلاء) على الفاعل (دينهم) لحصر التقرير بهؤلاء دون غيرهم تحقيراً وسخرية من القائل. وأصل الجملة قبل التقديم: غر الدين هؤلاء. كما يدل هذا التقديم على كون المفعول محور اهتمام القائل؛ فالمؤمنون هم الهاجس الذي يؤرق

(١): السكاكي، مفتاح العلوم، ص ٢١٩.

(٢): ص/ (٨٤-٨٥).

(٣): القصاص/ ٦٣.

(٤): البقرة/ ٢٥٩.

(٥): قيل أن هذا المار كان مؤمناً وهو العزيز أو الخضر، وأراد أن يعاين الإحياء كما طلبه إبراهيم. وقيل كان كافراً بالبحث لانتظامه مع النمرود في سلك (ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٣٠٢-٣٠٣) وقد رجحت الرأي الأول. أما الاستدلال على كفره باقتران قصته مع قصة نمرود فليس أولى من الاستدلال على إيمانه باقترانها أيضاً مع قصة إبراهيم. والله أعلم.

المنافقين ويقض مضاجعهم، ويسيطر على تفكيرهم فينعكس في كلامهم، فما قدم في الجنان قدم على اللسان، ونقصد بذلك كل المشاعر التي تتأجج في الصدر حيا كانت أم بغضا.

ويتقدم المفعول على الفعل والفاعل في الاستفهام الإنكاري، فيأتي المفعول به عقب همزة الاستفهام، ويتوجه الإنكار إلى المفعول به المقدم، ويلزم من إنكاره إنكار الفعل. ومن ذلك:

قول موسى لأتباعه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم أصناما يعبدونها: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١) فقد قدم المفعول به (غير الله) لإنكاره، فموسى عليه السلام ينكر أن يكون غير الله إلها لهم، وفي هذا إنكار للفعل (أبغى) أيضا. ولو تقدم الفعل لما أفاد هذا المعنى، لأن التالي للهمزة هو محط الإنكار.

ومنه أيضا قول قوم ثمود منكرين إتباع صالح عليه السلام لأنه بشر مثلهم: ﴿أَبْشَرْنَا مِنْهَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾^(٢) حيث قدم المفعول به (بشرا) لأنه محط الإنكار؛ فهم ينكرون أن يكون الرسول بشرا مثلهم، فالإنكار موجه إلى بشريته.

وقد تتقدم بعض المفعولات على بعضها كأن يتقدم المفعول به الثاني على الأول، أو على الفعل والفاعل والمفعول الأول وفقا للمعنى الذي في نفس المتكلم. ومن ذلك قول موسى لفرعون وقد سألته: ﴿فَمَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى؟﴾^(٣) فأجابته: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٤) فقد تقدم المفعول الثاني (كل شيء) على الأول (خلقه) إقرارا من المتكلم بنعم الله على عباده، فقد سخر لهم كل شيء في الكون^(٥)، وتعجيلا بإظهارها اعترافا وشكرا لله ومكايده لفرعون وتحديا إياه.

(١): الأعراف/١٤٠.

(٢): القمر/٢٤.

(٣): طه/٤٩.

(٤): طه/٥٠.

(٥): أرحح حذف النسخة في قوله تعالى: (كل شيء) اكتفاء بالتلوين الصون، وتقديرها: حسن أو سوي أو مفيد. ومثله قوله تعالى: (إن) وحدت امرأة لملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) (النمل/٢٣).

وقدم المفعول به الثاني على الفعل والفاعل والمفعول الأول في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾^(١)، ولهذا التقديم دلالات منها:

- الإبراز والحصر أي لا تصلوه إلا الجحيم.
- التعذيب المعنوي لذلك الكافر بتعجيل ذكر مكان العذاب.
- قطع أي بريق أمل له في النجاة؛ لأن في تقديم الجحيم دلالة على النتيجة الحتمية التي سيؤول إليها. فلو قال: ثم صلوه الجحيم، لكان في تأخير التصريح بالمكان فرصة لتوقع مكان آخر، ولكن الله يحرم الكافر من لذة هذا التوقع إمعاناً في تعذيبه.

٣- تقديم المفعول لأجله:

الأصل في المفعول لأجله أن يتأخر عن فعله، ولكنه قد يتقدم للتركيز على الغاية أو سبب حدوث الفعل. كما ورد في قول إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾^(٢) فقد تقدم فيها المفعول له (إفكا) على فعله (تريدون) لإنكار سبب حصول الفعل، كما تقدم المفعول به (آلهة) على الفعل، فأصل الجملة قبل التقديم: أتريدون آلهة دون الله إفكاً؟! وقد أفاد تقديم المفعول له والمفعول به إنكار لسبب عبادة الأصنام ولعبادتها.

٤- تقديم الجار والمجرور والظرف:

يدل تقديم الجار والمجرور على الاختصاص والتفصيل والتوضيح وإزالة الإبهام، فهو قيد مخصص أو محدد أو مبين للحدث. ويشير تقديم الظرف إلى التركيز والاهتمام بزمان الحدث أو مكانه.

ويلفت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها في كلام الأطراف المحاور، وليونتها وسهولة تنقلها بين عناصر الجملة.

(١) الحاقة/ (٣٠-٣١).

(٢) الصافات/ ٨٦.

❖ ومن صور تقديم الجار والمجرور والظرف:

● تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل^(١):

برزت هذه الظاهرة في كلام الرسل وأتباعهم^(٢). واقتصر الاسم المجرور فيها على لفظ الجلالة ظاهراً أو مضمراً، لإبرازه وجعله موضع الاهتمام والعناية وذلك لمواجهة فئتين من المخاطبين؛ الأولى: فئة المخالفين والمتقاعسين من أتباع الرسل، والثانية: فئة الكفار الساخرين المبهدين. فيكون في هذا التقديم تذكيراً وتحذيراً للفئة الأولى وتحد ومواجهة للفئة الثانية. ومن الأمثلة على هذا اللون من التقديم:

قول رجلين مؤمنين من قوم موسى يحاولان إقناع بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومحاربة الجبارين: ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾^(٣)، ففي الآية تقديمان يبرزان المعنى المراد إيصاله للمخاطبين المتقاعسين، الأول: تقديم شبه الجملة (على الله) على الفعل (توكلوا) لإفادة القصر وحصر التوكل على الله، والثاني: تقديم جملة جواب الشرط (على الله فتوكلوا) على جملة الشرط (إن كنتم مؤمنين) للتأكيد والحرص على تحقيق النتيجة لما لها من أهمية في تشجيع المخاطب وحثه على الفعل (ادخلوا عليهم الباب).

وقول شعيب عليه السلام لقومه وقد سخرُوا منه وهددوه: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(٤) حيث تقدم الجار والمجرور (عليه) على الفعل (توكلت)، والجار والمجرور (إليه) على الفعل (أنيب) لتوكيد حصر فعلي التوكل والإنابة بالله عز وجل، وهذا يدل على ما رسخ في يقين شعيب من كون القوة بيد الله، ولذا يرجع إليه، ويصرح بما يعتقد ليثبت نفسه ويتحدى خصمه، فالنفس تعنى بتقديم ما تعلقت به وما كان إلقتات الخاطر إليه في ازدياد.

^(١) جاءت هذه الظاهرة في خمسة عشر موضعاً هي: التوبة/٥١، المؤمنون/١١٥، يونس/٥٩، هود/٨٨، المائدة/٢٣، الأنعام/٩٣، الأعراف/٢٥، يوسف/٤٣، النمل/٣٦، الملك/٢٩، الحاقة/٣٢.

^(٢) تنظر هذه المواطن في: التوبة/٥١، يونس/٥٩، هود/٨٨، المائدة/٢٣، الملك/٢٩.

^(٣) المائدة/٢٣.

^(٤) هود/٨٨.

وقد لا يكون الطرف المخاطب عاصيا أو كافرا معاندا، فيكون التقديم للتذكير والتوبيخ، ومنه قول موسى عليه السلام لأتباعه الذين آمنوا به على خوف من فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ فعليه توكّلوا إِن كُنتُمْ مسلمين﴾^(١) فموسى عليه السلام يأمر أتباعه أن يكون توكّلهم على الله وحده. ويستجيب اتباع موسى الصالحين لامره، وتتمثل هذه الاستجابة بإعادة عبارته وما فيها من تقديم: ﴿قالوا: على الله توكّلنا﴾^(٢).

وتقدم الجار والمجرور على الفعل وفاعله في قوله تعالى لملائكة العذاب: ﴿ثم في سلسلة ذرّعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾^(٣) لإبراز أداة العذاب وتخصيصها إمعانا في تخويف الكافر، وإظهارا لغضب الله منه، فانه يعجل إظهار أداة العذاب قبل الفعل أو تأكيدا لوقوعه.

وتكرر تقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله تعالى لإبليس وأدم وزوجه حين أمرهم بالهبوط على الأرض: ﴿فيها يحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ لتخصيص المكان وتحديده، وأكد التكرار وحدة هذا المكان، فالأفعال (يحيون، تموتون، تخرجون) كلها ترتبط بهذا المكان دون غيره. وهذا التأكيد لا يتأتى لو قال: فيها يحيون وتموتون وتبعثون. ويعود هذا الاهتمام بالمكان لكونه محور الحدث، فالانتقال إليه كان نتيجة لصراع الأطراف المخاطبة في المكان الأول (الجنة).

وقد يدل التقديم على احتقار ما قدم وتسخيفه، ومن ذلك قول سليمان عليه السلام في حوارهِ مع رسل ملكة سبا: ﴿أتمدون بما لآتان الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾^(٤) فقد تقدم الجار والمجرور (بهديتكم) على الفعل (تفرحون) لتخصيص الفعل، وربطه بما قدّم استهزاء وتحقيرا.

^(١) يونس/٨٤.

^(٢) يونس/٨٥.

^(٣) الحاقة/٣٢.

^(٤) النمل/٣٦.

● تقديم الظرف على الفعل والفاعل^(١):

وقد اقتصر ذلك على ظرف الزمان. مثاله قول ملائكة العذاب للظالمين يوم القيامة: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾^(٢) فقد تقدم ظرف الزمان (اليوم)، على الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل (تجزون) للتركيز على زمن حدوث الفعل، وذلك لكون هذا اليوم مدار تكذيب الظالمين في الدنيا، وما هو واقع ملموس يتعذبون فيه لإنكارهم إياه. كما تقدم الجار والمجرور (عن آياته) على الفعل (تستكبرون) تخصيصاً وتأكيذاً لتعظيم هذا الفعل وإنكاره. وسبق هذا التقديم تقديم الجار والمجرور (على الله) على المفعول به (غير الحق). فالعبارة تعج بأسلوب التقديم والتأخير الذي يعكس انفعال الملائكة وغضبها وشماتها بالمخاطبين فتقدم ما أنكره المخاطبون في الدنيا لتحسيرهم.

ومنه قول إبراهيم لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾^(٣)، فقد تقدم الظرف (يوم القيامة) على جملة (يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) دالاً على يقين المتكلم من حدوث المنتقم، فإبراهيم، عليه السلام، متيقن من حدوث يوم القيامة الذي ينكره قومه، ولذا يقدمه مواجهها ومتحدياً ومؤكداً. هذا بالإضافة إلى التركيز على زمن الحدث وتحديدده وتخصيصه، ففيه ستتغير علاقة هؤلاء الكفرة من المودة والولاء إلى الكفر والخصام واللعن.

وقد يعكس تقديم الظروف صفة من صفات المتكلم وطباعه، ففي تقديم ظرف الزمان (الآن) في قول بني إسرائيل لموسى بعد أن أجاب عن كل أسئلتهم: ﴿الآن جئت بالحق﴾^(٤) دليل على طبيعة بني إسرائيل، فهم يكثر الجدل ومخاصمة الأنبياء، فنفسهم لا تتقبل الحق إلا بعد لجاج طويل. لقد ربطوا مجيئه بالحق بزمانهم الحاضر، أي أن هذا الفعل قد حدث فقط في ذلك الوقت (الآن)، وما قبل ذلك كان مثار شك يدفع إلى السؤال.

^(١) جاء هذا في ثلاثة مواضع: العنكبوت/٢٥، البقرة/٧١، الأنعام/٩٣.

^(٢) الأنعام/٩٣.

^(٣) العنكبوت/٢٥.

^(٤) البقرة/٧١.

● تقديم الجار والمجرور على الفاعل^(١):

ويغيد هذا التقديم التأكيد والتحديد والتفصيل ويدل على أن الاهتمام والتركيز ينصبان على من يخصصه فعل الفاعل. واتصل حرف الجر في جل مواطن هذا النوع من التقديم بضمائر تعود على المتكلم أو المخاطب أو الغائب وهذا يناسب طبيعة الحوار حيث ينسب المتكلم الفعل إلى نفسه أو إلى مخاطبه أو يشير إلى طرف غائب.

ومن ذلك تقدم الجار والمجرور على لفظ الجلالة (ربي أو ربنا) للدلالة على هبة أو مغفرة يمن بها الله على المتكلم ويختصه بها دون غيره، كما جاء في قول موسى، عليه السلام، لفرعون: ﴿ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾^(٢). وقول السحرة لفرعون وقد هددهم بالصلب: ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين﴾^(٣).

وقد يتقدم الجار والمجرور الذي هو جزء من الفاعل المؤخر أو بعضه للتحذير أو التخصيص، ومنه قول الرسل الموكلين بعذاب قوم لوط له: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾^(٤).

أو يكون المجرور هو الكل والفاعل المؤخر جزءاً منه، كما جاء في قول يعقوب، عليه السلام، لبنيه وقد أخبروه بأن الذئب أكل أخاهم يوسف: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾^(٥) فالنفس جزء من الإنسان، وقد فصلت في المثال السابق وتأخرت لبيان تأثيرها على المتقدم، فكانه بهذا الفصل ينأى بأبنائه عن هذا الفعل الشنيع ويلصقه بأنفسهم الأمانة بالسوء.

(١) تقدم الجار والمجرور على الفاعل في المواطن الآتية: الجن/٢٥، الشعراء/٥١، هود/٨١، الحجر/٦٥، يوسف/١٨، الأعراف/٧١، النمل/٤٠، العنكبوت/٢٨، الصافات/٣١، القلم/٢٤، الحاقة/٢٨-٢٩، طه/٩٤، ٦٤، ٩٤.

(٢) الشعراء/٢١.

(٣) الشعراء/٥١.

(٤) هود/٨١.

(٥) يوسف/٨١.

وظهر هذا اللون من التقديم في سياق انعذاب يوم القيامة للتخصيص والتأكيد، مثاله خطاب المتبوعين لاتباعهم في النار: ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لنادقون﴾^(١) ففي تقديم الجار والمجرور (علينا) على الفاعل (قول ربنا) دلالة على تخصيص المتقدم بالعباد وتأكيده، وإقرار المتكلم وبقينه بوقوع فعل الفاعل عليه.

وقول من أوتي كتابه بشماله: ﴿ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه﴾^(٢) وفيه تقدم الاسم المجرور العائد إلى المتكلم على الفاعل مناسباً للدلالة على ندب الذات التي ستعذب قريباً، كما أن تأخر الفاعل في الموضعين (ماليه، سلطانيه) يلائم التعبير عن غياب المال والسلطان، ووقوف هذا الإنسان متجرداً منها لا يدفع عنه العذاب شيء.

وربما شابه هذا الإحساس ببعد الفاعل أو تخليه قول بني إسرائيل لهارون: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾^(٣) فقد ابتعد بنو إسرائيل عن تعاليم موسى في غيابه، وعبدوا العجل، وعكفوا عليه ناسين موسى وما جاء به من الهدى، وقد أظهر تأخير الفاعل (موسى) هذا البعد والنسيان.

وقد يتعدد الجار والمجرور للتأكيد والتحديد والتفصيل كما في قول هود عليه السلام - لقومه: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾^(٤)، فتقديم (عليكم) أفاد تخصيصهم بوقوع الرجس والغضب عليهم، وتبين شبه الجملة (من ربكم) مصدر هذا العذاب.

^(١) الصافات/ (٣٠-٣٠).

^(٢) الحاقة/ (٢٨-٢٩).

^(٣) طه/ ٩١.

^(٤) الأعراف/ ٧١.

● تقديم المفعول به والظرف والجار والمجرور على الفاعل:

كما في قول أصحاب الجنة (البستان): ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾^(١) إن الفصل بين الفعل والفاعل يلزم الدلالة على منع المساكين من دخول الجنة، هذا بالإضافة إلى تقديم المفعول به (الهاء في يَدْخُلْنَهَا) لأهمية الجنة وحرص أصحابها عليها، وتقديم ظرف الزمان (اليوم) لما سيجري فيه من تغيير في التعامل مع المساكين. وتقديم الجار والمجرور (عليكم) للتخصيص والتأكيد.

● تقديم الظرف على الفاعل:

كما في قول ملاً فرعون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾^(٢) لأهمية الزمان (اليوم) ففيه ستحسم القضية بالقضاء على موسى وأتباعه.

● تقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل:

للتخصيص والتأكيد، كما في قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا مَنْعَ مَنَا الْكَيْلِ﴾^(٣) فالمنع خاص بهم دون غيرهم. وقوله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٤) للتأكيد والتخصيص.

● تقديم الجار والمجرور على مفعول اسم الفاعل:

للتحديد والتفصيل والتخصيص وجاء هذا الأسلوب في ثلاثة مشاهد حوارية، فصل الجار والمجرور في اثنين منها بين اسم الفاعل (جاعل) والمفعول به وذلك في: قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٥). وقوله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٦).

(١) القلم/٢٤.

(٢) طه/٦٤.

(٣) يوسف/٦٣.

(٤) الانعام/١٩.

(٥) البقرة/٣٠.

(٦) البقرة/١٢٤.

يجمع المقولتين السابقتين مجموعة من الملامح المشتركة، فالقائل هو الله عز وجل، وسبق اسم الفاعل (جاعل) بـ (إنّي) الدال على التوكيد، وانتمى المفعول في المقولتين إلى حقل دلالي واحد (خليفة، إمام)، وفصل بين اسم الفاعل والمفعول بالجار والمجرور للدلالة على التخصيص والتحديد.

● تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

ويلفت النظر في ظاهرة تقديم الجار والمجرور على المفعول به الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها في لغة الحوار القرآني، فقد جاءت في سبعة وخمسين موضعاً^(١). وتتوزع الاسم المجرور فجاء ضميراً وجاء اسماً ظاهراً. ودل هذا التقديم على التوكيد والاختصاص والتحديد والاهتمام وغيرها من الدلالات الخاصة المرتبطة بالسياق.

واللافت ارتباط جل المشاهد الحوارية التي جاء فيها الاسم المجرور ضمير متكلم بسياقات الطلب أو ما يدل عليه. فالمفعول به المتأخر هو المطلوب، وقد تقدم الجار والمجرور عليه لتخصيص هذا المطلوب بالضمير المتصل بحرف الجر.

ومثاله ما جاء في قول إبراهيم عليه السلام داعياً الله: ﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾^(٢) ودعاء يوسف ربه: ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾^(٣)، وقول عيسى عليه السلام - داعياً: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾^(٤) فالمتكلم في هذه المشاهد يقدم ذاته على المطلوب رجاء أن يخصه الله بهذا المطلوب.

ولكن قد يكون المتكلم خصم من يخاطبه فيقدم الضمير الذي يعود عليه ليخصه المخاطب بهذا الطلب تحدياً وتعجيزاً، ومن ذلك قول قوم شعيب له متحدين ساخرين:

^(١) هي: الكهف/٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٣، مريم/٥، ٢٥، ٢٦، ٤٧، النساء/١١٨، نوح/١٣، ٢٦، ص/٤٤، الأعراف/١٨٨، ١٨٩، ٧٢، يوسف/٤، ٢٥، ٣٣، الشعراء/٨٢، ٨٤، ١٤٩، ١٨٧، البقرة/١٣٢، ١٧٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٠، آل عمران/٣٨، ٦٤، ٨١، ١٦٨، المائدة/١٧، ٢٣، ٢٨، ١١٤، الأنعام/١٢، يونس/٨٧، إبراهيم/٣٩، الإسراء/٩٠، ٩٣، المل/٤١، القصص/٣٥، العنكبوت/١٧، ٢٥، ٣٠، الأحزاب/١٧، المحمات/١٧، ق/٢٤.

^(٢) الشعراء/ (٨٣-٨٤).

^(٣) يوسف/٣٣.

^(٤) المائدة/١١٤.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(١) وقول مشرقي قریش لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾^(٢).

وقد يدل هذا التقديم على أدب المتكلم في حوارهِ، ومراعاتهِ للطرف الآخر، مثاله قول الخضر، عليه السلام، لموسى وقد طلب منه أن يصاحبه: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣) فتقديم (معي) على المفعول (صبرا) يخصص المفعول ويربطه بحالة وجود موسى مع الخضر، أي أن صبر موسى سينفذ إذا رافقه، فلو قال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ صَبْرًا مَعِيَ، لتبادر إلى ذهن المخاطب انتفاء الصبر والقدرة عليه في كل الأحوال. وفي هذا ما قد يزعجه، ولكن الخضر كان حريصا في كلامه، فربط عدم القدرة على الصبر بوجود المخاطب معه فقط.

وجاء رد موسى عليه بتقديم مماثل يدل على الاختصاص وتأكيد امتثاله للأوامر مظهرا استسلامه وحسن اتباعه ليغري الخضر بالموافقة على طلبه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^(٤).

وقد يكون الضمير المتصل بحرف الجر ضمير مخاطب قدم على المفعول به لتذكير المخاطب باختصاصه هو دون غيره بالمفعول، أي أن الاهتمام ينصب على النسبة، ومنه قول نوح لقومه مذكرا: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^(٥). وقول يعقوب لابنيه موصيا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٦). وقول إبراهيم لأبيه مخصا إياه بالاستغفار رحمة وشفقة: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾^(٧)؛ فالجنات والأنهار جعلها الله لقوم نوح دون غيرهم، وكذلك جعل الدين واصطاها لأبناء يعقوب، وخص والده بالاستغفار حبا وحرصا عليه وأملا في إيمانه.

^(١) الشعراء/١٨٧.

^(٢) الإسراء/٩٠.

^(٣) الكهف/٦٧.

^(٤) الكهف/٦٩.

^(٥) نوح/١٢.

^(٦) البقرة/١٣٢.

^(٧) مريم/٤٧.

وجاء الاسم المجرور اسما ظاهرا في عدد من المشاهد الحوارية التي يحتاج الأمر فيها إلى تصريح وتوضيح. ومن ذلك قول صالح لقوم ثمود: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾^(١) فقد تقدم الجار والمجرور (من الجبال) على المفعول به (بيوتا) لتخصيص المادة التي بنيت منها هذه البيوت تذكيرا بنعم الله عليهم، وتسخيرها في الأرض لخدمتهم حتى الجبال وهي دليل على الشموخ والتدين وفي تقديمها تعظيم وبيان لجبروت قوم ثمود وقوتهم ومهارتهم.

ومنه قول شعيب لقومه وقد طلبوا منه أن يعود في ملتهم: ﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم﴾^(٢) تقدم الجار والمجرور (على الله) على المفعول (كذبا) للاستهجان والاستعظام من أن يكون الكذب مرتبطا بعلاقتهم مع الله. وجاء هذا التقديم في أحضان تقديم آخر هو تقديم جواب الشرط (قد افترينا على الله كذبا) على جملة الشرط (إن عدنا في ملتكم) وفيه زيادة تأكيد للاستهجان والرفض والانكار.

وقول الصوت الذي نادى مريم بعد أن ولدت عيسى، عليه السلام: ﴿فأما ترين من البشر أحدا فقولي: إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا﴾^(٣) أفاد تقديم الجار والمجرور (من البشر) و(للرحمن) على المفعولين (أحدا، صوما) التخصيص والربط، فقد ربط المفعول (أحدا) بالجنس البشري فأفاد بيان النوع. ونسب الصوم وخصص بأنه للرحمن، وحصر تقديم ظرف الزمان (اليوم) الفعل (لن أكلم) بالمفعول (إنسيا) أي أن وقوع عدم التكليم على البشر محصور بزمان. فالأهمية في هذا الخطاب منصبة على ما قدم: النوع، والغاية التي من أجلها يتمثل لهذا الأمر، والمدة الزمنية، وفي ذلك تحديد واضح وتخصيص يلتزم به المتلقي، لكونه نذرا ينبغي على مريم الالتزام به حرفيا.

وقد تضاف الضمانر إلى الاسم المجرور المتقدم على المفعول به، وتتعدد تبعاً لهذا المضاف غايات المتكلم وأهدافه.

^(١) الشعراء/١٤٩.

^(٢) الأعراف/٨٩.

^(٣) مريم/٢٦.

ففي قول امرأة العزيز لزوجها وقد رآها تلحق بيوسف بهينة مربية فأرادت أن تبزيء ساحتها عند زوجها مثيره غيرته على عرضه: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾، تقدم الجار والمجرور المضاف إلى ضمير المخاطب العائد إلى العزيز (بأهلك) على المفعول به (سوءاً) دالاً على مكر امرأة العزيز، فقد قدمت ما يحرض الرجل على صيانتها و حمايتها هو العرض لإثارته على يوسف وتبرئة ذاتها من هذه الشبهة.

وفي قول إبليس لله عز وجل متحدياً: ﴿لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾^(١) أفاد تقديم (من عبادك) على المفعول (نصيباً) تخصيص هذا النصيب وانتخاب عناصره ودقة الاختيار فالذين سيأخذهم إبليس نصيباً مفروضاً هم من عباد الله الذي يؤرقون إبليس ويشيرون غيرته، فيوجه مكره لهم توجيهاً خاصاً.

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور المضاف إلى ضمير المخاطب في قول لوط عليه السلام - لقومه موبخاً: ﴿وتأتون في ناديكُم المنكر﴾^(٢) استهجان المتقدم أكثر من المنكر نفسه، فالمستبجح المجاهرة بالفاحشة أكثر من الفاحشة ذاتها.

● تقدم الجار والمجرور ووقوعه بين المفعول به الأول والثاني:

ومثاله قول قوم شعيب له ساخرين محقرين: ﴿وانا لنراك فينا ضعيفاً﴾^(٣) أي إنا لنراك ضعيفاً فينا. فتقدم الجار والمجرور وفصل بين المفعول الأول (كاف الخطاب في نراك) و المفعول الثاني (ضعيفاً) لإفادة الحصر والتخصيص من باب الفخر بالذات عن طريق ثم الآخر، فانت ضعيف في حالة وجودك فينا لظهور قوتنا وتميزنا.

وها هو صالح، عليه السلام، يقدم الجار والمجرور تخصيصاً وتأكيداً وإقراراً بالفضل فيقول لقومه: ﴿أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله

^(١) النساء/١١٨.

^(٢) المنكرت/٢٩.

^(٣) مود/٩١.

إن عصيته^(١) فقد فصل الجار والمجرور (منه) بين المفعول به الأول (بإاء المتكلم) في (آتاني) والمفعول به الثاني (رحمة)، لأهمية المتقدم، فصالح، عليه السلام، يريد أن يبين لقومه أن مصدر هذه الرحمة من الله، آتاه إياها دون غيره.

وقول يوسف لأبيه: ﴿يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾^(٢) حيث قدم (لي) على المفعول الثاني (ساجدين) لإفادة اختصاص هذا السجود ليوسف وحده، فالذي يثير هذا الصبي ليس السجود المجرد وإنما كون هذا السجود له.

وقد يتعدد الجار والمجرور الذي يتقدم على المفعول به للتوضيح والتحديد والتفصيل وغيرها من الدلالات المرتبطة بظروف الحدث الحواري، ومن ذلك:

قول إبراهيم، عليه السلام، : ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾^(٣)، فتعدد الجار والمجرور الذي يفصل بين الفعل (وهب) والمفعول به (إسماعيل) له دلالة تخصيص الحالة التي وقع بها فعل الفاعل على المفعول فإله وهب إسماعيل وإسحاق لإبراهيم وهذه الهبة قد يمنها الله على كثيرين، ولكن هبته لإبراهيم، عليه السلام، كانت خاصة تكريماً له وقد حمد إبراهيم الله على هذه الهبة الخاصة مقدماً أسباب خصوصيتها، فهي هبة منه لإبراهيم خصه بها، وقد جاءت في كبره حين ينقطع الأمل بالإنجاب، فكان التقديم لإظهار هذه الخصوصية.

وقد يوحى هذا التقديم بالتفصيل والتوضيح ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً إبراهيم، عليه السلام، وقد سألته عن كيفية إحياء الموتى: ﴿فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾^(٤) ليريه أنه قادر على جمعها من هذه الأماكن المتباعدة المتفرقة.

وتقديم الظرف على المفعول به لأهمية الدلالة والتركيز على البعد الزمني أو المكاني اللازم لإيقاع فعل الفاعل على مفعوله، ومثاله قول الصوت الذي نصادى مريم : ﴿قد جعل

^(١) هرد/٦٣.

^(٢) يوسف/٤.

^(٣) إبراهيم/٣٩.

^(٤) البقرة/٢٦.

وبك تحتك سرّاً»^(١) حيث تقدّم ظرف المكان (تحتك) على المفعول (سرياً) تكريماً لسيدتنا مريم وتطميناً لها وتسرية، بالإضافة إلى التركيز على البعد المكاني. وقول الصوت نفسه لمريم بعد ذلك أن تقول: «إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً»^(٢) حيث قدم ظرف الزمان (اليوم) على المفعول به (إنسياً) تركيزاً عليه، فالوفاء بالنذر يرتبط بأوقات محددة.

(ب) التقديم والتأخير في الجملتين الإسمية والشرطية:

❖ أولاً : التقديم والتأخير في الجملة الإسمية:

 تقديم خبر المبتدأ عليه:

الأصل أن يتقدم المبتدأ على الخبر، ولكن قد يتأخر المبتدأ عن خبره في سياقات يهتم فيها المتكلم بما يحمله الخبر من معان فيقدمه للتبسيط، أو التعجيب أو التعظيم أو استعجال الأمر وغيرها من الدلالات.

تقدم الخبر على المبتدأ في الحوارات القرآنية في ثمانية مواضع^(٣)، منها قول والد سيدنا إبراهيم له موبخاً: «أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم»^(٤) فقد قدم الخبر (راغب) على المبتدأ (أنت) لأن الرغبة عن الآلهة كانت مثار إنكاره، لا كون إبراهيم هو الراغب، فسألته لا ينبغي أن يرغب عنها. ولو تقدم المبتدأ: (أأنت راغب، لكان الإنكار موجهاً إلى إبراهيم)^(٥).

وقول ملائكة العذاب للكفار المنكرين: «أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون»^(٦) بتقديم الخبر (سحر) على المبتدأ (هذا) لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ، فقد كان الكفار قد ادعوا بلن الوحي سحر، فقدمت مقولتهم وقولبت في قالب السؤال تنكيراً بها، فزعمهم بأن الوحي سحر أورثهم هذا العذاب.

^(١) مريم/٢٤.

^(٢) مريم/٢٦.

^(٣) هي: الأعراف/ (١٣١-١٣٩)، يونس/ ٧٧، الجن/ ٢٥، غافر/ ٢٨، مريم/ ٤٦، البقرة/ ١٤٢.

^(٤) مريم/ ٤٦.

^(٥) ينظر في نفس الآية وشرح ما فيها من دلالة التقديم العشري، الكشف، ج ٢، ص ٥١١.

^(٦) الطور/ ١٥.

وتقدمت شبه الجملة (له) على خبر المبتدأ في كلام أتباع الرسل للدلالة على الاختصاص ومن ذلك قول أبناء يعقوب لأبيهم وقد حضرته الوفاة: ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾^(١) إن الموقف الذي يحيط بالحوار السابق يستدعي الاستعجال في تقديم ما يهم المخاطب ويحرص عليه، فيعقوب، عليه السلام، يحتضر، وهو قلق على إيمان أبنائه بعد وفاته، يريد منهم تأكيد ثباتهم على ما جاء به هو وآباؤه من قبل. ويدرك أبناء يعقوب هذه الرغبة فيؤكدون لأبيهم ثباتهم والتزامهم مفصلين متعددين، فيقدمون شبه الجملة (له) التي يعود فيها الضمير إلى الله عز وجل، لتعجيل تطمين والدهم باختصاص إسلامهم بالله وحده وتوكيد هذا الاختصاص.

٢) الترتيب في جملة كان وأخوتها:

تقدم خبر كان وأخواتها على اسمها في عدد من المواطن الحوارية^(٢)، لكون الخبر مركز الأهمية ومحط الفائدة في تلك السياقات.

وجاء جل هذه التقديمات في مقامات التحدي والصراع، من ذلك قول بني إسرائيل لنبيهم حين أخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً: فأجابوه منكربين رافضين: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه﴾^(٣) تقدم الخبر (له) على اسم يكون (الملك) لأنه الخبر هو محط الإنكار والتعجب، فالتركيز على اختصاص الملك بطالوت لا على الملك نفسه. كما يدل هذا التقديم على احتقار المتقدم والتقليل من شأنه، والغيرة منه.

وتكتنف هذه الدلالة في قول الملأ من قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾^(٤) فقد تقدم خبر تكون (لكما) على اسمها (الكبرياء)، لأن اختصاص موسى وهارون بالرسالة أثار غيبتهم ورفضهم، والنفس تقدم ما يؤرقها ويقض مضجعها.

^(١) البقرة/١٣٣.

^(٢) عدد هذه المواطن ستة هي: البقرة/٢٤٧، الأعراف/٣٩، يونس/٧٨، الزخرف، ٥١، النكهف/٨٢، الحاقة/٣٥.

^(٣) البقرة/٢٤٧.

^(٤) يونس/٧٨.

وتأكدت هذه المشاعر بتكرار التقديم (وما نحن لكما بمؤمنين) فقد تكررت شبه الجملة العائدة على موسى وهارون، وتقدمت على الخبر (بمؤمنين).

ويقابل الطرف الآخر هذا التقديم بتقديم مماثل تحدياً وتوكيداً، فقد جاء في رد موسى على تكذيب آل فرعون له وسخريتهم منه قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) فقد تقدم خبر تكون (له) على اسمها (عاقبة الدار) لأنه محط الترقب والاهتمام، وفي هذا التقديم وعد ووعد؛ وعد للصالحين من أتباع موسى بأن تكون عاقبة الدار لهم، ووعد لفرعون وأتباعه بسوء العاقبة التي ستحل بهم.

ويتأجج الصراع بين أهل النار يوم القيامة، ويجسم تقديم الخبر هذا الصراع وما يحمله من مواجهات عنيفة: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٢). وأصل الجملة قبل التقديم: (فما كان من فضل لكم علينا) فقدم الخبر (لكم) لتأكيد نفي الفضل عنهم، والشماتة بهم فهم متساوون في استحقاق العذاب.

وقد يدل تأخر اسم كان وأخواتها على ابتعاده فعلياً أو غيابه وعدم وجوده، يقول الله عز وجل عن الكافر الذي استحق دخول جهنم: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾^(٣) حيث فصلت العناصر التالية بين ليس واسمها (حميم) بـ: الخبر (له)، وظرف الزمان (اليوم)، وحرف التبيين (ها)، واسم الإشارة للمكان (هنا)؛ وذلك لكون الحميم مفقوداً وغائباً، وتأخيرته بتعدي العناصر السابقة؛ عليه يلائم التعبير عن تحييه وغيابه.

هذا بالإضافة إلى التركيز على العناصر المتقدمة: فتقديم (له) يدل على تخصيص الكافر بهذا الحرمان من القريب المعين، وتقديم (اليوم) يدل على تخصيص هذا الحرمان والعذاب بزمان محدد هو يوم القيامة، وتقديم (ها هنا) لتخصيص المكان وهو جهنم.

^(١) القصص/٣٧.

^(٢) الأعراف/٣٩.

^(٣) الحاقة/٣٥.

ويعكس تقديم خبر ليس (لي) في سؤال فرعون قومه: ﴿يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾^(١) ملمحين من ملامح شخصية فرعون؛ الأول راسخ فيه يتجسم بالغرور والشعور الطاغى بعظمة الذات وعظم ما يملك (مصر وأنهارها)، والثاني طارئ تلبسه بعد جهر موسى بدعوته، يتمثل بالخوف والقلق والشك من ولاء أتباعه وثباتهم معه في مواجهة موسى وأتباعه، لكثرة الآيات المعجزات التي جاء بها موسى، إنه يجس نبض ولاء أتباعه ويقتنهم بملكيتهم وسيطرته على مصر وما فيها بسؤاله التقريري مقدما الخبر (لي)؛ لأن ثبات ملكية مصر له هو ما يؤرقه ويهمه؛ فالمالك لا يلجأ إلى السؤال عن نسبة ما يملك إليه إلا إذا اعتراه شك في نية من يخاطبه.

وتقدم اسم كان عليها في إجابة الخضر، عليه السلام، عن الأسئلة الإنكارية التي وجهها له موسى والمتعلقة بالسفينة التي خرقتها، والغلام الذي قتله، والجدار الذي أقامه، فأجابه:

﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك....﴾^(٢)

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا....﴾^(٣)

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما﴾^(٤)

كان من الممكن أن تكون إجابته على النحو الآتي: (لقد كانت السفينة لمساكين ..)، (وكان الغلام ابنا لأبوين مؤمنين..)، (وكان الجدار لغلامين يتيمين ...) لكنه المعلم العليم الذي وصفه الله بقوله: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾^(٥) فالخضر يعلم مقدار العنت والمشتقة التي سببتها أفعاله الغريبة المجهولة الحوافز في نفس سيدنا موسى - عليه السلام - فاراد أن يرفع ثقل هذا العناء، فقدم ما يشغل نفس موسى (السفينة، والغلام، والجدار)، لانعقاد قلبه بها، وتطلعه إلى سر ما حدث لها (خرق السفينة، قتل الغلام، بناء الجدار). فعجل لنفس موسى عليه السلام ما تريد معرفته شفقة عليه ورحمة فيه.

^(١) الزخرف/٥١.

^(٢) الكهف/٧٩.

^(٣) الكهف/٨٠. قرأ المحدثي (وكان أبواه مؤمنان) بنظر الزعزعي، الكشف، ج ٢، ص ٧٢.

^(٤) الكهف/٨٢.

^(٥) الكهف/٦٥.

وتقدم الجار والمجور على خبر كان وأخواتها في اثني عشر موضعاً^(١)، منها جاء في: قول قوم مريم لها وقد أشارت إلى عيسى طالبة منهم تكليمه: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صيباً﴾^(٢) فقدموا الجار والمجور (في المهد) على خبر كان (صيباً) تخصصياً وتأكيذاً لاستحالة تكليمه، فارتباط الصبي بالمهد يؤكد صغره وعدم ادراكه للكلام.

وقول إبراهيم، عليه السلام، لأبيه ناصحاً محذراً: ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبت إنني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾^(٣) تقدمت شبه الجملة (للرحمن) على خبر كان (عصياً) للدلالة على الاستهجان واستقباح عصيان الشيطان، فهو عصيان للرحمن وهذا أدعى للتحذر منه والابتعاد عن طاعته، وتقدم الجار والمجور (للشيطان) على خبر كان (ولياً) للدلالة على قبح هذه الولاية فهي ولاية الشيطان، وفي التقديمين دلالة على التحذير والنصح، فالمحذر يقدم ما يخشاه على المتلقي مركزاً على ما يمكن أن يثيره.

وينتهي إبراهيم حواراً مع والده قائلاً: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً﴾^(٤) حيث قدم شبه الجملة (بي) على خبر كان (حفيماً) لإقناع أبيه بترك ما يعبد والإيمان بالله وحده، إنه يبين بهذا التقديم مكانته عند ربه وثقته بدعوته قائلاً: (إنه كان بي حفيماً) ليخصص نفسه بهذه الحفاوة ويؤكددها.

٢- الترتيب في جملة إن وأخواتها:

تقدم خبر إن على اسمها في قوله تعالى مخاطباً إبليس:

﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾^(٥) لإفادة اختصاص إبليس بهذه اللعنة المطلقة.

^(١) هي: مريم/ (٤٤، ٤٤، ٤٤، ٤٤)، هـ/ (٩٧-٩٦)، الفرقان/ ٢٩، يوسف/ ٨١، الشعراء/ ٧١، هود/ ٦٢، الجن/ ١٥.

^(٢) مريم/ ٢٩.

^(٣) مريم/ (٤٤-٤٥).

^(٤) مريم/ ٤٧.

^(٥) الخمر/ ٣٥.

وفي قول موسى لأصحابه محاولا التخفيف من روعهم حين لحق بهم فرعون وأتباعه: ﴿كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَهَيْدِينَ﴾^(١) تقدم الخبر (معي) على اسم إن (ربي) لإفادة تعجيل تطمين النفوس المضطربة الخائفة بتأكيد المعية الموحية بالسند والقوة. كما دل قوله (معي) لا (معنا) على ادراك موسى عدم استشعار أتباعه لهذه المعية، والدليل على ذلك قولهم لما تراءى الجمعان: ﴿إِنَّا لَمَدْرَكُونَ﴾^(٢) فأراد، عليه السلام، أن يطمئنهم بوجود شيء معه وحده سينقذهم، مثيرا بهذا التقديم شوقهم وتعلقهم بالمتأخر.

وقد يتقدم الجار والمجرور أو الظرف أو كلاهما على خبر إن وأخواتها لإفادة التخصيص والتفصيل والتأكيد، من ذلك قول كفار مكة عن الحق لما جاءهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٣). وقول الله لأهل النار: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾^(٤). وقول الملك ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾^(٥).

❖ ثانيا: التقديم والتأخير في الجملة الشرطية:

تقديم جملة جواب الشرط على جملة الشرط ظاهرة قارة في لغة الحوار القرآني فقد جاءت في تسعة وأربعين موضعا^(٦). وارتبط جلها بسياقات التحدي التي ظلت حوارات الأنبياء وأقوامهم.

وتكاد تنحصر جملة الشرط في هذه السياقات بعبارة واحدة هي (إن كنتم صادقين)، لأن كل طرف من أطراف الحوار يطلب من الطرف الآخر دليلا واضحا أو معجزة خارقة تثبت صدق كلامه.

^(١) الشعراء/٦٢.

^(٢) الشعراء/٦١.

^(٣) الزخرف/٣٠.

^(٤) الزخرف/٧٨.

^(٥) يوسف/٥٤.

^(٦) البقرة/ (١١١، ٩١، ٣١)، آل عمران (٤٩، ١٦٨)، المائدة (١٧، ٢٣، ١١٢)، الأعراف (٧٠، ٧٧، ٨٩، ١٠٦)، الأنفال/١، يوسف (١٠، ٤٣، ٧٤)، الحجر/٧١، الأنبياء/ (٣٨، ٦٣، ٦٨)، الشعراء/ (٢٤، ٢٨، ٣١، ٤١، ١٥٤، ١٨٧)، المل/٧١، العنكبوت/٢٩، السجدة/٢٨، مآ/٢٩، الدخان/٣٦، الحاقة/٢٥، الأحقاف/ (٤، ٢٢)، الحجر/١٧، الملك/٢٥، الفلم/٢٢، الأحزاب/ (١٦، ١٧)، الأنعام/١٥، فطت/٥.

وتقدم جملة جواب الشرط لأنها محط الاهتمام و موطن التحدي، فالمتكلم يعنى بالنتيجة فيجعلها مدار التركيب.

فقد تقدمت جملة جواب الشرط في خطاب المعاندين من الكفار لأنبيائهم ودل تقدمها على الاستهتار بما تحويه من طلب العذاب الاستهتار بتهديد الأنبياء، ومن ذلك:

قول قوم لوط له ساخرين منكرين: ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾^(١).
وقول أصحاب الأيكة لشعيب: ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾^(٢).
وقول قوم ثمود لصالح بعد أن عقروا الناقة: ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾^(٣).

وقد يقدم طلب أية أو دليل خارق للعادة تحدياً وتعجيزاً للنبي، ومنه قول قوم ثمود لصالح: ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾^(٤).

وكثر تقديم جملة جواب الشرط التي تحوي سؤالهم عن يوم القيامة أو يوم عذابهم، وفي هذا التقديم دلالة على استعجالهم بتحقيق هذا العذاب تكذيباً واستخفافاً بتحذير النبي: ﴿ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾^(٥).

وتقدمت جملة جواب الشرط في رد الأنبياء على تحدي أقوامهم وتهديدهم. ومن ذلك: جواب إبراهيم لقومه وقد سألوه: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾^(٦) فقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾^(٧)، إن في تقديم جواب الشرط (اسألوهم) دليل على المواجهة بشيء يعلمونه لكنهم يخفونه مكابرة وعناداً. وهذا يناسب مواقف إحقاق الخصم ودحض حجته ففيهما يقدم المخاصم نقاط ضعف خصمه ويبرزها ويعريها.

(١) العنكبوت/٢٩.

(٢) الشعراء/١٨٧.

(٣) الأعراف/٧٧.

(٤) الشعراء/١٨٧.

(٥) سبأ/٢٩.

(٦) الأنبياء/٦٢.

(٧) الأنبياء/٦٣.

وبرز هذا التقديم في الخطاب الذي يلقيه الله لرسوله، محمد صلى الله عليه وسلم، ليجابه به خصومه ويفهمهم، ومنه ما جاء في قوله تعالى لرسوله: ﴿قل: فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾^(١) ردا على المنافقين الذين قالوا: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾^(٢).

وقوله: ﴿قل: فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾^(٣) ردا على المعاندين المنكرين من بني إسرائيل الذين قيل لهم: ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ فقالوا: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾^(٤) حسدا وبغيا وحرصا على تميزهم. فقدم جواب الشرط لإستحضار هذا الأمر الفظيع وكشف سوء عملهم، ومواجهتهم به.

ويقدم الأنبياء في الرد على طلبات المعاندين ما يدل على خوفهم من الله لتحذيرهم، ولتوضيح غايتهم وهي الحرص على إرضاء الله وتجنب معصيته، ومثاله:

قول شعيب للملأ الذين استكبروا من قومه وقد خيروهم بين الخروج من القرية أو العودة في ملتهم، فقال: ﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾^(٥) فقد قدم جواب الشرط لاستعظامه واستهجانه، ونستشف من هذا التقديم جرأة شعيب وتصريحه بسوء العاقبة إن عاد في ملتهم، فهو لا يجمال ولا يهادن على حساب عقيدته.

ومثله ما جاء في قول نوح، عليه السلام، لقومه وقد سألوه أن يطرد الضعفاء الذين آمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على السواء: ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون﴾^(٦) إنه يقدم ما يهمه ويحذره.

^(١) آل عمران/١٦٨.

^(٢) آل عمران/١٦٨.

^(٣) البقرة/٩١.

^(٤) البقرة/٩١.

^(٥) الأعراف/٨٩.

^(٦) هود/٣٠.

وتقدمت جملة جواب الشرط المتضمنة رأياً يرجو أحد أطراف الحوار تحقيقه وتنفيذه، ومن ذلك:

قول أصحاب الجنة لبعضهم البعض ﴿اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾^(١)، ففي تقديم جملة جواب الشرط (اغدوا على حرثكم) دلالة على الحرص والعجلة في قطع الثمار قبل مجيء المساكين لأخذ نصيبهم من الثمار إنهم يقدمون ما انعقد في قلوبهم من حب خيرات الأرض والحرص على جمعها وحمايتها من أي زائر أو غريب.

وقول قوم إبراهيم: ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾^(٢) الذي قدمت فيه جملة جواب الشرط (حرقوه وانصروا آلهتكم) مجسمة رغبتهم بتعجيل إيقاع العقوبة بإبراهيم تخلصاً منه بعد أن أقحمهم وحطم أصنامهم.

وقول أحد أبناء يعقوب لاختوته: ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾^(٣) دل تقديم جملة جواب الشرط على خوف اعتري نفس المتكلم، فأسرع إلى تقديم طريقة للتخلص من يوسف، وبدأ بنهيهم عن قتله خشية من الله ورحمة بالدهم فالشر في نفوس الصالحين لا يتصاعد. ويبدو أن هذا القرار الذي توصل إليه خلصه من صراع داخلي اعتراه واعتري اخوته، بدليل سرعة تنفيذه.

ولإدراك أهمية التقديم السابق دعونا نعيد الجملة إلى ترتيبها الأصلي: (إن كنتم فاعلين ما أقوله لكم فلا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب..) ستضحى جملة عادية صادرة عن متكلم حيادي الغايات، يطرح رأيه دون أن يعنيه أو يؤرقه تنفيذ الطرف الآخر، أما وقد رغب بتنفيذ رأيه فإنه يبدأ بعرضه مؤخراً جملة الشرط (إن كنتم فاعلين).

^(١) القلم/٢٢.

^(٢) الأنبياء/٦٨.

^(٣) يوسف/١٠.

وتقدمت جملة جواب الشرط لتؤكد المتكلم من تحققها، ومن ذلك قول السحرة لفرعون: ﴿إِنْ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(١) وفيه تقدمت جملة جواب الشرط: (إِنْ لَنَا أَجْرٌ) على جملة الشرط (إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) لإفادة ثبوت الأجر وإيجابه وعظمته على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها. فلو قالوا: (إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ فَإِنْ لَنَا أَجْرٌ)، لدل هذا على عدم يقينهم أو ثقتهم بالغلبة على موسى وهارون. ولكن تقديم جواب الشرط دل على ثقتهم بأن النصر حليفهم لذا فإن النتيجة لا تورقهم، وإنما يورقهم الأجر على هذه النتيجة الحتمية ولهذا قدموه في خطابهم.

❖ ثالثا : ما قدم في آية وأخر في أخرى:

ويبدو أثر السياق واضحا في هذا النوع؛ إذ أن السياق وحده اقتضى التقديم في موضع، والتأخير في موضع آخر، وذلك في محاوراة الشخصية لغيرها حين تتكرر هذه المحاوراة في أكثر من سورة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾^(٣).

نلاحظ تقديم موسى على هارون في الآية الأولى، وتقديم هارون على موسى في الآية الثانية، وربما يعود تقديم هارون على موسى في آية سورة طه إلى سؤال موسى ربه أن يجعل أخاه هارون شريكه في أداء الرسالة، يعنيه ويشد عضده، لأنه أكبر منه سنا وأفصح لسانا: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾^(٤) فجاء تقديم هارون على موسى ملائما لهذا التركيز على شخص هارون وهذا لا نجده في سورتي الأعراف والشعراء^(٥).

^(١) الأعراف/١١٣.

^(٢) الأعراف/١٢٢.

^(٣) طه/٧٠.

^(٤) طه/٢٩-٣٥.

^(٥) تقدم (موسى) على (هارون) في آية سورة الشعراء أيضا: (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) الشعراء/٤٧-٤٨.

كما أن في تقديم هارون في سورة طه أيضا إبرازا لدوره، وتركيزا على مشاركته في الأحداث، ثم جاء بعده موسى على سبيل الترقى، من البدء بالأفضل، فالأفضل، بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته، فانه يوحى بتبعيته، ويبدو في دور المساند لا المشارك^(١).

* قوله تعالى على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿أَنْتَى يَكُون لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾^(٢)، وقوله ﴿رَبِّ أَنْتَى يَكُون لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾^(٣)، بتقديم حالة زوجته على حالته في سورة مريم، وتقديم حالته على حالة زوجته في آية سورة عمران.

ويمكن استشفاف سبب تقديم حالة زوجته في آية سورة مريم (وكانت امرأتي عاقرا) من المضمون الرئيس الذي تحويه السورة؛ إنها تدور حول قصة مريم عليها السلام التي انجبت بقدرة الله عز وجل غلاما دون أن يمسه رجل، وهذا أمر خارق لكنه على الله هين. وزوجة زكريا عاقر لم تتجب في شبابها، فكيف ستتجب في كبرها؟ هذا سيكون أيضا بقدرة الله وحده. وبهذا اندرج انجاب العاقر تحت انجاب الفتاة دون أن يمسه رجل. ويدل تكرار زكريا عبارة (وكانت امرأتي عاقرا) في خطابه مع الله التركيز على حالة زوجته^(٤).

سبب آخر يمكن أن نرجع إليه سر هذا التقديم في آية سورة مريم يتمثل استهلال زكريا دعاءه بذكر حالته، وإنهاء هذا الدعاء بذكر حالة زوجته^(٥). وحين فوجئ باستجابة دعوته وتبشيره بغلام منه ومن زوجته، تعجب من كيفية إنجابها وبدأ بذكر حالة زوجته التي أنهى بها دعاءه.

^(١) ينظر: د. محمد الأمين الخضري، من أسرار المغامرة في نسق الفاصلة القرآنية، ص ١٩، وذكر عبد الكريم الخطيب أن من غير الطبيعي أن يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون، عليها السلام وأنه إذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون النظرة نفسها، إذ كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى، أو أن هذا التقدم لهارون إنما كان من الذين قدموه إقرارا قويا بالنسليم لهارون فضلا عن موسى (الفصل القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٢٧٠).

^(٢) مريم/٨.

^(٣) آل عمران/٤٠.

^(٤) مريم/ (٤-٦).

^(٥) آل عمران/ (٣٩-٤٠).

سبب ثالث نستشفه من المخاطب الذي يوجه زكريا إليه سؤاله؛ والكيفية التي وصلته البشري. ففي سورة آل عمران، نادته الملائكة بمبشرة إياه بالغلام^(١)، فتوجه بالسؤال مقدماً حالته لوجود واسطة في خطابه مع الله هي الملائكة ثم ذكر حالة زوجته مراعاة لها، وكأنه يبدأ بنسبة المشكلة إلى نفسه قبل أن يعزوها لزوجته تأدياً منه وتقديراً لها. ولكن يختفي هذا الوسيط في سورة مريم، فيبدو الخطاب مباشراً بين زكريا وربه^(٢)، وتتكشف الأمور، لأن الله يعلم ما في الصدور، فيقدم زكريا ذكر حالة الزوجه، لأنها السبب الرئيس في عدم الإنجاب.

وبعبارة أخرى فإننا يمكن أن نعد الخطاب السابق ترجمة لحوار داخلي أو مناظرة دارت في نفس زكريا عليه السلام، لأنه كان على يقين من استجابة الله لدعائه، ولكنه كان يقف عاجزاً أمام الكيفية التي سيرزقه الله بها هذا الغلام، فدار في داخله حوار قدم فيه ما أخره في الحوار الصريح مراعاة لزوجته وتقديراً لها. والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿قل: إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون. قل: لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين. قل: لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله﴾^(٤)، تقدم (النفع) على (الضر) في آية سورة الأعراف، وتقدم (الضر) على (النفع) في آية سورة يونس.

يقول الخطيب الإسكافي معللاً سرّ هذا التقدم والتأخير: "والجواب أن يقال أن الأولى بعد قوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي﴾ [الأعراف/١٨٧]. وبعده: ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. فكان معنى قوله: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب لها إلا ما ملكنيه الله ... ولو علمت الغيب لا استكثرت من الخير وما مسني الفقر.

^(١) مريم/٧.

^(٢) مريم/٧.

^(٣) الأعراف/١٨٧-١٨٨.

^(٤) يونس/٤٨-٤٩.

وأما الآية في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها ﴿وَأَمَّا نَرِيكَ بِعُضِّ الدِّينِيِّ نَعْدَهُمْ أَوْ نَتُوفِينِكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس/٤٦] ويقول الكفار: (متى هذا الوعد ان كنتم صادقين؟) قل. لا أملك لنفسي ما وعدكم الله من هذا العذاب ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب، كما لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله أن يملكنيه منهما...^(١) فتقديم النفع جاء في السؤال عن الغيب، ومن يعرف الغيب سيستكثر من الخيرات ويتجنب الشرور بكل أنواعها. وتقديم الضر جاء في السؤال عن موعد العذاب. وهذا يعني تركيز الإجابة على طبيعة العنصر المذكور في السؤال.

قوله تعالى على لسان الكفار من أهل مكة: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢). وقوله: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣). ففي آية سورة (المؤمنون) جاء المفعول الثاني (هذا) في موضعه بعد المرفوع وما تبعه (نحن وآباؤنا). أما في آية سورة النمل فقد قدم المفعول الثاني (هذا) على (نحن وآباؤنا). ويمكن تعليل هذا بكون البعث مركز العناية ومحط الإنكار في آية سورة النمل، بدليل الآية التي سبقتها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا إِنْنا لَمُخْرَجُونَ﴾^(٤) فالجهة المنظور إليها هاهنا هي كون انفسهم وكون آبائهم ترابا، والتراب أبعد في باب الاعادة من العظام.

وتوجه الإنكار في آية سورة (المؤمنون) إلى المبعوث؛ أي إنكار كون انفسهم وآبائهم ترابا، بدليل الآية التي سبقتها: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنْنا لَمُبْعُوثُونَ﴾^(٥).

وقد يتفق لفظ محاوراة أحد الأنبياء لقومه مع ألفاظ محاوراة نبي آخر لقومه باستثناء تغيير بسيط في ترتيب الكلمات؛ حيث تقدم كلمة في محاوراة وتؤخر الكلمة ذاتها في محاوراة مماثلة، مثاله قوله تعالى في محاوراة نوح، عليه السلام، لقومه:

^(١) الخطيب الإسكافي، درة التعريل وغرة التأويل، ص (١٨٠-١٨٢).

^(٢) النمل/٦٨.

^(٣) المؤمنون/٨٣.

^(٤) النمل/٦٧.

^(٥) المؤمنون/٨٢.

﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده﴾^(١)، وقوله في محلورة صالح، عليه السلام، لقومه: ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾^(٢) بتقديم (رحمة) على (من عنده) في الأولى، وتقديم (منه) على (رحمة) في الثانية.

علل الغرناطي هذا التقديم بقوله: "والجواب عن ذلك: إن قوم صالح، عليه السلام، بالغوا في إساءة الجواب حيث قالوا: (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أي: قد كنت مرجوا أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع اليك من أمورنا، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم، ولما بالغوا في قبح الجواب بالغ، عليه السلام، في رد مقامهم، فقدم المجرور للتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى. فقال: (وآتاني منه رحمة) لما يحرز تقديمه من التأكيد ويعطيه بمفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشرك فيها غيره، وهو مخصوص لا يحصل مع تأخيرها.

ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب، لأن أقصى المفهوم من قولهم: (ما نراك إلا بشرا مثنا) الحاقه بهم ومماثلته إياهم، وكأنهم يقولون: لو كنت رسولا لكنت من الملائكة ولم تكن لثماثلنا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قوم صالح، فجرى جوابه، عليه السلام، على نسبة ذلك فقال: (وآتاني رحمة من عنده) فأتى بالمجرور مؤخرا في محله على ما يجب، حيث لا يقصد من احراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى، فورد كل على ما يلائم، والله أعلم"^(٣).

وقال الخطيب الإسكافي: "والجواب أن يقال: إن المعنيين واحد في الموضعين، وقولاهما سواء للأمتين، وإنما اختلفا باختيار الله في موضع خبرا قدم فيه المفعول الثاني على الجار والمجرور؛ لإجراء هذا الفعل ومفعوليه على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو: (ما نراك إلا بشرا مثنا) فـ(بشرا) مفعول ثان من نراك، وقوله: (ما نراك أتبعك) في موضع المفعول الثاني من نراك، ثم بعده: بل نظنكم كاذبين. فلما تقدمت أفعال ثلاثة كل واحد منها يتعدى إلى مفعولين والمفعول الثاني منها لا يحجزه عن الأول مفعول فيه، كان إجراء هذا الفعل الذي هو (وآتاني

(١) هـ/د/٢٨.

(٢) هـ/د/٦٣.

(٣) الغرناطي، ملاك التأويل، ج ٢، ص ٦٥٢-٦٥٤.

رحمة من عنده) مجرى تلك الأفعال التي وقعت (أتاني) في جوابها، وجاءت من كلام نوح، عليه السلام، في مقابلتها أولى.

وأما في قصة صالح، عليه السلام، فانه بإزاء قول قومه له: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا﴾ فوقع خبر كان، الذي هو كالمفعول لكان، وقد تقدمه الجار والمجرور، فجرى جواب صالح، عليه السلام، فيما صار عبارة عنه من العربية مجرى الابتداء في قوله: (وأتاني منه رحمة) على المفعول الثاني، كما ترجح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور، وكل جائز، إلا أن كلامنا في الترجيح في الموضعين^(١).

والتأويلان السابقان فيهما من الأدلة المنطقية المقنعة الشيء الكثير. اعتمد التأويل الأول المقام وما يتصل به من غايات المتكلم وأهدافه، وكيف انعكس هذا في ترتيب الكلمات. أما الثاني فقد نظر إلى ترتيب الكلمات في البنى التركيبية السابقة ليعلل ترتيب الكلمات في الجمل اللاحقة (محور البحث) مبينا اتساق وتتابع هذا النمط من الترتيب. وبهذا يتضافر تفسيران؛ تفسير مضموني، وتفسير شكلي.

❖ رابعا: ما قدم وأخر في آية واحدة:

وسبب هذا النوع من التقديم الاعتناء بشأن المقدم والمؤخر على السواء. ويندرج هذا النوع من التقديم والتأخير ضمن النوع الأول (ما قدم والمعنى عليه)، إلا أنه يمتاز عن الأخير بأن التقديم والتأخير يحدثان في آية واحدة؛ فالكلمة تقدم في أول الآية وتأخر في نهايتها أو العكس.

ولم أجد في الحوارات القرآنية سوى مثالا واحدا هو قوله تعالى على لسان ابن آدم المؤمن التقي لأخيه وقد أراد أخوه قتله: ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾^(٢).

فحين نسب فعل القتل إلى أخيه قدم الجار والمجرور (إلي) على المفعول به (يدك)، وحين نسب الفعل إلى نفسه قدم المفعول به (يدي) على الجار والمجرور (إليك).

^(١) الخطيب الإسكاني، درة التبريل وغرة التأويل، ص ١٢٠.

^(٢) المائدة/٢٨.

وبفقد تقديم الجار والمجرور على المفعول تخصيص وقوع القتل بالمتكلم وما في ذلك من شناعة الحدث لطبيعة العلاقة التي تربط بين القاتل والمقتول، فألاخ المؤمن يريد بهذا التقديم تذكير أخيه الهائج بالأخوة التي تربط بينهما.

وفي تقديم المفعول به (يدي) على الجار والمجرور (إليك) دلالة على النفى المطلق لصدور هذا الفعل من المتكلم، فهو بتقديم (اليـد) يركز على أداة القتل التي لن يستخدمها لقتل أخيه؛ ففي تقديم الجار والمجرور (إليـ) تقريب من الفعل (بسطت)، أي تقريب الضمير الذي سيقع عليه فعل القتل من الفعل الذي يدل على الشروع في القتل. وفي تأخير (إليك) ابتعاد الضمير الذي سيقع عليه الفعل عن اسم الفاعل الذي يوحى بالفعل (باسط).

ويمكن أن نستشف من هذا التقديم والتأخير قوة المتكلم الجسمية، ففي تقديم (إليـ) على (يدك) دليل على أن ما يؤرقه العلاقة التي تربطهما لا أداة القتل (القوة). بينما يقدم القوة (يديـ) على (إليك) لينفي استخدامه قوته في قتل أخيه لسبب واحد هو الخوف من الله، أي أنه بهذا التقديم يبرز قوته لا لتهديد أخيه بها، وإنما لتأكيد وجودها ورفض استخدامها ضده. والله أعلم.

وبعد، فهذا غيض من فيض، فالتقديم والتأخير "باب كثير القوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة"^(١). وتتووع دلالاته وأبعاده بما يتطلب الموقف أو السياق من أهداف ترتبط بأطراف الحوار.

(١) المرجحان، دلائل الاعجاز، ص ١٠٧.

✦ التكرار (دلالة التواجد المهيمن)

التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني ظاهرة أسلوبية قارة لا يمكن تجاوزها أو تحاشيها، فقد تحدث بينها المماثلة عقول الدارسين على اختلاف مشاربهم ونوازعهم. وانقسموا في تناولها إلى فريقين، فريق رأى في هذا التكرار إعجازاً وبلاغة في التعبير، وتأكيداً في الكلام، وجمالاً في الأداء، فانبرى يتدبر أسراراً وأهدافه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، والخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، والزرخشى في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، والكرمانى في كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، والخطيب الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل)، وكتاب (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل) للغرناطي، وغيرهم من المتقدمين ومن سار على دربهم من المتأخرين، الذين تحدثوا عن التكرار في القرآن عامة أو في قصصه خاصة^(١).

وفريق من أعداء الدين لم يتجاوز نظرهم البنى السطحية للكلمات، فاستعصى عليهم السر المكنون في أعماق هذه الأبنية التكرارية، فرأوا في التكرار شبهة ينالون بها من بلاغة القرآن وإعجازه.

والتكرار لغة من الكر وهو: الرجوع على الشيء، "فكرّ الشيء وكرّره: أعاده مرة بعد أخرى". والكرة: المرة، والجمع: الكرات، يقال: كررت عليه الحديث وكرّرتّه إذا رددته عليه^(٢).

والتكرار اللفظي في اصطلاح علماء البلاغة: إعادة الكلمة بلفظها ومعناها في القول مرتين فصاعداً لنكتة^(٣). وبتعبير اللسانيات النصية: هو إعادة العنصر المعجمي نفسه^(٤).

^(١) نذكر منهم: عبد القادر عطاء (أسرار التكرار في القرآن الكريم)، محمد حسين أبو الفتوح: (أسلوب التوكيد في القرآن الكريم)، محمد محمود قاسم: (التكرار في القرآن الكريم - دراسة بلاغية)، فضل عباس: (القصص القرآن - إعجاز ونفحاته)، عبد الكريم الخطيب: (القصص القرآن في منظومة ومفهوم)، النهامي نورة: (سكولوجية القصة في القرآن)، عبد الحليم حنين: (أسلوب المغامرة في القرآن الكريم)، خالد قاسم بني دومي: (التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني: دراسة لغوية أسلوبية).

^(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (كر).

^(٣) ابن الأثير، المثل السائر، (١٤٦/٢). وابن معصوم، أنوار الربع في أنواع البديع، ص ٣٤٥. السبّاغ، الموعز البديع في تجييس أساليب البديع، ص (٤٧٦-٤٧٧).

^(٤) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٨٤.

وللتكرار اللفظي وظائف حرص البلاغيون على رصدها، حيث إذا لم تكن له وظيفة فهو، عندهم، عيب، أو ((الخذلان بعينه)) على حد تعبير ابن رشيق^(١)، الذي رصد للتكرار اللفظي تسع وظائف هي: التوكيد، وزيادة التنبيه، والوعيد والتهديد، والتوجع، والهجاء، والتهمك، والتخيم والتعظيم، والتشويق والتلذذ بذكر المكرر، والتوبيخ^(٢).

ويجمع البلاغيون والأدباء والنقاد وعلماء التفسير وعلوم القرآن على أهمية الدور الوظيفي لأسلوب التكرار.

وتنبه إلى هذه الأهمية علماء النفس فرأوا "أنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري وعاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات هو العدوى، إذ لا يكفي لتحويل الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه. فالتكرار هو السبيل الوحيدة لربط الانفعال به، وتركزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة"^(٣). وهذا يعني أن تكرار القول لا يقل تأثيراً في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل، بل إن تكرار القول حافز هام لحدوث الفعل. كما تحدث علماء النفس عن التكرار اللاشعوري في القول الذي يعكس نفسية المتكلم ومشاعره الكثيفة.

ويقدم محمد مفتاح فرضية تعتمد على أنه "كلما تشابهت البنية اللغوية فإنها تمثل نية نفسية متشابهة منسجمة، تهدف إلى تبليغ الرسالة عن طريق التكرار والإعادة. ويكون هذا التكرار متجاورا وقد يكون متباعدة"^(٤).

ويؤكد ما سبق أن التكرار آلية أسلوبية ينفذ بها المضمون، وهذا يعني ضرورة الكشف عن الموضوعات أو المضامين الحوارية التي تشكلت فيها الأبنية التكرارية، لبيان علامة أسلوب التكرار للموضوعات التي عولجت من خلاله، وما أنتجه من دلالات وظيفية.

^(١) ابن رشيق، المعتمد، ج ٢، ص ٧٣.

^(٢) ابن رشيق، المعتمد، ج ٢، ص (٧٤-٧٦).

^(٣) مصطفى فهمي، الدوافع النفسية، ص ١٠١.

^(٤) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٩.

ولهذا الملمح الأسلوبي في لغة الحوار القرآني عمق دلالي لا يترك السياق على سطحه الإيقاعية فحسب بل ينفذ إلى الإيقاع الداخلي العميق في الصياغة القرآنية تاركا أثره العميق في نفس المتلقي.

يقول أ. ف. تشيتشن: إن الرؤية العميقة والغوص إلى ما تحت البناء التركيبي للغة هو الأساس في استخراج الدلالات المطلوبة، ولعل للتكرار القوة التعبيرية الخاصة من بين الأساليب التي تعتمد على التوتر الإيقاعي والشكل الداخلي العميق لبناء الكلمة داخل سياقها، فيشدنا التحليل من شكل الكلمة إلى البناء الداخلي ثم إلى الإنتاج الشعري برمته^(١).

ومن هنا كان التكرار في لغة الحوار القرآني موجها لتحقيق غايات وأغراض، وتأكيدها بتكرير ذكرها في صور متنوعة لترسيخها في الأذهان وتقريرها، وتكشف هذه الغايات بالغوص في البنية العميقة، وتأمل اللطائف الدقيقة التي أضافها التكرار على المعنى

وبعد رصد مواطن التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني رأينا إمكانية دراستها ضمن ثلاثة أنماط هي:

• النمط الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في الجملة أو النص وفق توزيعات مكانية متنوعة الأبعاد بين الدال الأول والدال المكرر في السورة الواحدة.

ونتناول هنا البناء التكراري المتشكل على المستويين الأفقي والعمودي، فإعادة الدال مرتين أو مرة بعد أخرى تؤدي دلالات وظيفية تتلاءم مع التنظيم النسقي للتركيب. ويتشكل التكرار على المستوى الأفقي بأنزياح الدال (العنصر المعجمي ذاته) من نقطة مكانية إلى نقطة أخرى أفقياً.

ويتم التشكيل على المستوى العمودي بتكرير الدال وفق تناسق مكاني يأخذ ترتيبه داخل النص أو الفقرة كأن تتكرر بداية الفقرة مثلاً.

وجاء هذا النمط من التكرار في أسلوبين هما:

١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار.

٢- تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار.

(١) أ. ف. تشيتشن، الأفكار والأسلوب، ص (٥٠-٥٦).

١- تكرار الدال ذاته في مقولة كل طرف من أطراف الحوار:

وهذا من طبيعة الحوار المباشر، فقد يطرح أحد أطراف الحوار جملة ما متسائلا أو مخبرا أو أمرا أو ناهيا، فيثير اهتمام الطرف الآخر الذي يقوم بإعادة تلك الجملة ساخرا أو منكرا أو مؤكدا أو مجيبا أو غيرها من التعبيرات التي يوضحها السياق.

وهذا يعني تنوع التراكيب التي يرد فيها الدال المكرر بما يناسب غرض الطرف المحاور، وعكس الدال المكرر ردة فعله الكلامية على استشارة الطرف الآخر، ومنه:

تكرار جملة (لبثت) في الحوار الذي دار بين الله عز وجل والرجل الذي مر على قرية خاوية على عروشها فقال: ﴿أَنْتَ يَحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(١) فأما الله مائة عام ثم بعثه ودار بينهما الحوار التالي.

تركيب استفهامي

﴿ قال: كم لبثت؟ ﴾

تركيب خبري

قال: لبثت يوما أو بعض يوم

تركيب خبري ينقض الخبر الأول

قال: بل لبثت مائة عام^(٢)

جاءت جملة (لبثت) في سؤال السائل العليم الذي يستتطق مخاطبه ليحيب بما أجابه: (لبثت يوما أو بعض يوم)، فينقض السائل الإجابة السابقة بأداة الإضراب (بل)، ويحيب بعدها محددا مدة اللبث (مائة عام) وهي إجابة يقف المخاطب أمامها مستسلما مبهورا لا يملك سوى الإقرار بها: ﴿ فلما تبين له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾^(٣). فالتكرار في هذا المثال قد تشكل من خلال الترجيع في المحاورة بين السؤال والجواب.

^(١) البقرة/٢٥٩.

^(٢) البقرة/٢٥٩.

^(٣) البقرة/٢٥٩.

تكرار كلمة (يوسف) الواردة في سؤال أبناء يعقوب في إجابة يوسف على سؤالهم:

﴿قالوا: أإنك لأنت يوسف. تركيب استفهامي

قال: أنا يوسف وهذا أخي﴾^(١) تركيب خبري

وفيد تكرار التصريح بالعلم (يوسف) تأكيداً من المخاطب المسؤول وتقوية وإثباتاً ، فقد كان من الممكن أن تكون إجابة يوسف، عليه السلام، عن سؤالهم: أنا هو، أو: نعم، لكنه أعاد التلطف بعبارة من جنس لفظتهم واصلاً بظنهم إلى درجة اليقين، ففي سؤالهم ظن وشك في نسبة (أنت) إلى خبره (يوسف)، فجاءت عبارته (أنا يوسف) مثبتة ومؤكدة نسبة الضمير إلى الخبر ذاته.

وتكرار كلمة (الرحمن) الواردة على لسان الطرف المؤمن في سؤال الطرف الكافر:

﴿وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن. تركيب أمر

قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟﴾^(٢) تركيب استفهام

أعاد الطرف الكافر التلطف بالكلمة الأخيرة في جملة من خاطبهم أمراً ساخرين منكبين الكلمة التي انصب عليها تركيز الطرف الأول ونصحه؛ أي أن الكلمة ذاتها وردت على لسان الطرفين المتحاورين، و قولها كل طرف في تركيب يعكس وجهته واعتقاده. وقد يأتي الدال الأول والدال المكرر في تراكيب متماثلة، وبرز هذا الأسلوب في سياق الخصومة والجدل بين الأطراف المتحاوره حيث يرد المخاطب المستنار على رسالة مخاطبه بالمثل، ومنه:

تكرار عبارة (لا مرحباً) على لسان فريق من أهل جهنم في ردهم على فريق آخر استنارهم بالعبارة ذاتها، فجاء التكرار كأنه معارضة وسجال:

﴿هذا فوج مقتحم معكم.

: لا مرحباً بهم، إنهم صالوا النار.

قالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾^(٣)

^(١) يوسف/٩٠.

^(٢) الفرقان/٦٠.

^(٣) ص/٥٩-٦٠.

ومقارعة ظن فرعون بظن موسى في الحوار الذي دار بينهما:

﴿ فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحورا.

قال: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبورا ﴿^(١).

كأنه قال: إن ظننتني مسحورا فأنا أظنك هالكا. إنها المماحكة ومحاولة طعن الخصم بأداته التعبيرية وفق مبدأ العين بالعين.

وأحيانا لا يقوم الخصم بمقابلة خصمه بالمثل مكتفيا بنفي تهمة ألصقها به، فيدل الدال الأول على التهمة، ويأتي الدال المكرر لنفي التهمة ذاتها.

ومثاله تكرار كلمة (سفاهة) في حوار قوم عاد مع نبيهم هود:

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين.

قال: يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ﴿^(٢)

لقد أعاد هود اللفظة ذاتها في سياق النفي (ليس بي) تاركا المقابلة بالمثل فهو لم ينسب اللفظة السابقة إلى قومه، ولكنه اكتفى بنفيها عن نفسه، وفي هذا دليل على حلمه وحسن خلقه.

وقد يكرر أحد أطراف الحوار جملة الطرف الآخر مع تبديل عنصر لفظي بآخر، ومنه: تكرار الملائكة جملة (هذا يوم) الواردة في مقولة الكفرة، واستبدالهم كلمة (الدين) بكلمة (الفصل):

﴿ وقالوا: يا ويلنا هذا يوم الدين.

: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴿^(٣)

^(١) الإسراء/ (١٠١-١٠٢).

^(٢) الأعراف/ (٦٦-٦٧).

^(٣) الصافات/ (٢٠-٢١).

إن الملائكة يكررون جملة من مقولة الكافرين لمفاجئتهم بسماعهم هذا الحوار الدائر بينهم ودب الرعب في قلوبهم، مستبدلين كلمة (الدين) بكلمة (الفصل) زيادة في تقييدهم وتخويفهم، لأن في كلمة (الفصل) دلالة على الفرق بين فرق الهدى والضلالة. كما أن في تكرار جملة (هذا يوم) إبرازاً لهذا الموعد الذي طالما أنكره المخاطب وتحقيقاً لوقوعه.

ومنه تكرار جملة (كانوا يعبدون) الواردة في سؤال الله، عز وجل، على لسان الملائكة الذين وجه إليهم السؤال مع استبدال المفعول به:

﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون.﴾

قالوا: سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون^(١)

أفادت (بل) السابقة للجملة المكررة براءة الملائكة من الرضا بعبادتهم لهم، ونفي وقوع فعل العبادة عليهم باستبدال المفعول به الواردة في السؤال التقريري (اياكم) بالمفعول به الحقيقي (الجن). ودل تكرار (كانوا يعبدون) على ثبات عبادة هؤلاء لغير الله.

وقد يكرر أحد أطراف الحوار كلمة قالها الطرف الآخر مع تغيير شكلها مكسباً إياها دلالة إضافية، ومثاله:

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاما. قال: سلام﴾^(٢).

لقد رد إبراهيم -عليه السلام- تحيتهم بأحسن منها، وإن كانت من جنس تحيتهم؛ ففي قول الرسل: (سلاما) مصدر سد مسد فعله، وأصله: نسلم عليك سلاما. وأما قوله: (سلام) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء، وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، وفي هذا دلالة على ثبات السلام وتمكنه ورسوخه، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأدب الله تعالى، وإكراماً لهم^(٣).

ويعد هذا الأسلوب من التكرار ظاهرة أسلوبية قارة في الحوار التلقيني الذي يوجهه الله لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- لقيامه على ثنائية السؤال والجواب، فمعظم الدوال

^(١) مآ/٤٠-٤١.

^(٢) هود/٦٩.

^(٣) الرعنشري، الكشف، ج ٤، ص/٣٩١-٣٩٢.

الموجودة في السؤال تكرر في الجواب ترسيخاً وتثبيتاً لما تحويه من مضامين في ذهن المتلقي.
ومن ذلك :

﴿قل: هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده.

قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون.

قل: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟!﴾

قل: الله يهدي للحق. أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا

أن يهدي فما لكم كيف تحكمون﴾^(١)

إن الله عز وجل يلقي رسوله السؤال الذي سيوجه لمن يتحداه من المشركين، ويلقيه الجواب عن هذا السؤال نيابة عنهم مكرراً الجمل المحور التي ينصب عليها تركيز المتكلم لكونها بؤرة التحدي والمواجهة التعجيزية، فيأتي الدال الأول في التركيب الاستفهامي لإثارة انتباه المخاطب لهوية الفاعل الذي تنسب إليه هذه الأفعال الخارقة: (من يبدأ الخلق ثم يعيده؟) فتكون الإجابة بالتصريح عن الفاعل وكشف نسبة الأفعال إليه: (الله يبدأ الخلق ثم يعيده).

وقد يكرر السؤال والرد في المحاورة ويسمى هذا ترجيعاً، وأشار إلى هذا المستوى من التكرار العلوي في تعريفاته^(٢)، ومثاله الترجيع في المحاورة التي دارت بين بني إسرائيل وموسى -عليه السلام- حين أمرهم أن يذبحوا بقرة:

﴿قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي.

قال: إنه يقول: إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون.

قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها.

قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون.

قال: إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها﴾^(٣)

^(١) برنس/٣٤، ٣٥.

^(٢) العلوي، الطراز، ج ٣، ص ٩١.

^(٣) الفقرة/ (٦٨-٧١).

فقد تكررت صيغة الرد المقابلة (إنه يقول إنها) فكانما تكرر سؤالهم ترجيعا لما سبق وتعليقا عليه. وتعلق سؤالهم في كل مرة بتخصيص معين لماهية البقرة، إلا أن أسئلتهم تتحد في المستوى العميق، لان النية المشتملة على المسألة واحدة، والفئة الموجهة للسؤال واحدة، وإن كان السؤال في كل مرة قد تعلق بغرض مختلف عن سابقه. فإصرارهم على تكرار السؤال يعكس طبيعتهم الجدلية التي تميل إلى تعقيد الأمور وتكبيرها، لا رغبة في الوصول إلى الحقيقة، وإنما رغبة في النقاش والجدل، فإله أمرهم بذبح (بقرة) أي بقرة كانت، دل على هذا التعميم صيغة التذكير، إلا أنهم أصرروا على المسألة العقيمة، فأخذ الله يضيق عليهم مقيدا اختيارهم.

ونجد هذه المراجعة في الحوار التلقيني التالي:

قل: لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟

سيقولون: الله.

قل: أفلا تدكرون؟

قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟

سيقولون: الله

قل: فأنى تسحرون؟! (١)

إن الإصرار على تكرار مثل هذا الأسلوب في البنية السطحية يؤدي إلى متابعة المتلقي لهذا التلاحق بين السؤال والجواب، خالفا توقعا وترقبا للبنى الحوارية التي جاءت على السرتيب التالي:

قل: سؤال إنكاري.

سيقولون: الله

قل: سؤال تقرير

ويؤدي هذا التكرار إلى تعمق في المستوى الدلالي أيضا، لأن مواجهة الكفار بأسئلة متلاحقة وإجاباتهم المتكررة عنها دون تردد أو تلون أو تنوع تأكيد على ثبات نسبة ملكية الأشياء المسؤول عنها إلى الله، وإقرارهم بهذه الملكية وكأنها أمر مسلم به لا يقبل النقاش، وهنا تبرز المفارقة بين هذا الإقرار المتكرر وبين التصرف الفعلي المتمثل بكفرهم وجحودهم وتكذيبهم

(١) المؤمنون/ (٨٤-٨٩).

لأنبياء الله، ولهذا أعقب إجابتهم في كل مرة سؤال إنكاري عن سبب هذا التناقض: أفلا تزكّون. أفلا تتقون؟ فأني تسحرون؟

٢) تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار:

ويتضمن التكرار المتشكّل على المستوى الأفقي من خلال إعادة الدال مرة بعد أخرى، وانزياحه من نقطة مكانية إلى أخرى في كلام أحد أطراف الحوار، مشكلاً ظاهرة لغوية ذات نتاج دلالي مميز. وذلك من خلال مستويين هما:

١. مستوى التكرار.

٢. مستوى الترداد الذي يندرج في إطار المستوى الأول؛ فهو نمط من أنماطه، والفرق بين المصطلحين (يتمثل) في أن التكرار يعني إعادة الكلمة ذاتها بلفظها ومعناها في الجملة أو النص. أما الترداد فهو: أن يأتي المتكلم بكلمة ثم يكررها بعينها ويعلقها بمعنى آخر^(١)، أي أن الدال والدال المكرر يحافظان على توافقهما الشكلي ثم يحافظان على توافقهما العميق، لكن تأتي إضافة لها أهميتها في إنتاج المعنى، تتمثل في اختلاف المنطقة التي يسلط كل دال فاعليته عليها، وهي إضافة لا تنتقص من التوافق بين الدالين، وإنما تنمي فاعليتهما مشكلة اتساعاً في مساحة المعنى الدلالي.^(٢)

وهذا يعني أن الألفاظ المكررة تتحد في المبنى والمعنى حالة التكرار، وتختلف الألفاظ في بعض الدلالة حالة الترديد، فكل ترديد تكرار وليس كل تكرار ترديداً.

ولاعم أسلوب التكرار الموضوعات التي عولجت من خلاله مشكلاً عمقياً دلالياً في السياقات التي يرد فيها. وتتوعد المسافة الفاصلة بين الدال والدال المكرر، ونسبة تكرار الدال الواحد في السياق.

^(١) عرف ابن رشيق الترديد بقوله: (هو أن يأتي الشاعر بلفظه متعلقة بمعنى، ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسم منه). ينظر: ابن رشيق، المعتمد، ج ٢، ص ٢.

^(٢) عز الدين علي، التكرير بين المنبر والتأثير، ص ٢٤٥. ومحمد عبد المطلب، البلاغة العربية-قراءة أخرى، ص ٣٦٥.

ومن صور تكرار الدال ذاته في مقولة أحد أطراف الحوار:

● تكرار المنادى:

شكل تكرار المنادى في رؤوس الجمل ظاهرة لافتة في الوصايا والنصائح لاستدراج المخاطب والتلطف في استمالته، فيناديه المتكلم نداء المشفق المتودد مكررا نداءه باسمه أو بصفته مبينا تخصيصه بمحتوى الرسالة دون غيره، ومثاله:

تصدير كل نصيحة من النصائح التي وجهها إبراهيم -عليه السلام- لأبيه بقوله: (يا أبت) توسلا إليه واستعطافا: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾^(١)

لقد أظهرت مقولة إبراهيم حرصه على هداية أبيه ونجاته من العذاب الذي ينتظره ان بقي على كفره وعناده، فأخذ يرجوه مكررا مناداته للإلحاح عليه. ويجسم هذا التكرار المشهد الحواري الذي دار بين إبراهيم وأبيه، فيصور الأب معرضا عن ابنه، ساخرا من كلامه، يشيح بوجهه عن إبراهيم الذي يلاحقه مناديا لسمع كلامه ونصحه. وهذا يعني وجود طرف معرض يرفض استقبال رسالة الطرف الآخر، فيلجأ الأخير إلى استخدام منبه تعبيرى يتمثل في تكرار مناداة الطرف المعرض لإيصال رسالته إليه.

وتكرار مناداة الملائكة لمريم مصرحين باسمها تنبيهها لها وتذكيرا وإشادة وتخصيصا لها دون غيرها من النساء:

﴿وإذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾^(٢).

^(١) مريم/ (٤١-٤٥).

^(٢) آل عمران/ (٤٢-٤٣).

تعلق النداء في الجملة الأولى بذكر نعم الله على مريم واختصاصها بها، وتعلق الدال المكرر بالأعمال المترتبة على مريم نتيجة هذا الاختصاص والتميز.

وترددت جملة (اصطفاك) تأكيداً وتدرجاً في سلم الاصطفاء، فقد (اصطفاك) أولاً حين تقبلتك من أمك وأنبئك يا مريم نباتاً طيباً، و(اصطفاك) ثانياً على نساء العالمين بأن خصك بهيات لم تكن ولن تكون لأحد من النساء. وربما كان في هذا التأكيد تمهيد لإبلاغها بأن الله سيهب لها غلاماً من غير أب.

وارتبط الدال الأول بجملة خبرية تحوي التعم التي أنعمها الله على مريم، وارتبط الدال المكرر بالأعمال التي على مريم أن تقوم بها، أي أن تكرر الدال مهد لانتقال في نمط العبارة الموجهة للمخاطب وربط أجزاء الخطاب بعضها ببعض.

وكرر يوسف، عليه السلام، نداءه للفتيتين اللذين صاحباه في السجن، معلقاً كل طرف من أطراف التكرار بغرض مختلف، رابطاً بهذا التكرار بين أجزاء الخطاب.

﴿ ودخل معه السجن فتيان. قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً. وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبثنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾^(١) فالفتيان يطلبان من يوسف أن يؤول لهما الرؤى التي رآها كل واحد منهما في منامه. ينتقل الحوار بعد هذا الطلب إلى الطرف الآخر (يوسف) الذي يتوقع منه أن يبادر إلى تفسير الرؤى، لكنه اتخذ من وصفهما إياه بالإحسان (إنا نراك من المحسنين) فرصة واصل بها وصف نفسه، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان.^(٢)

ويعلق الزمخشري على هذه الطريقة في الدعوة بأنها: "طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أن العالم

^(١) يوسف/٣٦.

^(٢) ينظر هذا الوصف وتلك الدعوة إلى الإيمان في الأَجين (٣٨، ٣٧) من سورة يوسف.

إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به فسي الدين - لم يكن ما باب التزكية^(١).

وبعدها يناديها منبها مشاعرهما ليكملا تلقى رسالته: ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟! ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(٢).

ويكرر ندائه مؤولا ما طلب منه تأويله في بداية الحوار: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا، وأما الآخر فيصلب فتاكل الطير من رأسه. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾^(٣).

وفي هذا التكرار لنداء المخاطب (يا صاحبي السجن) تجسيد لغوي لعنصر الاستمرارية في الخطاب، فقد تغير المضمون الذي علق به كل طرف من أطراف الحوار، وظلت الاستمرارية قائمة في جسد الخطاب. وتحقق السبك بين الفقرة التي ورد فيها الدال الأول والفقرة التي ورد فيها الدال المكرر، لأن تأويله للرؤى، وتأكده من تحقق التأويل على أرض الواقع جاء نتيجة لإيمانه بالله الواحد الذي يدعوهم لعبادته، إنه (عز وجل) من علمه تأويل الأمور الغيبية.

وتكرر توجيه النداء إلى لفظة (قوم) المضافة إلى ياء المتكلم المختزلة إلى كسرة تخففا في النطق، وذلك في عدد من المشاهد الحوارية التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم لتبهيهم واستمالتهم بتمكين الصلة التي تربطهم بهم وتثبيتها. ومن ذلك:

قوله تعالى على لسان موسى، عليه السلام، في حوار مع بني إسرائيل: ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا واتاكم ما لم يؤت أحدا من

^(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص (٤٥١-٤٥٢).

^(٢) يوسف/ (٣٩-٤٠).

^(٣) يوسف/ ٤١.

العالمين ، **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ^(١)

تعلق النداء في الجملة الأولى بذكر نعمة الله على بني إسرائيل، وتعلق الدال المكرر في الجملة الثانية بالطلب العملي (ادخلوا الأرض المقدسة) الذي يلي الطلب الأول (اذكروا نعمة الله عليكم)، فما علق بالدال المكرر يحيل إلى ما علق بالدال الأول.

وفي حوار مؤمن آل فرعون مع فرعون وقومه تكرر توجيه النداء إلى لفظة (قوم) ست مرات ^(٢)، لتتبيههم وتحذيرهم، لأن فرعون كان يقاطعه متجاهلاً كلامه ومسكتا صوته كي لا يؤثر على قومه، فكان الرجل المؤمن يكرر نداءه لقومه ليعيد انتباههم لكلامه كلما انقطع تواصله بهم بتدخل فرعون الكلامي:

﴿ **يا قوم، لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا.** وقال فرعون: ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، وقال الذي آمن: **يا قوم** اني أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضل الله فما له من هاد ^(٣)﴾

ويواصل الرجل المؤمن حوارَه مع قومه دون أن يناديهم لعدم وجود قاطع كلامي يحول اهتمام المتلقي ^(٤). ويثير حوارَه فرعون من جديد، فيقاطع خطابه بقوله ساخراً:

﴿ **يا هامان، ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً** ^(٥)﴾

ويدرك الرجل المؤمن اقتراب نهايته لجرأته وصراحته، فيدفعه ضيق الوقت المتاح له أن يكتف المنبه التعبيري (يا قوم) في خطابه لعله يجد آذاناً صاغية:

^(١) المائدة/ (٢٠-٢١).

^(٢) غافر/ ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٤١.

^(٣) غافر/ (٢٩-٣٣).

^(٤) تنظر الآيات المتضمنة حوار الرجل المؤمن وقد حلت من التركيب الندائي (يا قوم) في سورة غافر/ (٣٤-٣٥).

^(٥) غافر/ (٣٦-٣٧).

﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾^(١) إلى أن يقول: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾^(٢)

وبعد استعراض المواطن التي استهلكت بـ (يا قوم) في حوار الرجل المؤمن مع قومه، رأينا أن كل دال مكرر تعلق بجملة فيها درجة من التصريح بإيمان المتكلم تفوق تلك الموجودة في الجملة التي سبقتها، فالتصريح يتنامى تصاعدياً في كل جملة.

وشكل تكرار نداء الله عز وجل بغير أداة ظاهرة لافتة في دعاء الأنبياء والصالحين من عباده رجاء وتعلقاً بالقدر الإلهية، ومنه: تكرار الدال (ربنا) خمس مرات في دعاء أولي الألباب الذاكرين الله المتفكرين في خلقه: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾^(٣)

جسم تكرار الدال (ربنا) حالة ذكر الله الدائمة على لسان الذاكرين المتفكرين وترنمهم بتكرار ذكره، كما يوحى بتأديبهم في خطاب الله وخشيتهم التي تمنعهم من توجيه طلباتهم إليه توجيهاً مباشراً، ولذا نجدهم يمهّدون لكل عبارة بنداء الله (ربنا) مجردين نداءهم من أداة النداء لشعورهم بالقرب من مخاطبهم، وفي هذا التمهيد تخفيف من حدة الطلب المتمثل في أفعال الأمر (فقنا، فاغفر، وكفر، وتوفنا، وآتانا).

ولبيان أهمية الدور الدلالي الذي أوجده هذا التكرار دعونا نجرد الجمل الواردة في النص السابق من الدال المكرر (ربنا)، سنلاحظ أن الخطاب اكتسب شيئاً من الحدة لا تلائم المقام، كما سنلاحظ فارقاً في السبك أو الترابط بين مفردات النص وجمله، فتكرار الدال يشد أو اصر العلاقة الترابطية بين أجزاء النص.

(١): غافر/ (٣٨-٣٩).

(٢): غافر/ ٤١.

(٣): آل عمران/ (١٩١-١٩٤).

● تكرار الأدوات المخصصة:

يشكل تكرار الأدوات بأبعاد متقاربة عمقا دلاليا يكشفه السياق المقالي. ومنه تكرار مجموعة من الأدوات في عدد من سياقات التحدي والمكابرة والإنكار، ومثاله:

تكرار همزة السؤال في كلام منكري البعث: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾^(١)، فقد دل تكرار همزة السؤال في هذا السياق على التعجب والانكار، ولا يخفى ما تدل عليه الاسئلة المتوالية من سخرية واستبعاد.

وتكرر (أو) خمس مرات في حوار كفار مكة مع رسول الله: ﴿وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه. قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا؟﴾^(٢)

يجسد تكرار (أو) في هذا الحوار مقدار تعنت المتكلم ورغبته في تعجيز الخصم، فهو يتفنن في عرض طلباته التعجيزية، فقد تعلق بكل (أو) طلب من طلباتهم الخارقة، وكان صوتهم الجمعي توزع أصواتا متفرقة مع كل (أو)؛ فهذا يطلب من الرسول أن يفجر ينبوعا، وذاك يطلب أن تكون له جنة تتفجر خلالها الأنهار، وآخر يطلب أن يسقط عليهم السماء كسفا وهكذا.

وتتكرر (بل) في حوار الكفار مع بعضهم دالة على اضطرابهم وتحيرهم من كلام الرسول ورسالته:

^(١) المؤمنون/٨٢.

^(٢) الإسراء/(٩٠-٩٣).

﴿ بل قالوا: أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾^(١)؛ إنهم يقولون القول ثم يضربون عنه، فقد أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى كونه كلاماً مفترى من عنده، ثم إلى وسمه بقول شاعر.

يقول الزمخشري: "وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجاء غير ثابت على قول واحد. ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد؛ وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، وكذلك الرابع من الثالث"^(٢). وهذا ما عكسه تكرار (بل) معمقا دلالة الإضراب والحيرة والتردد.

وتكررت (ما النافية) في المواجهة الحوارية بين الكافرين ورسول الله دالة على إصرارهم على رفض قبول دعوتهم وذلك في عدد من المشاهد الحوارية التي دارت بين الرسل وأقوامهم، نذكر منها:

قوله تعالى على لسان قوم عاد في حوارهم مع هود:

﴿ يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾^(٣) فقد وردت (ما) في كلامهم ثلاث مرات، تعلقت في كل مرة بمبرر واه لعدم إيمانهم بدعوة هود، وفي تكرار النفي دلالة على أنهم قوم جفاة، لا يلتفتون إلى النصيح، ولا تلين شكيמתهم للرشد. كما دلت على رغبتهم في تينيس هود من الإجابة.

ومثله ما حكاه الله على لسان قوم نوح في محاورتهم مع نوح: ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾^(٤).

إنهم يلاحقون بهذا التكرار نوح عليه السلام، برفضهم واستكبارهم، وقد أدت سلسلة النفي المتمثلة بـ (ما نراك) إلى إبراز تأكيدهم الوارد في نهاية مقولتهم (بل نظنكم كاذبين).

^(١) الأنبياء/٥.

^(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ١٠.

^(٣) هود/٥٣.

^(٤) هود/٢٧.

وتكررت ما النافية في سياق آخر يختلف عن السياقات السابقة، وذلك على لسان رجل من أهل الجنة، أثارت رؤيته لقرنيه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين. فأحب أن يؤكدوا ويستعرضوها، ويطمئن إلى دوامها، فقال لمن حوله:

﴿أفما نحن بميتين، إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين، إن هذا لهو الفوز العظيم﴾^(١) إنه يكرر ما النافية وضمير المتكلمين (نحن) لتأكيد نفي إيقاع العذاب والموت بهم هم دون غيرهم.

كما تكررت ما النافية في عدد من المشاهد الحوارية التي حاول فيها أحد الأطراف تأكيد نفي تهمة الصقها به الطرف الآخر، ومنه:

قول أبناء يعقوب، عليه السلام، حين اتهموا بسرقة صواع الملك: ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد الأرض وما كنا سارقين﴾^(٢).

وتكررت (لا الناهية) في عدد من السياقات التي يجمعها مبدأ التناصح والحث على نهى ارتكاب أفعال معينة، ومن ذلك:

قوله تعالى في حوار التلقيني لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قل: تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم: ألا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾^(٣).

وقوله تعالى على لسان شعيب في حوار مع قومه: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾^(٤).

وقوله تعالى على لسان لقمان الحكيم في حوار مع ابنه: ﴿ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾^(٥).

(١) العنقايات/ (٥٨-٦٠).

(٢) يوسف/ ٧٣.

(٣) الأنعام/ (١٥١-١٥٢).

(٤) هود/ ٨٥.

(٥) لقمان/ ١٨.

إن تكرار لا الناهية في هذه النصوص أضفى عليها تنظيمًا سطحيًا خاصًا راجعًا إلى تحقيق توافقات أو تشابهات خاصة مع الغرض الكلي؛ ففي الحوار الأول، تعلقت بكل (لا) قضية جزئية خاصة، ارتبطت مع القضايا الجزئية الأخرى مجسدة المعنى الكلي المتمثل في قوله: ﴿تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾، وكذلك الأمر في المثالين الآخرين.

وتكررت (لا النافية) مؤكدة نفي نسبة صفات أو أفعال مخصوصة يجمعها حقل دلالي واحد إلى من يدور حوله محور الخطاب، ومن ذلك:

قوله تعالى على لسان إبراهيم، عليه السلام، في حوار مع أبيه: ﴿يا أبت، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾^(١) فقد تعلق بكل (لا) فعل من الأفعال المنسوبة إلى الأحياء، ليؤكد تكرار النفي صفة واحدة هي جمود معبوداتهم وفقدانها عنصر الحياة. فالتكرار يجزئ الصفة العامة إلى صفات جزئية ويعيد ربطها وتوحيدها في الوقت ذاته.

واستخدم إبراهيم الأسلوب ذاته في حوار مع قومه: ﴿قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم﴾^(٢) حيث جمع تكرار لا النافية بين فعلين متقابلين (ينفعكم، يضركم) في بيان صفة واحدة، فتساوى الشيء وضده.

وتكررت (لام التأكيد أو القسم) في عدد من السياقات مجسدة درجة توتر الطرف المحاور، الذي دفعه حقه أو غضبه على الطرف الآخر أن يؤكد تهديداته التي سيوقعها بخصمه بتكرار لام التأكيد مع كل تهديد، فها هو إبليس يعقد العزم على إهلاك بني آدم بالوساوس التي سترديهم في نار جهنم:

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيْتَكُنَّ آذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرَّةَ لَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾^(٣)

إن من يقرأ هذا النص يشعر بثقل وتشديد خائنين نتيجة توالي التوكيد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ويستشعر مقدار حقد المتكلم وغيرته وتأكيده لما سيقوم به من أفعال شريرة.

^(١) مريم/٤٢.

^(٢) الأنبياء/٦٦.

^(٣) النساء/١١٨-١١٩.

وقد يعلق بالفعل الواحد نفى الطلب وإثباته، ومثاله قول يعقوب لبنيه:
 ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾^(١) فالأمر بعدم الدخول
 يتعلق بكون الدخول من باب واحد، أما أمر الدخول فيرتبط بأبواب متفرقة.

وقول الشيطان لأتباعه يوم القيام:

﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾^(٢)

فقد نهى عن إيقاع لومهم عليه، وطلب وقوع اللوم على أنفسهم، وتغير الدال (ما أنا
 بمصرخكم) ليكون الخطاب من المتكلم إلى المخاطب لتتم عملية المحادثة بهذه التغييرات في
 الضمان، وفصلت الواو بين الدالين لتجمع بينهما دالة على المساواة بين طرفين.

ومن صور تكرار الدوال القائمة على النفي قوله تعالى:

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾^(٣)
 فقد جاء الدال الأول منقياً (ليس البر) والدال المكرر مثبتاً.

ويرتبط هذا الأسلوب بالسياقات التوضيحية التعليمية، فاشع عز وجل يطلب من رسوله أن
 يوضح مفهوم البر للمسلمين، فينفيه أولاً منزلاً إياه منزلة المعدوم، وبعدها يكرر الدال مثبتاً
 مفهومه السليم.

ويتردد الفعل في الجملة الواحدة، وتتغير علاقاته التركيبية مع غيره من العناصر،
 فتتكون للدال الواحد صور مطابقة لكنها مقولبة في أطر تركيبية متنوعة مما يعطي عمقاً دلاليّاً،
 كما في قوله تعالى على لسان رجل من شعبة موسى لموسى لما أرد أن يبطش بالذي هو عدو
 لهما:

^(١) يوسف/٦٧.

^(٢) إبراهيم/٢٢.

^(٣) البقرة/١٨٩.

﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾^(١) فقد تكرر الفعل (تريد) في تركيبات ثلاثة؛ تركيب استفهامي (أتريد)، وتركيب خبري فيه معنى التأكيد (إن تريد)، وتركيب نفي (وما تريد). ويؤكد تكرار الفعل في التركيبين الآخرين معنى الدال في التركيب الأول، فأرادة قتله تعني إرادة أن يكون جباراً وعدم إرادته للإصلاح.

وقد يكرر الدال ذاته بقالبه التركيبي وترديده مع متعلقات مختلفة في كل مرة، مشكلاً اتساعاً في العمق الدلالي، كقوله تعالى للملائكة:

﴿سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾^(٢) حيث أفاد تردد الفعل (اضربوا) تفصيل موقع الضرب فهو إما واقع على مقتل (فوق الأعناق)، أو واقع على غير مقتل (البنان: الأصابع ويريد الأطراف)، فالله يأمر ملائكته بأن يجمعوا على الكافرين النوعين معاً، وفي هذا دليل على الشمول والإحاطة.

وقوله تعالى للرجل الذي أماته مائة عام ثم بعثه: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً﴾^(٣)، وفيه تشكل التكرار بترديد الفعل (انظر):

انظر- إلى طعامك وشرابك.

انظر- إلى حمارك.

انظر- إلى العظام.

وقد خلق الترداد تقسيماً أدى إلى بروز القضية التي تحويها كل جملة، لتشير تأمل المخاطب وتجييب عن تساؤله: (أنى يحيي هذه الله بعد موتها)، لتشكل بمجملها قضية البعث والنشور.

وقوله تعالى على لسان رجل مؤمن في حوار مع قومه: ﴿يا قوم، اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾^(٤)

^(١) القصص/١٩.

^(٢) الأنعام/١٢.

^(٣) البقرة/٢٥٩.

^(٤) يس/٢٠-٢١.

لقد تم هنا ارتباط طرفي التردد من خلال علاقة التكرار. وارتبط كل طرف من هذين الطرفين بما تعلق به (المرسلين/من لا يسألكم أجراً) من خلال الاسناد، وهي علاقة تعني التلازم بين طرفيها؛ فدخل أحدهما (اتبعوا) في ارتباط بطرف آخر (اتبعوا)، يتبعه دخول الثاني (المرسلين) في ارتباط مع متعلق الطرف الآخر (من لا يسألكم أجراً) كما أن الاستبدال في هذا الارتباط دل على التكافؤ بينهما، فالمرسلون هم من لا يسأل أجراً، ومن لا يسأل الناس أجراً هم المرسلون. وقد لجأ المتكلم إلى إجراء هذا التكافؤ لإبراز طرفيه للمخاطبين.

ومثله قوله تعالى على لسان هود عليه السلام في حوار مع قومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾^(١) فقد تعلق طرف التكرار الأول (فاتقوا الله)، وتعلق الدال المكرر بـ (الذي أمدكم بما تعلمون)، والعلاقة الرابطة بين متعلق الدال الأول ومتعلق الدال المكرر علاقة توضيح ووصف، أي أن الحديث عن متعلق الطرف الأول استمر واتسع معناه وتعمق مع الدال المكرر.

كما تكررت الجملة (أمدكم) مشكلة الطرف الأول من أطراف عملية تكرارية متولدة من التكرار الأول دون أن تتفصل عنه. وتعلقت بالطرف الأول جملة (بما تعلمون) التي فصلت وكشفت عن مضمونها بمتعلق الدال المكرر (بأنعام وبنين) أي أن مقولة (بما تعلمون) تعادل وتكافئ مقولة (بأنعام وبنين).

وهكذا فقد شكل التكرار في العبارة السابقة رابطاً يدمج عناصرها لتكوينية مجسماً علاقة الأصل بما تفرع عنه، فالدال الأول يعد الجملة الأم التي تمهد لميلاد جملة أخرى ترتبط معها بمشيمة التكرار، ويحيل متعلق الدال المكرر إلى متعلق الدال الأول، ومن ثم يحصل السبك بينهما.

ويقودنا هذا المثال إلى الحديث عن التكرار التفصيلي، ومثاله:

قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون في حوار مع فرعون وقومه: ﴿وَبَاقُومَ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾^(٢) إنه يبدأ بالسؤال الإنكاري الذي يلخص المعنى الإجمالي لطبيعة موقفه معهم وطبيعة موقفهم معه، ثم يفصل ما أجمله مكرراً الدالين (أدعوكم/تدعونني)

(١) الشعراء/١٣١، ١٣٢، ١٣٣.

(٢) غافر/ (٤١-٤٢).

ومعلقاً بهما جملًا تفصل المتعلقات السابقة وتحيل إليها مجسدة المعنى ومفسرة المقصود. فالدال الأول: (أدعوكم إلى النجاة)، يقابل ويكافئ الدال المكرر: (أدعوكم إلى العزيز الغفار). والدال: (تدعونني إلى النار)، يقابل ويكافئ الدال المكرر: (تدعونني لأكفر بالله واشرك به ما ليس لي به علم).

وقد ذكرنا أن التكرار ضرب من ضروب الإحالة إلى السابق، فمتعلق الدال المكرر يحيل إلى متعلق الدال الأول، والعلاقة بين المتعلقين علاقة سبب بنتيجة؛ فما تعلق بالدالين المكررين هو السبب، وما تعلق بالدالين الأولين كان النتيجة. فالدعوة للكفر والشرك تؤدي إلى دخول النار، والدعوة إلى الإيمان بالعزيز الغفار تؤدي إلى النجاة من العذاب. وهكذا يتم السبك، وتتجسد الاستمرارية.

ويتجاوز الدالان في عدد من السياقات ويفصل بينهما فاصل، ومن الأمثلة على هذه الصورة:

قوله تعالى على لسان العزيز في حوار مع زوجته وقد ثبتت تهمة مراودتها ليوسف: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾^(١) حيث فصلت أداة التوكيد (إن) بين الدالين المتجاورين، مشكلة ركيعة ينتقل بواسطتها إلى التعليق على ما سبق بيان حكمه.

وقوله على لسان مريم في حوارها مع زكريا وقد سألها عن مصدر الرزق الذي عندها فأجابته: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُرْزُقُ مِنْ يَشَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

وقد تتجاوز الدوال المكررة ويتلاحق العطف بينهما مؤدياً دور الفاصل الجامع بين الأقسام المتساوية كقوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٣) إن هذه الجزئيات دوال مكررة مع تغيير الضمائر بما يناسب عملية المحاورة بين المتكلم والمخاطب، يربطها إطار مكون من ثلاثة أفعال (تعالوا ندع/ثم

^(١) يوسف/٢٨.

^(٢) آل عمران/٣٧.

^(٣) آل عمران/٦١.

نبتهل/فنجعل) وقسمت الدوال بين الأبناء والنساء والآنفس ثم يطلب منهم الابتهاال. وبدأ بالدعوة إلى ضم الأبناء فالنساء فالآنفس إلى نفسه إظهاراً للموضوعية وإنصافاً للخصم.

يقول الزمخشري في تعليقه لهذا الترتيب: "وذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه ولم يقتصر على تعريض نفسه له، ودل على ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل نفسه وحارب دونهم حتى يقتل"^(١).

ومثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان بني إسرائيل في حوارهم مع موسى عليه السلام: ﴿يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾^(٢) حيث فصلت إن الشرطية بين الدالين المتجاورين (يخرجوا منها)، وجاء الدال الأول شرطاً إن تحقق دخولهم، فالدخول متعلق بخروج القوم الجبارين.

وتأكد هذا الشرط في العبارة التي ورد فيها الدال المكرر مع عكس وتبديل الموقع الذي حل فيه، أو لنقل أنها عملية توقف مؤقتة عدلت فيها الصياغة خط سيرها لتجعله خطأ مزدوجاً يعتمد على التقديم والتأخير الذي تتبادله الدوال المتماثلة. وقد تسلطت بنية العكس على المنطقة المحور في الخطاب لتأكيد مضمونها بهذه الحركة التقديمية على المستوى الأفقي التي جاورت بين الدالين فتركز المعنى المراد.

وقد تتسع المساحة المكانية الفاصلة بين الدال الأول والدال المكرر فينتج هذا التباعد ترابطاً يشد عناصر الجملة أو العبارة من أولها إلى آخرها، أي أن التكرار يغدو آلية من آليات التذكر، ومثاله:

قوله تعالى على لسان الملأ الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾^(٣) حيث أحال الدال المكرر (أنكم) إلى (أنكم) الأولى،

^(١) الزمخشري، الكشاف، (١/٣٦٢-٣٦٣).

^(٢) المائدة/٢٢.

^(٣) المؤمنون/٣٥.

خشية تناسيه لطول العهد به في القول على حد تعبير السجلماسي؛^(١) حيث جاءت (أنكم) وبعدها جملة ليس فيها خبر (أن)، ثم جملة ثالثة ليس فيها خبر (أن)، وحين أريد إدراج هذا الخبر في الجملة الثالثة، كان قد طال العهد بين (أن) واسمها من جهة، وخبرها من جهة أخرى، مما يخشى معه تناسي وجود أن واسمها، فأعيدت (أنكم) مرة ثانية، لتربط أجزاء الكلام بعضها ببعض.

ومثاله قوله تعالى لسان يوسف، عليه السلام، في حوار مع أبيه:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٢) فقد تكررت الجملة الفعلية (رأيت) لوصول أول الكلام بآخره، مع تبديل في هيئة المفعول به، فما صرح به مع الدال الأول (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) أضمر مع الدال المكرر (هم) في (رأيتهم).

كما يعكس هذا التكرار أسلوب الأداء اللغوي عند الطفل يوسف وهو يقص رؤياه على أبيه متعجبا مسرورا بما رآه، إنه يريد تأكيد رؤيته لهذه الأشياء فيعيد (رأيت) ويعلق بها الضمير (هم) الذي يعود على الأشياء المذكورة مع الدال الأول لتأكيد.

ويكرر الدال الواحد مع نهاية كل جملة تامة في كلام المرسل محافظا على توزيعه المكاني، ليوقف المخاطب عند هذا الدال وقوفا إجباريا قبل أن يواصل نقل رسالته، وذلك تأكيدا لمضون الدال المكرر. ومنه قوله تعالى في حوار مع عيسى عليه السلام مذكرا إياه بنعمه عليه:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا، بِإِذْنِي، وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، بِإِذْنِي، وَإِذْ تَخْرِجُ الْمَوْتَى، بِإِذْنِي...﴾^(٣)

فقد تكرر الدال (بإذني) عقب كل معجزة خارقة لا يقدر عليها؛ للتأكيد على أنها تحققت على يد عيسى بتسهيل من الله وإذن منه، وليس مخترع بهذا التكرار بشرية عيسى، عليه السلام، لمواجهة من ادعى ألوهيته، ودحض هذه الافتراءات.

^(١) أشار السجلماسي إلى هذا الضرب من التكرار بعد أن اصطاح على سمعه بـ (الباء)، فقال في تعريفه: (الباء: هو إعادة اللفظ بالعدد وعلى الإطلاق، المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعداً؛ خشية تناسي الأول لطول العهد به) بنظر: السجلماسي، المتزع البديع في نخب أساليب البديع، ص (٤٧٧-٤٧٨).

^(٢) يوسف/٤.

^(٣) المائدة/١١٠.

وتكرر هذا الدال على لسان عيسى -عليه السلام- إقرارا واعترافا منه بكون المعجزات التي جرت على يديه أمورا سيرها الله على يديه، فقال في حوار مع بني إسرائيل: ﴿قد جئكم بآية من ربكم: أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيرا، ياذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى، ياذن الله، وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾^(١).

فقد جاء الدالان في نهاية العبارة التي تحوي مضمونا خاصا يتعلق بالخلق والنفخ والإحياء، وهي أفعال خاصة بالقدرة الإلهية، لذا نجد المتكلم يحترس في نسبه هذه الأفعال إلى نفسه خوفا من أن يؤلهه أتباعه، وإقرارا واعترافا بفضل الله عليه. وواضح ما يؤديه التكرار من تجديد الدلالة ومواجهة المتلقي بهذا التكرار لمنع تشكل فكرة أو اعتقاد خاطئ في ذهنه.

وهكذا نكون قد تناولنا صورا من هذا اللون من التكرار، محاولين الربط بين الأبينة التكرارية والمضامين الحوارية المتشكلة فيها، وذلك في إطارين:

➤ الإطار الأول: ما تكرر من الدوال الواردة في مقولة أحد أطراف الحوار في عبارة الطسرف الآخر.

➤ الإطار الثاني: ما تكرر من الدوال في مقولة طرف واحد.

(١) آل عمران/٤٩.

● النمط الثاني: تكرار جمل من حوار الشخصية ذاتها في غير سورة
تكرارا لفظيا تاما أو تكرارا لفظيا منقوصا تعتوره تغيرات يتطلبها
المقام:

تكررت المحاورات في مواضع متعددة من سور القرآن الكريم، فالمحاوراة الواحدة للشخصية المحاوراة ذاتها تعاد أحيانا بلفظها التام، وتتصب عناصرها أحيانا في قوالب متنوعة فيتقدم عنصر في محاوراة، ويتأخر في المحاوراة ذاتها في موضع غير الموضع الأول، أو يزداد عنصر في المحاوراة المعادة أو ينقص، أو يبدل عنصر بآخر، لتقرير معنى واحد.

وهذا التغيير في البنية اللغوية للمحاوراة الواحدة لا يخرجها من اطار التكرار اللفظي، فالمعنى الواحد الذي تنور حوله المحاوراة يتحقق ويترسخ بطرق أداء متنوعة اقتضاهاها المقام، مع مراعاة الفروق الدلالية الدقيقة المترتبة على أي تغيير في النظام التركيبي للجملة. فالتكرار لا يأتي الا ويقدم زيادة في المحاوراة لم تكن قد وردت من قبل^(١).

يقول ابن الاثير: "فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئا منه تكرر، من حيث الظاهر، فأنعم نظرك فيه، وانظر إلى سوابقه ولواحقه لتكشف لك الفائدة منه"^(٢).

ففي تكرار الحوار الواحد إبراز للجوانب التي لا يمكن أدائها على وجه من واحد وجوه التعبير، فالبارة تعاد أكثر من مرة مبرزة في كل مرة وجها من وجوه الزاوية المحيطة بالحدث الحواري فيخرج المتلقي بتصور كامل للمشيد الحواري الواحد، هذا بالإضافة إلى تأكيد مضمون الحوار وتثبيتته في نفس السامع لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرزه ويبرزها، فالكلام كلما تكرر تقرر. (٣)

(١) أشار إلى هذا المعنى الزركشي في برهانه حين قال: (إن التكرار لا يأتي إلا ويقدم زيادة في الفعة لم تكن قد وردت من قبل). ينظر:

الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٣٧.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ج ٣، ص ٨.

(٣) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٩٩.

ويأتي هذا النمط في عدة أساليب منها:

(أ) التكرار اللفظي التام:

ويتضمن جملاً من حوار الشخصية لغيرها تكررت بلفظها ومعناها في غير سورة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

١- التكرار اللفظي التام في حوار الأنبياء مع أقوامهم. ومثاله ما جاء في:

قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام في حوار مع قومه: ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب﴾، فقد تكررت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف وهود. ^(١) ففي السورتين الكريمتين عرضت حوارات عدد من الأنبياء وأقوامهم، وقد دارت حول تنكير الأنبياء لأقوامهم بنعم الله عليهم وآياته، وتحذيرهم من عاقبة كفرهم وجحودهم بها، ولذا تكررت الجملة المحور في كلام صالح مندرجة تحت حوارات غيره من الأنبياء لأنها تحوي تنكيراً بآية خارقة من آيات الله، وتحذيراً من عقربها، وهكذا أفاد تكرار هذه الجملة تكرار التذكير والتحذير.

ونجد هذا النمط من التكرار في السورتين السابقتين وسورة الشعراء للغاية ذاتها في قوله تعالى على لسان شعيب، عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ ^(٢)، وقوله: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ في سورتي هود والشعراء ^(٣).

وقوله تعالى على لسان عيسى، عليه السلام، في حوار مع بني إسرائيل: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ في سورتي آل عمران والزخرف ^(٤). وقوله: ﴿فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ في ثلاث سور هي: آل عمران، مريم، الزخرف ^(٥).

إن في تكرار الجملتين السابقتين دليل على التزام عيسى، عليه السلام، بدعوة بني إسرائيل إلى تقوى الله وطاعته وتركيز على أمر عيسى قومه بعبادة الله وحده فهو ربه وربهم،

^(١) الأعراف/٧٣، هود/٦٤.

^(٢) الأعراف/٧٣، هود/٦١، الشعراء/١٨٣.

^(٣) هود/٨٥، الشعراء/١٨٣.

^(٤) آل عمران/٥٠، الزخرف/٦٣.

^(٥) آل عمران/٥١، مريم/٣٦، الزخرف/٦٤.

ففي هذا التكرار تنزيه لعيسى من أن يكون قد دعا بني إسرائيل لعبادته، ورد على من قال إن عيسى ابن الله.

وقوله تعالى على لسان هود، عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾. فقد تكررت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الشعراء والأحقاف^(١)، دالة على حرص هود على قومه، وتكرار تحذيرهم مرات عديدة. كما تكررت هذه العبارة في حوار نوح، عليه السلام، مع قومه: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم﴾ في سورتي الأعراف وهود^(٢) للغاية ذاتها.

وقوله تعالى على لسان نوح، عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ في سورتي الأعراف والمؤمنين^(٣).

وقوله على لسان هود: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ في سورتي الأعراف وهود^(٤)، وتكرر جملة ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ في سورتي الأعراف والمؤمنين^(٥) على لسانه أيضا .

وقوله على لسان صالح، عليه السلام: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾. في سورتي الأعراف وهود^(٦). وتتكرر الجملة السابقة بلفظها مرتين على لسان شعيب عليه السلام: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ في السورتين السابقتين أيضا^(٧).

نلاحظ أن الجمل السابقة تكررت على لسان كل رسول مرتين، فالتكرار مزدوج، تكرار على لسان المتكلم الواحد مرتين، وتكرار الجملة ذاتها على لسان أكثر من متكلم. وفي

(١) : الشعراء/١٣٥، الأحقاف/٢١.

(٢) : الأعراف/٥٩، هود/٢٦.

(٣) : الأعراف/٥٩، المؤمنون/٢٣.

(٤) : الأعراف/٦٥، هود/٥٠.

(٥) : الأعراف/٦٥، المؤمنون/٣٢.

(٦) : الأعراف/٧٣، هود/٦١.

(٧) : الأعراف/٨٥، هود/٨٤.

هذا دليل على وحدة الرسالة التي جاء بها رسل الله ، وتأكيدهم دعوتهم لأقوامهم بتكرارها مرات عديدة ملتزمين بما فيها (أعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وجاءت هذه موزعة في سور ثلاث هي الأعراف ، هود ، المؤمنون .

٢- التكرار اللفظي التام في ردود المعاندين لرسل الله وأتباعهم:

مثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان فرعون في حوار مع موسى: ﴿ فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ فقد تكررت الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف والشعراء^(١)، مع إبدال الضمير المتصل بحرف الجر ليلائم جنس الكلمة التي ذكرها موسى، فقد قال في آية سورة الأعراف: (قد جئتمكم ببينة) فجاء رد فرعون: (فأت بها) . وفي آية سورة الشعراء قال موسى لفرعون: (أولو جئتكم بشئ مبين)، فقال فرعون: (فأت به) .

وتكررت الجملة السابقة بلفظها لأهميتها في تغيير مجري الأحداث وتسارعها نحو النهاية؛ ففيها يطلب فرعون من موسى متحديا ساخرا أن يأتي بالآية المعجزة، فيأتي موسى بها ويؤمن السحرة بدعوة موسى، وتتوالى الصراع بين الجانبين منتهيا بفرق فرعون . فالجملة السابقة هي المفتاح الذي فتح باب الصراع بين فرعون وموسى على مصراعيه، ولذا تكررت بلفظها في موضعين.

وتكررت جمل بالفاظها في قوله تعالى على لسان فرعون في حوار مع السحرة بعد إيمانهم: (أمنتم له قبل أن أذن لكم) في سورتي طه والشعراء^(٢)، وجاء الجزء الأخير من العبارة بلفظه التام (قبل أن أذن لكم) في سورة الأعراف^(٣).

ومثلها تكرار مقولة: ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾،^(٤) ومقولته: ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾،^(٥) و ﴿ لأصلبنكم ﴾^(٦)، التي تكررت في المواضع المذكورة بأعيانها، وطرأت عليها تحويرات دقيقة في مواضع أخرى سنذكرها عند الحديث عن التكرار غير التام وفي هذا تنوع في طريقة الأداء بقرر المعنى ويبرزه من جوانب متعددة، وفيه

(١): طه/٧١، الشعراء/٤٩.

(٢): الأعراف/١٢٣.

(٣): طه/٧١، الشعراء/٤٩.

(٤): الأعراف/١٢٤، الشعراء/٤٩.

(٥): طه/٧١، الشعراء/٤٩.

غير التام وفي هذا تنوع في طريقة الأداء بقرر المعنى ويبرزه من جوانب متعددة، وفيه توضيح للعقوبة بتكرير ذكرها ليكون في ذلك توجيها للمتلقى بالصبر على العقوبة مهما عظمت اقتداء بصبر السحرة على عقوبة فرعون طمعا بالأجر العظيم يوم القيامة .

٢- التكرار اللفظي التام في حوار أحد الأطراف مع الله عز وجل أو العكس ومنه:

قوله على لسان إبليس : ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، فقد جاءت هذه الجملة بلفظها التام في سورتي الأعراف و ص^(١)، للدلالة على استكبار إبليس واحتقاره لأدم وعصيانه لأمر الله، ففي تكرير هذه الجملة إبراز لها لتحذير بني آدم من إبليس. وهي جملة محور أنهت وجود إبليس في الجنة فبدأ انتقامه من عدوه آدم. وجاءت الجملة في السورتين في سياق الحديث عن مصير أتباع إبليس ومصير أعدائه.

ولتأكيد اللعنة التي لحقت بابليس نتيجة استكباره وعصيانه لأمر الله جاء قوله تعالى: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ مكررا بلفظه التام في سورتي الحجر و ص^(٢).

(ب) التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير:

وذلك بأن تعاد الجمل في محاوراة الشخصية لغيرها في غير سورة ويطرأ على ترتيب ألفاظها تغيير، فيتقدم في جملة لفظ تأخر في الجملة ذاتها في سورة أخرى، أو يتأخر لفظ في جملة كان متقدما في سياق آخر.

ويحدث التقديم والتأخير تغيرا في الدلالة ذاتها بينما لا يختلف المعنى العام، وهذا يعني قيام الصياغة في سياقات التقديم والتأخير على عنصرين هما: الثابت والمتغير^(٣)، فالمعنى هو العنصر الثابت الذي لا يختلف بتقديم أو تأخير، والدلالة هي العنصر المتغير الخالق للإبداع. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب ما جاء في:

(١) الأعراف/١٢، ص/٧٦.

(٢) الحجر/٣٤، ص/٧٧.

(٣) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص ٢٥٢.

قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾^(١)، وقوله: ﴿آمنا برب هارون وموسى﴾^(٢). نلاحظ تقديم "موسى" على "هارون" في الآية الأولى، وتأخره عنه في الآية الثانية.

وقوله تعالى على لسان زكريا: ﴿ربي أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقراً﴾^(٣). وقوله: ﴿ربي أنا يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾^(٤) بتقديم حالة زوجته على حالته في آية سورة مريم، وتقديم حالته على حالة زوجته في آية سورة آل عمران.

وقوله تعالى ملقنا سيدنا محمد: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾^(٥)، وقوله: ﴿قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾^(٦) بتقديم النفع على الضرر في آية سورة الأعراف، وتقديم الضرر على النفع في آية سورة يونس.

قوله تعالى على لسان كفار مكة: ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل هذا إلا أساطير الأولين﴾^(٧). وقوله: ﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾^(٨) بتقديم المفعول به الثاني "هذا" على "نحن وآباؤنا" في آية سورة النمل.

(ج) التكرار اللفظي مع الإبدال:

وذلك بأن تعاد الجملة في موقعين أو أكثر، ويقرأ عليها في موقع إبدال حرف بحرف آخر، أو إبدال الكلمة بكلمة أخرى، أو إبدال الكلمة بضمير، أو إبدال الضمير بضمير آخر، أو إبدال المتكلم بمتكلم آخر أو غير ذلك.

(١) الأعراف/١٢٢، طه/٧٠.

(٢) آل عمران/٤٠.

(٣) مريم/٨.

(٤) الأعراف/١٨٧.

(٥) الأعراف/١٨٧.

(٦) يونس/٤٩.

(٧) النمل/٦٨.

(٨) المؤمنون/٨٣.

• أنماط التكرار اللفظي مع الإبدال:

أولاً: إبدال الحرف بحرف آخر ومنه:

قوله تعالى على لسان فرعون في حوارهِ للسحرة بعد إيمانهم: ﴿ثُمَّ لَأُصْلَبْنَكُمْ﴾^(١)، وقوله في موضع آخر: ﴿وَأُصْلَبْنَكُمْ﴾^(٢)، فقد جاء التعبير بـ "ثم" في الأولى، وبـ "الواو" في الثانية، مع أن الجملة صدرت في موقع واحد، ومن متكلم واحد، وفي ظرف انفعالي واحد.

علل الخطيب الإسكافي هذا بقوله: "والجواب أن يقال إن السورتين اللتين جاءت الواو فيهما بهذا اللفظ منهما هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر والبسط الأوسع، والواو أشبه بهذا المعنى لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقا لما قبلها كالتعقيب الذي يفاد بالفاء، ويجوز أن يكون متراخيا عنه كالمهلة التي تفاد بـ"ثم"، لا بل يجوز أن يكون بعدها مقدما على ما قبلها ومجامعا لها إذ هي موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها، فكانت الواو أشبه بهذين المكانين، وثم تختص بأحد المواضع التي يصلح الواو لجمعها، فلما كانت مقتضرا بها على بعض ما وضعت له الواو استعملت حيث اختصرت الحال فاقترن بكل من المكانين ما كان أليق بالمقصود فيه، فلذلك خصت (ثم) في سورة الأعراف. (الواو) في السورتين الأخريين. والله أعلم"^(٣).

وقال الكرمانلي: "قوله: (ثم لأصلبنكم)، وفي السورتين: (ولأصلبنكم) لأن (ثم) تدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع، وإذا دل في الأولى، علم في غيرها، لأن موضع (الواو) تصلح له (ثم)"^(٤).

و أقول: تميزت آية سورة الأعراف عن آيتي سورة طه وسورة الشعراء بالتصريح بالقائل "قال فرعون"، وبعبارة ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ التي قابلتها عبارة ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾ في آية سورة طه وآية سورة الشعراء. وباستخدام (ثم) قبل الفعل (لأصلبنكم). ففي آية سورة الأعراف بسط وتوضيح لا نجده في الآيتين الأخريين، ونعلل هذا بالنظر إلى ترتيب السور الثلاثة وفق نزولها، فسورة الأعراف نزلت قبل طه والشعراء، فصرح بالقائل فيها ولم يصرح بالقائل في الآيتين الأخريين اعتمادا

^(١) الأعراف/١٢٤.

^(٢) طه/٧١، الشعراء/٤٩.

^(٣) الخطيب الإسكافي، درة التريل وغرة التأويل، ص ١٧٩.

^(٤) الكرمانلي، الترهان، ص ٩١.

على ذكره في آية الأعراف، وجيء بـ "ثم" للدلالة على أن الصلب يقع بعد التقطيع من غير قصد مهلة زمنية، بل ليعرف ترتيب وموقع ما يعطف بها. ولما عرف هذا استبدلت (ثم) بالواو في آيتي طه والشعراء موجبة بالجمع بين القتل والصلب مع الترتيب أيضا.

وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿أمنتكم به قبل أن آذن لكم﴾^(١) في آية سورة الأعراف، وقوله: ﴿أمنتكم له قبل أن آذن لكم﴾^(٢) في آيتي سورة طه والشعراء. وللأسئلة أن يسأل عن سبب قوله: (أمنتكم به) في الموضع الأول، وقوله: (أمنتكم له) في الموضعين الآخرين.

أجاب الإسكافي عن هذا التساؤل بقوله: "الجواب هو أن الهاء في (أمنتكم به) غير الهاء في (أمنتكم له)، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى. فالتى في (أمنتكم به) تعود لرب العالمين، لأنه تعالى حكى عنهم (قالوا: آمنا برب العالمين)، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام.

وأما الهاء في (أمنتكم له) فلموسى عليه السلام، والدليل على ذلك أنها جاءت في السورتين، ويعدّها في كل واحدة منها: (انه لكبيركم الذي علمكم السحر)، فالهاء في (إنه) هي التي في (أمنتكم له)، ولا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام. والذي جاء بعد قوله: (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد والبلاد.

ويجوز أن يكون الهاء في (أمنتكم به) ضمير موسى عليه السلام، لأنه يجوز أن يقال: (آمن بالرسول)، أي أظهرتم تصديقه وأقدمتم على خلافي قبل أن آذن لكم فيه، وهذا مكر مكرتموه وسر أسررتموه لتقلبوا الناس عليه، فاقتضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فاما الإيمان له في الموضعين الآخرين، فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله ومن أجل ما أتى به من الآيات، فكانه قال: أمنتكم برب العالمين لأجل ما ظهر لكم على يدي موسى عليه السلام، من آياته. والموضع الذي ذكر فيه من أجله وعبر عنه بالام هو الموضع الذي قصد فيه إلى الإخبار بأنه كبيركم الذي علمكم السحر، فلذلك خص بالام والاول خص بالباء. وقد تدل الام

(١) الأعراف/١٢٣.

(٢) طه/٧١، الشعراء/٤٩.

على الاتباع فيكون المعنى اتبعتموه لأنه كبيركم في عمل السحر. وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ولا يتبع الداعي إليه^(١).

وهذا تفسير كاف شاف يعلل الإبدال بإرجاع العبارة للسياق الذي جاءت فيه وعلاقتها بما قبلها من العبارات وما بعدها.

ثانياً: إبدال الكلمة بكلمة أخرى. ومنه:

قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام في حوار مع قومه: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾^(٢) وقوله في موطن آخر: ﴿أوفوا المكيال والميزان﴾^(٣)، فاختلف في الآيتين قوله: {الكيل} وقوله: {المكيال}. وقد وقف على هذا الاختلاف صاحب الكشف فقال: "فإن قلت: كيف قيل (الكيل والميزان) وهلا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال. أو سمي ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر"^(٤).

و أعلل هذا التبديل بتكرار حوار شعيب مع قومه ناهياً إياهم عن النقصان: أمراً بالإيفاء، فالمعنى المقصود من حوار واحد، والألفاظ تتبادل على المستوى العمودي من الجملة، فتحل كلمة مكان أخرى في العبارة ذاتها مضيئة زيادة في المعنى أو تخصيصاً، فالكيل أداة يكال بها، وقد يطلق على عملية الكيل ذاتها، وهذا يعني أن شعيباً أمر قومه بالإيفاء مشيراً إلى الأداة مرة وإلى العملية أخرى.

وقد يكون الكيل هو المكيال، وجاء الكيل على الأصل، وقيس في آية سورة هود على وزن "مفعال" ليلانم كلمة "ميزان" على المستوى اللفظي، فالكلمة الواحدة قد تتقوّل في بني صرفة متنوعة. وقد تكررت كلمة "الكيل" في سورة يوسف^(٥) دون كلمة (مكيال) وفي هذا دليل على أن "مكيال" شكل طارئ للكلمة.

(١) الخطيب الإسكافي، درة التبريل وغرة التأويل، ص (١٧٦-١٧٧).

(٢) الأعراف/٨٥.

(٣) هود/٨٥.

(٤) الزمخشري، الكشف، ج ٢، ص ١٢٣.

(٥) الآيات التي جاءت فيها كلمة (كيل) في سورة يوسف هي: ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥.

وقوله تعالى لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾^(١) وقوله في موضعين: ﴿فَاخْرِجْ مِنْهَا﴾^(٢) يرى الإسكافي أن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافاها واتفاقها سواء "لأنه إذا أمره بالخروج من الجنة أو من السماء فقد أمره بالهبوط إلى الأرض".^(٣)

وأرى أن في كلمة "اهبط" إشارة إلى قيمة معنوية تستشف من الفعل "اخرج"، فالخروج من الجنة فيه هبوط وتدن في المكانة والمنزلة حتى وإن لم يكن هذا الهبوط إلى الأرض، ففي استبدال كلمة "اهبط" بـ "اخرج" إبراز تدريجي لإحياءات الفعل، ففي الأمر بالهبوط دلالة على الخروج من منزلة إلى منزلة، وفي الأمر بالخروج من الجنة دلالة على هبوط منزلة المخاطب.

ومثله قوله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ في آية سورة الحجر^(٤)، وقوله في آية سورة ص: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٥)، ففي قوله: (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ) دلالة على لعنة عامة تحوي لعنة خاصة (لعنتي)، وفي قوله (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي) تخصيص للعنة يؤول إلى تعميمها، فمن يلعنه الله تلعنه الملائكة والناس.

وقوله تعالى على لسان مريم: ﴿رَبِّي أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ في آية سورة آل عمران^(٦)، وقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ، بَغِيًّا﴾^(٧). اختلف اللفظ في الآيتين، فكان في الأولى: "ولد" وفي الثانية "غلام"، فما هو سبب التعبير بهما كل في موقعه؟

يمكننا معرفة السبب بالنظر إلى المخاطب الذي توجه إليه مريم سؤالها، فعدول العبارة في سؤالها عن الغلام إلى الولد مقصود؛ لأن مريم وجهت سؤالها في سورة آل عمران إلى الله: (رب أنى يكون لي ولد)، إنها تتساءل عن كيفية أن تلد ولداً ولأداة طبيعية كباقي الأولاد دون أن

^(١) الأعراف/١٣.

^(٢) ص/٣٤، الحجر/٧٧.

^(٣) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص ١٤٢.

^(٤) الحجر/٣٥.

^(٥) ص/٧٨.

^(٦) آل عمران/٤٧.

^(٧) مريم/٢٠.

يكون له أب، فلقد تقدم في وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب، وذلك لما نسبته إليها: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾^(١). ونستشف من هذه الكلمة ردا على من ألخوا عيسى، فهو ولد، فكيف يكون إلها وقد ولد ولادة؟! وهذا ما دارت حوله الآيات في سورة آل عمران، فقد تحدثت عن الآيات التي جاء بها عيسى إلى بني إسرائيل، وعن رسالته وعن رفعه إلى السماء، وختمت حديثها عن عيسى عليه السلام بالتركيز على بشريته:

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قال له كن فيكون﴾^(٢).

أما في آية سورة مريم فقد توجه السؤال إلى الملك الذي تمثل لمريم رجلا سويا، واقتحم خلوتها وأخبرها بأنه رسول من الله سيهبها غلاما: ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا﴾^(٣)، فأجابته منكرة كلامه غاضبة: ﴿أننى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا﴾^(٤) لقد جاء في كلام الرسول لفظ "غلام"، فجاء رد مريم متضمنا اللفظة ذاتها، فهو حوار ساخن يعيد الطرف المتلقي كلام الطرف المرسل منكرا: ﴿أننى يكون لي غلام﴾ إنها تنكر إنجاب الغلام فهي فتاة عذراء لم تتزوج (ولم يمسسني بشر)، وهي الشريفة الطاهرة المنزهة عن الزنا: (ولم أك بغيا)، إنها هنا مستنكرة إنجاب الطفل وحالها كذلك، أما في سورة آل عمران فإنها تترك بأنها ستلد ولدا ينسب إليها ولكنها تتسائل عن كيفية وجوده دون أب فللغلام دلالة عامة وللولد دلالة خاصة نستشفها من السياق.

ثالثا: إبدال الكلمة بضمير، ومنه:

قوله تعالى على لسان قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾^(٥) وقوله: ﴿أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾^(٦) فقد صرح بالمفعول به "آل لوط" في آية سورة الأعراف، وأضمر في آية سورة النمل "أخرجوهم"، وفي هذا تنوع في الأداء يحويه الصوت الجمعي في كلمة "قالوا"، فمنهم من صرح ومنهم من أضمر معتمدا

^(١) مريم/٤٥.

^(٢) آل عمران/٥٩.

^(٣) مريم/١٩.

^(٤) مريم/٢٠.

^(٥) الأعراف/٨٢.

^(٦) النمل/٥٦.

على فهم المخاطب لنسبة المضمّر الى قوم لوط، ففي الحوار المباشر يكثر ان تحل الضمان محل الأسماء الصريحة اختصاراً وتقليلاً للجهد الكلامي واعتماداً على السياق الذي يدور فيه الحدث الحوارى مفككا لغز أي رمز يرد في جمل الحوار.

رابعا: إبدال الجملة بجملة أخرى ومنه:

قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام، في حوار مع قومه وأبيه:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(١)

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾^(٢)

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾^(٣)

يفسر الخطيب الإسكافي زيادة (إذا) في قوله في سورة الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء (ما) في الشعراء منها فيقول: "والجواب ان يقال: إن قوله (ما تعبدون) معناه أي شيء تعبدون، وقوله: (ماذا) في كلام العرب على وجهين: أحدهما أن تكون (ما) وحدها اسما و(إذا) بمعنى الذي، والمعنى ما الذي تعبدون، و(تعبدون) صلة لها. والآخر أن تكون (ما) مع (إذا) اسما واحدا بمعنى أي شيء، وهو في الحالين ابلغ من ما وحدها إذا قيل ما المستفهم فأجابوه وقالوا: (نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين)، فنبه ثانيا بقوله: (هل يسمعونكم إذ تدعون). وأما (ماذا تعبدون) في سورة الصافات فإنها تفرّيع، وهو حال بعد التنبيه، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيّتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الاول.

ثم أضاف تبكيّا الى تبكيّت ولم يستع منه جوابا فقال: ﴿أَفَكَا آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ.

فما ظنكم برب العالمين﴾ فلما قصد في الاول التنبيه كانت (ما) كافية، ولما بالغ وقرع استعمل اللفظ الابلغ وهو "ماذا" التي جعل "ذا" منها بمعنى الذي، فهو أبلغ من (ما) وحدها^(٤).

(١) الشعراء/٧٠.

(٢) الصافات/٨٥.

(٣) الأنبياء/٥٢.

(٤) الخطيب الإسكافي، درة التزئيل وغرة التأويل، ص ٣٣١.

واستبدلت جملة (تعبدون) بـ ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ في آية سورة الأنبياء، لكونهم أجابوه عن سؤاله في آية الشعراء: ﴿ قالوا: نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين ﴾ فأعاد إبراهيم عبارتهم الخيرية في قالب استفهامي ساخر متجاهلا محقرا ألّهتهم مصغرا شأنها مع علمه بإجلالهم لها.

سبب آخر نرجع إليه هذا التبديل نعزوه إلى ترتيب السورة وفق نزولها، فسورة الأنبياء التي جاء فيها التبديل تأخر نزولها عن سورتي الصافات والشعراء اللتين حوتا حوارا تمهيدا مهد للحوار في سورة الأنبياء وعلل مجيء جملة ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾^(١) على لسان إبراهيم عليه السلام، في موقع جملة (تعبدون).

خامسا: إبدال الصيغة الصرفية للكلمة بصيغة صرفية أخرى ومنه:

قوله تعالى على لسان الملأ من قوم فرعون في حوارهم مع فرعون: ﴿ أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليم ﴾^(٢) وقوله على لسان العامة من قوم فرعون في حوارهم مع الملأ (الخاصة من قوم فرعون أو حاشيته): ﴿ أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم ﴾^(٣) فلم قيل (سحار) في الأولى و (ساحر) في الثانية؟

وقد تتساءلون عن سبب إدراج المثال السابق ضمن أمثلة التكرار اللفظي في الجمل الصادرة عن متكلم واحد، لاختلاف المتكلم في العبارتين، فالقائل في آية سورة الشعراء هم الملأ من قوم فرعون، والقائل في آية سورة الأعراف هم العامة من قومه.

أقول: إن العبارة في المشهدين صادرة عن متكلم واحد هو العامة من قوم فرعون، أما الملأ من قوم فرعون فهم المتكلم الوسيط الذي نقل عبارة المتكلم الى فرعون مع تحوير بسيط في العبارة يناسب المقام الذي قيلت فيه، ويتمثل هذا التحوير في نقطتين:

^(١) الشعراء/٧١.

^(٢) الشعراء/٣٦-٣٧.

^(٣) الأعراف/١١١-١١٢.

الأولى: تبديل كلمة (أرسل) بـ (ابعث).

الثانية: تبديل كلمة (ساحر) بـ (سحار).

وقد سبق أن حور هذا المتكلم الوسيط عبارة فرعون حين نقلها الى الطرف الآخر، وتمثل هذا التحوير بحذف كلمة (بسحرة) التي جاءت في كلام فرعون:

﴿إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾^(١) فالعبارة التي نقلها الملأ من قومه إلى العامة تخلو من هذه الكلمة:

﴿إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾^(٢) وخلو عبارة المتكلم الوسيط من لفظه (بسحره) يعزز ويكشف أهمية وجود هذه اللفظة في عبارة فرعون، فقد بلغ الخوف والقلق مبلغهما في نفس فرعون من قدرة موسى وقومه التي وسمها بأنها سحر، في حين لم يشكل موسى تهديدا مماثلا للملأ، فخوف فرعون من موسى كان أشد من خوف الملأ.

والآن لنناقش التحوير في العبارة المنقولة بواسطة الملأ من العامة الى فرعون. ولنبدأ بمناقشة السبب الذي جعل الملأ يستبدلون كلمة (أرسل) بـ (ابعث). يقول الخطيب الإسكافي: "اللفظتان نظيرتان تستعمل إحداهما مكان الأخرى، وقد جاء بعث الرسول وإرساله معاً، إلا أن (أرسل) تختص بما لا تختص به (بعث)، لأن البعث لا يتضمن ترتيباً، والإرسال أصله تنفيذ من فوق إلى أسفل. و(أرسل) في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملأ المؤيدين كلام فرعون اليهم، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما استأمرهم فيه، واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم عما فخم ملأه ان يؤدوا كلامه إلى من دونهم. ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاها فرعون بنفسه من مخاطبته قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه، وتسوية قدرهم بقدره، لقوله: (قال للملأ حولـه)، وكان هذا الموضع مخالفاً للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم، فخصّ باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم وهو قوله: (ابعث)"^(٣).

وهذا يعني ان الملأ اختاروا لفظة توحى بتأديبهم وتحرزهم في خطابهم مع فرعون، فهم ينتقون مفرداتهم حرصاً على رضاه وتجنباً لسخطه، فلبلاط الملك معجمه الخاص.

(١) الشعراء/٣٤-٣٥.

(٢) الأعراف/١٠٩-١١٠.

(٣) الخطيب الإسكافي، درة التبريل وغرة التأويل، ص(١٧٠-١٧١).

أما العامة فحوارهم مع فرعون حوار غير مباشر أي حوار من وراء حجاب، ولذا لا نجد هذا التحرز في اختيار المفردة والتفنن في انتقائها، فالحرص على رضاه لا يجدي نفعاً مادياً ولا معنوياً كذلك الذي تجنيه حاشيته المقربة.

وتأكد هذا الحرص وذاك التحرز في تحويلهم كلمة (ساحر) الواردة في كلام العامة إلى (سحّار) ولا يخفى ما في صيغة (فَعَال) من مبالغة وتعظيم حرص الملأ على إيصاله لفرعون ليسكنوا بعض قلقه الذي لاحظوه لحوارهم معه وجهاً لوجه، ومشاهدة ما يعتريه من اضطراب وقلق وتوتر، فأرادوا أن يخفوا من هذه المشاعر بتأكيد مهارة السحرة وبراعتهم في السحر وهذا ما تعكسه كلمة (سحّار) وتفقده كلمة (ساحر).

سادساً: إبدال ضمير بضمير آخر ومنه:

ما جاء في قوله تعالى في موضعين: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾^(١) وقوله في سورة طه: ﴿اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾^(٢) فلم خاطب الله آدم وحواء والشيطان بضمير الجمع مرة وبضمير الاثنين مرة؟

يجوز أن يقال إن الله خاطبهم مخاطبة الجمع جاعلاً إياهم في بوتقة واحدة دون تصنيف، أما حين خاطبهم مخاطبة الإثنين فقد جعلهما في طائفتين، طائفة آدم وحواء وذريتهما، وطائفة ليست من جنس طائفة الأولى هي طائفة إبليس وذريته.

والتركيز في الفعل "اهبطوا" كان منصباً على عملية الهبوط ذاتها التي تتوحد فيها الطائفتان، أما في قوله "اهبطا" فهناك تصنيف وتوضيح للجماعة التي ستهبط بانها تتكون من فريقين سيشكلان طرفي الصراع في منطقة الهبوط.

^(١) البقرة/٣٦، الأعراف/٢٤.

^(٢) طه/١٢٣.

(د) التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان، ومنه:

قوله تعالى على لسان مريم: ﴿ولم يمسنني بشر﴾^(١) وقوله على لسانها في موقع آخر ﴿ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا﴾^(٢) فزاد جملة (لم أك بغيا) في الآية الثانية، فما الواجب للزيادة؟

تعلل هذه الزيادة بالنظر إلى المخاطب الذي وجه إليه الكلام، فهو في سورة آل عمران الله عز وجل: (قالت ربي أنى يكون لى ولد ولم يمسنني بشر)، وهو في سورة مريم الملك الذي تمثل لها رجلا سويا، وبشرها بأنه سيهب لها غلاما، فسألته منكرة مستهجنة عن كيفية انجاب الغلام وهي الفتاة العذراء التي لم تتزوج، وبما أنه رجل غريب يجهل أخلاقها أضافت "ولم أك بغيا" منزهة ذاتها عن الزنا والبغيا. فطبيعة المخاطب تقتضي من المتكلم التوضيح والتفصيل والبسط.

أما وقد توجهت مريم بالسؤال إلى المخاطب العليم بحالها وصفاتها وأخلاقها فإنها لا تلجأ إلى تنزيه الذات من الزنا، وانما اكتفت بالسؤال عن كيفية الإنجاب دون أن يمسه رجل.

وقوله تعالى على لسان الخضر، عليه السلام، في حوار مع موسى: ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا﴾^(٣) وقوله في موضع آخر من السورة: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا﴾^(٤).

وللسائل أن يسأل عن زيادة "لك" في الثانية وإخلاء الأولى منها. يقول الخطيب الإسكافي: "والجواب أن يقال إنه في الأولى لما قرر موسى وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يتقل عليه فقال: (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا). وهذا معناه في غالب ظني أنك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر إلى الإنكار. فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار أكد التقرير الثاني بقوله: "لك"، كما يقول القائل: لك أقول، وإياك أعني، فيقدم لك وإياك. ولو قال: أقول لك وأعنيك بكلامي لاستويا في المعنى إلا في تأكيد

(١) آل عمران/٤٧.

(٢) مريم/٢٠.

(٣) الكهف/٧٢.

(٤) الكهف/٧٥.

الخطاب بالتقديم. فكانه قال: ألم يكن خطابي لك دون سواك، وهذا وجب في الثاني لا في الأول الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه عليه السلام كتأكدها في الثانية^(١).

ويقول الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى زيادة 'لك'؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلّة الصبر عند الكرة الثانية"^(٢).

وبعد، فقد تناولنا التكرار اللفظي في الجمل الحوارية للمتكلم ذاته، محاولين الوقوف على الفروق الدقيقة بين الجمل المتشابهات المتفرقة في مواطن متعددة، فهذه البنى السطحية المتماثلة تحوي فروقا واختلافات يتوصل إليها بالملاحظة الدقيقة، وتعلل بالنظر الى السياق الذي جاءت فيه.

ونختم حديثنا عن هذا النمط من التكرار بتعليل كاف شاف للغرناطي يبين فيه سر هذه الفروق اللغوية التي نلاحظها في المحكي المتكرر في غير سورة يقول: "وقد تقدم البيان، أن اختلاف مقالات الأنبياء لأمرهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد، ولا لقوم مخصوصين، بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم، فقد يخاطب ملأهم الأعظم في موطن، والفئة القليلة منهم في موطن آخر. وربما أطال في موطن، وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يروونه، عليهم السلام، أجدى وأرجى، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم، ولاختلاف مجاوبة أمرهم لهم. فهذا مما لا يحتاج الى سؤال عنه"^(٣).

❖ تكامل المحاورة الواحدة بعد جمع أجزائها المتفرقة في السور المختلفة (تفرق أجزاء المحاورة و تكامل التفاصيل):

يلاحظ المتأمل للحوارات المتكررة في القرآن الكريم تجزئة كل محاورة في أكثر من سورة، بحيث لا تعرض المحاورة كاملة في موطن واحد ثم تعاد بعينها في موطن آخر، وإنما يعرض في كل سورة تواجدت فيها جزء، فتتوزع المحاورة أجزاء متفرقة، فإذا جمعت هذه الأجزاء بدت أمامنا محاورة كاملة المواقف.

^(١) الخطيب الإسكاني، درة التعليل وغرة التأويل، (٢٨٤-٢٨٥).

^(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٧٠٧.

^(٣) الغرناطي، ملاك التأويل، ج ١، ص ٥٤٥.

إنه أسلوب نقل المحاوراة على دفعات ولقطات، بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة فيها بذاتها مؤدية دورها في السورة التي وردت فيها متناغمة مع مضامينها. وينطوي هذا الأسلوب ضمن نسيج القرآن الذي نزل منجماً ومجزئاً لعل متعددة أهمها إعانة النفوس على استيعابه وتثبيت جزءاً جزءاً.

والمحاورات التي كررها القرآن هي ذات الحقيقة الكلية الهامة، كالمحاورات في العقيدة وكل ما يرتبط بها، وذلك لأن ترسيخ العقيدة في النفوس يحتاج إلى تكرار وعرض لجوهر الموضوع أو الفكرة في أكثر من موطن وفي قوالب متعددة^(١). ولهذا تكررت محاوراة إبراهيم لقومه وأبيه، ولم تكرر محاورته لابنه اسماعيل. وتكررت محاوراة موسى مع فرعون، ولم تتكرر محاورته مع الخضر عليه السلام أو مع ابنتي شعيب لكون الأولى في صلب العقيدة، أما الآخرين ففي محيط السلوك والأخلاق، ومثلها محاوراة داود مع الخصمين، ومحاوراة لقمان لابنه. وتركزت محاورات يوسف في سورة واحدة لكونها تعالج جوانب اجتماعية وخلقية واقتصادية، ويرد ذكر عقيدة التوحيد فيها عرضاً، لما فسر يوسف أحلام صاحبيه في السجن.

ويعمل الدكتور عبد الحليم حفني عدم ورود محاورات كل نبي في سورة واحدة بحيث تكون مجتمعة الأجزاء، متكاملة التفاصيل، فلا تحتاج إلى تكرار بأمرين:

الأول: مراعاة الحوارات القرآنية للجانب التاريخي، بمعنى أنها منقولة عن أشخاص وأقوام سابقين، جاء أكثرها على لسان الأنبياء، ولا يتصور أن يحاور النبي قومه مرة واحدة، ولا في مناسبة واحدة، فمحاورته معهم لا تأخذ صورة واحدة، ولا ألفاظاً محددة يعيدها عليهم كما هي في كل مرة، فالجوهر ثابت إلا أن طريقة عرضها غير ثابتة، وتفصيلها غير ثابتة، وهي تشتمل على تجديد وتغييرات وإضافات. كما أن القرآن نقل محاورات الرسل بصورة تشير إلى ما كانت عليه فعلاً في الشكل من حيث التجزئة والتفرق الزمني.

الثاني: مراعاة القرآن لنفوس متلقيه، واستخدامه أنسب الوسائل في تبليغ الدعوة، لما في التكرار من تثبيت للفكرة وترسيخ لها^(٢).

(١) عبد الحليم حفني، أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم، ص ٥٦.

(٢) عبد الحليم حفني، أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم، ص (٦١-٦٣).

مباشرة قد تؤدي إلى نفورهم من كلامه، فالسؤال يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة يتولى هو إكمالها (أو عجبتم أن جاءكم من ربكم على رجل منكم لينذركم؟! إنه سبب غير مقبول).

ثم يذكرهم بنعمة من نعم الله عليهم وهي الخلافة (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) وفي ذكره لقوم نوح تحدير خفي من عاقبة تصيبهم مثل عاقبة قوم نوح.

وتابعها بنعمة أخرى هي بسطة الجسم وقوة البدن (وزادكم في الخلق بسطة) ويعرض قومه منكبين عبادة الله وحده وترك ما كان يعبد آباؤهم (أجئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا)، ويأمرونه مستخفين به ويحذيره بأن ينزل عليهم عذاب الله (فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

ويدرك هود بأن لا أمل في إيمانهم؛ فالكبر والعناد بلغا مبلغاً عظيماً فيقول: (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنني معكم من المنتظرين). وتكون نتيجة المحاوراة نجاة هود ومن معه، وقطع دابر الكافرين.

ثانياً: محاوراة هود في سورة الشعراء:

﴿كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تتقون، إنني لكم رسول أمين؛ فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر؛ إن أجري إلا على رب العالمين. أتبنون بكل ربح آية تعبثون؟! وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون؟! وإذا بطشتم بطشتم جبارين؟ فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون؛ أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾^(١). استهلت هذه المحاوراة بما استهلت به محاورات الأنبياء القارة معها في سورة الشعراء (ألا تتقون، إنني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين) لبيان وحدة كلمة أنبياء الله في كل زمان ومكان.

^(١) الشعراء/(١٢٣-١٣٥).

وتحتوي هذه المقولة أجزاء إضافية لم ترد في المحاوراة الأولى هي (وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين) وفيها يركز على تقوى الله وطاعته لأنه رسول الله (ألا تتقون، فاتقوا الله وأطيعون) بينما دعا في محاورته الأولى إلى عبادة الله. وتكرر حثه على التقوى في المحاورتين، لأنها من أسس العقيدة التي عليه أن يرسخها في النفوس. وأظهرت هذه المحاوراة فتنة قوم هود وأبرزتها، كما هو الحال في المحاورات القارة معها في نفس السورة؛ حيث بينت محاوراة كل نبي مع قومه المعصية أو الفتنة الشائعة التي اختلفوا بها ومارسوها ممارسة جماعية. فقد رأى هود قومه غارقين في دنياهم ومتاعها، معرضين عن الآخرة، مشركين بالله، انصرفت همهم إلى التعاطف والتفاخر واللهو، فاستهجن هذا منهم واستكبره موبخاً إياهم بأسئلة متوالية: أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟! وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون؟! وإذا بطشتم بطشتم جبارين؟! وهذه اضافات جديدة لم تظهر في سورة الشعراء، وقد عكس التشكل الأدائي لمقولته، عليه السلام، والمفردات التي استخدمها (تعبثون، بطشتم، جبارين) نهجاً جديداً في مخاطبة هود لقومه، فقد بدا عصبي المزاج، حاد الطبع، غاضباً منكراً لأفعال قومه، ويمكن أن يعلل هذا التحول الطارئ على الشخصية بتكرار دعوة هود لقومه وثبات موقفهم على الباطل. فإين هذه العبارات الغاضبة المتلاحقة من قوله: (يا قوم، ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين) وقوله: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة) لقد كان في بداية دعوته التي مثلتها محاورته الأولى متأملاً أن يؤمن قومه بدعوته، فاستخدم معهم الترغيب والترهيب، لكنه، وقد أصروا على كفرهم، بدا غاضباً يائساً يوبخ وينكر أكثر مما يحب ويرغب.

وعدد في هذه المحاوراة نعماً أخرى أغدقها الله عليهم تختلف عن النعم التي ذكرهم بها في سورة الشعراء (أمكم بأنعام وبنين وجنات وعيون). وتظهر هذه المحاوراة مشاعر هود تجاه قومه، فهو يخاف عليهم من عذاب الله (إنني أخاف عذاب يوم عظيم) وترد عليه فتنة من قومه مستبعدة وقوع العذاب كما كان ردهم في المحاوراة السابقة ولكن بقولية وصياغة مختلفة (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين، إن هذا إلا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين) فهذه مقولة ثانية من المقولات التي كانت توجه إليه فمنهم من كان يتحداه (فأتانا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)، ومنهم من استبعد فكرة العذاب نافياً وقوعه عليهم (وما نحن بمعذبين). وتأتي النتيجة التي عقب بها الله على المحاوراة مقتصرة على ذكر هلاك قوم هود، بينما وضحت في سورة الأعراف عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، ويعلل هذا بالنظر إلى النتيجة التي أنهى بها

الله محاورات الأنبياء مع أقوامهم في سورة الشعراء، فقد اقتصر جلها على ذكر عاقبة المكذبيين تخويفاً وترهيباً.

ثالثاً: محاورة هود في سورة هود.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال: يا قوم، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون؟! يا قوم، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين. قالوا: يا هود ما جئتنا ببينة، وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء. قال: إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون، إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ويستخلف ربي قوماً غيركم، ولا تضرّونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ﴾^(١).

إنها محاورة تختلف عن المحاورتين السابقتين، ففيهما إبراز لمقولات جديدة جاءت على لسان قوم عاد ونيهم هود، واقتصر التشابه على الدعوة إلى التوحيد (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأنها المحور والأساس الذي أرسل هود من أجله، وعلى نفي الأجر، فهو لا يسألهم أجراً، لأن أجره على الذي فطره. ولعل تكراره لهذا الأمر يرجع إلى معرفته بطبيعة قومه المادية، فأكد لهم تجرده من أي هدف مادي أو مطمع دنيوي. وقد برز هذا الاختلاف حتى في المفردات التي بكتهم بها (مفترون، أفلا تعقلون).

ثم يأمرهم بالاستغفار مبيناً عواقبه المادية عليهم مخاطباً إياهم بما يستهويهم ترغيباً وإغراءً. ويأتي ردهم مختلفاً عما جاء في سورة الأعراف وسورة الشعراء، وبدا أقسى وأشد، ربما لأنهم ضاقوا بدعوته فأرادوا تبيسه فقالوا أولاً: (ما جئتنا ببينة) وقالوا ثانياً: (وما نحن بتاركي آلِهتنا) وقالوا ثالثاً: (وما نحن لكم بمؤمنين) إن توالي النفي يؤكد إصرارهم على الرفض. وزادوا على ذلك أن اتهموه بأن آلِهتهم قد مسته بسوء (أن نقول إلا إعتراك بعض آلِهتنا بسوء) وأمام هذا الإصرار يعلن هود براسته من شركهم، مبيناً أنه قد بلغ الرسالة، وأن الله سيستخلف قوماً غيرهم.

(١) هود/٥٠-٥٧.

ويأتي التعقيب على هذه المحاوره مبرزاً عاقبة هود والذين آمنوا معه: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾^(١)؛ لكون آخر مقولة في المحاوره كانت لهود فجاء التعقيب كأنه نتيجة وتصديقاً لكلامه. بينما أبرز التعقيب في سورة الشعراء عاقبة عاد لكون آخر مقولة في المحاوره كانت لهم، فجاء التعقيب رداً بين سوء عاقبة كلامهم.

رابعاً: محاوره هود في سورة (الأحقاف)

﴿واذكروا أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا: أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال: إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به، ولكنني أراكم قوماً تجهلون. فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا: هذا عارض ممطرن. بل هو ما استعجلتم به؛ ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها. فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين﴾^(٢).

ونجد فيها أموراً اختصت بها هذه المحاوره منها ما يتعلق بالمضمون وهي فرحتهم بالسحاب المستقبل أوديتهم ظناً أنه يحمل المطر الذي يعمهم بالخير (هذا عارض ممطرن)، فيلتي صوت يوضح لهم نوع هذا السحاب، إنها ريح ليس فيها مطر خير، وإنما فيها عذاب أليم. قد يكون هذا صوت هود، وقد يكون تعليقاً من الله على مقولتهم.

كما اختصت هذه المحاوره بمفردة جديدة هي الإفك في قولهم (لتأفكنا) وتعني تحويل شخص عن رأيه بالإكراه والكذب والخداع.

خامساً: محاوره هود في سورة (المؤمنون)

ولم تحدد هذه المحاوره طرفيها، فلم يذكر فيها هود - عليه السلام -، كما لم يذكر فيها اسم عاد، وإنما ذكرت عقب قصة نوح، عليه السلام، وقد اطرده في القرآن ذكر قصة هود عقب قصة نوح، ولهذا نرجح تنازع هذه المحاوره بين هود وقومه:

(١): هود/٥٨.

(٢): الأحقاف/ (٢١-٢٥).

﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، أفلا تتقون؟! وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا: ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تاكلون منه، ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون؟! هيهات هيهات لما توعدون؛ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له مؤمنين. قال: رب، انصرني بما كذبون. قال: عما قليل ليصبحن نادمين. فآخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين﴾^(١).

تبدو هذه المحاوراة متلائمة مع الموضوع الرئيس لسورة (المؤمنون) فهي تدور في فلك قضية البعث، وهو ما يعتقد المؤمنون دون غيرهم.

وبهذا نكون قد وقفنا على الحوارات التي دارت بين هود عليه السلام - وقومه في السورة التي جاءت فيها مرتين (أيها) حسب نزولها، فوجدنا في كل محاوراة زيادة جديدة، بحيث لو جمعنا هذه الأجزاء المتفرقة لوجدنا محاوراة كاملة المواقف والوجوه والتجليات على نحو بالغ الوضوح والإكمال. وهذا أمر منطقي فالأنبياء حاوروا أقوامهم مرات ومرات، وقد دارت كل هذه المحاورات في فلك الدعوة إلى عباد الله، ولكن هذا لا يعني المطابقة والتماثل بينهما، فمحاوراتهم ليست صورة واحدة، ولا ألفاظاً محددة تعاد عليهم كما هي في كل مرة، إنها تعوض كل مرة بقالب جديد، ويطرأ عليها تحوير وتبديل يتناسب مع نمو الموقف، فطريقة عرض المحاوراة غير ثابتة، وتفاصيلها متجددة، وتوزيع عناصرها متفاوت من سورة إلى أخرى يتناسب مع المضامين التي تحملها هذه العناصر، كما أن محاوراة الطرف المقابل غير ثابتة أيضاً.

وتكون النتيجة أن ما نقلته السور المختلفة من الجزئيات والتفاصيل يمثل مجموع ما حكاه هود، عليه السلام، لقومه، ومجموع ما أجابوه به خلال المدة التي قضاهم معهم.

(١) المؤمنون/ (٣١-٤١).

● النمط الثالث : تكرار المحاورة وتعدد المرسل (تكرار ما اتفق لفظه ومعناه واختلف قائله) وذلك في سورة واحدة أو في غير سورة:

ويتضمن الجمل التي وردت في حوار إحدى الشخصيات مع غيرها، واتفق لفظهما مع ألفاظ محاورة شخصية أخرى. وهذه ظاهرة قارة في حوار الأنبياء مع أقوامهم، فالجملّة التي يقولها أحد الأنبياء لقومه قد تتفق بلفظها التام أو بأكثر عناصرها مع جملة لنبي آخر في حوارهم مع قومه، وهذا دليل على وحدة الرسالة التي جاء بها الأنبياء.

ويأتي هذا النمط من التكرار في السورة الواحدة بشكل تتكرر فيه الكلمات وفق تناسق مكاني يأخذ ترتيبه داخل النص، كما يأتي في غير سورة. بعد تتبع مواطن هذا النمط من التكرار وجدناه متبلوراً في أربعة أساليب رئيسة هي:

١. التكرار اللفظي التام:

إن تكرار الجملة ذاتها على لسان متكلم واحد في أكثر من موضع قد تكون ظاهرة مألوقة، ولكن تكرار الجملة بلفظها التام على لسان أكثر من متكلم تفصلهم حدود زمنية ومكانية أمر يستدعي الانتباه ويفضي إلى التساؤل عن المضمون الذي يحويه هذا البناء اللغوي المتكرر.

وعند تتبع هذا النمط من التكرار وجدنا أمثله تدور حول موضوع العقيدة وما فيه من دعوة إلى الإيمان بالله وحده، وهذا يدل على وحدة الأديان في أصل العقيدة، ووحدة الدعوة إليها من الرسل، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^(١).

ويقتضي تقرير هذا الحقيقة أن نعرض طائفة من الأمثلة التي التزم فيها بصيغة واحدة قصد فيها هذا التكرار في اللفظ والمعنى لبيان وحدة المصدر ووحدة الغاية. منها:

تكرار عبارة ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾^(٢) على لسان نوح وهود وصالح وشعيب، عليهم السلام، في سورة الأعراف.

(١) الأنبياء/٢٥.

(٢) الأعراف/٨٥، ٧٣، ٦٥، ٥٩.

وفي هذا التكرار إبراز للعقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له. وقد تكررت العبارة ذاتها في مواطن أخرى مؤكدة مضمون العقيدة^(١).

ومنه أيضاً التكرار المكثف لعبارة: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله واطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾^(٢) في سورة الشعراء على لسان نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، عليهم السلام في حوارهم مع أقوامهم.

وأكد هذا التكرار مجيء رسل الله بكلمة واحدة لا تتغير في جوهرها بتغير الأقسام الزمان والمكان والأحوال، وقد استهل الأنبياء حوارهم مع أقوامهم بالأمر بالتقوى "أَلَا تَتَّقُونَ"، والتأكيد على أنهم رسل لهم خاصة وذلك بتقديم الجار والمجرور "لكم" على خبر (إن)، وإعادة الأمر بالتقوى مع التصريح بالمتقى "اتقوا الله"، وقدموا الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة، لأن تقوى الله سبب لطاعة الرسل. ونفي سؤال الأجر المادي الدنيوي، لبيان تنزيه دعوتهم عن المطامع الدنيوية، وتعليل ذلك بكون أجرهم على الله، وقد اجتمع على هذا المسلك أنبياء الله جميعهم.

وتقدمت النتيجة في المواطن الخمس على مجريات الحوار الدائر بين الأنبياء وأقوامهم:

﴿كذبت قوم نوح المرسلين، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون...﴾

﴿كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون...﴾

﴿كذبت ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون...﴾

﴿كذبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون...﴾

﴿كذبت أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون...﴾

وفي تكرير فعل التكذيب تأكيد على أن كل الأقوام قد كذبت رسلها، ولم تتفاعل مع محاولاتهم المستمرة لتوصيل دعوة التوحيد إليهم.

وتأكدت وحدة الدعوة التي جاء بها الأنبياء بتكرير لفظة "المرسلين"، فمع أن كل جماعة كذبت رسولها فقط، إلا أن تكذيب رسول واحد يعني تكذيب رسل الله جميعهم.

^(١) المؤمنون/٢٣، هود/٥٠، ٨٤، ٦١.

^(٢) الشعراء/١٠٥-١٠٩، (١٢٣-١٢٧)، (١٤١-١٤٥)، (١٦٠-١٦٤)، (١٧٦-١٨٠).

و يقيم تكرير العبارة بلفظها التام ومعناها الحجة على بني البشر، ويبرز تكذيبهم رسل الله المتأصل فيهم على اختلاف زمانهم ومكانهم وأحوالهم. فلو لم تتكرر العبارة السابقة بكل عناصرها لفتح باب توقع ايمان قوم دون قوم بسبب تحوير بسيط في العبارة جعلها مؤثرة طيبة النتائج، ولهذا وُحِدَت العبارة لتحقيق العدالة و المساواة بين الجميع، فالأمر بالتقوى والطاعة ونفي سؤال الأجر قاعدة مشتركة استهل بها الأنبياء حواراتهم مع أقوامهم تنبيهاً ونصيحة وتطمينا لهم بالنص ذاته كي لا يقول قائل: لو ذكر هود ما ذكره صالح لأمن قومه مثلاً.

وكما تكررت عبارات الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم مجتمعة في موطن أو متفرقة في مواطن، تكررت بعض ردود أقوامهم تكراراً تاماً، بحيث يرد قوم صالح عليه رداً مطابقاً بلفظه ومعناه لرد قوم شعيب عليه مثلاً. وقد يأتي هذا التكرار مجتمعاً في سورة واحدة أو مفقراً في سورة. ومنه :

تكرار جملة ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ في رد قوم صالح عليه،^(١) وفي رد قوم شعيب عليه^(٢) في سورة الشعراء.

وقوله : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ على لسان قوم نوح، وعلى لسان قوم هود أيضاً في سورة المؤمنين^(٣).

وقوله : ﴿ فَاتَّخَذْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على لسان قوم نوح في سورة هود،^(٤) وفي رد قوم هود على نبيهم في سورة الأعراف^(٥).

ب. التكرار اللفظي مع التقديم والتأخير :

ويتضمن الجمل الواردة في حوار شخصي مع غيرها وقد تكررت بلفظها التام ومعناها في حوار شخصية أخرى مع تغيير في الترتيب بتقديم عنصر آخر في جملة، أو تأخير عنصر قَدَّمَ في جملة. ومنه ما جاء في:

^(١) الشعراء/١٥٣.

^(٢) الشعراء/١٨٥.

^(٣) المؤمنون/(٣٣، ٢٤).

^(٤) هود/٣٢.

^(٥) الأعراف/٧٠.

قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام، في حوار مع قومه:
 ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده﴾^(١). وقوله على لسان
 صالح عليه السلام، في حوار مع قومه:
 ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾^(٢). بتقديم (رحمة) على (من)
 عنده في مقولة نوح، وتقديم (منه) على (رحمة) في مقولة صالح.

وقد حاولنا الوقوف على سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريميتين في حديثنا عن النسوع
 الثالث من أنواع التقديم والتأخير وهو ما قدم في آيه وآخر في أخرى^(٣).

ج. التكرار اللفظي مع الإبدال :

ويتضمن الجمل التي وردت في حوار شخصية واتفقت لفظاً ومعنى مع جمل وردت في
 محاوره شخصية أخرى مع تغيير بسيط يتمثل في إبدال كلمة بكلمة أو جملة بجملة أو حرف
 بحرف وفق ما يتطلب السياق. ومنه ما جاء في:
 قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام، في ردة على قومه: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة ولكني
 رسول من رب العالمين﴾^(٤).
 وقوله على لسان هود عليه السلام، في رده على قومه: ﴿يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول
 من رب العلمين﴾^(٥).

لقد تكررت الجملة تكراراً لفظياً تاماً باستثناء موقع جرى فيه تبديل كلمه (ضلالة)
 الواردة على لسان نوح، بكلمة (سفاهة) على لسان هود وذلك لملائمة الرد على الاتهام، فقد قال
 قوم نوح له: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾^(٦) فجاء رده: (ليس بي ضلالة) فهو ينفى صفة

^(١) هود/ ٢٨.

^(٢) هود/ ٦٣.

^(٣) ينظر ص (٢٤٧-٢٤٨) من هذه الدراسة حيث تعرضنا لأمثلة التقديم والتأخير، ولذا نكتفي هنا بذكرها فقط.

^(٤) الأعراف/ ٦١.

^(٥) الأعراف/ ٦٧.

^(٦) الأعراف/ ٦٠.

الضلالة التي أثبتتها عليه قومه، "والضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه. وأما الضلال فيطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال"^(١).

أما هود عليه السلام، فقد قيل له: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾^(٢) فرد عليهم: (ليس بي سفاهة) فكان في رد الرسولين عليهما السلام، نفي للصفة التي ألصقت به.

وبين الخطيب الإسكافي الفرق بين (الضلال) و (السفاهة) في اجابته عن الفرق بين قول نوح: ﴿وأنصح لكم﴾^(٣) وقول هود: ﴿أنا لكم ناصح أمين﴾^(٤). يقول: "وللسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله: (وأنصح لكم) وبين قوله (أنا ناصح أمين)، وما الذي اقتضى الاسم في الآخر والفعل في الأول، وهل كان يصح أحدهما مكان الآخر؟

الجواب عن ذلك من وجهين؛ أحدهما أن يقال: إن معنى كلام نوح، عليه السلام، ما نطق به القرآن، ومعنى كلام هود، عليه السلام، ما ذكره الله تعالى حاكياً عنه. وليس لقائل أن يقول، إذا كان القولان صحيحين في موضعهما، فهلا قال أحدهما قول الآخر.

والوجه الثاني أن يقال: إن قول نوح عليه السلام، جواب من ضل بأن قيل له: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾. وهود عليه السلام، قيل له: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾. والضلال من صفات الفعل، تقول: ضلّ فهو ضال. والسفاهة من صفات النفس، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة. فكان جواب من عيب بفعل مذموم نفيه بفعل محمود، لا بل بأفعال تنفي ما ادعوه عليه، وهي أن قال: لست ضالاً ولكني رسول من رب العالمين، أودي إليكم ما تحملت من أوامره، وأدعوكم بإخلاص إلى صلاح أمركم، وأعلم من سوء عاقبة ما أنتم عليه ما لا تعلمون، فنفي الضلال بهذه الأفعال.

وهود عليه السلام، لما رمي بالسفاهة، وهي من الخصال المذمومة البطيئة، وليس من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضرارها في الزمن القصير مرات كثيرة، فكان نفيها

^(١) الرعشري، الكشف، ج ٢، ص ١٠٩.

^(٢) الأعراف/٦٦.

^(٣) الأعراف/٦٢.

^(٤) الأعراف/٦٨.

بصفات ثابتة تبطلها أولى، كما كان في الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى. فقوله: ناصح، أي ثابت لكم على النصيحة صفة في النفس لا تنتقل لكم عن النصيحة إلى الغش ولا تتبدل خيانة بالأمانة. وكان جواب كل من الكلامين ما لاق به واقتضاه^(١).

وأرى أن تكرار العبارة على لسان الرسولين مقصود بذاته، لإبراز حسن الإجابة على الاتهام، فطريقة الأنبياء في حوار أقوامهم مسلك يحتذى به، وفي تكريرها ترسيخ لها في نفوس المتلقين.

يقول الزمخشري: "وفي إجابة الأنبياء، عليهم السلام، من نسيهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدبٌ حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يعضون عنهم"^(٢).

ومنه ما جاء في قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾^(٣) وقوله على لسان شعيب عليه السلام، في حوار مع قومه: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾^(٤) بإفراد الرسالة في حوار صالح وجمعها في حوار شعيب. وللأسفل أن يسأل عن سبب إفراد الكلمة في موطن وجمعها في موطن آخر، وعن الفائدة المخصصة لكل واحد من اللفظتين بمكانها.

أجاب عن ذلك الخطيب الإسكافي قال: "إن الذي نطق به القرآن من تحذير صالح عليه السلام قومه بعد أن أمرهم باتقاء الله تعالى وطاعته، هو أمر الناقة والمنع من التعرض لها، فجعل الرسالة جملة لما لم يفصل ما أتى به شعيب حين نهاهم عن عبادة الأوثان بدلالة قوله: ﴿قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ [هود/٨٧] ثم قال: ﴿إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله

(١) الخطيب الإسكافي، درة التبريل وغرة التأويل، ص (١٥٢-١٥٣).

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ١٢.

(٣) الأعراف/٧٩.

(٤) الأعراف/٩٣.

وأطيعون﴾ [الشعراء/١٧٨-١٧٩] ثم قال: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [الشعراء/١٨١-١٨٢] وقال: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ [الأعراف/٨٦] فهذه التي أمر شعيب بها قومه أشياء كثيرة، ليس ما أمر به صالح قومه مثلها كثرة، فلماذا جمع الرسالة في قصة شعيب فقال: "رسالات ربي" وأفردتها في قصة صالح فقال: "رسالة ربي". وجواب ثانٍ وهو ما يروى أن أصحاب الأيكة غير مدين وأن شعيباً بعث إلى أمتين، فجمع لاختلاف قومه وتخصيص كل منهم برسالة من الله^(١).

د. التكرار اللفظي مع الزيادة والنقصان:

وفيه تتفق الجمل الواردة في محاوره شخصية مع ألفاظ جمل جاءت في محاوره شخصه أخرى مع ذكر عناصر في أحد الموضعين لم تذكر في الموضع الآخر، أو حذف عنصر من أحد الموضعين وبقائه في موضع. ومنه ما جاء في:

قوله تعالى على لسان قوم صالح في حوارهم معه: ﴿إنما أنت من المسحرين، ما أنت إلا بشر مثلنا﴾^(٢) وقوله على لسان شعيب: ﴿إنما أنت من المسحرين، وما أنت إلا بشر مثلنا﴾^(٣). فما سبب زيادة الواو في مقولة قوم شعيب (وما أنت)، وعدم ذكرها في مقولة قوم صالح (ما أنت) ؟

قال الزمخشري في معرض تفسيره للآية التي قبلت على لسان قوم شعيب: "فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود ؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما منافع للرسالة عندهم: التسخير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً، ولا يجوز أن يكون بشراً. وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم".^(٤)

(١) الخطيب الاسكالي، درة التذيل وغرة التأويل، (١٥٩-١٦٠).

(٢) الشعراء/١٥٣، ١٥٤.

(٣) الشعراء/١٨٥، ١٨٦.

(٤) الزمخشري، الكشاف، (ج ٣، ص ٣٢٢).

وقال ابن عاشور: "والإتيان بواو العطف في قوله: ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ يجعل كونه بشراً إبطالاً ثانياً لرسالته. وترك العطف في قصة هود يجعل كونه بشراً حجة على أن ما يصدر منه ليس وحياً من الله، بل هو من تأثير كونه مسحوراً، فمآل معنيي الآيتين متحد، ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين" ^(١).

^(١) ابن عاشور، قسم التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ١٦٨.

✦ الحذف (بتر ودلالات)

الحذف لغة هو القطع والبتر، يقال: حذف الشيء يحذفه حذفاً قطعاً من طرفه^(١). والحذف في الاصطلاح: إسقاط جزء من الكلام أو كله لدليل^(٢)؛ فقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته^(٣).

ويتمثل الدليل في القرائن المصاحبة للنص، وهي نوعان؛ قرائن حالية أو ما يسمى بمناسبات النص، وتشمل: الكلام المنطوق، وشخصية طرفي الاتصال وتكوينهما بأبعاده النفسية والجسدية، وشخصيات من يشهد الحدث الكلامي، إن وجدت، وهل تشارك في الحدث أم يقتصر دورها على التلقي، بالإضافة إلى أثر الكلام وأبعاده الانفعالية، والعوامل والظواهر ذات العلاقة بالسلوك اللغوي إلى أشباه ذلك من أمور تلابس النص دافعة بالمتكلم إلى حذف عنصر أو أكثر من عناصر البنية اللغوية لرسالته الكلامية دون أن يجد السامع غضاضة في تقبل هذا الكلام المبتور^(٤).

والنوع الثاني من القرائن يتمثل في اشتغال سياق الكلام على سابق أو لاحق يدل على العناصر المحذوفة، وتسمى هذه القرائن بالقرائن اللفظية أو المقالية ففي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خيراً﴾^(٥) يقدر المتلقي المحذوف في الجواب تلقائياً معتمداً في تقديره على العناصر المذكورة في السؤال، فـ (قالوا: خيراً) تعني (قالوا: أنزل ربنا خيراً).

^(١) ابن منظور، اللسان، مادة (حذف).

^(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٠٢.

^(٣) ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٦٠.

^(٤) عمود السعران، علم اللغة، ص (٣٣٧-٣٤١)؛ وكمال بشر، دراسات في علم اللغة، ق ٢، ص (١٧٢-١٧٨).

^(٥) النحل/٣٠.

وقد يدل اللاحق المذكور على السابق المحذوف، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنُنَبِّئُكَ فِي هَٰذِهِ نَافِلًا﴾ (١) سألهم ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب. قل: أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون (٢) فمضمون السؤال محذوف، ولكن عناصره مذكورة في الجواب المفصل، فقوله: (أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) إجابة عن سؤال تقديره: (لم كنتم تستهزئون بالله وآياته ورسوله؟!).

ويدرج التلوين الصوتي أو التنغيم تحت لواء القرائن اللفظية، وهو دليل خاص باللغة المنطوقة، حيث يستشف السامع من طريقة نطق المتكلم أو أدائه الصوتي للعبارة العنصر الغائب، وإلى ذلك أشار ابن جني في حديثه عن حذف الصفة مع إرادتها وذكر الموصوف حيث قال: "وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلاً، فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً..." (٣).

ويستشف التنغيم في اللغة المكتوبة باستحضار القرائن المحيطة بالنص وتمثلها وهذا يدب الروح في جسد النص المكتوب، فيخرج صورة حية ناطقة بتنغيمات متنوعة الدرجات، تفتح الباب أمام قراءات متعددة تحاول أن تملأ شواغر النص.

وقضية الحذف من القضايا الهامة التي تناولتها أقلام النحاة والبلاغيين، مع اختلاف المنظور بين الفريقين؛ فالنحاة يبحثون الحذف من منطق يجوز أو لا يجوز، وقد دفعهم هذا إلى تقدير أنواع من المحذوفات في بعض العبارات لا يحتاج إدراك المعنى إلى تقديرها، حيث تكون العناصر المذكورة كافية لفهمه. فلا شك في سلامة تقدير (لا) محذوفة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتًا تَذَكَّرْ يَوْسُفُ﴾ (٤) مثلاً، ولكن كثرة استعمال الفعل (تفتاً) منفياً، فضلاً عن السياق، أكثر دلالة على النفي المحذوف لدى عامة أهل اللغة من الأدلة المتصلة بالصناعة والتي لا يدركها إلا المتخصصون الذين يرون أن تقدير (لا) قبل الفعل (تفتاً) يرجع إلى وجوب دخول اللام على الفعل وتأكيده بالنون وجوباً في حال كون الجواب مثبتاً (٥).

(١) النوبة/٦٥.

(٢) ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٧١.

(٣) يوسف/٨٥.

(٤) ظاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص ١٢٦.

أما البلاغيون فقد كانوا على وعي بتأثير الحذف وقيّمته في التركيب، فحدّدوا ماهيّته وكيفيّته وعلّة اللجوء إليه، فهو " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين"^(١). إنه خرق وانحراف عن مستوى التعبير العادي ومن هنا كانت قيمته الفاعلة.

وللحذف أهداف مقصودة وعلل خفية تتجاوز مبدأ توفير الطاقة المتمثل في الإيجاز والاقتصاد إلى قيم ودلالات تستشف من مطالب السياق الكلامي الاستعمالي، منها: التّفخيم والتّعظيم لما فيه من الإيهام، تحقير المحذوف، الجهل بالمحذوف أو التجاهل عنه، صيانة المحذوف عن الذكر تشريعاً له، العلم الواضح بالمحذوف الذي يغني عن ذكره، الخوف من المحذوف أو الخوف عليه، الإشعار باللهفة أو أن الزمن يتقاصر عن ذكر المحذوف.... الخ من الأغراض التي تكشفها دلائل الحال.

٢- الحذف في الحوارات القرآنية:

كثر الحذف في الحوارات القرآنية مشكلاً سمة أسلوبية واضحة المعالم متنوعة الأبعاد، وذلك لاعتماد الحوار على المباشرة والمشفاهة التي تفرض على طرفي الاتصال التخلي عن كثير من أجزاء الكلام، مجسماً الفارق بين مقررات النظام اللغوي ومطالب السياق الكلامي في واقعه الفعلي.

فما أهمية هذا العارض في الحوار القرآني؟ وما قيمته في التركيب؟ وكيف خدم مطالب السياق؟ وما هي القرائن الحالية واللفظية التي تعيننا على فهم المحذوفات؟ وما هي التراكيب التي لازمها الحذف أو كثر فيها؟ وما أنواع هذا الحذف؟

هذه الأسئلة وغيرها ستضافر في تحليل نماذج ممثلة لهذه الظاهرة في الحوار القرآني التي تفتح للقارئ فضاءات من التأويل والتخيل لاحد لها متأرجحة بين حدّي الغياب والحضور.

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

٢- أسلوبية الحذف في الحوارات القرآنية (نماذج ودلالات)

١- الحذف في بنية السؤال:

تجلى الحذف بصورة في بنى السؤال خاصة التي اجتراً عليها المتحاورون وتفننوا في تناولها بفنون الحذف المختلفة، فمقام السؤال من أكثر المقامات مناسبة للإيجاز والاختصار، سواء أكان التساؤل حقيقياً تطلب به المعرفة أو أريد به الإنكار أو التعجب أو التوبيخ أو غيرها من الدلالات والأبعاد الانفعالية القارة فيه؛ لأنه في الحالة الأولى يعج بلهفة السائل التائق إلى كشف المجهول ومعرفة الحقائق، وهو في الحالة الثانية صادر عن انفعال ثائر سريع، يطوي من جوانب الكلام ما لا يحتاج إليه السائل أو المنفعل، أو ما يبطئ عن بلوغ غايته في المعرفة والإبانة والتأثير. ومن صور الحذف في بنية السؤال:

أ) حذف أداة السؤال:

تختص الهمزة من بين سائر أدوات السؤال بجواز حذفها اعتماداً على القرائن المرافقة للحدث الكلامي، ويكون حذفها في اللغة المنطوقة مستوعباً من قبل المتلقي؛ لاعتماد الناطق على التنغيم الذي تغني الأداة عن ذكره.

أما في اللغة المكتوبة فإن غياب التنغيم قد يجعل من التركيب لغزاً متارجحاً بين حاسفتي الخبر والسؤال، فمن القراء من يحاول استشفاف التنغيم المخبوء في النص المكتوب اعتماداً على ما يتوافر من قرائن حالية مرافقة، فيرجح كون التركيب سؤالاً حذفته أدواته، ومنهم من ينظر إلى النص من زاوية أخرى فيقرأ التركيب قراءة مغايرة ترجح كونه خبراً، ويدعم رأيه بأدلة يستقيها من النص ذاته أو مما يحيط به من قرائن.

والحوار القرآني نص مكتوب ينبض حياة وحركة وحيوية تجسم الكلمات صوراً مسموعة ومرئية، جعلتنا في عدد من المواطن نرجح كون التراكييب فيها أسئلة حذفته أدواتها اعتماداً على ما توحى به القرائن من تنغيم. ومن هذه المواطن:

ما جاء في قول موسى عليه السلام - لفرعون : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمْنَاهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١) حيث يرى الأخفش والفراء أن همزة السؤال محذوفة والتقدير: أو تلك نعمة^(٢).

وأرجح هذا الرأي اعتماداً على استتقاق طريقة موسى في أداء العبارة، فقد قالها مستكراً متعجباً مستعظماً؛ لأنها جاءت رداً على قول فرعون: ﴿أَلَمْ نَرْبِكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ سِنِينَ﴾^(٣).

ولعل حذف أداة السؤال اكتفاءً بتنغيم العبارة بنغمة السؤال أفاد إبراز مقولة موسى بما فيها من دلالات قارة أهمها التناقض الصارخ بين التسمية والمسمى؛ فكيف يكون القتل والسبي نعمة يمن بها الظالم على المظلوم؟!

وتنوعت القيم التعبيرية التي تمخضت عن أسلوب قراء كلمة (السحر) بالإخبار والسؤال^(٤) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى: مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلَحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٥) تبعاً لاختلاف النظرة إلى السياق وتمثل طريقة الأداء، فكل قراءة بعد دلالي؛ فقراءة الإخبار تتضمن معنى التقرير والمواجهة. أما قراءة الكلمة بتنغيم السؤال فإنها توحى بدلالات متعددة تدور حول الإنكار والتوبيخ والتحقير، وفيها مقابلة بالمثل، فقد سبق أن قالوا لموسى بعد أن جاءهم بالبيّنات الواضحة: (إن هذا لسحر مبين)^(٦)، فقابلهم موسى بمثل مقالته متسائلاً فقال: (ما جئتم به؟ السحر؟) وقد أحدثت هذه القراءة تغييراً في نسق الجملة وطريقة الأداء، إذ تولّد تساؤل آخر أدى إلى تجاور بنى السؤال، وهذا أشد وقعاً في نفس المتلقي، وأكثر إثارة، فالأسئلة المتتابعة تلاحق المتلقي بالدلالات والأبعاد الانفعالية التي يريد السائل أن يستثيرها فيه، لما فيها من استفزاز للاستجابة الشعورية والقولية.

^(١) الشعراء/٢٢.

^(٢) التوحيدي، البحر الغبط، ج٧، ص ١١.

^(٣) الشعراء/١٨.

^(٤) قرأها جمهور القراء همزة وصل على الإخبار، وقرأها أبو عمرو وأبو جعفر همزة قطع مبنودة على السؤال (السحر)، بنظر الدمايطي،

اشعاف فضلاء البشر، ج٢، ص ١١٨.

^(٥) يونس/٨١.

^(٦) يونس/٧٦.

ومن المواطن التي قد تحمل على الإخبار والسؤال ما جاء في قول السحرة لفرعون: ﴿إِنْ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(١) الذي قد يفيد معنى الخبر المؤدي مقصداً بلاغياً يتمثل في إثبات الأجر الكبير وإيجابه على تقدير الغلبة التي هم واثقون منها، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر إن كنا الغالبين.

وقد تحمل الجملة على معنى السؤال الذي أغنى التنغيم عن أداته المحذوفة، ودلت عليه قرينة المقال الظاهرة في قول فرعون: ﴿نَعَمْ، وَإِنِّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾^(٢) فحرف الجواب (نعم) يشي بالسؤال المكنون في مقولة السحرة. كما يقوي ظهور همزة الاستفهام وقراءتها بالإجماع في سورة الشعراء^(٣) احتمالية صدور المقولة بتنغيم السؤال.

ولعل ظهور أداة السؤال في موقع واختفاءها في موقع آخر حاكي الصوت الجمعي الذي حمل المقولة بتنغيمات متعددة الدرجات ومتنوعة الإحياءات؛ فمن السحرة من أداها بقوة الخبر وثباته، ومنهم من أداها بتنغيم السؤال الذي يتسع تلوينات الانفعال وأبعاده.

وحملت الجملة الخبرية (أذهبتم طيبتكم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾^(٤) على معنى الخبر والسؤال؛ فقد يوجه الخطاب إلى أهل النار بأسلوب الخبر الذي يفيد المواجهة بحقيقة لا مفر من الإقرار بها.

وقد يوجه الخطاب بأسلوب السؤال الذي أغنى التنغيم عن أداته المحذوفة بدليل قراءة مجاهد وقتادة وابن كثير بهمزة مد طويلة (أذهبتم طيبتكم)، وقراءة ابن عامر بهمزتين محقتين (أذهبتم)^(٥).

^(١) الأعراف/١١٣.

^(٢) الأعراف/١١٤.

^(٣) (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: إِنْ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) (الشعراء/٤١).

^(٤) الأحقاف/٢٠.

^(٥) الديلماطي، انصاف فضلاء البشر، ص ٣٩٢.

ولعل حمل المقولة بتنغيم السؤال يتماشى مع أسلوب مخاطبة أهل جهنم الذي شكل السؤال بنية مهيمنة فيه؛ لقدرته على استيعاب الأبعاد الانفعالية التي يريد السائل إيصالها للمتلقى بتلويها المتفاوتة.

هذا بالإضافة إلى ما يفيد حذف الهمزة من تسليط الضغط الصوتي على التركيب (أذهبتم) وإبراز ما فيه من دلالات التوبيخ واللوم والتحسير والإنكار وملاحقة المخاطب بها.

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قال فرعون: آمنتم به قبل أن آذن لكم، إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾^(١) حيث يحمل التركيب (آمنتم) على معنى الخبر الممزوج بالتقريع والانتكار؛ أي فعلتم هذا الفعل الشنيع الذي لا يليق بكم وما كان ينتظر منكم.

كما يحمل على معنى السؤال وهذا أرجح، فسياق الآي يشي بانتهيار فرعون وتأجج غضبه أمام إعلان السحرة إيمانهم بموسى ودعوته، ولنا أن نتخيل نبرة صوته التي حملت عبارته، لا شك في أن صوته كان يرتجف غضباً وحيرة وخوفاً وتعجباً، فكيف ينقلب أعوانه فجأة عليه مؤيدين خصمه؟!

يؤيد هذا الربط غير المنطقي في قوله: (آمنتم به قبل أن آذن لكم) إنه لا يعرف كيف تقلت زمام الأمور من بين يديه، فهل إيمانهم بموسى ينتظر موافقته؟! وهل سيعطيهم الموافقة أن طلبوها منه؟!

وتركيب السؤال أقدر من الخبر على استيعاب هذه الأبعاد الانفعالية المتأججة في مقولة فرعون، لأنه يصل إلى المتلقي بدلالة ناقصة يأتي اكتمالها على لسان المتلقي أو في ذهنه كاشفاً عجز المرسل عن تكوين تراكيب جاهزة، فقد وصل التوتر في نفس فرعون أقصى درجاته فعقد لسانه سالباً إياه القدرة على إعداد تركيب جاهز يوحى بالاستقرار. يؤكد هذا قراءة الجمهور التركيب (آمنتم) بهزتين على السؤال، وقراءة حفص عن عاصم بمد الألف بهمزة واحدة على الخبر^(٢).

(١) الأعراف/١٢٣.

(٢) ابن جاهد، السبعة في القراءات، ص (٢٩٠-٢٩١).

وقد تذهب القراءة بأداة السؤال، ومع هذا يبقى تنغيم السؤال حياً في التركيب يستمد نبضه من القرائن الحالية واللفظية المحيطة. فقد قرأ حفص وابن كثير ﴿إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾^(١) بإسقاط همزة السؤال^(٢)، لوجودها في (إنكم) المحاورة لها في بنية النص: ﴿إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكُم المنكر﴾^(٣).

ولعل هذه القراءة تكشف عن طريقة أدائية جديدة من طرائق توجيه المقولة التي كررها لوط على مسامع قومه في أكثر من مقام لتكرار ممارستهم للفاحشة وإصرارهم عليها، فقد كان غاضباً منهم مستكراً فعلهم ومستبجاً، فقولب انفعالاته المتأججة في قالب السؤال ملاحقاً إيّاهم بهذه الانفعالات، ليستبهاوا إلى قبح انحرافهم فيدخلوا ويرتدعوا. وقد يواجه قومه، في مقام آخر بأسلوب الخبر.

كما ذهبت قراءة الأعرج (بشرتموني) بهمزة السؤال^(٤) في قوله تعالى: ﴿قال أبشرتموني على أن مسني الكبر؟ فيم تبشرون؟!﴾^(٥) ولكنها لم تسلب التركيب تنغيم السؤال، فقد أتبع التركيب بتركيب سؤال آخر يرجح دلالاته ويقوي تنغيمه (فيم تبشرون).

ويحمل الصوت الجمعي تنغيمات متنوعة الأداء قد يكون السؤال واحداً منها، وإن لم تظهر أداته، ومثاله ما جاء في قوله تعالى:

﴿وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً، إننا لنراها في ضلال مبين﴾^(٦) فقد احتضنت بنية المقولة الخبرية (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) في ثنائياها العميقة تنغيمات متنوعة الدرجات بتتبع انفعالات كل مثلق للخبر، فواحدة ألقّت الخبر مؤكدة مشوقة، وواحدة أعادت الخبر ذاته ولكنها حملته دهشاً، وأخرى أعادته بنبرة المستعظم

^(١) العنكبوت/٢٨.

^(٢) الديلماني، انعاف فضلاء البشر، ج ٢، ص ٢٢٧.

^(٣) العنكبوت/٢٩.

^(٤) التوحيد، البحر المحيط، ج ٥، ص ٤٥٨.

^(٥) الخضر/٥٤.

^(٦) يوسف/٣٠.

المستكر، وأخرى بتتغيم المتقزز المتعفف، إنها انفعالات تشي بالبنية الوحيدة القادرة على استيعابها، وهل ستكون غير بنية السؤال؟!

وقد تذهب القراءة بأداة السؤال في مقولة صادرة عن صوت جمعي فتكشف العطاء عن التنغيمات الممتزجة فيه المتأرجحة بين حافتي السؤال والخبر، ومثالها قراءة ابن كثير وأبى جعفر (إنك) على الإيجاب^(١) في قوله تعالى: (أأنك لأنت يوسف) ^(٢) التي تجسم أقصى درجات اليقين بأن المخاطب هو يوسف، وهذه الدرجة قد يصل إليها شخص قبل الآخر، فمن إخوة يوسف من شك في أن العزيز هو يوسف، ومنهم من اختلط عنده الشك باليقين، ومنهم من تغلب يقينه على شكه ولكنه ما زال مندهشاً لا يصدق ما يراه، وهؤلاء جميعهم قولوا مقولتهم في قالب السؤال الذي استوعب حيرتهم وترددهم في الحكم ودهشتهم وتساعد اليقين في نفوسهم. أما من كان متيقناً فقد قولب مقولته في بنية الخبر.

وقد يحوي خطاب أحد أطراف الحوار بنى سطحية متطابقة لكنها تحوي تنغيمات متنوعة يكشفها تأمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، ومنه ورود جملة (هذا ربي) ثلاث مرات أدبت في كل مرة بتتغيم مختلف باختلاف درجة تقبل المتلقي للفكرة وذلك في قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال: هذا ربي. ﴿فلما﴾ أفل قال: لا أحب الأفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربي. فلما أفل، قال: لنن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة، قال: هذا ربي، هذا أكبر. فلما أفلت، قال: يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ ^(٣).

حيث قدر الأخفش همزة استفهام قبل جملة (هذا ربي)، وخالفه في ذلك معظم النحاة الذين ذهبوا إلى أن هذه الجملة في المواطن الثلاث خبرية^(٤).

وأرى أن وضع هذه الجملة في السياقات التي وردت فيها يبين نوعها، فالجمل الثلاثة لم ترد في وقت واحد، كما أنها لم توجه بتتغيم واحد، فقد حملت كل منها بالطريقة التي تناسب

^(١) الديماطي، اتخاف فضلاء البشر، ج ٢، ص ٢٦٧.

^(٢) يوسف/ ٩٠.

^(٣) الأنعام/ (٧٥-٧٨).

^(٤) ابن هشام، معني اللبيب، ص/ (٢٠-٢١).

المتلقي ودرجة تقبله للفكرة، فهي في الأولى جملة خبرية، بينما يمتزج الخبر مع السؤال في الجملة الثانية، وهي في الثالثة سؤال حذف أداته. ولتوضيح هذا دعونها نتأمل السياق الذي وردت فيه:

استخدم إبراهيم أسلوباً في استدراج الخصم يطلق عليه (تجاهل العليم)، فقد كان يحكي كلام قومه، مع علمه بأنه باطل معظماً ما يعظمونه، ثم يكر عليهم مبطلاً كلامهم بالحجة الواضحة.

إنه يريد إقناع قومه أن لا شيء يستحق العبادة إلا الله، فبدأ معهم بحيادية العرض المتجسمة في بنية الخبر (هذا ربي) مشيراً إلى كوكب في السماء، فلما أفل هذه الكوكب، استلقى إبراهيم من أقوله جرعة من قوة، وتسربت قوة من يقين الخصم باستحقاق هذا المعبود للعبادة.

وبعد هذا التمهيد الموضعي صرح إبراهيم بمشاعره إزاء معبودهم الأفل (قال: لا أحب الأفلين) ثم يشير إبراهيم إلى معبود آخر وهو القمر قائلاً: (هذا ربي)، وأخال السؤال بما فيه من تنعيم التشكيك والحيرة يطل باستحياء من حيادية الخبر، ولكنه لا يلبث أن يختفي، فالمواجهة ووضوح الموقف القاران في السؤال قد يثيران زوبعة غضب ورفض تحول دون قبول المتلقي لدعوة الرسول. ويأفل القمر، ويكتسب إبراهيم قوة إضافية، ويخسر الخصم مزيداً من يقينه بمعبوداته.

وتبزغ الشمس فيشير إليها إبراهيم قائلاً: (هذا ربي، هذا أكبر) بنغمة المستبعد المشكك الذي أصابه الضجر ولفته الحيرة، والسؤال هو الاختيار المناسب لقولبة هذه النغمة بكل أبعادها. ولعل تراجع قوة الخصم أمام أقول آلهته اكسب إبراهيم جرأة تجسمت في مواجهة الخصم بالسؤال دون أن يخشى ما يوحى به من أبعاد. ومع هذا فقد حرص على إظهار حياديته ورغبته في التجربة حتى النهاية، فأتبع سؤاله بجملة (هذا أكبر)، أي لنجرب فقد يكون هذا هو الإله لكبر حجمه.

وقد يحول تقدير أداة سؤال ملكية المقولة من قائل لآخر، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَفَّنَا آلَ لَمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ. قُلْ: إِن هَدَى اللَّهُ، أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾^(١) حيث يمكن أن تنسب مقولة (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) إلى قائلين، وتؤدي هذه النسبة إلى اختلاف نوع البنية؛ فهي مع قائل بنية خبرية، وهي مع آخر بنية سؤال حذف أداته.

(١) آل عمران/٧٣.

والقائلان اللذان تنسب إليهما المقولة هما: أهل الكتاب في حوارهم مع بعضهم، والله - عز وجل - بواسطة رسوله محمد (ص). فإن صدرت المقولة من أهل الكتاب كانت خبرية، لأنها ستكون تنمة لخطابهم بعد أن اعترضته الجملة الملقنة للرسول (قل: إن هدى الله هو الهدى).

وهي بنية سؤال تفيد الإنكار والتوبيخ إن كان القائل هو الله بواسطة رسوله، وقد حذفت أداة السؤال اكتفاءً بالتثنية، كما حذف الفعل فيها اكتفاءً بذكر العلة وتركيزاً عليها لفضح نوايا أهل الكتاب ومواجهتهم بها، فيكون تقديرها: (أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم كنتم الحق الذي أظهره الله لكم).

ب) حذف تركيب السؤال:

وإبراز المذكور من عناصر بنية الخطاب بتثنية السؤال يحقق دلالات عديدة منها: التأدب مع المتلقي بعدم التصريح بالسؤال والاكتفاء بالتلويح الصوتي الدال عليه، ومنه ما جاء في قول إبراهيم مخاطباً ربه في الحوار الآتي:

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾ قال: إني جاعلك للناس إماماً. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين^(١) فمقولة إبراهيم: (ومن ذريتي) تخفي في بنيتها العميقة سؤالاً يمكن أن نقره بـ: (ومن ذريتي أأن تجعل للناس إماماً؟)

وقد يحذف السؤال لفرط الدهشة والمفاجأة، ومنه ما جاء في قول زوج إبراهيم في الحوار الذي دار بينها وبين الرسل المبشرين:

﴿فأوجس منهم خيفة قالوا: لا تخف. وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت: عجوز عقيم؟! قالوا: كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾^(٢)

ويكشف تأمل الظروف المحيطة بمقولة زوج إبراهيم عن التثنية الذي تجسمت فيه، وهو تثنية سؤال إنكاري يمتزج تعجباً ومفاجأة وفرحة حائرة؛ فهي امرأة عاقر كبيرة السن تبشر فجأة بأنها ستجب غلاماً، لا شك في أن وقوع البشارة كان عليها كبيراً وقد تمثل في:

^(١) البقرة/١٢٤.

^(٢) الذاريات/(٢٨-٣٠).

١. صرخة انفعالية (صرّة).
٢. حركة انفعالية (صكّت وجهها).
٣. كلام مبتور (عجوز عقيم)؛ يمكن ان نقدر عناصره المحذوفة بـ (أألد وأنا عجوز عقيم).

(ج) حذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال:

وذلك لإبراز المذكور بتتغيم السؤال ومواجهة المتلقي به، وجاء هذا اللون من الحذف في موضعين؛ الأول في ردود الأنبياء على تكذيب أقوامهم وتهديدهم؛ والثاني في خطاب الملائكة لأهل جهنم معنفين إياهم، فمن الأول:

حذف الجملة الفعلية التالية لأداة السؤال في قول شعيب لقومه، بعد أن خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم: ﴿أولو كنا كارهين﴾^(١) أي: (أتعيدوننا في ملتكم ولو كنا كارهين).

ويعكس هذا الطي في مقولة شعيب الحوار المباشر الدائر بين الطرفين، الذي يحول دون الحاجة إلى ذكر عناصر الخطاب بكاملها؛ لأنها مفهومة ومدرّكة. كما يبرز الحذف تعجب شعيب من تهديد قومه بتتغيم السؤال.

ومنه ما جاء في رد المرسلين على أصحاب القرية في الحوار الآتي:

﴿قالوا: إنا تطيرنا بكم، لنن لم تنتهوا لنرجمتكم ولیمسنكم منا عذاب أليم. قالوا: طائركم معكم أن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون﴾^(٢).

حيث حذف (المرسلون) جواب الشرط المقدر بـ (تطيرتم) المستشف من قول أصحاب القرية: (إنا تطيرنا بكم)، مبرزين بهذا الحذف جملة الشرط (إن ذكركم) بتتغيم السؤال لبيان الفارق بين الفعل الإيجابي الذي يقومون به ورد فعل أصحاب القرية السلبي عليه.

(١): (قال الملائكة الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لنعودن في ملتنا. قال: أولو كنا كارهين الأعراف/٨٨).

(٢): (س/١٨-١٩).

وقد حذفت الجملة الفعلية التالية للسؤال في رد موسى على تهديد فرعون في الحوار الآتي:

﴿قال: لنن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين.

قال: أولو جئت بك بشيء مبين﴾^(١). أي (أتسجنني ولو جئت بك بشيء مبين)، وأفاد الحذف إبراز مل فيه إغراء لفرعون وإثارة فضوله.

كما جاء هذا اللون من الحذف على لسان الملائكة الموكلة بإيقاع العذاب على الكافرين، ومنه ما جاء في رد الملك الموكل بإغراق فرعون وقد أعلن الأخير إيمانه: ﴿آآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾^(٢) أي (آآلآن تؤمن).

وقول خزنة جهنم للكافرين وقد أعلنوا إيمانهم حين رأوا العذاب: ﴿أئنم إذا ما وقع آمنتم به، آآلآن وقد كنتم به تستعجلون؟!﴾^(٣) أي (آآلآن تؤمنون).

ويعكس حذف الجملة الفعلية الواقعة بين أداة السؤال وظرف الزمان (الآن) غضب الملائكة من هؤلاء المكابرين المعاندين الذين لا يؤمنون إلا بعد فوات الوقت، وقد حال الغضب والرفض دون ادراج الجملة التي تحوي فعل الإيمان (تؤمن، تؤمنون)، كما أوحى الحذف بتعطش الملائكة لتعذيب الكافرين إثباتاً للعذاب الذي طالما أنكروه ولم يعترفوا به إلا حين رأوه.

وأفاد الحذف توجيه السؤال بما فيه من إنكار وتوبيخ وشماته إلى ظرف الزمان (الآن) وقد أدى هذا إلى تمطيظ الصوت وإطالته لمحاصرة المتلقي بدلالة الرفض والاستحالة وبعث اليأس في نفسه من قبول إيمانه في هذا الوقت وما يليه.

(١) الشعراء/ (٢٩-٣٠).

(٢) يونس/ ٩١.

(٣) يونس/ ٥١.

د) الحذف في جواب السؤال:

عمد أطراف الحوار في إجابتهم إلى حذف جل العناصر الموجودة في الأسئلة الموجهة إليهم، كأن تقتصر الإجابة على تعيين الشيء المسؤول عنه اختصاراً ووصولاً بالسؤال إلى غايته مباشرة دون أن تفصله عنها عناصر مدركة ضمناً في ذهنه، وقد يجسم هذا الحذف عدم قدرة المجيب على إتمام إجابته خجلاً أو ألماً أو خوفاً أو غيرها من المشاعر التي تلجم اللسان وتطوي الكلام.

وقد تتبلور الإجابة مبنية موقف صاحبها بحرف من حروف الجواب (نعم، لا، كلا، بلى، إي)، ويكشف سياق الحال التلويح الصوتي الحامل لهذه الإجابة، كما يبين سبب هذا الاختصار. وأحياناً يلجم المسؤول فلا ينبس بإجابة.

وعند حصر الأسئلة التي تعرضت إجاباتها للحذف وجدنا أنها تدور في أربعة محاور:

أ- المحور الأول:

الأسئلة التي يلقتها أسائل العليم (الله) لرسوله ليقوم بتوجيهها إلى خصومه من الكفار والمعادنين الإقرار بالحق.

وتدور الأسئلة حول قدرة الله المطلقة وسيطرته على كل ما في الكون. يتبع الله أسئلته المفحمة إجابة مؤكدة لا يخرج المتلقي عن حدودها أبداً تمثلت في كلمة واحدة هي (الله)، ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ﴾^(١)؛ أي: خلق السماوات والأرض الله. فقد حذف العناصر المذكورة في السؤال للتلاحم المباشر بين السؤال والجواب، ولأن السائل والمجيب هو الله، فما ذكر في الجواب كان تنمة للسؤال. وأفاد الحذف تسليط الضوء على الإجابة الوحيدة التي تبرز المفارقة الواضحة بين يقين أولئك الكفرة وممارستهم الفعلية.

وقد يلقي الله رسوله السؤال والجواب، فيكون الرسول هو السائل وهو المجيب في الوقت ذاته، وهذا أدعى للحذف، لأن السؤال والجواب مندمجان يتم أحدهما الآخر، فالله عز وجل - اختار أسلوب السؤال والجواب في طرح الفكرة على الكافرين، لما فيه من ملاحقة المخاطب واثارته بكيفية لا تتحقق بأسلوب الخبر (الله يرزقكم من السماوات والأرض).

(١) الزمر/٣٨.

◀ والمحور الثاني:

الأسئلة الموجهة إلى أهل جهنم التي يمتزج فيها الإنكار والتوبيخ والتهكم والتحسير في بوتقة واحدة مسببة لهم الألم والحسرة والشعور بالندم، فتحول هذه المشاعر دون القدرة على التفصيل في الكلام أو الإطالة، ولهذا اقتصررت جل إجاباتهم على حرف من حروف الجواب، ومن ذلك:

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً. قالوا: نعم﴾^(١) أي نعم، وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً.
وقوله تعالى: ﴿قالوا: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى﴾^(٢) أي: بلى أننا.

◀ والمحور الثالث:

الأسئلة التي يوجهها الخالق إلى البشر بهدف إقامة الحجة عليهم، فيُبدل الحذف في إجاباتهم على القبول والتسليم المطلق الذي يحول دون النقاش أو الإطالة:
﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا﴾^(٣) أي: بلى أنت ربنا شهدنا (على أنفسنا وأقررنا).

◀ والمحور الرابع:

أسئلة حقيقية تطلب تعيين شيء محدد وتوضيحه، فتأتي الإجابة عنها مقتصرة على ذكر هذا الشيء فقط مراعاة لتعطش السائل، فالحذف هنا ضرورة، والاشتغال بذكر المحذوف يفضي إلى تفويت المهم، ومثالها ما جاء في الحوارات الآتية:
﴿يسألونك ماذا ينفقون. قل: العفو﴾^(٤) أي: أنفقوا العفو.
﴿وإذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً﴾^(٥) أي أنزل الله خيراً.

^(١) الأعراف/٤٤.

^(٢) غافر/٥٠. ولزبد من الأسئلة ينظر: المائدة/٣٠، الزمر/٧١، الأحقاف/٣٤.

^(٣) الأعراف/١٧٢.

^(٤) البقرة/٢١٩.

^(٥) النحل/٣٠.

﴿قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير﴾^(١) أي: قال ربنا الحق.

(هـ) حذف السؤال:

وذلك لاستهلال الحوار بكلمة تدل على نوع التركيب متمثلة بـ(سأل وأخواتها)، وتبين موضوعه من الإجابة المفصلة؛ أي أن القرينة السابقة لبنية السؤال المحذوف تحدد ماهية التركيب (نوعه)، بينما تشي القرينة اللفظية اللاحقة بمحور السؤال وموضوعه. ومنه ما جاء في الحوارات الآتية:

﴿يسألونك عن الأنفال، قل: الأنفال لله والرسول﴾^(٢)، حيث وشت القرائن اللفظية السابقة للتركيب المحذوف واللاحقة بالعناصر المشكلة لبنيته وكيفية تألفها، مبينة أن السؤال المحذوف هو: (لمن الأنفال؟)

ويقدر السؤال المحذوف في قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الجبال، فقل ينسفها ربي نسفاً﴾^(٣) بـ (ماذا يحل بالجبال يوم القيامة؟) لأن في الإجابة تفصيلاً لوقوع فعل النسف.

ويقدر السؤال المحذوف في قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب. قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزلون؟!﴾^(٤) بـ (لم كنتم تستهزلون بالله وآياته ورسوله؟) وجاء هذا التقدير من عناصر إجابة العصاة الساخرين، ومن السؤال الإنكاري وما فيه من تفصيلات وتوضيحات.

ونشير هنا إلى ضرورة ارتباط الإجابة بمضمون السؤال، فكلاهما يشير إلى الآخر ويندمج معه بحيث لو غاب السؤال دلت عليه عناصر الجواب، فالإجابات في الأمثلة السابقة محددة ومقيدة بحدود بنية الاستهلال التي تؤكد هذا الترابط.

^(١) لـ/٢٣.

^(٢) الأنفال/١.

^(٣) طه/١٠٥.

^(٤) التوبة/٦٥.

(و) حذف تركيب السؤال بعد (أرأيت/أرأيتم):

ولهذا الحذف دلالات منها: عكس حالة الألم والغضب التي تسيطر على المتكلم فتحول دون قدرته على إتمام مقولته، ومثاله ما جاء في قول شعيب - عليه السلام - لقومه: ﴿يا قوم، أرأيتم إن كنت على بينه من ربي وورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(١) فقد حذف جواب (أرأيتم) وتقديره: (أصبح لي أن لا أمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصر ونحن الأنبياء لا نبعث إلا لهذا؟!).

وكسر هذا البتر توقع المتلقي الذي يسير وصولاً إلى نقطة استقرار تتمثل في ذكر جواب الشرط، ولكن هذا لم يحدث؛ فالموقع ما زال شاغراً، والمتكلم ينطلق إلى عبارة جديدة تاركاً مقولته نهاية مفتوحة.

وقد يدل حذف السؤال بعد (أرأيت) على التأدب في الخطاب بالابتعاد عن توجيه توبيخ مباشر إلى المتلقي استمالة له، ومثاله ما جاء في الخطاب الذي أمر الله رسوله أن يوجهه إلى أهل الكتاب:

﴿قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(٢)، فقد حذف جواب (أرأيتم) وتقديره (ألستم أضل الناس وأظلمهم؟)، وأفاد هذا الحذف التعريض بالمتلقي دون توجيه الإنكار والتوبيخ القارين في السؤال المحذوف إليه مباشرة.

٢- الحذف في التركيب الشرطي:

أ - حذف جواب الشرط:

شكل حذف جواب (لولا) في الحوار القرآني ظاهرة أسلوبية لافتة في خطاب الكفار الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجسماً رفض تصديقه والإيمان بدعوته، ومنه ما جاء في الخطابات الآتية:

^(١) هــد/٨٨.

^(٢) الأحقاف/١٠.

❖ الغضب والحرص والحيرة:

﴿قال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾. التقدير: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد (لدفعتهم وحميتكم).

الطرف المثار: سيدنا لوط عليه السلام

الطرف المثير: قوم لوط

سبب الإثارة: ضيف لوط وما أثاره مجيؤهم من فتنة قومه الذين فسدت فطرتهم ومالوا إلى حب ممارسة الفاحشة مع الرجال، فجاءوا يهرولون مطالبين لوط بتسليمهم ضيفه.

نتيجة الإثارة: غضب لوط من قومه، وشعر بالحرص من تصرفاتهم الشاذة، وخاف على ضيفه الذين بدوا لا حول لهم ولا قوة، واحتار أين يذهب بهم، وكيف يدفع هذا التيار الكاسح القابع وراء باب، وسيطر عليه الإحساس بالضعف والوحدة وفقدان التصير، فنظر إلى ضيفه بالأم، وانفجرت شفتاه عن عبارة مبتورة تعكس إحساس شخصيه مقهورة، تبحث عن مخرج من هذا الكرب بقوة عملية فعلية لا بالفاظ أو حجة كلامية خطابية.

❖ الحزن واليأس من المخاطب:

﴿ولما فصلت العير قال أبوه: إني لأجد ربح يوسف لولا أن تفقدون﴾^(١). أي: لولا أن تفقدون لصدقتموني.

الطرف المثار: يعقوب عليه السلام

الطرف المثير: قومه الذين اتهموه بالخرف لكبره في السن وحزنه الدائم على ابنه يوسف.

سبب الإثارة: وصول رائحة يوسف إلى أبيه يعقوب، ورغبة يعقوب بنقل إحساسه بقرب عودة يوسف إلى قومه، ولكنه خاف أن يتهم بالخرف، فهذا إحساس لا يدركه إلا الأنبياء لتواصلهم الدائم بالقدرة الإلهية.

نتيجة الإثارة: عبارة غير مكتملة لشعور المتكلم باليأس من تصديق قومه له، وفرحته لاقترب الفرج بعودة ابنه الغائب، إنها إذًا مشاعر متناقضة تأججت في نفس يعقوب، وعكستها عبارته المتبلورة.

^(١) يرمف/٩٤.

ب - حذف جملة الشرط:

إن حذف جملة الشرط في الاستعمال اللغوي استغناء بدلالة الأمر أو النهي عليها يسلط الضوء على جواب الشرط (النتيجة المرغوب بتحقيقها)، ويلائم الإغراء بسرعة تنفيذ الطلب ومثاله ما جاء في الخطابات الآتية:

﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى (فإن تكونوا) تهتدوا﴾^(١).

﴿فيقول الذين ظلموا: ربنا أخرنا إلى أجل قريب (فإن تأخرنا) نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾^(٢).

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني (فإن اتبعتموني) يحبكم الله﴾^(٣).

٢ - دلالة حذف الفعل في كلام المتحاورين:

من الدلالات التي أفادها حذف الفعل في مقولات المتحاورين:

- الإشعار باللهفة وأن الزمن يتقاصر عن ذكر الفعل، ومنه قول نبي الله صالح لقومه: ﴿ناقة الله وسقياها﴾^(٤) أي: نروا ناقة الله والزموا سقياها حيث دل حذف الفعلين في العبارة على لهفة القائل، ورحمته بقومه، وشدة حرصه على نجاتهم، ودل أيضاً على اندفاعه السريع نحو دفع الخطيئة الموبقة لهم قبل فوات الوقت^(٥).

- إبراز المذكور لأهميته في تطمين المخاطب ونزع هواجسه اتجاه المتكلم. وهذا من آداب الحوار نجده في قول الرسل الذين بعثهم الله لتبشير إبراهيم عليه السلام بغلام من صلبه: (سلاماً)^(٦) فقد ناب المصدر عن فعله (نسلم) في هذه التحية المطروحة من زائرين غريباء،

^(١) البقرة/١٣٥.

^(٢) إبراهيم/٤٤. ولزبد من الأمثلة بنظر: البقرة/٦١، الزخرف/٤٩.

^(٣) آل عمران/٣١.

^(٤) الشمس/١٣.

^(٥) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٩٠.

^(٦) ولقد جاءت رسلا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً، قال: سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (هود/٦٩).

ينبغي أن توضح نوازعهم وأهدافهم للمخاطب حتى لا تذهب به الظنون كل مذهب، فكان التركيز على إبراز (السلام) ضرورة تلاشت عندها أهمية ذكر الفعل^(١).

- وقد يبرز المذكور لا لتطمين المخاطب ونزع هواجسه بل ليهز كيانه وإيقاظ مخاوفه: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ والتقدير، (الزموا) مكانكم أنتم وشركاؤكم. إن حذف الفعل أبرز كلمة (مكانكم)، ولا شك في أن نطق هذه الكلمة فيه من التقريع والعنف ما فيه.

كما ويلتزم حذف الفعل التعبير عن حالة السكون والصمت وعدم الحراك، ويستلزم بسرعة التنفيذ موحياً بسوء المنقلب الذي سيحل بهؤلاء المشركين الذين سكنت حركتهم الخارجية وتحركت فيهم صراعات داخلية عنيفة.

٤) حذف المفعول به:

من الدلالات و القيم التعبيرية التي أفادها حذف المفعول به في مقولات المتحاورين:

• التفخيم لما فيه إبهام:

ارتبطت هذه القيمة التعبيرية بسياق التهديد والوعيد، لما في الحذف من فتح لآفاق التخيل التي لا تحدها حدود التوقع، ومنه حذف المفعول به في قول هود، عليه السلام، لقومه: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾^(٢) أي: انتظروا عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه. قل: إنما النيب لله، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾^(٣) أي: انتظروا عذاب الله. فقد جعل الحذف في المقولتين دليلاً على ضيق الكلام عن إمكانية وصف العذاب الذي سيحل بولئك المكذبين.

^(١) يذكر الزمخشري في شرحه للآية الكرعة أن إبراهيم عليه السلام اختار أن يرد عليهم برفع كلمة السلام (سلام) للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يعيهم بأحسن مما حيّوه به أخناً بأدب الله وهذا أيضاً من إكرامه لهم. (الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٣٩١-٣٩٢).

^(٢) الأعراف/٧١.

^(٣) يونس/٢٠.

• التأديب بعدم تحديد المطلوب:

وذلك بأن يترك للمتلقى حرية اختيار المفعول الذي سيقع عليه فعل الطلب تأديباً في الطلب وإظهاراً للقبول والتسليم المطلق بما يختار، ومنه ما جاء في قول إبراهيم داعياً ربه: ﴿رَبِّهِ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١)، إنه يطلب من الله أن يهب له من الصالحين دون أن يحدد أو يخصص وقوع فعل الهبة على شخص معين، كأن يقول: هب لي ابناً أو أخاً أو صديقاً أو غلاماً.

وقد يوحي هذا الحذف بالإضافة إلى التأديب والتسليم المطلق باستبعاد أن يكون هذا الصالح ابناً ينجبه إبراهيم من صلبه؛ لأنه، عليه السلام، كان كبير السن وزوجه عقيماً لا تتجب. ولكن الله عليم بذات الصدور؛ يعلم حاجة إبراهيم حتى وإن لم ينطق بها لسانه، ولهذا فقد وهبه غلاماً من صلبه إكراماً له وكرامة: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٢). ولعل استخدام كلمة (هب) قد وشى بطلب إبراهيم للذرية، لأنها هبة من الله.

• تنزيه الذات من وقوع فعل الفاعل عليها:

وهذا ما جاء في قول فرعون للملأ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟!﴾^(٣) فقد أبى احساس فرعون بالعظمة والشموخ والاستعلاء أن يوقع ذاته موقع المأمور، وإن كانت حاجته إلى رأي الملأ ملحة، وهذا ما دل عليه حذف ياء المتكلم أو (نا) المتكلمين التي تعود عليه من بنية التركيب (تأمرون) التي تعني تأمرونا أو تأمروني.

• التحقير والسخرية والرفض:

إن رفض أحد أطراف الحوار للطرف الآخر قد يؤول إلى محاولة إبعاد وقوع أي فعل إيجابي المردود عليه تحقيراً له وسخرية يكشف عن منبعهما السياق. ومثاله حذف المفعول الذي وقع عليه الفعل (بعث) في قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم:

^(١) الصافات/١٠٠.

^(٢) الصافات/١٠١.

^(٣) الشعراء/٣٤-٣٥.

﴿وإذا رأيوك إن يتخذونك إلا هزواً: أهذا الذي بعث الله رسولا؟﴾^(١) أي: بعثه. حيث كشف حذف المفعول به رفض الاعتراف بوقوع فعل البعث على محمد صلى الله عليه وسلم سخريه به واحتقاراً له متبعهما الغيرة والحقد والإحساس بالتميز الذي يدفع إلى دحض الآخر ومحاولة إخفاء أية ميزة قد يخص بها.

• التركيز على الفعل دون الالتفات أو الاكتراث بما يقع عليه اعتماداً على إدراك المتلقي للمحذوف. ومثاله ما جاء في المقولات الآتية:

- ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُمَاتُ الناس وفيه يعصرون﴾^(٢) أي: يعصرون العنب أو الزيتون. فقد كان تركيز يوسف منصباً على فعل العصر ذاته لا على ما يقع عليه.

- ﴿إذ قال لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾^(٣) أي: لا يسمعك ولا يبصرك. فهم إبراهيم كان مسلطاً على تجريد الآلهة من فعل السمع والبصر، لا على ما يقع عليه هذان الفعلان اثباتاً للفرق بين هذه الآلهة والإله الذي يعبد.

- ﴿إذ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت. قال: أنا أحيي وأميت﴾^(٤). أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. فهذه المفاعيل مدركة في ذهن المخاطب، وقد يفيد غيابها حضور قائمة لا حصر لها من المفاعيل التي يمكن إدارجها تحت بند (الأحياء) وبند (الأموات).

٥) حذف الجملة بعد حروف الجواب:

يدل حذف الجملة بعد حروف الجواب التي تفيد الإيجاب على تأكيد حدوث مضمونها؛ لأنه أمر حتمي لا يحتاج تأكيده إلى تكرار نكره خاصة إذا كان المتكلم مالكاً زمناً الفعل؛ لأن من يملك قوة الفعل لا يحتاج إلى أن يفصل في كلامه، ومثاله:

^(١) الفرقان/٤١.

^(٢) يوسف/٤٩.

^(٣) مريم/٤٢.

^(٤) البقرة/٢٥٨.

- حذف جملة (ستبعثون) في الرد الذي لقنه الله لرسوله في قوله: ﴿وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين، وإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون؟! أو آباؤنا الأولون؟! قل: نعم، وأنتم داخرون﴾^(١) أي: نعم ستبعثون.

لقد أوحى حذف جملة (ستبعثون) بأن قضية البعث بعد الموت قضية حتمية لا نقاش فيها، وعزز هذه الحتمية ببيان الحالة التي سيكون عليها هؤلاء الساخرين.

- ومنه حذف جملة (إن لكم أجراً) بعد حذف حرف الجواب (نعم) في رد فرعون على سؤال السحرة في الحوار الآتي:

﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم إذا لمن المقربين﴾^(٢).

وكانه أراد بهذا الحذف أن يبين للسحرة أن استحقاقهم للأجر أمر حتمي، وقد عزز هذا الأمر بعطف التركيب الشرطي (إنكم إذا لمن المقربين) على الجملة المحذوفة؛ لتسليط الضوء على مكافأة لم يطلبها السحرة وهي جعلهم من أصحاب الحظوة والمكانة عند فرعون تشجيعاً لهم.

وحذفت الجملة بعد (بلى) لتؤكد القائل من حدوث الفعل الذي نفى الطرف الآخر حدوثه، ومثاله ما جاء في رد الملائكة على إنكار الكافرين في الحوار التالي:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم: ما كنا نعمل من سوء. بلى، إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾^(٣). أي: بلى، كنتم تعملون سوء.

حيث اكتفى الملائكة بذكر كلمة (بلى) لإثبات ما أنكره الكافرون دون تكرار ذكر مقولتهم بأسلوب الإيجاب، لأنهم كانوا على يقين بوقوع فعل سوء منهم، فهذا أمر لا يحتاج إلى إثبات ولا يحتمل النقاش.

كما حذفت الجملة بعد حرف الجواب (كلا) في ردين، أفاد الحذف فيهما تأكيد عدم حصول الفعل الذي يؤكد الطرف الآخر وقوعه:

^(١) الصافات/ (١٥-١٨).

^(٢) الشعراء/ (٤١-٤٢).

^(٣) النحل/ ٢٨.

﴿قال: رب، إني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري، ولا ينطلق لساني، فأرسل إلى هارون. ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون.﴾

قال: كلا، فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون^(١). أي: كلا، لن يقتلوك ولن يحصل ما تخشاه. لقد صدرت الكلمة الفصل (كلا) من لدن القوة الإلهية التي بيدها زمام الأمور كلها، إنها كلمة لا تقبل التردد ولا أنصاف الحلول ولا تترك مجالاً للشكوك. ودل غياب الجملة بعدها على انتفاء وقوع فعل القتل، وهذا أبلغ، في رأيي، من نفي وقوع الفعل نفياً صريحاً.

كما حذفت الجملة بعد حرف الجواب (كلا) في مقولة موسى ردّاً على مخاوف أتباعه وقد لحقهم فرعون وجنوده في الحوار الآتي:

﴿فلما تراءى الجمعان، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون.﴾

قال: كلا، إن معي ربي سيهدين^(٢). أي: كلا، لن يدركوكم.

لقد حالت ثقته بالنجاة دون تكرار عبارة أتباع الانهزامية مكثفياً بنفيها بكلمة واحدة بلور فيها رفضه، وسلط الضوء بهذا الحذف على المذكور الذي فيه ما يزرع الأمل والثقة في النفوس (إن معي ربي سيهدين) وهذه من صفات القائد الناجح.

٦) حذف الصفة:

من المواضع التي حذفت فيها الصفة في مقولات المتحاورين ما جاء في قول الخضر معللاً لموسى -عليه السلام- سبب خرقه للسفينة: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعيبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا^(٣)، فقد حذف صفة السفينة (صالحة) والمعنى يطلبها، فلو لم نقرر هذه الصفة، لكان ذلك يعني أخذ الملك لكل سفينة، ولما احتاج الخضر إلى خرقها (فأردت أن أعيبها) لأن تعيبها لا يخرجها عن كونها سفينة. وقد ظهرت هذه الصفة في قراءة أبي وعبد الله^(٤).

^(١) الشعراء/ (١٢-١٥).

^(٢) الشعراء/ (٦١-٦٢).

^(٣) الكهف/ ٧٩.

^(٤) الرّحمن، الكشاف، ج ١٢، ص ٧١٢.

وحذفت الصفة في قول أتباع موسى له: ﴿الآن جنت بالحق﴾^(١) أي بالحق الواضح. ولعل أهمية هذا التقدير تعود إلى دفع الشك في كون أتباع موسى كفاراً بدعوته^(٢).

كما حذفت الصفة في قول الهدد لسليمان عليه السلام: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾^(٣). أي: من كل شيء مرغوب فيه.

وقد سبق أن أشرنا إلى دلالة التنعيم في الموقف الكلامي على الصفة المحذوفة، فالصفة تحذف اكتفاء بتلوين صوتي جسمه الموقف أو المقام. فالهدد كان مندهشاً ومبهوراً بما رآه من ملك حاكمه سبأ، ولعل الانبهار عقد لسانه، فما رآه عجز عن وصفه والإحاطة به، وهنا تقف الكلمات عاجزة فتغيب عن الساحة تاركة مكانها للخيال ليشغله بالطريقة التي يريد.

٧ (الحذف في بنية النداء:

أ) حذف أداة النداء (دلالات وقيم تعبيرية):

اطرد حذف أداة النداء عند توجيه الخطاب للذات الإلهية^(٤). وقد تقاسم نداء لفظ الجلالة دون أداة النداء فريقان متناقضان:

- الرسل والصالحين من عباد الله.
- أهل جهنم.

دلّ نداء الرسل والصالحين من عباد الله للذات الإلهية دون أداة على استئثارهم قرب الله منهم، وسماعه دعائهم، ورؤيته مكانهم. وقد تولد هذا الشعور نتيجة لإيمانهم، وبقيناً بوجود خالق يملك زمام أمورهم، فنادوه داعين راجين قدرته، وتلاشت ياء النداء إزاء التحام الداعي بمن يدعوه، دلّ على هذا الإلتحام إضافة ياء المتكلم إلى لفظ الجلالة (رب) أو إضافة (نا) المتكلمين إليه (ربنا).

^(١) البقرة/٧١.

^(٢) ابن هشام، معني اللب، ص ٨١٨.

^(٣) النمل/٢٣.

^(٤) استهل الحوار بندا لله عز وجل دون حرف نداء (١٨) مرة؛ ١٢ مرة على لسان الأنبياء والصالحين، و ٦ مرات على لسان أهل جهنم. ينظر: البقرة/١٢٤، يوسف/٨٥، المائدة/٢٥، المائدة/١١٤، الأنعام/١٢٨، الأعراف/٢٣، ١٤٣، ١٥٥، يونس/٨٨، هود/٤٥، إبراهيم/٤٤، النحل/٨٦، السجدة/١٢، فاطر/٣١، الصافات/١٠٠، مريم/٤.

وقد تجسم هذا القرب حواراً مباشراً بين أولئك الصالحين وأنبياء الله عز وجل، وهذه نعمة يمنها الله على من يشاء من عباده.

نجد في المقابل حذفاً مطابقاً ورد على لسان أهل جهنم ليقننهم بقدرة الله، ورؤيته إيّاهم، وسماعه كلامهم، ولكنه يقين متأخر لا يدفع عن صاحبه عذاباً.

والحوار المباشر بين الله عز وجل وأولئك الخاسرين يختلف اختلافاً واضحاً عن الحوار السابق مكاناً وزماناً وغاية ونتيجة. وهذا يعني أن حذف ياء النداء قبل لفظ الجلالة جاء تعبيراً عن صحوّة متأخرة تأمل أصحابها أن تلحقهم بالركب الناجي.

وقد يكتفي أحد أطراف الحوار في توجيه خطابه للطرف الآخر بأن يدعو به باسمه أو صفته، دون أن تتوسط أداة النداء بين المنادي والمنادى. ويعود هذا إلى طبيعة التواصل القائمة على تبادل الكلام تبادلاً حياً ومباشراً تتلاشى أمامه الحاجة إلى أية وساطة، ويضاف إلى هذا لقرب المادي رغبة الداعي في خلق قرب معنوي بينه وبين المدعو.

ومن ذلك قول العزيز ليوسف عليه السلام وقد ثبتت تهمة المراودة على زوجته: ﴿يوسفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(١) حيث دلّ حذف حرف النداء في كلام العزيز على كون يوسف منادى قريباً منه يستقبل كلامه مباشرة.

ولنا أن نتخيل الطريقة التي حاور بها عزيز يوسف؛ إنها طريقة المتوحد المتلطف الذي يخشى شيوع فضيحة تمس شرفه ورجولته، فهو يسعى إلى التكتيم على الخبر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. أخاله اقترب من يوسف حد الملامسة هامساً في أذنه: (يوسف أَعْرَضَ عَنْ هَذَا) فاي موقع لياء النداء سيكون هنا؟!

وقد تحذف أداة النداء لتسليط انتباه المدعو على الصفة التي يدعو به المنادي وذلك لإثارة مشاعره، والتأثير على تصرفاته، وتغيير موقفه، ومن ذلك حذف أداة النداء في قول موسى

^(١) يوسف/٢٩.

لقوم فرعون: ﴿أَنْ أَدَّوْا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إني لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾^(١) فقد حذف موسى أداة النداء تحبباً وتلطفاً، داعياً إياهم بصفة (عباد الله) لعلهم يؤدّون واجب العبودية.

كما حذف أداة النداء في قول هارون مستعظفاً أخيه موسى: ﴿ابنِ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) فهارون يحاول أن يرقق قلب أخيه وقد هجم عليه معنفاً غاضباً مذكراً إياه بالعلاقة التي تربطهما فهما ابنان لام واحدة (ابن أم) وذكر الأم أرق وأبلغ في الحنو والعطف^(٣).

وقد يسأل سائل عن سبب حذف ياء النداء في آية سورة الأعراف، وظهورها في آية سورة طه^(٤).

أقول: ظن موسى أن خليفته هارون قد قصر في نهى المخالفين والإنكار عليهم، فقام بحركة مادية عنيفة نحو أخيه، حيث سحبه من شعر رأسه ولحيته، وراح يجره إليه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾^(٥)، وهذا تعبير حركي يجسد لومه وتعنيفه لأخيه لأنه لم يلحق به.

وخاطب موسى أخاه لانماً: ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَن؟ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(٦) لقد استخدم موسى (يا) النداء حين وجه خطابه لأخيه هارون مع كونهما في مكان واحد (تقارب مكاني)، ولعل في هذا تجسيد لحالة الغضب والأسف التي تلبست موسى وانعكست على كلامه، فقد لاثم النطق بياء النداء وما فيها من مد الصوت وإطالته التعبير عن تلك الصرخة الانفعالية المتأججة فيه.

وربما دلّ استخدام ياء النداء في مناداة هارون على شعور موسى بابتعاد هارون المعنوي عنه، لأنه لم يلحق به حين رآهم عاكفين على عبادة العجل، ولم ينهرهم بقوة وعنف كافيين لردعهم.

^(١) الأعراف/١٧.

^(٢) الأعراف/١٥٠.

^(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ١٥٩.

^(٤) "يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي" أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترغب قولي" (طه/٩٤).

^(٥) الأعراف/١٥٠.

^(٦) طه/٩٢-٩٣.

وجاء ردّ هارون: ﴿يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾^(١) وفيه ردّ على ياء موسى الغاضبة بياء يدل ظهورها على الألف، فهو يرزخ تحت قبضة إنسان غاضب منفعل تجره بعنف مسببة له ألماً تتدّ عنه آهة مكتومة بياء النداء. يضاف إلى هذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائي وحفص عن عاصم: (ابن أم) بفتح الميم^(٢)، التي يرجح فيها حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة (ابن أماء)^(٣). ومد الصوت فيها يلائم التعبير عن الألم.

لقد قال هارون هذه العبارة وأخاله اقترب من موسى هامساً في أذنه مكرراً دعوتيه، بـ(ابن أم) ليخفف من غضبه وتوتره، وليؤكد طاعته له: (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين)، لقد قال هذا الكلام لموسى هامساً، يؤكد هذا مضمون الرسالة الذي حملته مفردات توحى بالسرية والبوح الخاص (استضعفوني، كادوا يقتلونني، لا تشمت بي الأعداء، لا تجعلني مع القوم الظالمين)، لأنه كلام خاص يبوح به الأخ لأخيه شاكياً من حوله، طالباً نصرته. وهذا، في رأيي، يبرر حذف ياء النداء في آية سورة الأعراف.

(ب) حذف أداة النداء والمنادى:

وقد تحذف أداة النداء والمنادى لمفاجأة المتلقي بحضور المنادى، ومنه دعوة امرأة العزيز يوسف إلى المجلس الذي اجتمعت فيه النساء بفعل الأمر ﴿أخرج عليهن﴾^(٤) دون أن تتأديه (يا يوسف) لأنها تريد أن تفاجئن بطلعته البهية التي لا يحيط بها وصف، وربما أدى ذلك اسم المنادى إلى تخفيف وقع المفاجأة على المتلقي.

ويتحقق الذهول وتسيطر المفاجأة على الموقف ﴿فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن: حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾^(٥).

^(١) ص ٩٤/٩٥.

^(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٤، ص ٣٩٦.

^(٣) الفهر الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٥، ص ٢١.

^(٤) يوسف/٣١.

^(٥) الآية السابقة.

ويحذف أسلوب النداء لوجود قرينة لفظية تدلّ عليه كأن يستهل الحوار بين الأطراف بالفعل نادى أو دعا: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا: ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾^(١) فقد أغنى الفعل (نادى) عن ذكر أداة النداء والمنادى (يا هؤلاء أو يا أهل النار أو يا فلان).

ج (حذف المنادى:

حذف المنادى في قراءة ﴿ألا يسجدوا﴾^(٢) وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا وقد يعلل الحذف في هذه القراءة باهتمام الهدد بفعل (السجود) وحته عليه، وربما تطلع إلى الجهة التي يقطن فيها المنادى فدلّ تطلعه على هوية من يناديه.

د) الترخيم:

بتر الحرف الأخير من المنادى في قراءة ﴿يا مال ليقض علينا ربك﴾^(٣) أي: يا مالك. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يا مال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم^(٤).

وأرى أن الترخيم حسن في هذه القراءة؛ لأنه جاء محاكياً لحالة الضعف والألم التي تحول دون قدرة المعذّبين على إتمام نطق الاسم، فاقترعوا بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه لا تحبباً لمالك كما فهم ابن عباس.

وتوصلنا هذه القراءة القرآنية إلى الحديث عن صورة من صور الحذف هي حذف الحروف.

^(١) الأعراف/٤٨.

^(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٥٠. المل/٢٥.

^(٣) وهي قراءة ابن مسعود، ينظر الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٢٥٧. الزعر/٧٧.

^(٤) المصدر السابق، ج٤، ص٢٥٧.

٩) حذف حرف من حروف الكلمة:

ومثاله حذف النون الأصلية الساكنة من مضارع (كان) يعكس ألم شخصيته مقهورة، ومثاله حذف نون (أكن) في قول مريم ﴿وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾^(١) وهذا موضع ثانٍ يظهر فيه الحذف في مقولة سيدتنا مريم للرجل الغريب الذي بشرها بأنها ستلد غلاماً*.

لقد صعق كلام هذا الغريب الفتاة الطاهرة العفيفة، فانتفضت غاضبة مدافعة عن شرفها الذي لم يمس، نافية إمكانية مجيء هذا الغلام وهي لم تتزوج بعد ولم يمسها رجل غريب، وانعكست هذه المشاعر على كلامها، فجاء الحذف دليلاً يجسم الغضب والتوتر والخوف والرفض أو غيرها من الأحاسيس التي تحول دون القدرة على اتمام نطق حروف الكلمة.

ومثاله أيضاً قول أصحاب النار متألمين متحسرين: ﴿قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ وَلَمْ نَكُ نَطْعِ الْمَسْكِينِ﴾^(٢) أخالهم يشهقون بالبكاء الذي دفعهم إلى الوقوف عند الصوت الانفجاري المتمثل بالكاف.

• لطيفة قرآنية في (تستطع)^(٣) و(تسطع)^(٤)

وعد الخضر موسى عليه السلام بأن يؤول أفعاله الثلاثة التي أثارت ثائرتة، ولما أول تلك الأفعال حذف التاء الثانية من الفعل (تستطع) فقال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فلم أثبت التاء في الفعل الأول وحذفت في الثاني؟

لعل إثبات التاء في الفعل الأول يناسب التعبير عن حالة الضغط النفسي والضييق التي عاناها سيدنا موسى حين شاهد الأفعال الثلاثة العجيبة التي عجز عن تفسيرها وتعليلها، فضاق صدره ونفذ صبره، فزيادة التاء في بنية الفعل تؤدي إلى تثقله، وهذا التثقل يتناسب والتقلب النفسي الذي كان يسيطر على سيدنا موسى، وقد أدرك الخضر، عليه السلام، ذلك، فلمّا أول

^(١) : (قالت : أن يكون لي غرم ولم يمسني بشر ولم أك بغياً) مريم/٢٠.

* الموضع الأول ظهر في قولها: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت نبياً) مريم/١٨.

^(٢) أنشد/ (٤٣-٤٤).

^(٣) : إشارة إلى قوله تعالى : (سأنيك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً). الكهف/٧٨.

^(٤) : إشارة إلى قوله تعالى : (وما فطع عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً). الكهف/٨٢.

أفعاله أخذت الحقائق تتكشف عن حكمة ورحمة وعبرة تبرر ما فعله فتزيل الثقل عن صدر موسى وأعصابه، فجاء الفعل خفيفاً من ثقل التاء عاكساً التخفيف الذي جد على مشاعر موسى.

وهكذا نجد أن الحذف ظاهرة أسلوبية قارة في لغة الحوار القرآني تدعونا للإبحار في أعماق المتكلم والمخاطب والظروف المصاحبة للموقف الكلامي الظاهرة منها والكامنة، فاللغة التي تدور مشافهة بين الأطراف المتحاورَة تشكل بيئة خصبة للحذف عندما تعضدها القرائن المصاحبة لفظية كانت أو حالية، فيصبح الكلام إشارات موجزة ذكية ما تنقله من معانٍ أكبر بكثير من حجم الألفاظ.

والحذف لحظة من لحظات الصمت في الحوار، والصمت لون من ألوان الكلام، فليس السكوت بكماءً، ولكنه تجسيم لحالة من حالات النفس التي تفوق حدود الكلمة، ففي النفس أشياء قد يعجز الأسلوب التام عن بيانها.

وقد اختيرت لحظات الصمت بدقة في الحوارات القرآنية، وعبرّت تعبيراً واضحاً عما يدور في داخل المرسل، وما يسعى لإيصاله للمتلقى.

✦ الالتفات (أسلوبية التحول)

يدور لفظ الالتفات في اللغة حول معاني الصرف والتحول من جهة إلى أخرى، يقال: لفت وجهه عن القوم: صرفه، واللفت: لي الشيء عن جهته، ولفت فلاناً عن رأيه: صرفته عنه. ومنه الالتفات^(١).

ولا يختلف مفهومه في الاصطلاح كثيراً عن ذلك المعنى اللغوي؛ فقد أجمع جمهور البلاغيين على أن الالتفات يعني الانتقال أو التحول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر، مع وحدة السياق بين الملتفت عنه والملتفت إليه؛ أي أن الشرط اللازم لتحقيق الالتفات أن يكون المسند إليه في الحالين واحداً، وأن يكون التعبير الثاني معدولاً به عن ظاهر الكلام^(٢).

وبرزت هذه السمة الأسلوبية في عدد من الخطابات الحوارية في القرآن الكريم مكسبة التعبير دلالات وإيماءات خاصة تشابكت فجأة مع الدلالة الأصلية فأضفت على التعبير عمقاً ونبضاً وحيوية تكسر نمطية الأداء لتحقيق فائدة لا تحد بتطرية نشاط السامع وإيقاظه للإصغاء فقط، وإنما تتنوع وتتشعب متسعة على التحديد والضبط.

يقول ابن الأثير: "والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولكن يشار إلى مواضع منها، ليقاس عليها غيرها"^(٣).

ويقول السيوطي: "وللالتفات فوائد منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملل؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التقلات، والسلامة من الاستمرار على منوال واحد، هذه هي فائدته العامة، ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله"^(٤).

^(١) ابن منظور، اللسان، مادة (لفت).

^(٢) ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج ٢، ص ١٧٠؛ والسكاكي، مفتاح العلوم، ص ٨٦؛ والخطيب القزويني، الإيضاح، ص ٢٥٢.

^(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ج ٢، ص ١٧٠.

^(٤) السيوطي، الالتفات، ص ١٠٩.

فالالتفات مخالفة سياقية تكسر توقع المتلقي فتستفز انتباهه واهتمامه، للدلالة الكامنة وراء هذا العدول، مجسمة السلوك الحيوي للنص الحواري.

● الالتفات في الحوار القرآني: نماذج ودلالات:

١. التحول عن خطاب الواحد إلى خطاب الإثنين:

وجاء هذا التحول في قول فرعون و ملائمة لموسى وهارون:

﴿أَجْنِثْنَا لَتَلْفِتُنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١). فقد توجه الخطاب إلى موسى أولاً (جئنا) ثم تحول الخطاب إلى صيغة المتنى (لكما)، وذلك لأن موسى أصل الرسالة وهارون وزيره، فتوجه الخطاب إلى موسى أولاً ثم تحول إليه مع هارون.

٢. التحول عن خطاب الإثنين إلى خطاب الواحد:

كقول فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟﴾^(٢) حيث توجه الخطاب إلى موسى وهارون أولاً (ربكما) ثم تحول إلى الخطاب المفرد (يا موسى) ويشي هذا التحول بعدة دلالات:

- تخصيص موسى بالخطاب، لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره أو تابعه.

- رغبة فرعون في السخرية من موسى باستنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى.

- ملاحظة موسى بالخطاب زيادة في لومه والإنكار عليه وتوبيخه، وفيها تنبيه له وتذكير بطبيعة العلاقة بينهما، فقد تربى موسى في قصر فرعون، الذي أولاه عناية واهتماماً يستوجبان من موسى الولاء لفرعون وتأليه وعدم الوقوف ضده أو تحديه.

^(١) يونس/٧٨.

^(٢) هـ/٤٩.

٣. التحول عن خطاب الإثنين إلى خطاب الجمع، ومن الجمع إلى المفرد:

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) إذ حدث تحول عن خطاب الإثنين (تبوءا) إلى خطاب الجمع (اجعلوا)، ثم حدث تحول عن خطاب الجمع (أقيموا) إلى خطاب المفرد (بشّر).

ومغزى هذه التحولات يعود إلى طبيعة الأفعال التي أمر الله مخاطبة بتنفيذها؛ فقد أمر موسى وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتًا، ويختاراهما للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سبق الخطاب عاماً لهما ولقومها باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص الله موسى، عليه السلام، بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر بها^(٢).

٤. التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

ومثاله ما جاء في قول الملأ الذين كفروا من قوم نوح: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظَنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٣) فقد تحولوا من خطاب المفرد (ما نراك) إلى خطاب الجمع (ما نرى لكم) ليشمل خطابهم الهجومى الساخط المتبوع والاتباع.

٥. التحول عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع، إلى المفرد:

جاء هذا في الخطاب الذي وجهه موسى إلى فرعون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ: يَا فِرْعَوْنُ، إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقَ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٤). فقد بدأ، عليه السلام، بتوجيه خطابه إلى فرعون (يا فرعون) لأنه الحاكم والقائد الذي إن أمن أمنت رعيته، وهذا ما دعاه الله إليه: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ

^(١) تيسر/٨٧.

^(٢) الزمخشري، الكشاف، (ج ٢، ص ٣٥١).

^(٣) هود/٢٧.

^(٤) الأعراف/ (١٠٤-١٠٥).

فرعون إنه طفئ، فقولاً له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى... فأتياه فقولاً: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل^(١)

ثم تحول عن خطاب فرعون إلى خطاب الجمع (فرعون والملأ): ﴿قد جئكم ببينة من ربكم﴾؛ لأن المعجزة لا تختص بفرعون فقط، وإنما هي موجهة إلى كل أتباعه ورعيته. ثم يعود فيتحول من خطاب الجمع (جئكم) إلى خطاب المفرد (فأرسل) لأن إرسال بني إسرائيل أمر يتعلق بفرعون دون الملأ.

التعبير عن المثني بالمفرد:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون: ﴿فأتيا فرعون فقولاً: إنا رسول رب العالمين﴾ حيث عبر عن موسى وهارون، عليهما السلام، (وهما مثني) بالمفرد في (رسول).

ويشي هذا التعبير غير المتوقع بعدة دلالات:

- وحدة الرسالة التي كلف هارون وموسى بتبليغها إلى فرعون جعلت منها رسولا واحداً.
- كان هارون لسان موسى لتمييزه عنه بقوة الإفصاح والحجة، فجعل الله منهما كياناً واحداً تتجاوب أعضاؤه في توصيل الخطاب الإلهي إلى فرعون والملأ.

٧. الانتقال من الغيبة للخطاب:

ويرز هذا التحول في سياقات التوبيخ والإنكار خاصة، لما يحققه من مواجهة المتلقي وملاحظته والإقبال عليه باللوم والتقريع والإنكار، وهذا ما لا يحققه لفظ الغيبة، فالعدول بالخطاب يهز السامع ويستفز مشاعره وينبهه أفضل تنبيه، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، ويقولون: إنا لطاركو آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق وصدق المرسلين، إنكم لذائقو العذاب الأليم، وما تجزون إلا ما كنتم تعلمون﴾^(٢) فقد تحول الخطاب من الأخبار عن الكافرين بضمير الغائب (إنهم كانوا) إلى مواجهتهم بضمير المخاطب (إنكم لذائقو العذاب).

^(١) طه/ (٤٣-٤٧).

^(٢) القصص/ (٣٥-٣٩).

وقوله تعالى حكاية عن الهدد: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾^(١)، إنه يتحول في خطابه من الغيبة (ألا يسجدوا لله) إلى المخاطب (ما تخفون وما تعلنون) ولهذا التحول احتمالات منها:

استحضار الهدد المتلقي الغائب الذي يتحدث عنه مظهراً رغبته في إيصال دعوة التوحيد إليه. وقد يكون تحول إلى المتلقي الحاضر المتمثل في سليمان ورعيته لكون خطابه يتناول موضوعاً يشمل جميع الخلق دون اختصاص أو استثناء.

وقد يكون التحول يعني اختفاء صوت الهدد وظهور صوت الراوي العليم الذي ينقل كلام الشخص نقلًا تاماً وكاملاً بلسانها تارة، أو ينقلها نقلًا جزئياً خالطاً الصوتين في بوتقة واحدة.

وتوجه قراءة الفعل (ألا يتقون) بالتاء^(٢) من قول الله تعالى: ﴿وإذ نادى ربك موسى أن أنت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون؟!﴾^(٣) على طريقة الالتفات إليهم ومواجهتهم بالإنكار والغضب عليهم.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى، عليه السلام، في وقت المناجاة والملفت إليهم غيب لا يشعرون؟! قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم والقائه إلى مسامعهم؛ لأنه مبلّغه ومنهيه وناشره بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها"^(٤).

(١) النمل/ (٢٤-٢٥).

(٢) قرأها عبد الله بن مسلم وشقيق بن سلمة وأبو قلابة، ينظر أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج ٧، ص ٧.

(٣) الشعراء/ (١٠-١١).

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٩٣. وأبو حيان، البحر المحيط، ج ٧، ص ٧.

٨. الانتقال من الخطاب إلى المتكلم إلى الخطاب إلى الغيبة:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿اركض برجلك هذا مقتسل بارد وشراب، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب. وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ يؤكد هذا حضور الراوي العليم، وتسييره للخطاب، وتويعه لطرق الأداء، وتوجيه خطابه لكل الناس. فقد بدأ بنقل خطابه الذي وجهه إلى أيوب نقلاً حياً مباشراً مستخدماً ضمير المخاطب الذي يستلزم تنفيذاً فعلياً (اركض برجلك هذا مقتسل بارد وشراب)، ثم تحول في خطابه إلى ضمير المتكلم: (وهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب)، وناسب هذا التحول الحديث عن الهيئة والرحمة التي يمنحها الله دون أي تدخل من الخلق، فهي شيء يختص به الله وحده. ثم عاد إلى ضمير المخاطب مكملاً نقل خطابه مع أيوب عليه السلام، وكان الالتفات صلة وصل تكشف الستار من جديد عن خطاب غيبة الالتفات: (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث).

ويحدث التقات جديد يستخدم فيه ضمير الغائب الذي يناسب المدح والثناء؛ فضمير الغائب يحقق أخبار الناس بأمر أيوب (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) ^(١).

٩. الانتقال من الخطاب إلى التكلم:

وأتى هذا التحول الأسلوبى في موضع النصيح والإرشاد، ومنه قول رجل مؤمن من قوم فرعون يكتم إيمانه: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟!﴾ ^(٢) إنه يتحول في خطابه من ضمير المخاطب (لكم الملك) إلى ضمير المتكلم (فمن ينصرنا)، وناسب هذا التحول التعبير عن وحدة المصير الذي سيحقق بهم إن لم يستحيبوا لدعوة موسى مظهراً ولاءه لقومه، والتصاقه بهم، وحرصه على مصلحتهم، فهو يدرج نفسه مع المجموع متحولاً عن أسلوب التجريد والتصل الذي يوحى به أسلوب الخطاب.

^(١) ص/ (٤٢-٤٤).

^(٢) غافر/ ٢٩.

١٠. الانتقال من التكلم إلى الخطاب:

ومنه قول رجل مؤمن لقومه الكافرين: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾^(١) فقد صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم، وذلك أبلغ في النصح والإرشاد، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، فاختار: (ومالي لا أعبد الذي فطرني) مكان: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟) ثم عاد إلى توجيه الخطاب لهم مباشرة (وإليه ترجعون) بعد أن مهد لذلك بتوجيه اللوم والإنكار على نفسه أولاً.

١١. الانتقال من زمن الحضور في (المضارع) إلى زمن الآتي في (الأمر):

وعلى هذا قول هود، عليه السلام، لقومه: ﴿إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون﴾^(٢) حيث تمت المخالفة بين الفعلين (أشهد) (وأشهدوا)، لأن السياق الأصلي يقتضي توافقاً زمنياً بين الفعلين: (أشهد وأشهدكم)، ولعل هذا يعلل بكون صيغة الخبر لا تحتل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه فلما كان إشهاد الله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر، لأنه إشهاد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو المراد في هذا المقام معهم.

ويحتمل أن يكون إشهادهم حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم بأن يعبر عن خطاب الله بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر^(٣).

١٢. الالتفات في السرد الحوارية:

حيث ينقل الله - عز وجل - كلام الشخص بأصواتها، ثم يختفي صوت تلك الشخص فجأة، ويطل صوته عز وجل - مندمجاً بالصوت الذي نقله ببراعة تدهش المتلقي لما فيها من مخالفة سياقية تخرج عن حدود توقعه للسلوك الأدائي، وذلك في عدد من المشاهد الحوارية نذكر منها:

(١) يس/٢٢.

(٢) هود/٤٥.

(٣) الرعشري، الكشف، ج ٢، ص ٣٨٨.

ما جاء في الحوار التالي الذي دار بين موسى وقومه:

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا: يا موسى، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

قال: إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون.

قال: أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين. وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسوموكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾^(١).

حيث ظهر صوت الله بضمير المتكلم (أنجيناكم) وقد التحم بخطاب حكاة بصوت موسى، عليه السلام، تكريماً له، وإقراراً بكلامه، وإظهاراً للنعمة، وإثباتاً.

كما يجسم هذا الوصل الخطابى بين كلام الله وما يحكيه من كلام رسوله التزام رسل الله بتبليغ أوامره، وإظهار نعمه، وتحذير عصاته، ومراقبة الله لهذا التبليغ وإطلاعه على الحوار الدائر بين رسله وأقوامهم.

ونجد مثل هذه اللفظة الانتقالية في الحوار التالي الذي دار بين فرعون وموسى:

﴿قال: فما بال القرون الأولى؟!﴾

قال: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآياتٍ لأولي النهى، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾^(٢).

ففي المقولة السابقة تمت الانتقالة من ضمير الغائب (وأنزل من السماء ماء) إلى ضمير المتكلم (فأخرجنا به)، وتعدنا هذه الانتقالة إلى التفاته سابقة وصلت خطابه، عز وجل - لموسى بخطاب موسى لفرعون فجأة: ﴿فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا

^(١) الأعراف/ (١٣٨-١٤١).

^(٢) طه/ (٥١-٥٥).

تعدبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى، إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى. قال: فمن ربكما يا موسى؟^(١)

إن حوارَه - عز وجل - مع موسى ينتقل فجأة إلى فرعون، حيث نجده يرد على موسى وهارون اللذين حملا إليه خطاب الله بحرفيته دون تغيير أو تبديل، وجسمت الالتفاتة هذا النقل الحرفي الذي لا يستلزم تكرار الحضور في النص، فهما يتحدثان بصوت الله الذي بدا محيطاً بالحدث الحوارى مسيراً له ومحركاً.

واخترق الصوت الإلهي خطاب الملائكة للظالمين في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم: أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم تزعمون﴾^(٢). وتحقق هذه اللفتة الصوتية بعداً انفعالياً في نفس المخاطب، فتوجيه التقرير والإنكار والاستهزاء بصوت الله - عز وجل - أشد وقعاً على الظالمين.

وهكذا فقد برز الثقات في النص الحوارى القرآنى بوصفه سمة أسلوبية تزخر بتتويجات وتلوينات شتى. إنه حركة نابضة في جسد النص ثرية الأبعاد متعددة الوجوه والتبديلات.

وقبل أن ننهي حديثنا عن الالتفات نتطرق لبيان فائدة حذف فعل القول في بيان تحول المتكلم بحديثه من مخاطب إلى آخر، وكيف أعطى الحوار هذه الدلالة بذاته دون الحاجة إلى قطعة أو اعتراضه، بالتبنيه على الثقات المتكلم من هذا المخاطب وتوجهه بمقولته إلى آخر.

ومثاله ما جاء في قوله تعالى على لسان العزيز وهو يخاطب امرأته ويوسف منتقلاً مقولته بينهما: ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم، يوسف أعرض عن هذا، واستغفري لذنبك، إنك كنت من الخاطئين﴾^(٣).

^(١) طه/ (٤٧-٤٩).

^(٢) الأنعام/ (٩٣-٩٤).

^(٣) يوسف/ (٢٨-٢٩).

لقد حقق حذف فعل القول حضوراً لمشهد المتكلم وهو يتلفت بين المخاطبين تلفتاً سريعاً يوحى بسرية المقولة وحرص العزيز على الإمساك بزمام الخبر مخافة أن يشيع وتتناقله الألسنة.

وما جاء في قوله على لسان سحرة فرعون:

﴿قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرع علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾^(١). حيث تحول السحرة بحديثهم من فرعون إلى الله عز وجل، دون أن يعترض هذا التحول لفظ القول، وأفاد التحول استشعار السحرة بقرب الله منهم وحضوره لموقفهم، ورغبتهم في مباحكة فرعون وتحديه بتوجيه مقولتهم إلى الله وما يعنيه هذا التوجه من تأكيد لإيمانهم وإعلانه أمام فرعون.

وما جاء في قوله تعالى:

﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة: أنا أنبئكم بتأويله فارسلون. يوسف أيها الصديق، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾^(٢). حيث دلت مقولة السجين الناجي على تحول المتكلم بحديثه من المخاطبين المتمثلين في الملك وحاشيته إلى يوسف عليه السلام، وعلى انتقاله من مكان إلى مكان؛ من قصر الملك إلى السجن دون اعتراض بالسرد الموضح أو المفصل، فقد حقق الالتفات في الحوار الانتقال والتحول دالاً على حذف وطي التفاصيل بين جزئي المقولة.

ويوحى هذا الالتفات بلهفة المتكلم على الوصول إلى يوسف -عليه السلام- للحصول على تأويل لرؤية الملك، فكانه قد قفز أو طار إلى سجن يوسف، فإذا به بين يديه يقص عليه الرؤيا.

وقوله: ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال: يا قوم، اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون، وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون؟! أأخذ من دونه آلهة؟! إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون. إني إذا لفي

^(١) الأعراف/ (١٢٥-١٢٦).

^(٢) يوسف/ (٤٥-٤٦).

ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين^(١).

لقد حوت مقولة الرجل المؤمن ثلاثة التفاتات؛ تمثل الالتفات الأول في تحوله من المخاطب إلى المتكلم (اتبعوا من لا يسألكم أرجراً وهم مهتدون. ومالي لا أعبد الذي فطرني) ثم التفت إلى المخاطب مرة أخرى (واليه ترجعون).

وتمثل الالتفات تمثل في تحوله من مخاطب إلى مخاطب، فقد تحول من مخاطبه قومه إلى مخاطبة رسل الله دون التمهيد لهذا التحول بفعل القول تقوية لروح العرض بترك الحوار يتصاعد بانفعالات المتكلم وصولاً إلى الذروة: (إني آمنت بربكم فاسمعون).

وجاء الالتفات الثالث وفيه تحققت قفزة طوت الزمان والمكان، فإذا بالرجل المؤمن في عالم الغيب وقد دخل الجنة: (قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمون) لقد أوحى ظهور فعل القول (قيل) بأحداث حذفت، فالرجل قد قتل ودفن وبعث وأدخل الجنة وشاهد نعيمها، كل هذا دلت عليه لفظة (قيل) تاركة ساحة العرض للحوار.

وهذا يعني أن المخالفة السطحية المتمثلة في الانتقال والتحول الظاهرين في المقولة الحوارية يعاد تنظيمها وتعليلها بالنظر في المستوى العميق، وإيجاد توافق بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، ومثل فعل القول دور المنبه الدال على تعدد السياق وبالتالي يزيل المخالفة السطحية، ومن ثم تتساوى بنية السطح مع بنية العمق.

ويفيد تكرار فعل القول في الخطاب الصادر من متكلم لا يقطعه كلام غيره أو سرد انتقال المتكلم من مخاطب إلى آخر كما يفيد التحول من حال إلى حال. فمن الأول ما جاء في قوله تعالى:

﴿فلما جاء سليمان قال: أتمدونن بمالٍ فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون. قال: يا أيها الملأ، أياكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين^(٢)﴾.

^(١) يس/ (٢٧-٢٠).

^(٢) النمل/ (٣٦-٣٨).

فالكلام قبل القول الثاني موجه إلى رسول ملكة سبأ، ويتضمن أمراً له بالرجوع إلى سبأ؛ أي الخروج من المشهد، والكلام بعد القول الثاني لا يصح أن يقال في حضوره لاحتوائه على تدبير خطة ضد مليكته، فلو سمع هذا التدبير لبطل. فالإتيان بلفظ القول (قال) أفاد التحول بالكلام إلى مخاطب بعد انصراف المخاطب الأول. وهذا يعني وجود محذوف سرد يحوي مغادرة رسول ملكة سبأ، وانعقاد مجلس ضم سليمان والملا. وقد وقع هذا المحذوف بين طرفي القول.

ومن الثاني تكرار لفظ القول بين جزئي خطاب ملكة سبأ لحاشيتها: **﴿قالت: يا أيها الملا، إني أقي إليّ كتاب كريم، إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين. قالت: يا أيها الملا، أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾** (١).

إن تكرار لفظ القول مع إمكان حذفه واتصال الكلام واتساقه، دليل على تحول كلام الملكة من تلاوة رسالة سليمان إلى خطاب حاشيتها. ولعل دليل على المحذوف من كلام الحاشية، التي ربما ثارت على تهديد سليمان وتحديه وتعلت أصواتها في مجلس الملكة، فسكتت الملكة منتظرة انتهاء هذه الزوبعة. وتضمنت الحاشية فتكمل الملكة حديثها.

وهكذا فقد أفاد تكرار لفظ القول تحولاً من حالة في الخطاب إلى حالة أخرى، كما دل على أن وراءه محذوفاً من المشهد يكمن وراء التحول، فطبيعي أن لا يسجل القرآن الكريم كلّ مراحل الحوار تسجيلاً كاملاً، إنه يمسك من الموقف الحوارى بالعناصر الحية والمشاهد البارزة فيه تاركاً لخيال المتأمل أن يملأ الفراغات ويلونها.

ويعد ما ذكرناه من الأمثلة جزء من أمثلة كثيرة في القرآن الكريم لحوارات مركزة مضغوطة تحمل في كلمات قليلة عناصر قصة كاملة مستخدمة تكتيك الالتفات الذي خلقته الكلمات النابضة بالحركات الموحية التي يستغنى بها عن التشخيص والتمثيل والتجسيم.

(١) المل/ (٢٩-٣٢).

- أكثر أشكال التواصل الحوارية حضوراً في القرآن الكريم: الحوار الثنائي (الخارجي)، الحوار الداخلي (المنولوج)، الحوار التقيني، المناجاة (الدعاء)، الحوار بالإشارة.
- حقق الحوار أدوراً هامة في النص القرآني عامة والقصة القرآنية خاصة منها: بعث الحياة والحركة في الحدث، كشف الصراع وتأجيجه، ترجمة الشخصية بانفعالاتها المختلفة، تحقيق الحضور.
- البنى التركيبية الأكثر حضوراً في الحوارات القرآنية هي: الأمر، السؤال، النداء، النهي. ويبين الوقوف على فاعلية هذه البنى في إنتاج الدلالة على اختيارها وقيمتها الأسلوبية التأثيرية الموجهة إلى التركيب من المرسل أو الناتجة عن التركيب في المتلقي.
- تؤكد الانحرافات الخارجية في بنى التراكيب القارة في لغة الحوار القرآني انحرافات ذات عمق جوهري يتمثل في التجدد الدائم لدلالات التراكيب في سياقات الموقف الحوارية المختلفة.
- تختلف الدلالات التي يحويها التركيب ذاته باختلاف المخاطب؛ فالدلالة التي يحويها التركيب الموجه إلى طرف ما قد تحول إلى دلالة أخرى حين يوجه التركيب ذاته إلى طرف آخر.
- أبرز السؤال حضوره الأكبر في إنتاج دلالات النص وتقديم حيثيات المضامين الحوارية، وتنوع وجوده الفعلي في النصوص. وقد أثبت رد الطرف المسؤول على سائله بسؤال في عدد من المشاهد الحوارية التي تحوي صراعاً متأجلاً بين الطرفين فاعلية السؤال في تجسيم انفعالات الأطراف المتحاربة أكثر الدلالات تقولاً في أسئلة الحوار القرآني دلالة الإنكار ودلالة التقرير، وقد انضوت تحت مظلتها دلالات عديدة، وللأسئلة التي حوتها طابعها التشكيلي الخاص.
- الحذف والتقديم والتأخير من الظواهر الأسلوبية القارة في بنية السؤال وقد تضافرت مع البعد الانفعالي الكامن فيه جاعلة منه طاقة فاعلة في إبداع الدلالات والتأثير في نفس المخاطب.
- جاءت الإجابة على لسان المسؤول في عدد من المشاهد الحوارية، وخرجت عن الأصل في مشاهد أخرى حيث جاءت على لسان السائل نفسه، وجاءت ممتزجة مع السؤال في بوثقة واحدة في مواطن أخرى وذلك عندما تكون الإجابة قاطعة صارمة لا يحتمل السؤال سواها.

- توالى تراكيب الأمر في سياقات الدعاء والنصح والوصايا والتوجيه الإلهي وغيرها بوسيلة الأمر الأول فيها ووقعت على مفاعيل واحدة أو متقاربة تدور في إطار واحد وتأرجحت بين ثنائية رفض التنفيذ وقبوله عاكسة طبيعة العلاقة بين الأمر والمأمور.
- أدى تركيب النداء في الحوارات القرآنية دورين رئيسيين؛ الأول: لفت انتباه السامع إلى مضمون الرسالة الكلامية بتوجيهها له توجيهها خاصا، والثاني: قولبة أحوال النفس وعواطفها ومشاعرها.
- أثرت طبيعة التواصل الحواري على بنية المقولة الحوارية وتمثل هذا الأثر بعدول الألفاظ عن مواقعها في مواطن (العدول عن الرتبة بالتقديم والتأخير)، وتغييبها تاركة للمتلقى خلق عالم حضورها في مواطن (العدول عن التضامن بالحذف)، وترسيخ حضورها في النص بوساطة التكرار، والعدول عن ارتباطها المتوقع بوساطة الالتفات.
- انطوى كل تقديم وتأخير في المقولات الحوارية على حكمة بالغة وفطنة أسلوبية جاذبة، فكان المعنى يقتضي ما تقدم أو تأخر اقضاء طبيعيا للتأثير على المخاطب، فترتيب الكلمات في لغة الحوار القرآني لم يرد اعتباطا؛ إنه يعكس ترتيب المعاني في النفس كما يرسم صورة لغوية لانفعال المتكلم وموقفه من السامع. وقد أمكن حصر التقديم والتأخير في أربعة أقسام: ما قدم والمعنى عليه، ما قدم والنية به التأخير، ما قدم في آية وآخر في أخرى، ما قدم وآخر في الآية ذاتها.
- لأم التكرار المضامين الحوارية التي عولجت من خلاله خالقا عمقا دلاليا لا يترك السياق على سطحه الإيقاعية فحسب وإنما ينفذ إلى الإيقاع الداخلي للمقولة الحوارية تاركا أثره على المتلقي. وأمكن دراسة التكرار اللفظي في الحوار القرآني ضمن ثلاثة أنماط: الأول: تكرار الألفاظ المتفقة بأصواتها ودلالاتها في المقولة أو النص وفق توزيعات مكانية متنوعة الأبعاد بن الدال الأول والدال المكرر في السورة الواحدة. والثاني: تكرار جمل من حوار الشخصية ذاتها في غير سورة تكرارا لفظيا تاما أو منقوصا تعنّوره تغييرات يتطلبها السياق. والثالث: تكرار المحاورة وتعدد المرسل في سورة واحدة أو غير سورة.
- في تكرار الحوار الواحد إبراز لجوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير، فالمقولة تعاد أكثر من مرة مبرزة في كل مرة وجها من وجوه الزاوية المحيطة بالحدث الحواري، فيخرج الناظر بتصور كامل للمشهد الحواري، ويتأكد المضمون في نفسه ويتثبت لتكرار وروده في سياقات متنوعة تبرزه ويبرزها.

• جسم الحذف في الحوار القرآني الفارق بين مقررات النظام اللغوي ومطالب السياق الكلامي في واقعه الفعلي فاتحاً للقارئ فضاءات من التأويل والتخيل لا حد لها. إنه لحظة من لحظات الصمت اختيرت بدقة، وعبرت تعبيراً واضحاً عما يدور في نفس المحاور وما يسعى لايصاله إلى المحاور.

• جسم الالتفات السلوك الحيوي في النص الحواري جاعلاً الكلمات نابضة بالحركات الموحية وحقق قفزات أدهشت المتلقي؛ لما فيها من مخالفة سياقية تخرج عن حدود توقعه للسلوك الأدائي. وقد طوى كثيراً من التفاصيل بين أجزاء المقولات الحوارية مبرزاً المواقف البارزة فيها، ومحققاً روح العرض والحضور.

وبعد،

فقد أنرتُ ظلمةً عقلي، وتولد الربيع في خريف قلبي بشعاع من أشعة شمس سماء النص القرآني، وبقيت في النفس حاجات وتطلعات أرجو الله أن يعينني على تحقيقها منها:

- ❖ تأمل أسلوبية التوكيد والنفي والاعتراض والشرط في لغة الحوار القرآني.
- ❖ دراسة تنعيم المقولة الحوارية بوساطة أجهزة التحليل الصوتي.
- ❖ تأمل أسلوبية المقولة الحوارية لكل طرف من أطراف الحوار.
- ❖ استخلاص أسس الحوار الفعال وقواعده من حوارات القرآني وتقديمها للأجيال بما يناسب أحوالهم وهمومهم المختلفة.
- ❖ إجراء دراسة أسلوبية مقارنة بين الحوار وأنماط الخطاب الإلهي في النص القرآني لمعرفة ميزاته المخصوصة وكيفية تضافره معها.

أما هذه الدراسة فهي محاولة بذلت فيها من التأمل والتدبر ومحاولة التصنيف والربط ما استطعت إليه سبيلاً، فإن أحسنت فهذا فضل من الفتاح العليم الذي أعانني على ولوج عالم النص القرآني، وإن أسأت فلي أجزر المحاولة ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والله أسأل أن يجعلني عملي كله خالصاً لوجهه، وأن يدبّ في قلبي، ما حييت، عشقاً للقرآن يقرّ عيني في الدنيا والآخرة.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾



قائمة المصادر والمراجع

أ) المصادر

❖ القرآن الكريم

= أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت ٤٠٣ هـ) - حجة القراءات، ط٤، تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م

= ابن الأثير، بضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري (ت ٦٣٧ هـ) - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٤ج، تحقيق وتقديم وتعليق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٩م

= ابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (ت ٦٥١ هـ) - البرهمن الكاشف عن إعجاز القرآن، ط١، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤م

= ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) - تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م

= ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) - تفسير القرآن العظيم، ط٢، ٨ج، تحقيق سامي محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٩م

= ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) - لسان العرب، ٧ج، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م

= ابن هشام، جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) - مغني اللبيب عن كتب
الأعاريب، ط٦، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م
= الألويسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت ١٢٧٠ هـ) - روح المعاني في تفسير
القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٥م، تحقيق محمد أحمد الأمد، بيروت، دار إحياء التراث
العربي، ١٩٩٩م

= الأندلسي، أنير الدين أبو حيان محمد بن يوسف (ت ٧٤٩ هـ) - تفسير البحر المحيط،
٨ج، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م

= الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) - البيان والتبيين، ط٥، تحقيق عبد
السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٦م

= الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٢ هـ) - أسرار البلاغة، ط١،
تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٩١م

= الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٢ هـ) - دلائل الإعجاز، ط٢،
تعليق محمد ورشيد رضا، تصحيح الأصل محمد عبده ومحمد الشنقيطي، دار المعرفة،
بيروت، ١٩٩٨م

= الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي (ت ٣٨٨ هـ) - بيان إعجاز القرآن، ط٣،
شرح وتعليق عبد الله الصديق، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ١٩٥٣م

= الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠ هـ) - درة التنزيل وغرة
التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأرسطاني،
دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣م

= الدمياطي، أحمد بن محمد بن أحمد (ت ١١١٧ هـ) - اتحاف فضلاء البشر في القراءات
الأربعة عشر، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، ٢ج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧م

= الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ) - نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز وبيان إعجاز القرآن الكريم، ط١، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م

= الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) - البرهان في علوم القرآن، ط٢، ٤م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢م

= الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد (ت ٥٣٨ هـ) - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، ٤م، ضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م

= السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت ٦٢٦ هـ) - مفتاح العلوم، ط٢، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م

= السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) - الإتقان في علوم القرآن، ط٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م

= الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) - جامع البيان في تفسير القرآن، ط١٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م

= الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) - تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج٧، تحقيق صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م

= العكبري، محب الدين أبو البقاء (ت ٦١٦ هـ) - التبيان في إعراب القرآن، ج٢، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م

= الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٨ هـ) - ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، ج٢، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٥م

= الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر (ت ٥٠٥ هـ) - البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، ط٢، تحقيق أحمد عز الدين، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م

ب) المراجع

= إبراهيم خليل - الأسلوبية فى النقد العربى الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٧م

= إبراهيم عبد الله أحمد - الاتجاهات الأسلوبية فى النقد العربى الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٦م

= أحمد الشايب - الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ط٥، النهضة المصرية، القاهرة .

= أحمد سعد محمد - التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٨م

= أ. ف. تشيتشرن - الأفكار والأسلوب: دراسة فى الفن الروائى ولغته، ترجمة حياة شرارة، داره الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

= بيير جيرو - الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر عياشى، مركز الإنماء العربى، بيروت

= تمام حسان - البيان فى روائع القرآن: دراسة لغوية للنص القرآنى، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م

= تمام حسان - اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤م

= تمام حسان - مناهج البحث فى اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م

= التهامى نكرة - سيكولوجية القصة فى القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧١م

= ثروت أباظة - السرد القصصي في القرآن الكريم، دار نهضة مصر، القاهرة.

= جورج مولينيه - الأسلوبية، ط١، ترجمة وتقديم بسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩م

= جون لاينز - اللغة والمعنى والسياق، ط١، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م

= حسن غزالة - الأسلوبية والتأويل والتعليم، كتاب الرياض، العدد (٦٠)، يصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٩٩٨م

= حميد أحمد العامري - التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٦م

= خوسيه ماريا إيفانكوس - نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م

= رجاء عيد - البحث الأسلوبي: معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣م

= رمزي منير البعلبكي - معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠

= ستيفن أولمان - اتجاهات جديدة في علم الأسلوب، في كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، ط١، ترجمة شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر.

= سليمان الطراونة - دراسة نصية (أدبية) في القصة القرآنية، ط١، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٢م

= سيد قطب - في ظلال القرآن، ط١٠، ٦م، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م

= شكري محمد عياد - اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، ط١، ١٩٨٨م

- = شكري محمد عياد - مدخل إلى علم الأسلوب، ط١، ١٩٨٢م
- = شوقي علي الزهرة - جذور الأسلوبية من الزوايا إلى الدوائر: دراسة فيلولوجية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧م
- = صلاح فضل - بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢م
- = طاهر حمودة - ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢م
- = عبد الحليم حفني - أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م
- = عبد القادر الشخلي - أخلاقيات الحوار، ط١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣م
- = عبد الكريم الخطيب - القصص القرآني في منطقته ومفهومه، دار المعرفة، بيروت.
- = عبد الله أبو ملوح - حوارات في يوم الحشرات، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٩م
- = عبد المرضى زكريا - الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م
- = علي أحمد فراج علي - الإعجاز والبيان في قصص القرآن، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٢م
- = فضل حسن عباس - قصص القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٠م
- = كاظم الظواهري - بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم، ط١، دار الصابوني، بغداد، ١٩٩١م

= كراهم هاف - الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م

= محمد أبو موسى - دلالات التراكييب: دراسة بلاغية، ط١، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٧٩م

= محمد بركات حمدي أبو علي - البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م

= محمد بركات حمدي أبو علي - بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م

= محمد بركات حمدي أبو علي - فصول في البلاغة، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م

= محمد خطابي - لسانيات النص: مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١

= محمد عبد المطالب - البلاغة العربية قراءة أخرى، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٧م

= محمد علي نوح قوجيل - أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم، ط١، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ١٩٩٩م

= محمد مفتاح - التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م

= محمود أحمد نحلة - لغة القرآن الكريم في جزء عم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م

= محمود السيد حسن - روائع الإعجاز في القصص القرآني: دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.

= محمود ياقوت - علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٥

= ميشال زكريا - الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م

= ميشيل ريفاتير - معايير لتحليل الأسلوب، في كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، ترجمة شكري عياد، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر.

= وليد منير - النص القرآني من الجملة إلى العالم، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٧م

= يوسف أبو العدوس - البلاغة والأسلوبية: مقدمات عامة، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م

(ج) رسائل جامعية

= أحمد فالح مطلق، ظاهرة الحذف في الجملة العربية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٨٥م

= حسين أحمد الدراويش، النظم القرآني في سورة البقرة: دراسة في الدلالة والأسلوب، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٨٦م

= خالد قاسم حسين، التكرار اللفظي في لغة الحوار القرآني: دراسة لغوية أسلوبية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م

= خولة محمد الأسعد، التشكيل التكراري في السور المدنية: ظاهرة أسلوبية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م

= سمير إبراهيم الغزاوي، التنعيم اللغوي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، ٢٠٠٠م

= سوزان عبد القادر الميري، الجملة في أسلوب القصة القرآنية، رسالة ماجستير، جامعة حلب، سورية، ١٩٩٩م

= علي محمود سالم، ظاهرة التقديم والتأخير بين المبنى والمعنى في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٦م

= فوز سهيل نزال، مقامات الحريري: دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٩٨م

= محمد محمود قاسم، التكرار في القرآن الكريم: دراسة بلاغية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٨م

الملحق (١)

رقم السورة التزيلي	السور المكية	عدد الآيات في السورة	عدد الآيات المضمنة جملًا حوارية
١	العلق	١٩	-
٢	القلم	٥٢	٨
٣	المزمل	٢٠	-
٤	المدثر	٥٦	٦
٥	الفاتحة	٧	-
٦	المسد	٥	-
٧	التكوير	٢٩	-
٨	الأعلى	١٩	-
٩	الليل	٢١	-
١٠	الفجر	٣٠	٢
١١	الضحى	١١	-
١٢	الشرح	٨	-
١٣	العصر	٣	-
١٤	العاديات	١١	-
١٥	الكوثر	٣	-
١٦	التكاثر	٨	-
١٧	الماعون	٧	-
١٨	الكافرون	٦	٦
١٩	الفيل	٥	-
٢٠	الفلق	٥	-
٢١	الناس	٦	-
٢٢	الإخلاص	٤	-
٢٣	النجم	٦٢	-

(١) اعتمادنا في ترتيب النزول على ما رجحه كثير من العلماء وما اختاره صاحب الإنفاق.

-	٤٢	عبس	٢٤
-	٥	القدر	٢٥
-	١٥	الشمس	٢٦
-	٢٢	البروج	٢٧
-	٨	التين	٢٨
-	٤	قرش	٢٩
-	١١	القارعة	٣٠
-	٤٠	القيامة	٣١
-	٩	الهمزة	٣٢
-	٥٠	المرسلات	٣٣
١٠	٤٥	ق	٣٤
-	٢٠	البلد	٣٥
-	١٧	الطارق	٣٦
-	٥٥	القمر	٣٧
٣١	٨٨	ص	٣٨
١٠٥	٢٠٦	الأعراف	٣٩
١٧	٢٨	الجن	٤٠
٢٦	٨٣	يس	٤١
١١	٧٧	الفرقان	٤٢
٢	٤٥	فاطر	٤٣
٣٠	٩٨	مريم	٤٤
٨٩	١٣٥	طه	٤٥
-	٩٦	الواقعة	٤٦
١٢٩	٢٢٧	الشعراء	٤٧
٤٢	٩٣	النمل	٤٨
٣٧	٨٨	القصص	٤٩
١٩	١١١	الإسراء	٥٠
٣٧	١٠٩	يونس	٥١
٥٧	١٢٣	هود	٥٢

٩٢	١١١	يوسف	٥٣
٣٨	٩٩	الحجر	٥٤
٦١	١٦٥	الأنعام	٥٥
٤٨	١٨٢	الصافات	٥٦
٧	٣٤	لقمان	٥٧
٢١	٥٤	سبا	٥٨
٥	٧٥	الزمر	٥٩
٣٠	٨٥	غافر	٦٠
٢٠	٥٤	فصلت	٦١
٢	٥٣	الشورى	٦٢
٢٥	٨٩	الزخرف	٦٣
٦	٥٩	الدخان	٦٤
٧	٣٧	الجاثية	٦٥
١٦	٣٥	الأحقاف	٦٦
١٣	٦٠	الذاريات	٦٧
-	٢٦	الغاشية	٦٨
٣٤	١١٠	الكهف	٦٩
٧	١٢٨	التحل	٧٠
٢٧	٢٨	نوح	٧١
١٥	٥٢	إبراهيم	٧٢
٢٥	١١٢	الأنبياء	٧٣
٣٢	١١٨	المؤمنون	٧٤
٤	٣٠	السجدة	٧٥
٩	٤٩	الطور	٧٦
٩	٣٠	الملك	٧٧
١٥	٥٢	الحاقة	٧٨
-	٤٤	المعارج	٧٩
-	٤٠	النبأ	٨٠
٦	٤٦	النازعات	٨١

٨٢	الانفطار	١٩	-
٨٣	الانشقاق	٢٥	-
٨٤	الروم	٦٠	-
٨٥	العنكبوت	٦٩	١٨
٨٦	المطففين	٣٦	٢

رقم السورة التزيلي	السور المدنية	عدد الآيات في السورة	عدد الآيات المضمنة جملًا حوارية
٨٧	البقرة	٢٨٦	٤٦
٨٨	الأنفال	٧٥	٧
٨٩	آل عمران	٢٠٠	٤٤
٩٠	الأحزاب	٧٣	١٠
٩١	المتحنة	١٣	٢
٩٢	النساء	١٧٦	٨
٩٣	الزلزلة	٨	-
٩٤	الحديد	٢٩	-
٩٥	محمد	٣٨	-
٩٦	الرعد	٤٣	٣
٩٧	الرحمن	٧٨	-
٩٨	الانسان	٣١	-
٩٩	الطلاق	١٢	-
١٠٠	البينة	٨	-
١٠١	الحشر	٢٤	٢
١٠٢	النور	٦٤	-
١٠٣	الحج	٧٨	-
١٠٤	المنافقون	١١	٤
١٠٥	المجادلة	٢٢	-
١٠٦	الحجرات	١٨	٤
١٠٧	التحريم	١٢	١

١٠٨	التغابن	١٨	-
١٠٩	الصف	١٤	٣
١١٠	الجمعة	١١	-
١١١	الفتح	٢٩	٤
١١٢	المائدة	١٢٠	٣٤
١١٣	التوبة	١٢٩	١٠
١١٤	النصر	٣	-

Abstract

The Dialogue Language In The Holy Qur'an: A Functional Stylistic Study

*Prepared by:
Fawz Suheil Kamel Nazzal*

*Supervised by:
Professor Mahmoud Al-Samra*

This study describes the nature of linguistic form in the Qur'anic dialogue form a stylistic point of view, which combines the linguistic structure with the expressive value and the semantic implications of this relationship.

The present study views dialogue as a pattern of divine discourse in the Qur'anic text characterized by a special form which is meant to achieve the maximum interaction with the recipient. Thus, the study tried to shed light on the relationship between the style of a dialogue piece and the initiator of the dialogue by showing its linguistic representation of his emotions and concerns without dictating any additional features beyond the boundaries of a text.

The study falls in three chapters. Chapter one addresses the concept of Qur'anic dialogue, types, parties concerned, content, form, and effectiveness. Chapter two identifies the structures which are most commonly used in dialogue-oriented texts, referring to the reasons for their use, their semantic implications, their presence in a text and their harmony with the rest of the elements. Chapter three deals with the most significant effects of dialogue on the linguistic structure of a dialogue-oriented text.

The study managed to reach some conclusion which have been realized through identifying the stylistic conventions in Qur'anic dialogue, their description and explanation.